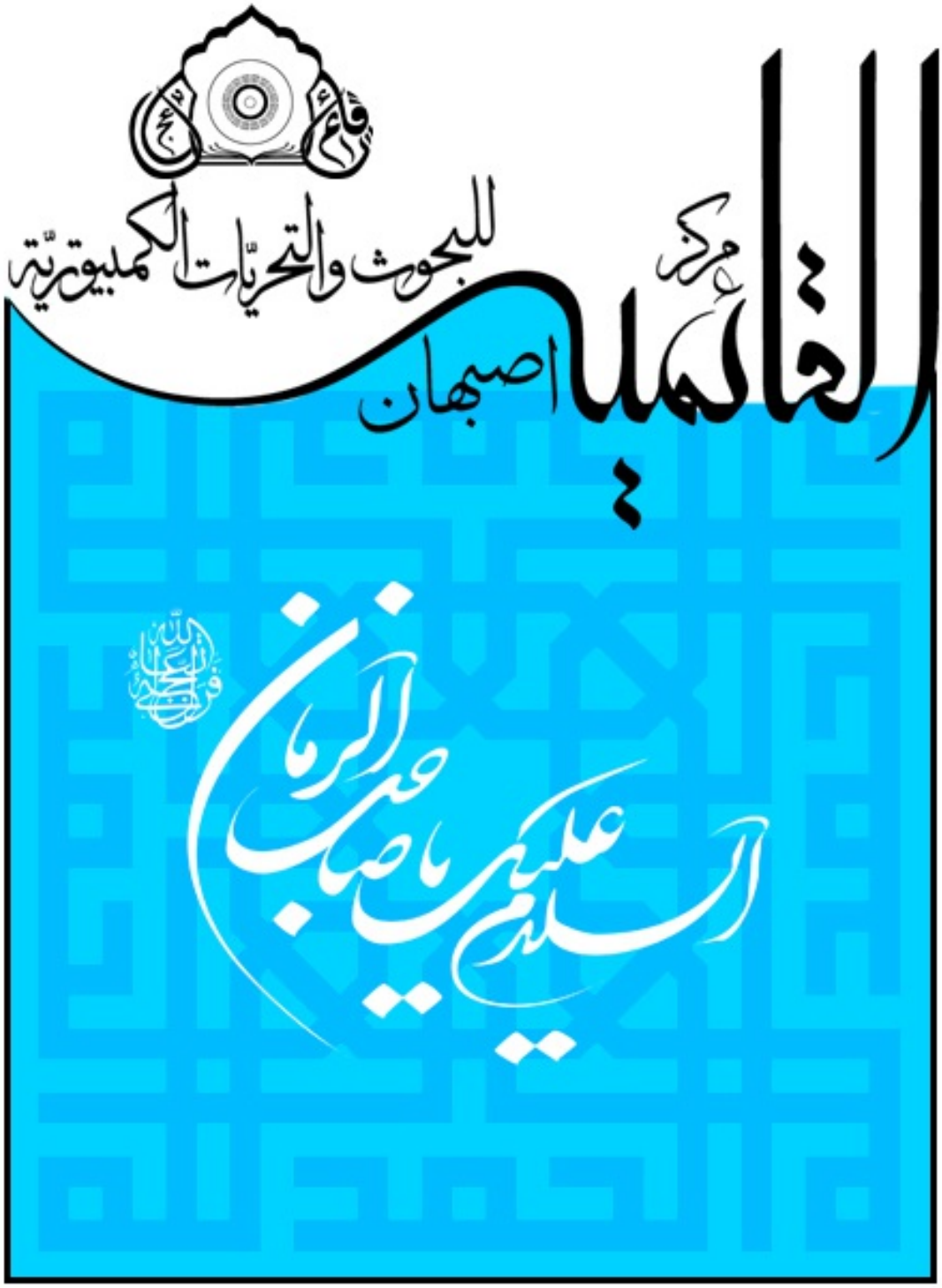

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

بحوث

فى الملل و النحل

الحنابلة

الجزالاول

جعفر السبحانى التبريزى

بسم الله الرحمن الرحيم

بحوث فی الملل و النحل

كاتب:

جعفر سبحانی

نشرت فی الطباعة:

موسسة النشر الاسلامی

رقمی الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
بحوث فی الملل و النحل - الجزء الأول (الحنابلة) ----- ۷
اشارة ----- ۷
مقدّمة الطبعة الأُولی ----- ۷
مقدّمة الطبعة الثانیة ----- ۸
الملل والنحل فی المؤلّفات الإسلامیة ----- ۱۳
الفصل الأوّل افتراق الأُمّة إلی ثلاث وسبعین فرقة ----- ۱۴
الفصل الثانی بدایات الاختلاف فی عصر الرسالة ----- ۲۲
الفصل الثالث علل تکوّن الفرق الإسلامیة ----- ۲۴
العامل الأوّل الاتجاهات الحزبیةُ والتعصّبات القبلیة ----- ۲۵
العامل الثانی سوء الفهم واللجاج فی تحدید ----- ۲۷
العامل الثالث المنع عن کتابة الحدیث وتدوینه بل ----- ۲۹
العامل الرابع فسح المجال للأحبار والرهبان ----- ۳۷
العامل الخامس الاحتکاک الثقافی واللقاء الحضاری ----- ۴۹
العامل السادس الاجتهاد فی مقابل النص ----- ۵۰
الفصل الرابع فی معنی القدریة والمعتزلة ----- ۵۰
الفصل الخامس نظرة فی کتب أهل الحدیث ----- ۵۷
الفصل السادس عصارات مدونة من عقائد أهل ----- ۷۲
الموضوعات الهامّة فی عقائد أهل الحدیث ----- ۷۹
إطاعة السلطان بین الوجوب والحرمة ----- ۷۹
عدالة الصحابة بین العاطفة والبرهان ----- ۸۶
الإیمان بالقدر خیره و شرّه ----- ۱۰۰
۱. خطبة الإمام أمیر المؤمنین علیه السّلام ـ ----- ۱۱۳

۲. کتاب الحسن السبط ـ علیه السَّلام ـ ۱۱۵
۳. رسالة عمر بن عبد العزیز ۱۱۵
۴. رسالة الحسن البصری فی الدفاع ۱۲۰
هل الإیمان بخلافة الخلفاء من صمیم الدین؟ ۱۲۶
خاتمة المطاف ۱۳۲
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ۱۵۱

بحوث فی الملل و النحل – الجزء الأول (الحنابلة)

اشارة

سرشناسه : سبحانی تبریزی جعفر، – ۱۳۰۸

عنوان و نام پدیدآور : بحوث فی الملل و النحل : دراسه موضوعیه مقارنه للمذاهب الاسلامیه تالیف جعفر السبحانی مشخصات نشر : قم اداره الحوزه العلمیه بقم الجماعه المدرسین فی الحوزه العلمیه بقم موسسه النشر الاسلامی ۱۴۱۴ق = – ۱۳۷۲.

فروست : (موسسه النشر الاسلامی جامعه المدرسین بقم ۷۲۰، ۷۲۱، ۷۲۲، ۷۲۳، ۷۲۵: مرکز مدیریت حوزه علمیه قم ۱، ۲۶)

شابک : بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت ؛ بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت ؛ بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت ؛ بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی یادداشت : ج ۱ (چاپ دوم ۱۳۷۱)؛ بها: ۱۸۰۰ ریال یادداشت : جلد اول و چاپ دوم ۱۴۱۵ق = ۱۳۷۳؛ بها: ۴۰۰۰ ریال‌جلد پنجم (چاپ دوم ۱۴۱۵ق = ۱۳۷۳)؛ بها: ۵۵۰۰ ریال (موسسه النشر الاسلامی جامعه مدرسین بقم)۷۲۴

یادداشت : جلد اول (چاپ چهارم ۱۴۱۶ق = ۱۳۷۴؛ بها: ۶۵۰۰ ریال یادداشت : ج ۴(چاپ پنجم ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵)؛ ۷۶۰۰ ریال یادداشت : ج ۷(چاپ اول ۱۴۱۶ق = ۱۳۷۴)؛ ۱۰۰۰۰ ریال یادداشت : ج ۸(چاپ اول موسسه الامام الصادق ۱۴۱۸ق = ۱۳۷۶)؛ ۱۰۰۰۰ ریال یادداشت : ج ۱۴۱۲ ۵ق = ۲۵۰۰ :۱۳۷۱ ریال یادداشت : ج ۶ (چاپ چهارم ۱۴۲۴ق = ۱۳۸۲): ۳۴۰۰۰ ریال یادداشت : کتابنامه مندرجات : ج ۱. تاریخ عقائد اهل الحدیث و الحنابله و السلفیه .-- ج ۲. تاریخ الامام الاشعری و انصاره و عقائدهم .-- ج ۳. و یتناول تاریخ و عقائد الماتریدیه و المرجئه .-- ج ۴. حیاه ابن‌تیمیه و ابن‌عبدالوهاب و عقائدهما .-- ج ۶. تاریخ الشیعه نشاتهم عقائدهم و شخصیاتهم .-- ج ۷. یتناول شخصیه و حیاه الامام الثائر زیدبن علی و تاریخ الزیدیه و عقائدهه -- ج ۸. الاسماعیلیه و فرق الفطیحه ...--

موضوع : اسلام -- فرقه‌ها

شناسه افزوده : جامعه مدرسین حوزه علمیه قم دفتر انتشارات اسلامی شناسه افزوده : حوزه علمیه قم مرکز مدیریت رده بندی کنگره : BP۲۳۶/س ۲ب ۳ ۱۳۷۲

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۵

شماره کتابشناسی ملی : م۷۳-۲۱۵۵

مقدّمة الطبعة الأُولی

مقدّمة الطبعة الأُولی دراسة العقائد للأخذ بالموقف الحقّ

إنّ الوقوف علی آراء وعقائد المذاهب المختلفة وتحلیلها، ومعرفة أدلّتها من أفضل أنواع الدراسة والتحقیق، فهو السبیل الأفضل لمعرفة الرأی الأصوب، والموقف الأحقّ بالأخذ والاتّباع، وهو الأسلوب الذی سلکه القرآن الکریم فی مواجهاته العقائدیة مع أصحاب المذاهب والاتّجاهات الفکریة المضادة وقد حثّ علیه إذ قال تعالی: (قُلْ هاتُوا بُرْهانَکُمْ) (۱) أو قال: (الَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَولَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه) .(۲) وقد کان المسلمون هم السبّاقین إلی هذا المنهج وهذا الأسلوب من الدراسة والتحقیق، ولهذا نری فی المکتبات والدراسات الإسلامیة کتباً فی الفقه المقارن، والعقائد المقارنة، وغیر ذلک من حقول المعرفة والثقافة. ونظراً لأهمیة هذا الأسلوب فی عصرنا الحاضر طلبت منی«لجنة إدارة الحوزة العلمیة» فی قم المقدسة، إلقاء سلسلة محاضرات فی آراء ومعتقدات الطوائف المختلفة التی شهدتها الساحة الفکریة الإسلامیة فی العصور اللاحقة لوفاة النبی الأکرم ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ، وذلک فی إطار من

التحليل، والمقارنـة والدراسـة والتقييم، فلبّيت هذا الطلب وتم بتوفيق اللّه تعالى إلقاء مجموعة من المحاضـرات فى هذا المجال، ليكون مقدّمة للمرحلة التخصّصية. ثمّ حبذت لجنة الإدارة طبع ونشر هذه المحاضرات حتى يستفيد منه عامة _____

١ . البقرة: ١١١.

٢ . الزّمر: ١٨. (۶)

طلّاب الدراسات الإسـلامية، فأخرجتها فى عدة أجزاء، وهذا هو الجزء الأوّل الذى يقدّم للقرّاء. فشـكراً لهذه اللجنة على اهتمامها بهذه العلوم، ووفّقها اللّه للمزيد من تقديم الخدمات الثقافية المفيدة إنّه سـميع مجيب الدعاء. هذا، والرجاء من القرّاء الكرام تزويدنا بنقدهم البنّاء حتى تكتمل هذه المباحث بإذنه تعالى. جعفر السبحانى

قم ـ الحوزة العلمية

يوم ميلاد فاطمة الزهراء ـ عليها السَّلام ـ

٢٠ جمادى الأُولى/١۴٠٨هـ (٧)

مقدّمة الطبعة الثانية

مقدّمة الطبعة الثانية مؤرّخ العقائد ومسؤوليته الخطيرة

التاريـخ من العلوم الإنسانيـة التى اهتم بهـا البشـر منـذ فجر الحضـارة، وقـد قـام إنسان كلّ عصـر وجيل بضـبط الحوادث التى عاصـرها وعايشها أو تقدّمت عليه، بمختلف الوسائل من أبسطها إلى أعقدها حيث كان يسجل الحوادث، يوماً بالنقش على الأحجار والجدران، ويومـاً بالكتابـة على الجلود والعظـام وجريـد النخـل، ويومـاً بالتحرير على القراطيس والأوراق حتى وصل إلى ما وصل إليه فى العصـر الحاضـر من وسائل الإعلام والنشـر. وقد قدّم بعمله هذا إلى الأجيال المتأخّرة كنزاً ثميناً، ورصيداً فكرياً غالياً وغنياً وتجارب ملؤها العبر والـدروس، والمواعظ والنصائـح التى لا يوجـد نظيرها فى أىّ مختبر من مختبرات العالم سوى فى هـذا المختبر(التاريخ). (لَقَدْ كانَ فى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولى الأَلْباب) .(١)

وربما يتصوّر متصوّر أنّ تسـجيل التاريخ وضـبط الحوادث أمر سـهل لا يسـتدعى سوى الشعور بالوقائع، ومعرفة اللغة والكتابة، ولكنّنى أعتقـد ـ ككثير ممّن لهم إلمام بالمسائل التاريخيـة ـ أنّ كتابـة التاريخ الحقيقى الصـحيح الذى يمكن أن يكون مساقط العبر والاعتبار، ومهابـط الوعـظ والنصـح، أمر مشـكل جـداً، لأـنّ الهـدف من تسـجيل الحوادث، هو: إراءتهـا للأجيال المتأخّرة على ما هى عليه سواء أكانت الحوادث بعامّة خصوصياتها موافقة مع ميوله _____

١ . يوسف: ١١١. (٨)

ونزعـاته أم لاـ وسواء أكـانت لصالـح المؤرّخ وقومه أم لاـ ;ومن المعلوم أنّ القيام بـذلك، يتوقّف على كون المؤرّخ رجلاً موضوعياً متبنّيـاً للحقيقـة، ومحبـاً لهـا أكثر من حبه لنفسه ونفيسه و مصـالحه، و لكن هـذا النمط نادر بين المؤرّخين و لا يقوم به منهم إلّا الأمثل فالأمثـل ولاـ يأتى بمثله الزمان إلّا فى الفينـة بعـد الأُخرى ;ولأجل ذلك قلّ المؤرّخون الموضوعيون المنصـفون، فإنّ أكثرهم يركّزون على ما يروقهم وما يلائم أهواءهم والمذهب الذى يعتنقونه،ويتركون ما سوى ذلك، وليس هذا شـيئاً محتاجاً إلى البرهنة والاسـتدلال، بل يتّضـح بالرجوع إلى ما أُلّف من التواريـخ أيّام الـدولتين: الأمويـة والعباسـية، فكلّ يخـدم الحكومـة التى كانت تعاصـره وتـدر عليه الرزق، ومن ثمّ صـارت التواريـخ علبـة المتناقضـات، ومـا ذاك إلاّـ لأـنّ الكاتب لم يراع واجبه الأخلاقى والاجتماعى وقبل كلّ شـىء مسؤوليته الدينية. تاريخ العقائد وتسجيل الفرق

هـذا فيمـا يرجع إلى مطلق التاريـخ والوقائع التى يواجهها المؤرّخ فى كلّ عصـر ومصـر سواء أكانت راجعـة إلى الملوك والساسـة، أو السوقـة والشـعوب، وأمّا تبيين عقائـد الأُمم ومذاهبها التى كانت تدين أو تتمذهب بها على ما هى عليه، فذاك أمر صـعب مستصـعب،

وأشكل من القيام بالرسالة المتقدّمة فى مجال تسجيل الحوادث وضبط الوقائع، وما هذا إلّا لأنّ المؤلّف فى هاتيك المجالات ـ إلّا ما شذّ ـ مشدود إلى نزعات دينية وعقائد قومية ترسّخت فى ذهنه ونفسه وروحه،والفكرة الدينية صحيحة كانت أو باطلة من أحبّ الأشياء عند الإنسان وربما يضحّى فى سبيلها بأثمن الأشياء وأغلاها. هذا من جهة ومن جهة أُخرى: إنّ القيام بهذه المهمة فى مجال تاريخ العقائد يتوقّف على تحلّى المؤرّخ بالشجاعة الأدبية والعلمية حتى يتمكّن بهما من البحث الموضوعى حول عقائد الشعوب وعرضها على ما هى عليه، والقيام بهذا الواجب عند فقدان هذين العاملين مشكل جدّاً، ومن ثمّ يتحمّل مؤرّخ العقائد مسؤولية جسيمة أمام اللّه أوّلاً، وأمام وجدانه ثانياً، وأمام الأجيال القادمة والتاريخ ثالثاً. (۹)

ومن المؤسف أنّ أكثر من قام بتدوين عقائد الملل لم يتجرّد عن أهوائه وميوله ومصالحه الشخصية وغلبت نزعاته وعواطفه الدينية وتعصّباته الباطلة على تبنّى الواقع وإراءة الحقيقة، فترى أنّ أكثرهم يكتب عقيدة نحلته بشكل مرغوب منمّق ويحاول أن يصحّح ما لا يصحّ ولو بتحريف التاريخ وإنكار المسلّمات، وأمّا إذا أراد الكتابة عن عقائد الآخرين فلا يستطيع أن يكن عداءه لها، ولهذا يحاول أن يعرضها بصورة مشوّهة، فيأتى فى غضون كلامه بنسب مفتعلة وآراء مختلقة وأكاذيب جمّة نزولاً على حكم العاطفة الدينية الكاذبة، أو اعتماداً على الكتب التى لا يصحّ الاعتماد عليها، أو تساهلاً فى ضبط العقائد والمذاهب، إلى غير ذلك من العوامل التى صارت سبباً لحيرة الأجيال المتأخّرة فى مجال التعرّف على عقائد الأقوام والملل، وضلالها وإساءة الظن فيها. وأخصّ من بين تلك العوامل، الاكتفاء فى تبيين عقائد قوم بالرجوع إلى كتب خصومهم وأعدائهم، وهذا داء عمّ أكثر مؤرّخى العقائد والنحل، نظير من ألّف من الأشاعرة فى ضبط عقائد المعتزلة، فهم يكتبون عن المعتزلة فى ضوء ما وجدوه فى كتاب إمام الحنابلة (أحمد بن حنبل) أو إمامهم(أبو الحسن الأشعرى) فينسبون إليهم أُموراً لا تجد لها أثراً فى كتبهم، بل تجد نقيضه فيها، ولأجل ذلك صارت المعتزلة مهضومة الحق. وليست المعتزلة هى الفرقة الوحيدة التى تعرّضت لمثل هذا الهضم، بل قد تحمّلت الشيعة الإمامية القسط الأوفر من الاضطهاد والهضم، وكأنّ أصحاب المقالات والفرق اتّفقت كلمتهم على الكتابة عنهم من دون مراجعة ـ ولو عابرة ـ إلى مصادرهم ومؤلّفاتهم، وكأنّ عرض الشيعة حلال ينهبه كلّ من استولى عليه بقلمه وبيانه، والقوم يكتبون عن الشيعة كلّ شىء وليس عندهم من الشيعة شىء سوى كتب أعدائهم وخصمائهم ومن لا يحتج به فى باب القضاء والحجاج. وها نحن نقدّم نموذجاً فى هذا الباب ونشير إلى كتابين أحدهما لبعض المتقدمين والآخر لبعض المعاصرين، فنرى كيف أنّهما تساهلا فى عرض عقائد الشيعة ونزلا على حكم العاطفة، ورمياها بكلّ فرية، وكأنّ الصدور مملوءة بالحقد والعداء، وإليك البيان: (۱۰) الشهرستانى وكتابه «الملل والنحل»

إنّ كتاب «الملل والنحل» للمتكلّم الأشعرى «أبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى»(المتوفّى سنة ۵۴۸هـ) من الكتب المشهورة فى هذا الباب وأكثرها تداولاً بين أترابه، ولعلّ كثيراً من أهل العلم لا يعرفون كتاباً فى هذا الموضوع سواه. ومع هذه الشهرة ترى فى طيّات الكتاب نسباً مفتعلة وآراء مختلقة عندما يعرّف الشيعة، ممّا يندى له الجبين،ويخجل القلم من تحريره وتسطيره، وإليك بعض ما نسبه إليهم: ۱. من خصائص الشيعة القول بالتناسخ والحلول والتشبيه.(۱) ۲. إنّ الإمام الهادى ـ عليه السَّلام ـ ـ عاشر الأئمّة الاثنى عشر ـ توفّى بقم ومشهده هناك.(۲) ۳. إنّ هشام بن الحكم كان يقول: إنّ للّه جسماً ذا أبعاض فى سبعة أشبار بشبر نفسه فى مكان مخصوص وجهة مخصوصة.(۳) ۴. إنّ علياً إله واجب الطاعة(۴)!! إلى غير ذلك من النسب الكاذبة التى نسبها إلى متكلّم الشيعة ربيب بيت الإمام جعفر الصادق ـ عليه السَّلام ـ «هشام بن الحكم» وإلى نظرائه كهشام بن سالم وزرارة ابن أعين ومحمد بن النعمان ويونس بن عبدالرحمن. هذا مع العلم بأنّ هؤلاء ـ أعاظم الشيعة ـ كانوا يقتفون أثر أئمتهم ولم يكونوا يعتنقون مبدأ إلّا بعد عرضه عليهم، ومن المعلوم أنّ أئمّة أهل البيت

---

۱ . الملل و النحل:۱/۱۶۶.

۲ . نفس المصدر.

۳ . الملل والنحل:۱/۱۸۴، وهو فى هذا الافتعال تبع عبد القاهر البغدادى فى «الفَرْق بين الفِرَق» ص ۶۵، والشيخ الأشعرى فى «مقالات

الإسلاميين»:۱/۱۰۲ و... والأخير هو الأساس لأكثر من كتب فی الملل والنحل.

۴ . الملل والنحل:۱/۱۸۵. (۱۱)

وهم دعاة التنزيه كانوا يكافحون البدع اليهوديـة والمسيحية والمجوسية التی كانت تدور بين أنديۀ أهل الحديث حتی قيل: «التوحيد والعدل علويان والتجسيم والجبر أمويان». فمن راجع كتب الشيعۀ وأحاديث أئمّتهم يجد أنّهم حكموا بكفر القائلين بالتناسخ والحلول والتشبيه و أُلوهيۀ غيره سبحانه، فكيف ينسب هذا الكاتب ـ بصلف ووقاحۀ ـ هذه الأُمور إلی تلاميذ قرناء الكتاب وأعداله؟!! وأعجب من ذلك أنّه يختلق للشيعۀ فرقاً لم تسمع بها أذن الدهر وإنّما توجد فی كتب أعدائهم، فمن هشاميۀ إلی زراريۀ إلی يونسيۀ إلی... من الفرق التی لاـ توجد لاـ فی كتب القصّاصين المحترفين للكذب، ولا فی علب العطّارين. والشيعۀ وعلماؤهم ـ و فی مقدّمتهم السيد الشريف المرتضی ـ يكذّبون هذه الفرق، وقد شطبوا علی وجودها بقلم عريض وهم لا يعرفونها وإنّما اختلقتها الأوهام لإسقاط الشيعۀ من عيون الناس. هذا بعض ما يوجد فی هذا الكتاب وأعجب منه أنّه يعرف الإمام الهاديـ عليه السَّلام ـ ـ الإمام العاشر للشيعۀ ـ بأنّه مدفون بقم مع أنّه دفن بسامراء يزوره القريب والبعيد، وقد دفن إلی جنبه ولده الزكی «الحسن بن علی»، والتواريخ والمعاجم طافحۀ بذكرهما وموضع قبرهما.(۱) هذا نموذج من زلّات هذا المؤرّخ وهو من القدماء. وهلمّ معی إلی نموذج آخر و هو من متأخّری القوم ومتنوّريهم، العائشين فی عصر النور والأمانۀ التاريخيۀ والعلميۀ. النشار وكتابه «نشأۀ الفكر الفلسفی»

الكتاب للدكتور «علی سامی النشار» يقع فی ثلاثۀ أجزاء أو أزيد، وقد _____

۱ . راجع وفيات الأعيان لابن خلّكان:۳/۲۷۲ـ ۲۷۳ وغيره. (۱۲)

خص الجزء الثانی من كتابه ببيان عقائد الشيعۀ وهو يحاول فی مقدّمته أن يكتب عن عقائد الفرق بصورۀ محايدۀ، وهو يقول فی مقدمۀ الطبعۀ السادسۀ: ولكنّی ما زلت أری أنّ التفسير الموضوعی المحايد هو أهمّ تفسير فی دراسۀ الفكر عامۀ والفكر الإسلامی خاصۀ.(۱) وربما يتصوّر الإنسان أنّ لما ذكره مسحۀ من الحق أو لمسۀ من الصدق، ولكنّه عندما يسبر الكتاب ويلاحظ ما فی غضونه من النسب إلی الشيعۀ يقف علی أنّ ما ذكره فی المقدّمۀ واجهۀ ستر بها كلّ ما فی الكتاب من العداء المستكن وأنّه لا يريد إلّا إبطال عقائد الشيعۀ ولو بالنسب الباطلۀ، والحقّ أنّ الدكتور النشار وضع منشاره علی حياۀ الشيعۀ تاريخاً وعقيدۀ، ولا يرسم عن تلك الطائفۀ إلّا أُموراً مشوّهۀ وعقائد باطلۀ، والكتاب يحتاج جداً إلی نظارۀ التنقيب، وإليك نموذجاً من نسبه المفتعلۀ: ۱. يقول عند البحث عن الإيمان: ونلحظ أنّ فی رأی «جهم» عنصراً شيعياً، فالإيمان عند الشيعۀ هو معرفۀ بالقلب فقط.(۲) ۲. إنّ الرجل يصر علی إنكار كون علی ـ عليه السَّلام ـ رائد الفكر الفلسفی فی الإسلام حتی جر عداؤه لعلی ـ عليه السَّلام ـ إلی إنكار النص الذی صدر عنه فی منصرفه عن «صفين» حول القضاء والقدر وذهب إلی أنّ النص موضوع، قائلاً بأنّ الذين أرادوا أن يحاربوا أهل السنّۀ فی الروايات التی رووها عن علی ـ عليه السَّلام ـ حول القدر، التجأوا إلی وضع هذا النص، وقد زعم أنّ جاعل هذا النص هو المعتزلۀ.(۳) أمّا كون علی ـ عليه السَّلام ـ رائد الفكر العقلی فنترك البحث فيه إلی آونۀ أُخری ويكفينا فی ذلك تراثه الوحيد: «نهج البلاغۀ» وأمّا كون النص مجعولاً من جانب المعتزلۀ فهذا ناجم من جهله بمصادر نهج البلاغۀ فقد رواها علماء الشيعۀ _____

۱ . نشأۀ الفكر الفلسفی فی الإسلام:۱/۱۷.

۲ . نشأۀ الفكر الفلسفی فی الإسلام:۱/۳۴۵ الطبعۀ السابعۀ، وستوافيك عقيدۀ الشيعۀ فی حقيقۀ الإيمان عند البحث عن عقائد المرجئۀ، فلاحظ الجزء الثالث.

۳ . نشأۀ الفكر الفلسفی فی الإسلام:۱/۴۱۲. (۱۳)

أنفسهم بلا توسيط أحد من المعتزلۀ، وسيوافيك بيانه فی هذا الجزء عند البحث عن الرسائل الثلاث حول القدر. والذی أوقعه فی هذا الخبط والخلط لدی عرض تاريخ الشيعۀ وعقائدهم هو أنّه اعتمد فی دراسته علی كتب خصمائهم وأعدائهم من دون أن يعتمد علی مصادر الشيعۀ المتوفرۀ، إلّا قليلاً لا يكفی. فاعتمد أوّلاً علی كتاب «أبی الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطی»(المتوفّی عام

۳۷۷هـ) باسم «التنبیه والردّعلی أهل الأهواء والبدع» نشر عام ۱۳۹۹هـ والکاتب حنبلی حشوی قد حشد فی کتابه شیئاً کثیراً من الأکاذیب ونسب أُصولاً إلی الصحابة والتابعین بسند مزوّر کما سیوافیک بیانه فی هذا الجزء. أفیصحّ فی میزان النصفة الکتابة عن أُمّة کبیرة یعدّون ربع المسلمین بالنقل عن کاتب حشوی وکتاب حشو؟! والعجب أنّ الدکتور عرفه بأنّه أوّل من کتب حول الشیعة من أهل السنّة مع أنّ الإمام الأشعری أسبق منه، فقد کتب عن الشیعة فی «مقالات الإسلامیین» شیئاً کثیراً، وقد توفّی الإمام عام ۳۲۴هـ وعلی احتمال ضعیف ۳۳۰هـ فکیف یکون الملطی أوّل من کتب حول الشیعة من أهل السنة؟!! واعتمد ثانیاً علی کتاب «الفرق بین الفرق» لأبی منصور عبد القاهر البغدادی(المتوفّی عام ۴۲۹هـ) ومن راجع هذا الکتاب لمس منه ـ مضافاً إلی البذاءة فی اللسان ـ تعصّباً فی بیان عقائد الفرق ونوقفک علی نموذج من هذا، فقد قال فی خلال بیان أصناف فرق السنّة والجماعة: ولم یکن بحمد اللّه ومنّه فی الروافض و... إمام فی الفقه ولا إمام فی روایة الحدیث ولا إمام فی اللغة والنحو، ولا موثوق به فی نقل المغازی والسیر والتواریخ ولا إمام فی الوعظ والتذکیر ولا إمام فی التأویل والتفسیر، وإنّما کان أئمّة هذه العلوم علی الخصوص والعموم من أهل السنّة والجماعة.(۱) وقال فی موضع آخر: _____

۱ . الفرق بین الفرق للبغدادی:ص ۲۳۲ طبع دار المعرفة، تحقیق محمد محیی الدین عبد الحمید. (۱۴)

یا أیّها الرافضة المبطلة * دعواکم من أصلها مبطلة(۱) هذا أدب الرجل وسیرته فی الکتاب کلّه، ونحن نمر علیه مرور الکرام ونقول: الدعوی الأُولی دعوی بلا بیّنة وبرهان وإنکار وجود الأئمّة فی مجالات هذه العلوم بین الشیعة کإنکار البدیهیات، ولا نطیل الکلام فی ردّه بذکر أسماء أئمتهم فی مختلف المجالات والأُمور، وکفانا فی ذلک کتاب «تأسیس الشیعة الکرام لفنون الإسلام» تألیف السید حسن الصدر(المتوفّی عام ۱۳۵۴هـ). غیر أنّی أتعجب من هذه الفریة القارصة، وکیف نفی وجود شخصیات علمیة عند الشیعة مع أنّه کان معاصراً للشیخ المفید(المتوفّی عام ۴۱۳هـ) الذی یقول فی حقّه الیافعی: کان عالم الشیعة وإمام الرافضة صاحب التصانیف الکثیرة، شیخهم المعروف بالمفید وبابن المعلم أیضاً، البارع فی الکلام والجدل والفقه، وکان یناظر أهل کلّ عقیدة مع الجلالة والعظمة فی الدولة البویهیة.(۲) ویعرّفه ابن کثیر فی تاریخه بقوله: کان مجلسه یحضره کثیر من العلماء من سائر الطوائف.(۳) کیف یقول ذلک وبیئة بغداد تجمع بینه و بین الشریف المرتضی(المتوفّی عام ۴۳۶هـ) الذی یعرّفه ابن خلّکان فی تاریخه ویقول: کان إماماً فی علم الکلام والأدب والشعر.(۴) وقال الثعالبی: قد انتهت الرئاسة الیوم ببغداد إلی المرتضی فی المجد والشرف والعلم والأدب والفضل.(۵) واعتمد ثالثاً علی کتاب «الفصل فی الملل والأهواء والنحل» تألیف «ابن حزم» الأندلسی الظاهری (المتوفّی ۴۵۶هـ) وکفی فی التعرّف علی نفسیة _____

۱ . نفس المصدر: ۷۱.

۲ . مرآة الجنان:۳/۲۸.

۳ . تاریخ ابن کثیر:۱۲/۱۵.

۴ . وفیات الأعیان:۳/۳۱۳.

۵ . تتمیم یتیمة الدهر:۱/۵۳. (۱۵)

هذا الرجل وشذوذه أنّه صوب فعل قاتل الإمام أمیر المؤمنین بحجّة أنّه کان مجتهداً متأوّلاً مثاباً فی عمله هذا، وإلیک نصّ عبارته: «إنّ عبد الرحمن بن ملجم لم یقتل علیاً(رضی اللّه عنه) إلّا متأوّلاً مجتهداً مقدراً أنّه علی صواب، وفی ذلک یقول«عمران بن حطان» شاعر الصفریة: یا ضربة من تقیّ ما أراد بها * إلّالیبلغ من ذی العرش رضواناً»(۱) والقارئ الکریم جد علیم بأنّه لا قیمة لهذا الاجتهاد الذی یؤدّی إلی قتل الإمام المفترض طاعته بالنصّ أوّلاً، وبإجماع الأُمّة ثانیاً، ولنعم ما أجاب به معاصره القاضی أبو الطیب طاهر بن عبد اللّه الشافعی فقال: یا ضربة من شقی ما أراد بها * إلّا لیهدم للإسلام أرکاناً(۲) فإذا کان هذا حال المؤلّف ونفسیته ونزعاته، فکیف یکون حال من استند إلی مثله غیر أنّ الجنس إلی الجنس یمیل؟!! منهجنا فی دراسة المذاهب

فلأجل هذا الخبط والتخليط فى أكثر كتب الملل والنحل خصوصاً فى كتاب إمام الأشاعرة«مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين» ولا سيما فى ما يرجع إلى المعتزلة والشيعة فإنّه الأساس لكلّ من كتب بعده، كـ«الفرق بين الفرق» لعبد القاهر البغدادى و «الملل والنحل» للشهرستانى وغيرهما من المتأخّرين،فقد توخّينا أن لا نعزو إلى مذهب شيئاً إلّا بعد الوقوف عليه فى كتبهم المؤلّفة بأيدى أساطينهم وأقلام علمائهم، ولا نكتب عن طائفة إلاّ بعد توفير المصادر واستحضار المنابع والرجوع إليها بدقة وإمعان. إنّ منهجنا فى دراسة المذاهب وعقائد الفرق يبتنى على دعامتين: الأُولى: تبنّى الواقع فى عزو مقال إلى قوم، وذلك لما عرفت. _____

۱ . المحلى :۱/۴۸۵.

۲ . مروج الذهب:۲/۴۳،ولنا مع ابن حزم بحث ضاف سيوافيك فى الجزء الثالث عندالبحث عن الحركات الرجعية فى القرون الأُولى. (۱۶)

الثانية: العناية بتحليل عقائد الأُمم ونقدها، فإنّ الغالب على كتاب «الملل والنحل» هو سرد العقائد من دون نقد أو تحليل، وكأنّهم زعموا أنّ واجب المؤرّخ لا يتعدّى بيان الحوادث فى التاريخ، وعرض العقائد فى مجال الملل والنحل، وكأنّ إحقاق الحقّ واجب المتكلّم فقط، ونحن ضربنا عن هذا صفحاً وتوخّينا بيان الحقّ على وجه يناسب كتاب «الملل والنحل»، وهذا هو المنهج الذى مشينا عليه فى أجزاء الكتاب كلّها، وهو تحقيق الموضوع الذى طرح للبحث من جانب كلّ فرقة وملة. ولأجل ذلك أصبح الكتاب: كتاباً كلامياً أوّلاً، وتاريخياً للعقائد والمذاهب ثانياً، وموسوعة لبيان حالات رجالهم وشخصياتهم وتاريخ نشوئهم ثالثاً. وأرجو منه سبحانه أن يوفّقنا لما فيه رضاه وأن يصوننا من الزلّة فى الرأى والقول والفعل والعمل. وأمّا الفرق التى دار حولها البحث والنقد فهى على سبيل الفهرس: ۱. «أهل الحديث والحنابلة» الذين يعبّر عنهم فى عصرنا هذا بـ«السلفية» حتى صارت هذه الكلمة شعاراً لهم، وكأنّ «السلف» معصوم من الزلة متحرّر من الخطأ. ۲. «الأشاعرة» آراؤهم وأفكارهم وترجمة مفكّريهم ومحقّقيهم ،وإنّما قدمنا هذه الفرقة على «المعتزلة» مع أنّ الشيخ الأشعرى مؤسس هذا المذهب كان معتزلياً ثمّ تاب عن الاعتزال ورجع إلى مذهب الإمام «أحمد بن حنبل» وأسّس مذهباً معتدلاً بين المذهبين ـ و إنّما قدمناه ـ لأجل الصلة القويمة بين المذهبين: «أهل الحديث» و «الأشاعرة». ۳. الحركات الرجعية فى القرون الأُولى كالمرجئة والجهمية والكرامية والظاهرية، وسيوافيك أنّ آراءهم وأفكارهم فى هذه القرون كانت رجعية بحتة تخالف منطق العقل الذى تعتمد عليه المعتزلة، ومنطق الكتاب والسنّة الذى يعرج عليهما الحنابلة، وأمّا الذى تولى كبرها فسوف يظهر لك فى ذلك الفصل. (۱۷)

۴. «القدرية» أسلاف المعتزلة كمعبد بن عبد اللّه الجهنى(المتوفّى عام ۸۰هـ) وغيلان الدمشقى المقتول بدمشق بأمر الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك عام ۱۰۵، وقد اتّهم هؤلاء بنفى القدر الوارد فى الكتاب والسنّة، وقد قلنا إنّ الاتّهام فى غير محله، وهؤلاء كانوا دعاة الحرية والاختيار لا نفاة القدر الذى جاء فى الآثار الصحيحة. نعم كانوا يرفضون القدر السالب للاختيار الحاكم على حرية الإنسان و اختياره، بل حتى على اللّه سبحانه، وكأنّ القدر إله ثان مسلّط على كلّ شىء حتّى إرادة اللّه وفى الوقت نفسه حنق على الإنسان، فهو يدخل من يشاء الجنة، ويدخل من يشاء الجحيم بلا ملاك ولا مبرر. ۵. «الماتريدية» آراؤهم ورجالهم، وهؤلاء والأشاعرة صنوان أو رضيعان يرتضعان من ثدى واحد، ولكن «الماتريدية» أقرب إلى المعتزلة من الأشاعرة، وقد وافقوا فى كثير من المسائل، المعتزلة. ۶. «المعتزلة» منهجهم وآراؤهم ورجالهم. ۷. «الخوارج» تاريخهم وعقائدهم. ۸. «الوهابية» نشوؤها ومؤسسها ومعتقداتها. ۹. «الشيعة الزيدية والإسماعيلية»، ونبحث عن الباطنية فى هذا الفصل. ۱۰. «الشيعة الإمامية» الاثنا عشرية. تلك عشرة كاملة. و أُقدّم كتابى هذا لكلّ طالب للحقّ والحقيقة، ولكلّ متعطش للتعرّف على الواقع بين منعرجات الأهواء النفسية والانتماءات الجاهلية والتعصّبات الباطلة، ولا أشكّ فى أنّ لفيفاً من الأُمّة سيقدّرون عملى هذا غير أنّ المتطرّفين من الطوائف الإسلامية يعدّونه تفريقاً للأُمّة وشقاً لعصاها، وكأنّهم يرون التقارب الظاهرى والتصفيق فى المجامع والمجالس هو روح الوحدة وسنادها، وهم فى غفلة عن أنّ التعرف على المذاهب على ما هى عليه، من عوامل التقريب (۱۸)

وتوحيد الكلمة وعود الأخوة الإسلامية إلى المجتمع الديني، وعلى كلّ تقدير فلا أطلب رضا هؤلاء، ولا أعتمد عليه ولا أخشى سخط الآخرين ولا أخافه، ورائدى هو رضوانه تعالى لا غير. (قُلْ إِنّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) .(۱) جعفر السبحانى قم المقدسة ـ الحوزة العلمية ۱۴۱۰هـ

۱ . سبأ:۴۶. (۱۹)

الملل والنحل فى المؤلّفات الإسلامية

الملل والنحل فى المؤلّفات الإسلامية

لقد قام ثلّة من علماء المسلمين بتدوين كتب مفصّلة أو مختصرة فى هذا المضمار، فكشفوا عن مصادر الآراء ومواردها، وجمعوا واردها وشاردها، وما ألّفوه حول تبيين العقائد والنحل على أصناف نشير إليها: أ. ما يتناول جميع الشرائع والمذاهب العالمية، إسلامية كانت أو غيرها، ومن هذا القسم: ۱. «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» لإمام المذهب الظاهرى، أبى محمد على بن حزم الظاهرى (المتوفّى ۴۵۶هـ). ۲. «الملل والنحل» لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى (۴۷۹ـ ۵۴۸هـ). ب. ما يتناول خصوص الفرق الإسلامية، ومن هذا القسم: ۱. «مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين» تأليف شيخ الأشاعرة أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى(المتوفّى عام ۳۲۴هـ). ۲. «التنبيه والرد» لأبى الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى الشافعى (المتوفّى سنة ۳۷۷هـ). ۳. «الفرق بين الفرق» تأليف الشيخ عبد القاهر بن طاهر بن محمد (۲۰)

البغدادى الإسفرائينى التميمى(المتوفّى ۴۲۹هـ). ۴. «التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة» لطاهر بن محمد الإسفرائينى(المتوفّى ۴۷۱هـ) المطبوع بمصر عام ۱۳۷۴هـ ۵. «الفرق الإسلامية» ذيل كتاب «شرح المواقف» للكرمانى(المتوفّى ۷۸۶هـ) وقد طبع فى بغداد عام ۱۹۷۳م. ج. ما يتناول خصوص مذهب من المذاهب الإسلامية، ومن هذا القسم: ۱. «فرق الشيعة»، تأليف أبى محمد الحسن بن موسى النوبختى من أعلام القرن الثالث للهجرة، وقد بيّن فيه فرق أهل الإمامة. ۲. «فرق الشيعة»(۱) للشيخ أبى القاسم سعد بن عبد اللّه بن أبى خلف الأشعرى القمى (المتوفّى ۲۹۹ أو ۳۰۱هـ). وقد طبعت هذه الكتب و وزعت فى العالم، وهى متاحة لكلّ من أراد معرفة هذه المذاهب والمقالات والآراء والأفكار، ولنقدّم قبل الورود فى البحث أُموراً تفيد القرّاء الكرام وطلاب هذه المعرفة:

۱. الملة والنحلة فى اللغة

الملّة بمعنى الطريقة، والمراد هنا السنن المأخوذة والمقتبسة من الآخرين، ولأجل ذلك يضيفها القرآن إلى الرسل والأقوام إذ يقول مثلاً: (بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً)(۲)، و قوله: (إِنّى تَرَكْتُ مِلّةَ قَوم لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ) (۳) ولا تستعمل مضافة إلى اللّه ولا إلى آحاد أُمّة نبى بل إلى نفس النبى، ويقال ملّة إبراهيم وملّة محمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ولا يقال: ملّة اللّه. وأمّا النحلة فهى على ما فى «لسان العرب» بمعنى الدعوى، والنسبة بينها وبين الدين أنّها تستعمل فى الباطل كثيراً، مثل كلمة «انتحال المبطلين».

۱ . كما عبر عنه النجاشى فى ترجمته وربما يعبر عنه بالمقالات والفرق.

۲ . البقرة:۱۳۵.

۳ . يوسف: ۳۷. (۲۱)

والمقصود من الكلمتين فى هذا العلم هو الطرق والمناهج العقائدية سواء أكانت حقّاً أم باطلاً. ۲. الصلة بين علم العقائد وعلم الملل والنحل

وهناك اتّصال وثيق بين علم الكلام وعلم الملل والنحل، ووزان علم الملل والنحل بالنسبة إلى علم العقائد والكلام، وزان تاريخ العلم بالنسبة إلى العلم نفسه، نظير الفلسفة وتاريخها، فالفلسفة تطرح الموضوعات الفلسفية على بساط البحث، فتقيم برهاناً على ما تتبنّاه بينما يشرح تاريخ الفلسفة المناهج الفكرية التى نجمت فى فترات مختلفة، من دون تركيز على رأى أو تبنى عقيدة خاصة فى كثير من

الأحیان. ومثله علم الکلام بالنسبة إلی الملل والنحل، فالأوّل یبحث عن المسائل العقائدیة التی ترجع إلی المبدأ والمعاد وما یلحقهما من المباحث ویوجه عنایته إلی إثبات فکرة خاصة فی موضوع معین ونقد الآراء المضادة له، ولکن الثانی یطرح المناهج الکلامیة المؤسسة طیلة قرون من دون أن یتحیز إلی منهج دون منهج غالباً، وهمّه هو عرض هذه الأسّس الفکریة علی روّاد الفکر والمعرفة. وإن شئت قلت: إنّ علم الملل والنحل یتعرّض للموضوعات الکلامیة المبحوث عنها فی علم الکلام ویشرحها ویعرض الآراء المختلفة حولها من دون القضاء بینها، و أمّا علم الکلام فهو یتّخذ موضوعات خاصة للبحث ویبدی المؤلّف نظره الخاص فیها ویرکز علی رأیه بإقامة البرهان. ۳. قیمة الکتب المؤلّفة فی هذا المضمار

لا شکّ أنّ للکتب المؤلّفة فی هذا المضمار، مکانة فی الأوساط العلمیة وأنّ المؤلّفین فی الملل والنحل قد تحمّلوا جهوداً کثیرة فی الإحاطة بالمناهج الفکریة الرائجة فی الملأ العلمی خصوصاً الأوائل منهم، غیر أنّه لا یمکن الاعتماد علی هذه الکتب بصورة مطلقة، وذلک لأنّا نری أنّهم یذکرون فرقاً للشیعة الإمامیة لم یسمع الدهر بأسمائها کما لم یسمع ب آراء أصحابها قط. (۲۲)

فهذا إمام الأشاعرة یذکر للشیعة الغالیة خمس عشرة فرقة، وللشیعة الإمامیّة أربعاً وعشرین فرقة، وینسب إلیهم القول بالتجسیم، وغیر ذلک من الآراء والعقائد السخیفة، ویقسّم الزیدیة إلی ست فرق، وقد أخذ عنه من جاء بعده ممّن ألّف فی هذا المجال. فإذا کان حاله وحال من نسج علی منواله ـ کالبغدادی فی «الفرق بین الفرق» والشهرستانی فی «الملل النحل» فی تلک المواضع التی نحن أعرف منهم بها ـ بهذا المنوال، فکیف حالهم فیما ینقلونه عن سائر أصحاب الشرائع من الیهود والنصاری والمجوس والبراهمة والبوذیین وغیرهم؟! ولأجل ذلک یجب أن تکون نسبة القول إلی أصحابها مقرونة بالاحتیاط والتثبّت والرجوع إلی مؤلّفات نفس الفرق. یقول المحقّق المعاصر الشیخ محمد زاهد الکوثری فی تقدیمه لکتاب «التبصیر فی الدین»: والعالم المحتاط لدینه لا ینسب إلی فرقة من الفرق ما لم یره فی الکتب المردودة علیهم، الثابتة عنهم أو فی کتب الثقات من أهل العلم المتثبتین فی عزو الأقاویل، ولا یلزمهم إلّا ما هو لازم قولهم لزوماً بیّناً لم یصرح قائله بالتبرّی من ذلک اللازم .(۱) وقد تصفّحنا أکثر ما کتبه أحمد بن تیمیة فی «المسائل الکبری» عن الشیعة وغیرهم وفی کتابه «منهاج السنّة» عن خصوص الشیعة، فوجدناهما ملیئین بالأخطاء، لو لم نقل بالکذب والوضع. إذا عرفت ذلک، فاعلم أنّه یقع الکلام فی فصول: _____

۱ . التبصیر فی الدین: ۷. (۲۳)

الفصل الأوّل افتراق الأُمّة إلی ثلاث وسبعین فرقة

الفصل الأوّل افتراق الأُمّة إلی ثلاث وسبعین فرقة

روی أصحاب الصحاح والمسانید ومؤلّفو الملل والنحل عن النبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ أنّه قال: «إنّ أُمّتی تفترق علی ثلاث وسبعین فرقة» وقد اشتهر هذا الحدیث بین المتکلّمین وغیرهم حتی الشعراء والأُدباء. وتحقیق الحدیث یتوقّف علی البحث فی جهات أربع: ۱. هل الحدیث نقل بسند صحیح قابل للاحتجاج به، أو لا؟ ۲. ما هو النصّ الصادر عن النبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ فی هذا المجال، فإنّ نصوص الحدیث فی ذلک المجال مختلفة؟ ۳. ما هی الفرقة الناجیة من هذه الفرق المختلفة، فإنّ النبی قد نصّ علی نجاة فرقة واحدة، کما سیأتیک نصه؟ ۴. ما هی الفرق الاثنتان والسبعون التی أخبر النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ بنشوئها من بعده؟ وهل بلغ عدد الفرق والطوائف الإسلامیة إلی هذا الحدّ؟ فإلیک البحث فی هذه الجهات الأربع: أ. سند الحدیث

روی الحدیث المذکور فی الصحاح والمسانید بأسانید مختلفة، و قد قام (۲۴)

الحافظ «عبد اللّه بن یوسف بن محمد الزیلقی المصری»(المتوفّی ۷۶۲هـ) بجمع أسانیده ومتونه فی کتابه: «تخریج أحادیث الکشّاف» وقد اهتم فیه بهذا الحدیث سنداً ومتناً، إهتماماً بالغاً، لم یسبقه إلیه غیره.... غیر أنّ القضاء فیما جمعه من الأسانید خارج عن مجال هذه الرسالة، ولأجل ذلک نبحث فیه علی وجه الإجمال، فنقول: إنّ هاهنا من لا یعتقد بصحّة الحدیث منهم: ابن حزم، فی کتابه: «الفصل

فی الأهواء والملل» قال: ذکروا حدیثاً عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ «أنّ القدریة والمرجئة مجوس هذه الأمة» وحدیث آخر «تفترق هذه الأُمّة علی بضع وسبعین فرقة کلّها فی النار حاشا واحدة فهی فی الجنة» (ثم قال:) هذان حدیثان لا یصحان أصلاً من طریق الأسناد، وما کان هکذا فلیس حجّة عند من یقول بخبر الواحد، فکیف من لا یقول به.(۱) وهناک من یعتقد بصحّة الاستدلال لأجل تضافر أسناده، یقول محمد محیی الدین محقّق کتاب «الفرق بین الفرق»: اعلم أنّ العلماء یختلفون فی صحّة هذا الحدیث، فمنهم من یقول إنّه لا یصحّ من جهة الأسناد أصلاً، لأنّه ما من إسناد روی به إلاّ وفیه ضعف، وکلّ حدیث هذا شأنه لا یجوز الاستدلال به ;ومنهم من اکتفی بتعدّد طرقه، و تعدد الصحابة الذین رووا هذا المعنی عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ....(۲) وقد قام الحاکم النیشابوری بروایة الحدیث عن سند صحیح یرتضیه الشیخان قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن سلمة العنزی (ثنا) عثمان بن سعید الدارمی (ثنا) عمرو بن عون ووهب بن بقیة الواسطیان (ثنا) خالد بن عبد اللّه، عن محمد بن عمرو، عن أبی سلمة، عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: «افترقت الیهود علی إحدی أو اثنتین وسبعین فرقة وافترقت النصاری علی إحدی أو اثنتین وسبعین فرقة، وتفترق أُمّتی _____

۱ . الفصل فی الأهواء والملل:۱/۲۴۸.

۲ . الفرق بین الفرق: ۷ـ ۸ التعلیقة. (۲۵)

علی ثلاث وسبعین فرقة» .وهذا حدیث صحیح علی شرط مسلم، ولم یخرجاه.(۱) وقد استدرک علیه الذهبی بأنّ فی سنده «محمّد بن عمرو» ولا یحتج به منفرداً ولکن مقروناً بغیره.(۲) فإذا کان هذا حال السند الذی بذل الحاکم جهده لتصحیحه، فکیف حال سائر الأسانید؟! وقد رواه الحاکم بأسانید مختلفة، وقال: قد روی هذا الحدیث عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، و عمرو بن عوف المزنی بإسنادین تفرّد بأحدهما عبد الرحمن بن زیاد الأفریقی، والآخر کثیر بن عبد اللّه المزنی، ولا تقوم بهما الحجّة.(۳) هذا حال ما نقله الحاکم فی مستدرکه. وأمّا ما رواه أبو داود فی سننه والترمذی فی سننه، وابن ماجة فی صحیحه فقد قال فی حقّه الشیخ محمد زاهد الکوثری: أمّا ما ورد بمعناه فی صحیح ابن ماجة، وسنن البیهقی، وغیرهما ففی بعض أسانیده«عبد الرحمن بن زیاد بن أنعم» وفی بعضها «کثیر بن عبد اللّه» وفی بعضها «عباد بن یوسف» و «راشد بن سعد» و فی بعضها «الولید بن مسلم» و فی بعضها مجاهیل کما یظهر من کتب الحدیث و من تخریج الحافظ الزیلقی لأحادیث الکشاف، وهو أوسع من تکلّم فی طرق هذا الحدیث فیما أعلم.(۴) هذا بعض ما قیل حول سند الحدیث، والذی یجبر ضعف السند هو تضافر نقله واستفاضة روایته فی کتب الفریقین: الشیعة والسنّة بأسانید مختلفة، ربما تجلب الاعتماد، وتوجب ثقة الإنسان به. _____

۱ . المستدرک علی الصحیحین:۱/۱۲۸، وقد رواه بسند آخر أیضاً یشتمل علی محمد بن عمرو الذی لا یحتج بمفرداته، وبسند آخر أیضاً مشتمل علی ضعف، وقد جعلهما الحاکم شاهدین لما صحّح من السند.

۲ . التبصیر فی الدین: ۹، المقدمة.

۳ . المستدرک علی الصحیحین:۱/۱۲۸، کتاب العلم.

۴ . التبصیر: ۹، المقدمة . (۲۶)

وقد رواه من الشیعة، الصدوق فی خصاله فی باب السبعین وما فوق.(۱) والعلاّمة المجلسی فی بحاره(۲)، ولعلّ هذا المقدار من النقل یکفی فی صحّة الاحتجاج بالحدیث. ب. اختلاف نصوص الحدیث

هذه هی الجهة الثانیة التی أشرنا إلیها فی مطلع البحث، فنقول: إنّ مشکلة اختلاف نصوص الحدیث لا تقل إعضالاً عن مشکلة سنده، فقد تطرّق إلیه الاختلاف من جهات شتی، لا یمکن معه الاعتماد علی واحد منها، وإلیک الإشارة إلی الاختلافات المذکورة: ۱. الاختلاف فی عدد الفرق

روی الحاکم عدد فرق الیهود والنصاری مردّداً بین إحدی وسبعین واثنتین وسبعین، بینما رواه عبد القاهر البغدادی بأسانیده عن أبی

هريرة على وجه الجزم والقطع، وأنّ اليهود افترقت إلى إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة. وفى الوقت نفسه روى بسند آخر افتراق بنى إسرائيل على اثنتين وسبعين ملّةوقال: «ليأتين على أُمّتى ما أتى على بنى إسرائيل، تفرق بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملّة، وستفترق أُمّتى على ثلاث وسبعين ملّة». ونقل بعده بسند آخر افتراق بنى إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة.(۳) ويمكن الجمع بين النقلين الأخيرين بأنّ المراد من بنى إسرائيل هو الأعم من اليهود والنصارى فيصحّ عدّ الفرق اثنتين وسبعين. _____

۱ . الخصال:۲/۵۸۴، أبواب السبعين ومافوق، الحديث العاشر والحادى عشر.

۲ . البحار:۲۸/۲ـ۳۶.

۳ . الفرق بين الفرق: ۵. (۲۷)

نعم يحمل الأخير على خصوص اليهود من بنى إسرائيل. ۲. الاختلاف فى عدد الهالكين والناجين

إنّ أكثر الروايات تصرّح بنجاة واحدة وهلاك الباقين. فعن البغدادى بسنده عن رسول اللّه أنّه قال: كلّهم فى النار إلّا ملّة واحدة.(۱) وروى الترمذى وابن ماجة مثل ذلك.(۲) بينما رواه شمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر البشارى السياح المعروف (المتوفّى ۳۸۰هـ) فى كتابه«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» بصورة تضاده إذ قال: إنّ حديث «اثنتان وسبعون فى الجنة وواحدة فى النار» أصحّ إسناداً، وحديث «اثنتان وسبعون فى النار وواحدة ناجية» أشهر.(۳) ۳. الاختلاف فى تعيين الفرقة الناجية

فقد اختلف النقل فى تعيين سمة الفرقة الناجية أخذاً بما يقول بأنّ جميعها فى النار إلّا واحدة. روى الحاكم(۴) و عبد القاهر البغدادى (۵) وأبو داود(۶) و ابن ماجة(۷) بأنّ النبى قال: إلاّ واحدة وهى الجماعة، أو قال: الإسلام وجماعتهم. وروى الترمذى(۸) والشهرستانى(۹) أنّ النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عرف الفرقة الناجية بقوله: ما أنا عليه اليوم وأصحابى. _____

۱ . المصدر نفسه: ۷۶.

۲ . سنن الترمذى:۵/۲۶، كتاب الإيمان، الحديث ۲۶۴۱؛سنن ابن ماجة:۲/۴۷۹، باب افتراق الأُمم.

۳ . طبع الكتاب فى ليدن، عام ۱۳۲۴ هـ الموافق لـ۱۹۰۶م.

۴ . المستدرك على الصحيحين:۱/۱۲۸.

۵ . الفرق بين الفرق: ۷.

۶ . سنن أبى داود:۴/۱۹۸، كتاب السنّة.

۷ . سنن ابن ماجة:۲/۴۷۹، باب افتراق الأُمم.

۸ . سنن الترمذى:۵/۲۶، كتاب الإيمان، الحديث ۲۶۴۱.

۹ . الملل والنحل : ۱۳. (۲۸)

وروى الحاكم أيضاً أنّ النبى حدّد أعظم الفرق هلاكاً بقوله: «ستفترق أُمّتى على بضع وسبعين فرقة أعظمها فرقة، قوم يقيسون الأُمور برأيهم، فيحرّمون الحلال ويحلّلون الحرام» وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.(۱) وروى صاحب روضات الجنات عن كتاب «الجمع بين التفاسير» أنّ النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عرف الفرقة الناجية بقوله:«هم أنا وشيعتى».(۲) هذه الوجوه تعكس مدى الاختلاف فى تحديد ملامح الفرقة الناجية. وأمّا تحقيق القول فى ذلك فسيوافيك عند البحث عن الجهة الثالثة، وهى التالية: ج. مَن هى الفرقة الناجية؟

هذه هى الجهة الثالثة التى ينبغى الاهتمام بها حتى يستطيع الباحث من تعيين الفرقة الناجية، بها. قال الشيخ محمد عبده: أمّا تعيين أى فرقة هى الناجية، أى التى تكون على ما كان النبى عليه وأصحابه، فلم يتعيّن إلى الآن، فإنّ كلّ طائفة ممّن يذعن لنبينا بالرسالة تجعل نفسها على ما كان عليه النبى وأصحابه.(إلى أن قال:) وممّا يسرنى ما جاء فى حديث آخر أنّ الهالك منهم واحدة.(۳) أقول: ما ورد

من السمات فی تحدید الفرقة الناجیة لا یتجاوز أهمّها عن سمتین: أولاها: «الجماعة» وهی تارة جاءت رمزاً للنجاة، وأُخری للهلاک، فلا یمکن الاعتماد علیها، وإلیک بیان ذلک: _____

۱ . المستدرک علی الصحیحین:۴/۴۳۰.

۲ . روضات الجنات: ۵۰۸، الطبعة القدیمة.

۳ . تفسیر المنار : ۸/۲۲۱ـ۲۲۲. (۲۹)

روی ابن ماجة عن عوف بن مالک قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : افترقت الیهود... والذی نفس محمد بیده لتفترقن أُمّتی علی ثلاث وسبعین فرقة، فواحدة فی الجنة، وثنتان وسبعون فی النار. قیل: یا رسول اللّه من هم؟ قال: الجماعة.(۱) بینما نقل أنّه قال: «وإنّ هذه الملة ستفترق علی ثلاث وسبعین: ثنتان وسبعون فی النار وواحدة فی الجنة، وهی الجماعة»(۲)، فإنّ الإتیان بضمیر الجمع فی الحدیث الأوّل، وبضمیر المفرد فی الحدیث الثانی یؤید رجوع الضمیر فی الأوّل إلی: «اثنتان وسبعون»، ورجوع الضمیر المفرد إلی «الواحدة» فتکون الجماعة تارة آیة الهلاک وأُخری آیة النجاة. أضف إلی ذلک أنّ قسماً کبیراً من النصوص لا یشتمل علی هذه اللفظة، ولا یصحّ أن یقال إنّ الراوی ترک نقلها، أو نسیها، وذلک لأنّ ذکر سمة الناجی أو الهالک من الأُمور الجوهریة فی هذا الحدیث، فلا یمکن أن یتجاهله أو ینساه. ومن ذلک تعلم حال ما اشتمل علی لفظ«الإسلام» مع الجماعة، فإنّه لا یزید فی مقام التعریف شیئاً علی المجرد منه، لوضوح أنّ الإسلام حقّ إنّما المهم معرفة المسلم الواقعی عن غیره. ثانیتها: «ما أنا علیه وأصحابی»، أو «ما أنا علیه الیوم وأصحابی»، کون هذا آیة النجاة لا یخلو عن خفاء. أوّلاً: إنّ هذه الزیادة غیر موجودة فی بعض نصوص الروایة، ولا یصحّ أن یقال إنّ الراوی ترک نقلها لعدم الأهمیة. وثانیاً: إنّ المعیار الوحید للهلاک والنجاة هو شخص النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وأمّا أصحابه فلا یمکن أن یکونوا معیاراً للهدایة والنجاة إلّا بقدر اهتدائهم _____

۱ . سنن ابن ماجة:۲/۴۷۹، باب افتراق الأُمم.

۲ . سنن أبی داود:۴/۱۹۸ ،کتاب السنّة ;المستدرک علی الصحیحین:۱/۱۲۸. (۳۰)

واقتدائهم برسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ، وإلّا فلو تخلّفوا عنه قلیلاً أو کثیراً فلا یکون الاقتداء بهم موجباً للنجاة. وعلی ذلک فعطف (وأصحابی) علی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ لا یخلو من غرابة. وثالثاً: إنّ المراد إمّا صحابته کلّهم، أو الأکثریة الساحقة. فالأوّل: مفروض العدم لاختلاف الصحابة فی مسالکهم ومشاربهم السیاسیة والدینیة بعد رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ، وأدلّ دلیل علی ذلک ما وقع من الخلاف فی السقیفة وبعدها. والثانی: ممّا لا یلتزم به أهل السنّة، فإنّ الأکثریة الساحقة من الصحابة خالفوا الخلیفة الثالث، وقد قتله المصریون والکوفیون فی مرأی ومسمع من بقیة الصحابة، الذین کانوا بین مؤلّب، أو مهاجم، أو ساکت. علی أنّ حمل أصحابی علی الأکثریة خلاف الظاهر، ویظن أنّ هذه الزیادة من رواة الحدیث لدعم موقف الصحابة، وجعلهم المحور الوحید الذی یدور علیه فلک الهدایة بعد النبی الأعظم، والمتوقع من رسول الهدایة هو أن یحدد الفرقة الناجیة بسمات واضحة تستفید منها الأجیال الآتیة، فإنّ کلّ الفرق یدّعون أنّهم علی ما علیه النبی بل علی ما علیه أصحابه أیضاً: وکلّ یدّعی وصلاً بلیلی * ولیلی لا تقر لهم بذاکا وأخیراً نقلنا عن الحاکم أنّه روی عن النبی قوله: «أعظمها فرقة قوم یقیسون الأُمور برأیهم» و یظن أنّ هذه الزیادة طرأت علی الحدیث من بعض الطوائف الإسلامیة بین أهل السنّة، طعناً فی أصحاب القیاس، علی حین أنّ القیاس بمفهومه الأُصولی لم یکن أمراً معهوداً لأصحاب النبیّ حتی یکتفی النبی فی تعیین الفرقة الهالکة بهذا الوصف غیر المعروف فی عصر صدور حدیث الافتراق.

أحادیث حول مستقبل الصحابة

إنّ الأحادیث المتضافرة عن النبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ عن مستقبل الصحابة (۳۱)

تصدّنا عن الأخذ بمسالکهم ومشاربهم وتمنعنا عن تصحیح ما ورد فی ذیل بعض الروایات الماضیة، أعنی قوله: «ما أنا علیه وأصحابی» وذلک لأنّ النبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ یخبر عن أحوالهم بعد رحلته، وأنّهم سیحدثون فی الدین أُموراً منکرة، وبدعاً

محرمة وأنّهم يرتدون عن الدين ولأجل ذلك يحلأون عن الحوض ويذادون عنه، و قد روى هذه الأحاديث الشيخان(البخارى ومسلم) وغيرهما. وجمعها ابن الأثير فى «جامع الأُصول» فى الفصل الرابع عند البحث عن الحوض والصراط والميزان. وإليك بعض تلك الأحاديث: ١. أخرج الشيخان عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن إليّ رجال منكم حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دونى، فأقول: أى رب، أصحابى ;فيقال: إنّك لا تدرى ماذا أحدثوا بعدك». ٢. أخرج الشيخان أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «يرد علىّ يوم القيامة رهط من أصحابى، أو قال من أُمّتى، فيحلأون عن الحوض، فأقول: يا ربّ أصحابى، فيقول: إنّه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنّهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى». إلى غير ذلك من الروايات البالغ عددها إلى عشرة أحاديث وفى ضوء هذه الروايات لا يمكن الحكم بعدالة كلّ صحابى لمجرّد الصحبة، للعلم بوجود الفسق والارتداد وإحداث البدع فيهم، وهذا العلم الإجمالى يصدّنا عن تعديل كلّ صحابى وتصديقه. كما يصدنا عن القول بأنّ الأكثرية الساحقة من الصحابة إذا اتفقت على شىء يكون دليلاً على صدقه وصحته، على أنّ هذا لا يدلّ على أنّ جميع الصحابة كانوا على هذا المنوال بل كان فى الصحابة الثقات العدول، والأخيار المتقون. وقد أشبعنا الكلام حول الصحابة من حيث العدالة.(١) _____

١ . سيوافيك البحث عن عدالة الصحابة عند تحليل عقائد أهل الحديث فى هذا الجزء. الفرقة الناجية فى ضوء النصوص الأُخر

لو أنّ شيخ الأزهر رجع إلى النصوص الأُخر للنبى الأكرم لتبيّن له الفرقة الناجية فى كلام النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، فإنّ لنبى الرحمة كلمات فى مواضع أُخر يشد بعضها بعضاً، ويفسر بعضها البعض الآخر، وإليك ما أثر عنه فى تلك المجالات ممّا تعد قرائن منفصلة موضحة للحديث الحاضر. ١. حديث الثقلين

قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «يا أيّها الناس إنّى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب اللّه وعترتى أهل بيتى».(١) روى إمام الحنابلة عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أنّه قال: «إنّى تارك فيكم خليفتين: كتاب اللّه، حبل ممدود ما بين السماء والأرض ;وعترتى أهل بيتى، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض».(٢) روى الحاكم فى مستدركه عن النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أنّه قال: «إنّى أوشك أن أُدعى فأُجيب، وإنّى تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه عزّ وجلّ، وعترتى ;كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، فإنّ اللطيف الخبير أخبرنى أنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلّفونى فيهما».(٣) والاختلاف الموجود بين نصوص الحديث غير مضر أبداً، لأنّ النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ نطق بهذا الحديث فى مواضع مختلفة، إذ فى بعض الطرق أنّه قال ذلك فى حجّة الوداع بعرفة، وفى أُخرى أنّه قاله بالمدينة فى مرضه وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفى ثالثة أنّه قال ذلك بغدير خم، وفى رابعة أنّه _____

١ . رواه الترمذى والنسائى فى صحيحهما راجع كنز العمال:١/۴۴ باب الاعتصام بالكتاب والسنّة.

٢ . مسند أحمد بن حنبل: ۵/۱۸۲ـ ۱۸۹.

٣ . مستدرك الحاكم:٣/١۴٨، وقال هذا صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه. (٣٣)

قال ذلك لمّا قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف، فقد كرر ذلك فى تلك المواطن اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة.(١) والإمعان فى هذا الحديث الذى بلغ من التواتر حدّاً لا يدانيه حديث، إلّا حديث الغدير، يقود الإنسان إلى الحكم بضلال من لم يستمسك بهما معاً، فالمتمسّكون بهما هم الفرقة الناجية، والمتخلّفون عنهما، أو المتقدّمون عليهما هم الهالكة. وقد نقل الطبرانى قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فى ذيل الحديث: «فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم».(٢)

٢. حديث السفينة

وهذا الحديث كالحديث السابق يعين على رفع الإبهام عن حديث «الافتراق». روى الحاكم بسنده عن أبى ذر رضى اللّه عنه يقول، وهو آخذ بباب الكعبة: «من عرفنى فأنا من عرفنى، ومن أنكرنى فأنا أبوذر، سمعت النبى يقول: ألا إنّ مثل أهل بيتى فيكم، مثل سفينة

نوح فی قومه، من رکبها نجا ومن تخلّف عنها غرق».(۳) والمراد بتشبیههم ـ علیهم السَّلام ـ بسفینة نوح هو أنّ من لجأ إلیهم فی الدین فأخذ فروعه وأُصوله عن أئمّتهم، نجا من عذاب النار، ومن تخلّف عنهم کمن آوی یوم الطوفان إلی جبل لیعصمه من أمر اللّه، غیر أنّ هذا غرق فی الماء، وهذا فی الحمیم. قال ابن حجر: و وجه تشبیههم بالسفینة أنّ من أحبهم وعظّمهم شکراً لنعمة مشرّفهم، وأخذ بهدی علمائهم نجا من ظلمة المخالفات، ومن تخلّف عن ذلک غرق فی بحر کفر النعم، وهلک فی مفاوز الطغیان.(۴)

---

۱ . راجع المراجعات، المراجعة ۸ فقد نقله عن مواضع مختلفة.

۲ . الصواعق المحرقة: ۱۳۵ باب وصیة النبی بهم.

۳ . المستدرک علی الصحیحین:۳/۱۵۱.

۴ . لقد علّق السید شرف الدین فی مراجعاته علی هذه العبارة تعلیقاً لطیفاً وهو: قل لی لماذا لم یأخذ بهدی أئمتهم فی شیء من فروع الدین وعقائده ـإلی أن قال:ـ ولماذا تخلّف عنهم فأغرق نفسه فی بحار کفر النعم وأهلکها فی مفاوز الطغیان؟! (۳۴) ۳. حدیث أهل بیتی أمان لأُمّتی

روی الحاکم عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بیتی أمان لأُمّتی من الاختلاف، فإذا خالفتها قبیلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبلیس»(ثمّ قال): هذا حدیث صحیح الإسناد،ولم یخرجاه.(۱) هذه الأحادیث تلقی الضوء علی حدیث الافتراق، وتحدد الفرقة الناجیة وتعیّنها. وهناک حدیث آخر ورد فی ذیل حدیث الافتراق نقله أحد علماء أهل السنّة وهو الإمام الحافظ حسن بن محمد الصغانی (المتوفّی ۶۵۰هـ) فی کتابه «الشمس المنیرة» عن النبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ:«افترقت أُمّة أخی عیسی علی اثنتین وسبعین فرقة، وستفترق أُمّتی علی ثلاث وسبعین فرقة، کلّها هالکة إلاّ فرقة واحدة». فلمّا سمع ذلک منه ضاق المسلمون ذرعاً وضجّوا بالبکاء، وأقبلوا علیه، وقالوا: یا رسول اللّه کیف لنا بعدک بطریق النجاة؟ وکیف لنا بمعرفة الفرقة الناجیة حتی نعتمد علیها؟ فقال ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: «إنّی تارک فیکم ما إن تمسکتم به لن تضلوا من بعدی أبداً: کتاب اللّه، وعترتی أهل بیتی ;إن اللطیف الخبیر نبّأنی أنّهما لن یفترقا حتی یردا علی الحوض».(۲) ولا أظن المنصف إذا رجع إلی ما ورد حول العترة من الأحادیث الحاثّة علی الرجوع إلیهم، یخفی علیه مراد النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ من الفرقة الناجیة فی حدیث الافتراق، مضافاً إلی أنّ آیة التطهیر دالّة علی عصمتهم، فالمتمسک بالمعصوم مصون وبالخاطئ غیر مصون بل یقع عرضة للانحراف والهلاک، و للشافعی أبیات تعرب عن عرفانه الفرقة الناجیة ذکرها الشریف الحضرمی فی

---

۱ . المستدرک علی الصحیحین:۳/۱۴۹.

۲ . الشمس المنیرة، النسخة المخطوطة فی مکتبة المشهد الرضوی بالرقم ۱۷۰۶. (۳۵)

«رشفة الصادی».(۱) د. الفرق التی أخبر النبی بنشوئها

هذه هی الجهة الرابعة التی یلیق البحث عنها، فإنّ النبی قد أخبر عن أنّ الأُمّة الإسلامیة ستبلغ فی تفرّقها إلی هذا العدد الهائل، ولکن المشکلة عدم بلوغ رؤوس الفرق الإسلامیة إلی هذا العدد، فإنّ کبار فرقها لا تتجاوز الأربع: الأوّل: القدریة(المعتزلة وأسلافهم). الثانی: الصفاتیة(أهل الحدیث والأشاعرة). الثالث: الخوارج. الرابع: الشیعة. وهذه الفرق الأصلیة، وإن تشعبت إلی شعب وفروع من مرجئة وکرامیة بفرقها ،ولکن لا یبلغ المجموع إلی هذا الحد، وإن أصرّ الشهرستانی علی تصحیح البلوغ إلیه، فقال: ثمّ یترکب بعضها مع بعض، ویتشعب عن کلّ فرقة أصناف، فتصل إلی ثلاث وسبعین فرقة.(۲) یلاحظ علیه: أنّ المراد من أُمّتی هی الفرق الإسلامیة المؤمنة برسالة النبی الأعظم، وکتاب اللّه سبحانه، وبلوغ تلک الأُمة بهذه الصفة إلی هذا الحد الهائل أوّل الکلام، لأنّ المراد هو الاختلاف فی العقیدة التی یدور علیها فلک الهلاک والنجاة. وأمّا الاختلاف فی الأُصول والمعارف التی لیست مداراً للهدایة والضلالة، بل لا تعد

من صميم العقائد الإسلامية، فهو خارج عن إطار الحديث، فاختلاف الأشاعرة والمعتزلة، فى وجود الواسطة بين الوجود

---

۱ . رشفة الصادى: ۲۵.

۲ . الملل والنحل:۱/۱۵. (۳۶)

والعدم، وحقيقة الجسم والأكوان والألوان، والجزء الذى لا يتجزأ، والطفرة، الذى أوجد فرقاً كلامية، فلا يوجب دخول النار، وإن كان الحقّ واحداً، ولا يصحّ عدّ المعتقدين بها من الفرق المنصوص عليها فى كلام النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . وبعبارة واضحة: إنّ الفرق المذمومة فى الإسلام هى أصحاب الأهواء الضالة الذين خالفوا الفرقة الناجية، فى مواضع تعد من صميم الدين كالتوحيد بأقسامه والعدل والقضاء والقدر، والتجسيم والتنزيه، والجبر والاختيار، والهداية والضلالة و رؤية اللّه سبحانه وإدراك البشر له تعالى، والإمامة والخلافة، ونظائرها. وأمّا الاختلاف فى سائر المسائل التى لا تمت إلى الدين بصلة ولا تمثل العقيدة الإسلامية فلا يكون المخالف والموافق فيها داخلاً فى الحديث، والحال أنّ كثيراً من الفرق الإسلامية يرجع اختلافهم إلى أُمور عقلية أو كونية، ممّا لا يرتبط بالدين أو ما لا يسأل عنه الإنسان فى حياته وبعدها ولا يجب الاعتقاد به. محاولات لتصحيح العدد

إنّ هناك محاولات لتصحيح مفاد الحديث من حيث العدد المذكور فيه، نشير إليها فيما يلى: ۱. هذا العدد الهائل كناية عن المبالغة فى الكثرة، كما فى قوله سبحانه وتعالى: (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُم) .(۱) يلاحظ عليه: أنّ هذه المحاولة فاشلة، لأنّها إنّما تصحّ إذا ورد الحديث بصورة السبعين أو غيرها من العقود العددية، فإنّ هذا هو المتعارف فى مقام الكناية ولكن الوارد فى الحديث هو غير ذلك. _____

۱ . التوبة:۸۰. (۳۷)

ترى أنّ النبى يركز فى حقّ المجوس على عدد السبعين، وفى حقّ اليهود على عدد الإحدى والسبعين وفى حقّ النصارى على اثنتين وسبعين، وفى حقّ الأُمّة الإسلامية على ثلاث وسبعين. وهذاالتدرّج يعرب بسهولة عن أنّ المراد هو بلوغ الفرق إلى هذا الحدّ، بشكل حقيقى لا بشكل مبالغى. ۲. إنّ أُصول الفرق وإن كانت لا تصل إلى هذا العدد بل لا تبلغ نصفه ولا ربعه، وإنّ فروع الفرق يختلف العلماء فى تفريعها، وإنّ الإنسان فى حيرة حين يأخذ فى العد، بأن يعتبر ـ فى عدّ الفرق ـ أُصولها أو فروعها، وإذا استقر رأيه على اعتبار الفروع، فعلى أىّ حدّ من التفريع يأخذه مقياساً، إلّا أنّ الحديث لا يختص بالعصور الماضية، فإنّ حديث الترمذى يتحدث عن افتراق أُمّة محمّد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وأُمّته مستمرة إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فيجب أن يتحدث فى كلّ عصر عن الفرق التى نجمت فى هذه الأُمّة من أوّل أمرها إلى الوقت الذى يتحدث فيه المتحدث، ولا عليه إن كان العدد قد بلغ ما جاء فى الحديث أو لم يبلغ، فمن الممكن بل المقطوع ـ لو صحّ الحديث ـ وقوع الأمر فى واقع الناس على وفق ما أخبر به.(۱) وهناك محاولة ثالثة غير صحيحة جدّاً وهى الاهتمام بتكثير الفرق، فترى أنّ الإمام الأشعرى يجعل للشيعة الغالية خمس عشرة فرقة، وللشيعة الإمامية أربعاً وعشرين فرقة، كما أنّ الشهرستانى يعدّ للمعتزلة اثنتى عشرة فرقة، ويعدّ للخوارج الفرق التالية: المحكمة، الأزارقة، النجدات، البيهسية، العجاردة، الثعالبة، الأباضية، الصفرية. وذلك لأنّ الجميع من أصناف الشيعة والمعتزلة والخوارج يلتقون تحت أُصول خاصة معلومة فى محلها، مثلاً أصناف الخوارج يجتمعون تحت أُصول أشهرها تخطئة عثمان والإمام أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ فى مسألة التحكيم، وتكفير صاحب الكبيرة وتخليده فى النار. فلا يصحّ عدّ كلّ صنف فرقة، وإن اختلف كلّ مع شقيقه فى أمر جزئى، ومثل ذلك أصناف الآخرين. _____

۱ . مقدّمة الفرق بين الفرق: ۷. (۳۸)

ثمّ إنّ الكاتب المعاصر عبد الرحمن بدوى، ذهب إلى عدم صحّة الحديث للأسباب التالية: أوّلاً: إنّ ذكر هذه الأعداد المحددة المتوالية: ۷۱، ۷۲، ۷۳ أمر مفتعل لا يمكن تصديقه فضلاً عن أن يصدر مثله عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . ثانياً: إنّه ليس فى

وسع النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أن يتنبأ مقدماً بعدد الفرق التى سيفترق إليها المسلمون. ثالثاً: لا نجد لهذا الحديث ذكراً فيما ورد لنا من مؤلفات من القرن الثانى بل ولا ـ الثالث الهجرى ولو كان صحيحاً لورد فى عهد متقدّم. رابعاً: أعطت كلّ فرقة لختام الحديث، الرواية التى تناسبها، فأهل السنّة جعلوا الفرقة الناجية هى أهل السنّة، والمعتزلة جعلوها فرقة المعتزلة، وهكذا وقال: وقد ظهر التعسّف البالغ لدى مؤرّخى الفرق فى وضعهم فروقاً وأصنافاً داخل التيارات الرئيسية حتى يستطيعوا الوصول إلى ۷۳ فرقة، وفاتهم أنّ افتراق المسلمين لم ينته عند عصرهم، وأنّه لا بدّ ستنشأ فرق جديدة باستمرار ممّا يجعل حصرهم هذا خطأ تماماً، إذ لا يحسب حساباً لما سينشأ بعد ذلك من فرق إسلامية جديدة.(۱) ولا يخفى أنّ ما ذكره من الأسباب غير صحيح عدا ما ذكره من السبب الرابع وما ذيله به. أمّا دليله الأوّل، فلأنّ ما جاء فيه هو نفس المدّعى ولم يبيّن وجهاً لافتعال الحديث. وأمّا دليله الثانى، فلأنّ المتبادر منه أنّه ليس فى وسع النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ التنبّؤ بالأحداث الآتية، ولكنّه باطل بشهادة الصحاح والسنن على تنبوّئه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بإذن اللّه عن كثير من الحوادث الواقعة فى أُمّته، وقد جمعنا _____

۱ . مذاهب الإسلاميين:۱/۳۴. (۳۹)

عدّة من تنبّوئه فى موسوعتنا: مفاهيم القرآن.(۱) وربما يريد الكاتب من عبارته معنى آخر، وهو أنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لا يصح له أن يقدم على مثل هذا التنبّؤ، لأنّه إقدام غير مرغوب فيه، لما يحتوى على الإضرار بالأُمّة، ولكن هذا الرأى منقوض أيضاً بتنبّؤات أُخرى تضاهى المورد هذا، فهذا هو النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ يتنبّأ بالمستقبل المظلم الذى يواجهه ذو الخويصرة من وجوه الخوارج الذى أتى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ و هو يقسمالغنائم بعد منصرفهم من حنين فقال للنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: يا رسولاللّه اعدل، فقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: «ويلك من يعدل إن لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أعدل»، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول اللّه ائذن لى فيه أن أضرب عنقه؟ قال: «دعه فإنّ له أصحاباً يحقّر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يرمق السهم من الرميّة، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شىء».(۲) فأى فرق بين هذا التنبؤ ونظائره الواردة فى أحاديث النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، والتنبّؤ بافتراق أُمّته إلى الفرق المعدودة؟ وأمّا دليله الثالث، فعجيب جداً، فقد رواه أبو داود(۲۰۲ـ ۲۷۵هـ) فى سننه، والترمذى (۲۰۹ـ ۲۷۹هـ) فى صحيحه، وابن ماجة(۲۱۸ـ ۲۷۶هـ) فى سننه، وأحمد بن حنبل(۲۴۱هـ) فى مسنده، والجميع من أعيان أصحاب الحديث فى القرن الثالث، فكيف يقول هذا الكاتب: «بل ولا الثالث الهجرى»؟! وإليك بعض ما أسندوه: ۱. روى أبو داود فى كتاب السنة، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه: افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرّقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أُمّتى على ثلاث وسبعين فرقة». ثمّ روى عن معاوية بن أبى سفيان أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قام فينا فقال: «ألا إنّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، _____

۱ . مفاهيم القرآن:۳/۵۰۳ـ ۵۰۸.

۲ . التاج:۵/۲۸۶، كتاب الفتن. (۴۰)

وإنّ هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة».(۱) ۲. روى الترمذى فى باب ما جاء فى افتراق هذه الأُمّة مثله، عن أبى هريرة. و روى عن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: «ليأتين على أُمّتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أُمّه علانية، لكان فى أُمّتى من يصنع ذلك، وإنّ بنى إسرائيل تفرّقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أُمّتى على ثلاث وسبعين ملّة كلّهم فى النار إلاّ ملّة واحدة» قالوا: ومن هى يا رسول اللّه؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابى».(۲) ۳. روى ابن ماجة فى باب افتراق الأُمم عن أبى هريرة قال: «قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: تفرّقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفترق أُمّتى على ثلاث وسبعين فرقة». وروى عن عوف بن مالك قال: قال رسول اللّه: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة فى الجنةو سبعون فى النار ;وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، فإحدى

وسبعون فی النار وواحدة فی الجنة ;والذی نفس محمد بیده لتفترقنّ أمّتی علی ثلاث وسبعین فرقة، فواحدة فی الجنة وثنتان وسبعون فی النار» قیل: یا رسول اللّه: من هم؟ قال: «الجماعة». وروی عن أنس بن مالک ما یقرب من ذلک.(۳) ۴. وروی أحمد بن حنبل عن أبی هریرة ما نقلناه عنه آنفاً.(۴) کما روی أیضاً عن أنس بن مالک ما رویناه عنه سابقاً.(۵) وعلی کلّ تقدیر فلا یهمنا البحث حول عدد الفرق وکثرتها و قلّتها، بل _____

۱ . سنن أبی داود:۴/۱۹۸، کتاب السنّة.

۲ . سنن الترمذی:۵/۲۶، کتاب الإیمان، الحدیث ۲۶۴۱.

۳ . سنن ابن ماجة:۲/۴۷۹، باب افتراق الأُمم.

۴ . مسند أحمد:۲/۳۳۲.

۵ . مسند أحمد:۳/۱۲۰. (۴۱)

الذی نتوخّاه فی هذه الصحائف هو البحث عن الفرق الموجودة فی الأوساط الإسلامیة و هی عبارة عن هذه الفرق: أهل السنّة(۱) بأصنافهم: أهل الحدیث والأشاعرة والمعتزلة والخوارج، والشیعة بفرقها الثلاث: الإمامیة الاثنی عشریة، الزیدیة، الإسماعیلیة. وأمّا الفرق التی بادت واندثرت، وقد أکل الدهر علیها و شرب، فهی غیر مطروحة لنا بل البحث عنها مفصلاً ضیاع للوقت إلّا علی وجه الإشارة. *** (قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلی أَنْ یَبْعَثَ عَلَیْکُمْ عَذاباً مِنْ فَوقِکُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِکُمْ أَوْ یَلْبِسکُمْ شِیَعاً وَیُذیقَ بَعْضَکُمْ بَأْسَ بَعْض انْظُر کَیْفَ نُصَرِّفُ الآیاتِ لَعَلَّهُمْ یَفْقَهُون).(۲) _____

۱ . أهل السنّة لا یعتبرون الخوارج منهم، بل لا یعتبرون المعتزلة منهم أیضاً، ولکن المراد من أهل السنّة هنا هو المعنی الأعم، أی غیر الشیعة، أی من یقول بکون الخلافة بالبیعة والشوری، فکلّ من یقول بکون الإمامة مقاماً تنصیصیّاً یعد من الشیعة، ومن یقول بکونها مقاماً انتخابیاً فهو معدود من أهل السنّة، فالملاک فی التقسیم هو هذا لا المصطلح المعروف بین أهل الحدیث والأشاعرة، فلو خضعنا لمصطلح الأوّلین، فهم ربما لا یعدّون الأشاعرة أیضاً منهم، هذا ابن تیمیة یکن العداوة للأشاعرة ولا یعدّهم منهم.

۲ . الأنعام: ۶۵. (۴۲) (۴۳)

الفصل الثانی بدایات الاختلاف فی عصر الرسالة

الفصل الثانی بدایات الاختلاف فی عصر الرسالة

لا شکّ فی أنّ المسلمین قد اختلفوا بعد لحوق النبی الأکرم بالرفیق الأعلی إلی فرق مختلفة، وسنبین جذور هذه الخلافات وحوافزها فی الأبحاث الآتیة. إنّما الکلام فی وضع المسلمین أیّام النبی الأکرم ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ، فهل کانوا محتفظین بوحدة کلمتهم ومستسلمین لأمر نبیّهم جمیعاً کما أمر اللّه به سبحانه، أم کان هناک بعض الاختلاف بینهم فی جملة من المسائل؟ لا شکّ أنّ المسلم الحقیقی هو من یستسلم لأوامر اللّه ورسوله ولا یخالفه قید شعرة آخذاً بقوله سبحانه: (یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَی اللّهِ وَرَسُولِهِ واتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَمِیعٌ عَلیم)(۱). وقد فسر المفسرون قوله سبحانه: (لا تُقَدّمُوا بَیْنَ یَدَی اللّه وَرَسُوله) بقولهم: أی لا تتقدموا علی اللّه ورسوله فی کلّ ما یأمر وینهی، ویؤیده قوله سبحانه فی نفس السورة:(وَاعْلَمُوا أَنَّ فیکُمْ رَسُولَ اللّهِ لَو یُطِیعُکُمْ فی کَثیر مِنَ الأَمْرِلَعَنِتّم) .(۲) وقال عزّ من قائل: (فَلا وَرَبّکَ لا یُؤْمِنُونَ حَتّی یُحکّمُوکَ فِیما شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لا یَجِدُوا فی أَنْفُسِهِمْ حَرجاً مِمّا قَضَیْت وَیُسَلِّمُوا تَسْلیماً) .(۳) _____

۱ . الحجرات:۱.

۲ . الحجرات:۷.

۳ . النساء:۶۵. (۴۴)

ومع ذلك كلّه فقد نجمت بين الصحابة والنبى الأعظم مشاجرات ومنازعات بين آونة وأُخرى قد ضبطها التاريخ وأصحاب السير. غير أنّ الشهرستانى يصر على أنّ أكثر الخلافات كان من جانب المنافقين و قال: «إنّ شبهات أُمّته فى آخر زمانه، ناشئة من شبهات خصماء أوّل زمانه من الكفّار والملحدين، وأكثرها من المنافقين، وإن خفى علينا ذلك فى الأُمم السالفة لتمادى الزمان، فلم يخف فى هذه الأُمّة أنّ شبهاتها نشأت كلّها من شبهات منافقى زمن النبى، إذ لم يرضوا بحكمه فيما كان يأمر وينهى، وشرعوا فيما لا مسرح للفكر فيه ولا مسرى وسألوا عمّا منعوا من الخوض فيه والسؤال عنه، وجادلوا بالباطل فى ما لا يجوز الجدال فيه». ثمّ ذكر الشهرستانى حديث ذى الخويصرة التميمى فى تقسيم الغنائم إذ قال: اعدل يا محمد، فإنّك لم تعدل، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «إن لم أعدل فمن يعدل».(۱) إنّ ما ذكره الشهرستانى صحيح لا غبار عليه غير أنّ الاعتراض والخلاف لم يكن منحصراً بالكفار و المنافقين بل كان هناك رجال من المهاجرين والأنصار، يعترضون على النبى فى بعض الأُمور التى لا تروقهم، وكأنّ الشهرستانى نسى قصة الحديبية حيث آثر رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ الصلح يوم الحديبية على الحرب وأمر به، عملاً بما أوصى اللّه إليه، وكانت المصلحة فى الواقع وفى نفس الأمر توجبه لكنّها خفيت على أصحابه فطفق بعضهم ينكره والآخر يعارضه علانية بكلّ ما لديه من قوة. هذا هو عمر بن الخطاب فإنّه بعد ما تقرر الصلح بين الفريقين على الشروط الخاصة وقد أدركته الحمية، فأتى أبا بكر و قد استشاط غضباً فقال: يا أبا بكر أليس برسول اللّه ؟ قال: بلى. قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟قال: بلى. قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا... الحديث.(۲) وكأنّ الشهرستانى غفل أيضاً عن الجدال الشديد بين النبى وبعض _____

۱ . الملل والنحل:۱/۲۱.

۲ . السيرة النبوية لابن هشام:۳/۳۱۷. (۴۵)

أصحابه فى متعة الحج. قال الإمام القرطبى: «لا خلاف بين العلماء أنّ التمتع المراد بقوله تعالى: (فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدى) (۱) هو الاعتمار فى أشهر الحجّ قبل الحجّ، قلت: وهو فرض من نأى عن مكة بثمانية وأربعين ميلاً من كلّ جانب على الأصح، وإنّما أضيف الحجّ بهذه الكيفية إلى التمتع أو قيل عنه: التمتع بالحج، لما فيه من المتعة، أى اللذة بإباحة محظورات الإحرام فى المدة المتخلّلة بين الإحرامين، وهذا ما كرهه عمر وبعض أتباعه فقال قائلهم: أننطلق و ذكورنا تقطر؟! وفى «مجمع البيان» أنّ رجلاً قال: أنخرج حجاجاً ورؤوسنا تقطر؟ وأنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال له: «إنّك لن تؤمن بها أبداً».(۲) ولأجل هذه المكافحة التى نجمت فى حياة النبى خطب عمر بن الخطاب فى خلافته وقال: متعتان كانتا على عهد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما .(۳) وهذه الأُمور تسهل لنا التصديق بما رواه البخارى فى إسناد عن عبيد اللّه بن عبد اللّه، عن ابن عباس قال: «لما اشتد بالنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وجعه قال: ايتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده». قال عمر: إنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ غلبه الوجع، وعندنا كتاب اللّه حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط. قال: «قوموا عنّى، ولا ينبغى عندى التنازع». فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وبين كتابه».(۴) كما تسهل لنا التصديق بخلافهم فى حال حياته عندما أمرهم بقوله:«جهزوا جيش أُسامة لعن اللّه من تخلّف عنه»، فقال قوم: يجب علينا امتثال _____

۱ . البقرة:۱۹۶.

۲ . النص والاجتهاد: ۱۲۰، وقد نقل مصادر كلامه.

۳ . مفاتيح الغيب للرازى:۳/۲۰۱ فى تفسير آية ۲۴من سورة النساء ;شرح التجريد للفاضل القوشجى: ۴۸۴.

۴ . صحيح البخارى:۱/۳۰. (۴۶)

أمره، وأُسامة قد برز من المدينة، وقال قوم: قد اشتد مرض النبى عليه الصلاة والسلام فلا تسع قلوبنا مفارقته والحالة هذه، فنصبر حتى نبصر أى شىء يكون من أمره.(۱) نعم كانت هناك هنابث ومشاجرات فى أُمور لا تروق سليقة بعض النفوس وميولهم، غير أنّ هذه

الخلافات لم تكن على حدّتنشق بها عصا الوحدة وتنفصم بها عرى الأخوة، وأعظم خلاف بين الأمّة هو الخلاف الذى نجم بعد لحوقه بالرفيق الأعلى، وهو الخلاف فى الإمامة وقد لمست الأُمة ضرره وخسارته حتى أنّ الشهرستانى أعرب عن عظم هذه الخسارة بقوله: «ما سل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة فى كلّ زمان».(۲) وإليك بيان أساس هذا الاختلاف: لما التحق النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بالرفيق الأعلى صارت الأُمّة فرقتين باقيتين إلى الآن: الأُولى: القائلون بأنّ منصب الإمامة منصب إلهى وأنّ الإمام يقوم بالوظائف التى كانت قد أُلقيت على عاتق النبى من تبيين الأحكام الشرعية وتفسير كتابالله وصيانة الدين عن النقص والزيادة والإجابة على الأسئلة الواردة والاعتراضات المتوجهة إلى الدين مضافاً إلى إدارة المجتمع البشرى وسياسته التى يعبر عنها بالحكومة الإسلامية. الثانية: القائلون بأنّ منصب الإمامة منصب عادى يجب أن يقوم بها واحد من آحاد الأُمّة لتبرير أمر المجتمع سياسة واجتماعاً واقتصاداً وغير ذلك، وأنّه لم يرد فى أمر الخلافة نص على شخص ما وهؤلاء هم الموسومون بأهل السنّة.

*** (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّه جَميعاً ولا تَفَرَّقُوا). (۳) _____

۱ . الملل والنحل:۱/۲۳ ـ ۲۴.

۲ . الملل والنحل:۱/۲۳ ـ ۲۴.

۳ . آل عمران: ۱۰۳. (۴۷)

الفصل الثالث علل تكوّن الفرق الإسلامية

الفصل الثالث علل تكوّن الفرق الإسلامية

إنّ الوقوف على تاريخ الفرق الإسلامية، وكيفية تكوّنها والعلل الباعثة على نشأتها، من الأبحاث المهمة التى تعين الباحث فى تقييم المذاهب الإسلامية ومدى إخلاص أصحابها فى نشرها وبثها بين الأُمّة، و هذه النقطة الحسّاسة من علم الملل والنحل، قد أهملت فى كثير من كتب الفرق والنحل إلاّ شيئاً قليلاً لا يشبع نهمة الطالب، ونحن نأتى فى هذه العجالة بإجمال ما وقفنا عليه فى تاريخ تكوّنها والبواعث الموجدة لها، وأمّا الإسهاب فى البحث فموكول إلى آونة أُخرى. لبّى النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ دعوة ربّه وانتقل إلى جواره وترك لأُمّته ديناً قيماً عليه سمات من أبرزها «بساطة العقيدة ويسر التكليف» وأخذ المسلمون يفتحون البلاد بقوة المنطق أوّلاً وحدّالسلاح ثانياً، وأخذت قوى الكفر والشر تنسحب أمام دعاة الإسلام وجنوده البواسل، وتنصاع لهداه البلاد إثر البلاد. ارتحل الرسول الصادع بالحق، وترك بين أُمّته كتاب اللّه العزيز الذى فيه تبيان كل شىء(۱)، وسنّته الوضّاءة المقتبسة من الوحى(۲) السليم من الخطأ، _____

۱ . (وَنَزَّلنا عَلَيْكَ الكِتاب تِبْياناً لِكُلِّ شَىْء) (النحل:۸۹).

۲ . (إِنْ هُوَ اِلاّ وَحْىٌ يُوحى) (النجم:۴). (۴۸)

المصون من الوهن وعترته الطيبين الذين هم فى لسان نبيّهم قرناء الكتاب.(۱) فالمسلمون الأوّلون فى ضوء بساطة العقيدة وسهولة التشريع و فى ظل هذه الحجج والأدلة القويمة، كانوا فى غنى عن الخوض فى أقوال المدارس العقلية والمناهج الكلامية التى كانت دارجة بين الأُمم المتحضّرة آنذاك، فهم بدل الغور فيها، كانوا يخوضون غمار المنايا و يرتادون ميادين الحروب فى أقطار العالم وأرجاء الدنيا لنشر الدين والتوحيد ومكافحة شتى ألوان الشرك والثنوية ومحو العدوان والظلم عن المجتمع البشرى. نعم كان هذا وصفهم وحالهم إلاّ شذاذاً منهم من الانتهازيين، عبدة المقام وعشاق المال ممن لم تهمّهم إلاّأنفسهم وإلاّعلفهم وماؤهم، وقد قلنا إنّ بساطة التكليف كانت إحدى العوامل التى صرفت المسلمين عن التوجه والتعرض للمناهج الفلسفية الدارجة فى الحضارات القائمة آنذاك، فلأجل ذلك كانوا يكتفون مثلاً فى معرفة اللّه سبحانه بقوله عزّمن قائل: (أَفِى اللّه شَكٌّ فاطِرِ السَّمواتِ والأَرضِ) (۲)، وقوله عزّجلّ:(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْء أَمْ هُمُ الْخالِقُون).(۳) وفى نفى الشرك والثنوية كانوا يكتفون بقوله سبحانه: (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاّ اللّهُ

لَفَسَدتا).(۴) وفى التعرّف على صفاته وأفعاله بقوله سبحانه: (هُوَ اللّهُ الَّذى لاإِلهَ إِلّاهُوَ عالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحيم) (۵)، إلى آخر سورة الحشر. وفى تنزيهه عن التشبيه والتجسيم بقوله سبحانه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّميعُ الْبَصير)(۶)،

---

۱ . لقوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : إنّى تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتى، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدى أبداً، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا على الحوض. والتثليث فى كلامنا لا يعارض التثنية فى كلام الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، لأنّ مرجع كلام العترة إلى سنّة الرسول التى أودعها فى قلوبهم بإذن اللّه عزّ وجلّ.

۲ . إبراهيم:۱۰.

۳ . الطور:۳۵.

۴ . الأنبياء:۲۲.

۵ . الحشر:۲۲.

۶ . الشورى:۱۱. (۴۹)

وبقوله: (لاـ تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصار). (۱) وفى سعة قدرته: (وَما قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) .(۲) إلى غير ذلك من الآيات الواردة حول المبدأ والمعاد وما يرجع إليهما من الأبحاث الكلامية الغامضة، فلكلّ واحدة من هذه المسائل نصوص فى الكتاب والسنّة وهى أغنتهم عن الرجوع إلى غيرهم. نعم إنّ مفاهيم هذه الآيات على بساطتها تهدف إلى معان بعيدة الأغوار، عالية المضامين، فالكلّ يستفيد منها حسب مقدرته واستعداده فهى هادية لكلّ البشر ومفيدة لجميع الطبقات من ساذجها إلى متعلّمها، إلى معلمها.... وهذه الميزة يختصّ بها القرآن الكريم ويتميّز فيها عن غيره، فهو مع كونه هدى للناس عامة، خير دليل للمفكّرين صغارهم وكبارهم. هذا هو الكتاب، وأمّا السنّة فهى عبارة عمّا ينسب إلى النبى من قول أو فعل أو تقرير، نازلة منزلة التفسير والتبيين لمعانى الكتاب الحكيم، مبينة لمجمله، شارحة لمعانيه كما يعرب عنه قوله سبحانه: (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (۳)، أى لا لتقرأ فقط، بل لتبيّن وتشرح ما نزل، بقولك وفعلك وتقريرك. وأمّا العترة فيكفى فى عصمتهم وحجية أقوالهم، حديث الثقلين الذى تواتر نقله، وقام بنقله أكابر المحدّثين فى العصور الإسلامية كلّها. وكان اللائق بالمسلمين والواجب عليهم مع الحجج الإلهية، التمسّك بالعروة الوثقى ورفض الاختلاف، ولكن يا للأسف تفرقوا إلى فرق وفرق لعلل نشير إليها. إنّ لتكوّن المذاهب الإسلامية ـ أُصولاً وفروعاً ـ عللاً وأسباباً ومعدات وممهدات ولا يقوم بحقّ بيانها الباحث إلّا بإفراد كتاب خاص فى هذا الموضوع، _____

۱ . الأنعام:۱۰۳.

۲ . الأنعام:۹۱.

۳ . النحل:۴۴. (۵۰)

ولكن نشير فى هذه العجالة إلى العوامل الرئيسية فى تكوّن الفرق ونشوئها فى المجتمع الإسلامى وهى أُمور: ۱. الاتجاهات الحزبية والتعصبات القبلية. ۲. سوء الفهم واعوجاجه فى تحديد الحقائق الدينية. ۳. المنع عن كتابة حديث رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ونقله والتحدّث به كما سيجىء. ۴. فسح المجال للأحبار والرهبان للتحدّث عن قصص الأوّلين والآخرين. ۵. الاحتكاك الثقافى واللقاء الحضارى بين المسلمين وغيرهم من الفرس والروم والهنود. ۶. الاجتهاد فى مقابل النصّ. وإليك البحث فى كلّ واحد من هذه العوامل حسب ما يقتضيه المجال. *** (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعظُونَ بِهِ لَكانَ خَيراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبيتاً) (۱).

*** _____

۱ . النساء: ۶۶ . (۵۱)

العامل الأوّل الاتجاهات الحزبيةُ والتعصّبات القبلية

العامل الأوّل الاتجاهات الحزبيةُ والتعصّبات القبلية

إنّ أعظم خلاف بين الأُمّة هو الخلاف فی قضية الإمامة، إذ ما سل سيف قطّ فی الإسلام وفی كلّ الأزمنة علی قاعدة دينية مثل ما سلّ علی الإمامة، وقد كان الشقاق بين المسلمين فی تلك المسألة أوّل شقاق نجم بينهم وجعلهم فرقاً أو فرقتين. فمن جانب نری علياً صلوات اللّه عليه ورجال البيت الهاشمی ركنوا إلی النص وقالوا: إنّ الإمامة شأنها شأنالنبوة لا تكون إلّا بالنصّ. وإنّ هذا النصّ قد صدر عن النبی فی مواطن شتی، آخرها واقعة الغدير المشهورة بين كافّة الناس حينما قام النبی ـ صلَّی الله عليه وآله وسلَّم ـ فی محتشد عظيم وقال: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه...».(۱) ومن جانب آخر نری الأنصار تجتمع فی سقيفة بنی ساعدة قبل تجهيز النبی ـ صلَّی الله عليه وآله وسلَّم ـ ومواراته، يبحثون عن قضية الإمامة أو الخلافة، فيری سيدهم أنّ القيادة حقّ للأنصار رافعاً عقيرته بقوله: يا معشر الأنصار لكم سابقة فی الدين وفضيلة فی الإسلام ليست فی العرب، إنّ محمّداً ـ صلَّی الله عليه وآله وسلَّم ـ لبث بضع عشرة سنة فی قومه يدعوهم إلی عبادة الرحمن وقلع الأنداد _____

۱ . راجع فی تواتره وكثرة رواته فی جميع العصور الإسلامية من عصر الصحابة إلی عصرنا هذا، ودلالته علی الولاية الكبری للإمام أمير المؤمنين، كتاب الغدير: الجزء الأوّل، ولأجل ذلك طوينا الكلام عن نقل مصادره. (۵۲)

والأوثان، فما آمن به من قومه إلّا رجال قليل ما كانوا يقدرون علی أن يمنعوا رسول اللّه ـ صلَّی الله عليه وآله وسلَّم ـ ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عموا به، حتی إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصّكم بالنعمة، فرزقكم اللّه الإيمان به ورسوله والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشدّ الناس علی عدّوه منكم وأثقله علی عدوه من غيركم، حتی استقامت العرب لأمر اللّه طوعاً وكرهاً ـ إلی أن قال ـ: استبدوا بهذا الأمر دون الناس. فأجابوه بأجمعهم: أن قد وفقت فی الرأی وأصبت فی القول ولن نعدو ما رأيت، نولّيك هذا الأمر فإنّك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضی.(۱) هذا منطق الأنصار ورئيس جبهتهم ترى أنّه يجر النار إلی قرصه وحزبه بحجّة أنّهم آمنوا بمحمّد ـ صلَّی الله عليه وآله وسلَّم ـ ونصروه وآووه، إلی غير ذلك من الحجج التی ذكرها سعد بن عبادة، رئيس الخزرج فی جبهة الأنصار. ومن جهة ثالثة نری بعض المهاجرين الذين اطّلعوا علی اجتماع الأنصار فی السقيفة، يتركون تجهيز النبی ـ صلَّی الله عليه وآله وسلَّم ـ ومواراته ويسرعون إلی السقيفة ويحضرون فی جمعهم ويناشدونهم ويعارضون منطقهم بقولهم: إنّ المهاجرين أوّل من عبد اللّه فی الأرض وآمن باللّه وبرسوله، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم فی ذلك إلّاالظالم ـ إلی أن قال ـ: من ذا ينازعهم فی سلطان محمّد ـ صلَّی الله عليه وآله وسلَّم ـ وإمارته وهم أولياؤه وعشيرته، إلّا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط فی هلكة.(۲) وهذا منطق بعض المهاجرين لا يقصر فی الصلابة أو الوهن عن منطق الأنصار، والكلّ يدّعی أنّ الحقّ له ولحزبه، من دون أن يتفكّروا فی مصالح الإسلام والمسلمين، ومن دون أن يتفكّروا فی اللياقة والكفاءة فی القائد، ومن دون أن يرجعوا إلی الكتاب والسنّة وإحراز المعايير التی يجب وجودها فی القائد، فيشبه منطق هؤلاء منطق المرشحين من سرد الثناء علی أنفسهم وحزبهم لرئاسة الجمهورية أو عضوية المجلس الوطنی.

---

۱ . تاريخ الطبری:۲/۴۵۶، حوادث سنة ۱۱هـ

۲ . تاريخ الطبری:۲/۴۵۷، حوادث سنة ۱۱هـ (۵۳)

وكلّ يدّعی وصلاً بليلی * وليلی لا تقر لهم بذاكا نعم كان هذاالتشاجر قائماً بينهم علی قدم وساق إلی أن تغلب جناح هذا الصنف من المهاجرين علی جبهة الأنصار بإعانة بعض الأنصار وهو«بشير بن سعد» و هو ابن عم«سعد بن عبادة»، فبايع أبا بكر حتی يكسر علی سعد بن عبادة وعلی الخزرج ما كانوا أجمعوا أمرهم، ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض ـ و فيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء ـ: واللّه لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت

لهم علیکم بـذلک الفضـیلة ولاـ جعلوا لکم معهم فیها نصـیباً، فقوموا فبایعوا أبا بکر، فقاموا إلیه وبایعوه.(۱) وهناک کلمـة قیمة للإمام أمیر المؤمنین فی تقییم احتجاج الأنصار والمهاجرین نقلها الشـریف الرضـی فی نهـج البلاغـة، قال: لمّا انتهت إلی أمیر المؤمنین ـ علیه السَّلام ـ أنبـاء السـقیفة،بعـد وفـاة رسول اللّه ـ صـلَّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ ، قـالـ علیه السَّلام ـ :«ما قالت الأنصار؟» قالوا: قالت: منّا أمیر ومنکم أمیر. قـال ـ علیه السَّلام ـ : «فهلا احتججتم علیهم بأنّ رسول اللّه ـ صـلَّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ وصـی بأن یحسن إلی محسـنهم، ویتجـاوز عن مسـیئهم»! قالوا: وما فی هـذا من الحجّة علیهم؟ . فقال ـ علیه السَّلام ـ : «لو کانت الإمارة فیهم، لم تکن الوصـیة بهم». ثمّ قـال ـ علیه السَّلام ـ : «فمـاذا قـالت قریش؟». قـالوا: احتجت بأنّهـا شـجرة الرسول ـ صـلَّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ . فقال ـ علیه السَّلام ـ : «احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة».(۲) _____

۱ . تاریخ الطبری:۲/۴۵۸، حوادث سنة ۱۱هـ

۲ . نهج البلاغة: الخطبة۶۴. (۵۴)

وفی کلمـة قصـیرة عن الإمام ـ علیه السَّلام ـ ، قال: «واعجباه تکون الخلافة بالصـحابة، ولا تکون بالصـحابة والقرابة». قال الرضـی، وقد روی له شـعر قریب من هـذا المعنی وهو: فـإن کنت بـالشوری ملکتأُمورهم فکیف بهـذا والمشـیرون غُیَّبُ وإن کنت بالقربی حججت خصیمهم فغیرک أولی بالنبی وأقرب(۱) وبتلک المعاییر و المبررات تمت البیعـة للخلیفة، والکلّ أشـبه بالمکافحات الحزبیة أو القبلیة التی لا تمت إلی الإسلام وأهله بصلة. فعند ذلک أخذ هؤلاء المهاجرون بزمام الحکم واحداً بعد واحد إلی أن تربّع ثالث القوم عثمان بن عفان علی منصـة الحکم فحـدثت فی زمانه حوادث مؤلمة وبدع کثیرة أدّت إلی الفتک به والإجهاز علیه. غیر أنّ علیّاً صـلوات اللّه علیه وبنی هاشم وعدّة من المهاجرین والبدریین وعدّة من أکابر الأنصار تمسّکوا بالنصّ النبوی وبقوا علی ما فارقهم رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ علیه، کما أنّ رئیس الأنصار الخزرجیین وداعمیه لم یبایعوا أبا بکر ولا علیّاً. هـذا تحلیل تکوّن أوّل تفرّق حـدث فی الإسـلام ;فجعـل الأُمّـة فرقتین: فرقـة تشـایع الخلفاء، وفرقـة تشایع علیّاً ـ علیه السَّلام ـ إلی الیوم الحاضـر. والـذین شایعوا علیّاً ـ علیه السَّلام ـ وتابعوه لم یکن ذلک منهم إلّاتمسـکاً بالدین مذعنین بأنّ النبی ـ صـلَّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ قد نصّ علیه من دون أن یکون هناک انـدفاع حزبی أو علاقـة شخصـیة أو قبلیـة، بل تسـلیماً لقوله سـبحانه: (وَما کانَ لِمُؤمِن وَلا مُؤْمِنَة إِذا قَضـی اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ یَکُونَ لَهُمُ الخِیَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ).(۲) وأمّا غیرهم فقـد عرفت المعاییر التی استندوا إلیها فی تقـدیمهم علی غیرهم، فالکلّ معاییر قبلیـة أو شخصیة. _____

۱ . نهج البلاغة، طبعة عبده، قسم الحکم، الرقم ۱۹۰. وفی المطبوع تحریف، والصحیح ما أثبتناه فی المتن.

۲ . الأحزاب:۳۶. (۵۵)

العامل الثانی سوء الفهم واللجاج فی تحدید

العامل الثانی سوء الفهم واللجاج فی تحدید الحقائق

إذا کانت الـدعایات الحزبیة أوّل عامل لتکوّن الفرق، فهناک عامل ثان لتفریق المسـلمین وتبدیدهم إلی فرق متباعدة، وهو سوء الفهم ـعن تقصیرـ فی تحدیـد العقائـد الدینیـة من بعضـهم، وقلة العقل وخفّته فی بعض آخر منهم، وقد کان هذا عاملاً قویّاً لتکوّن الخوارج التی کانت من أخطر الفرق علی الإسـلام والمسلمین، لولا أنّ الإمام علیّاً ـ علیه السَّلام ـ استأصلهم وبدد شملهم، ومع ذلک بقیت منهم حشاشـات تنجم تـارة وتخفق أُخری فی الأجیـال والقرون، وإلیـک شـرحه: لقـد ثـار أهـل العراق والحجـاز ومصـر علی عثمـان نـتیجة الأحداث المؤلمة التی ارتکبها عماله فی هذه البلاد وانتهی الأمر إلی قتله وتنصیب علی ـ علیه السَّلام ـ مکانه لما عرفت الأُمّة من علمه وفضـله وسـابقته وجهـاده المنقطع النظیر، وقـام علی ـ علیه السَّلام ـ بعزل الولاـة والعمـال الـذین نصـبهم عثمان علی رقاب الناس، وقد انتهت أعمـالهم الإضـراریة من جـانب، وإصـرار الخلیفـة علی إبقـائهم من جـانب آخر، إلی قتله. قـام علی ـ علیه السَّلام ـ بعزل الولاـة

آنـذاک، ونصب العمال الأتقیاء الزهّاد الکفاة مکانهم، وعند ذلک طمع الزبیر بن العوام وطلحة بن عبید اللّه فی العراقین، وطلبا منه أن یولی أحـدهما علی الکوفة والآخر علی البصـرة، والمألوف من طریقة علیـ علیه السَّلام ـ فی تنصـیب العمال اشتراط شـروط، تخالف ما کان علیه (۵۶)

الرجلان وقـد قال فی حقّهما کلمـة: «وإنّی أخاف شـرهما علی الأُمّة وهما معی، فکیف إذا فرقتهم فی البلاد».(۱) فعند ذلک ثارا علی الإمـام علی ـ علیه السَّلام ـ وخرجا علیه واتّهماه ـ لتبریر موقفهماـ بقتل عثمان أو إیواء قتلته، وکانت نتیجـة ذلک اشـتعال نار الحرب بین الإمام والرجلین فی نواحی البصـرة«حرب الجمل» وقتل الرجلین بعد أن أُریقت دماء الأبریاء. ثمّ إنّ معاویة قد عرف موقف علی ـ علیه السَّلام ـ بالنسـبة إلی عمال الخلیفـة «عثمان»، و مع هذا طلب من الإمام إبقاءه والیاً علی الشام، فرفض الإمام ذلک لما یعرف من نفسـیة معاویـة وانحرافه، ونشـبت من ذلک«حرب صـفین» ولما ظهرت بوادر الفتـح المبین لعلی وجیشه، التجأ معاویـة وحزبه إلی خدیعـة رفع المصـاحف والـدعوة إلی تحکیم القرآن بین الطرفین، فصـار ذلک نواة لحـدوث الاختلاف فی جبهـة علی ـ علیه السَّلام ـ . فمن قائل: نسـتمر فی الحرب وهـذه خدعـة ومکر، ومن قائل: نجیبهم إلی ما دعونا إلیه. وقد أمر الإمام بمواصـلة الحرب، وقام بتبیین الخدعة، غیر أنّ الظروف الحاکمة السائدة علی جیش الإمام ألجأته إلی قبول وقف الحرب وإدلاء الأمر إلی الحکمین وإعلان الهدنة، وکتب هناک کتاباً حول هـذا. ومن العجیب أنّ الـذین کانوا یصـرون علی إیقاف الحرب نـدموا علی ما فعلوا فجاءوا إلی الإمام یصـرّون علی نقض العهـد، والهجوم علی جیش معاویـة من جدیـد، غیر أنّ الإمام وقف فی وجههم بصـمود لما یتضـمن من نقض العهـد (وَکانَ عَهْدُ اللّهِ مَسْؤُولاً) .(۲) وعنـد ذلک نجمت فرقة باسم الإسـلام من جیش علی ـ علیه السَّلام ـ وطلع قرن الشـیطان ،فعادت تلک الجماعة خارجة عـن إطاعـة إمـامهم، رافضـة لحکـومته، ومبغضـة إیّـاه کمـا أبغضـت عثمـان وعمـاله، وهـذه الفرقـة هی فرقـة الخـوارج ومـا زالـوا

---

۱ . شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید:۱۱/۱۶.

۲ . الأحزاب:۱۵. (۵۷)

مبدأ أحداث وعقائد فی التاریخ. وکان الحافز القوی علی تکوّن هذه الفرقة هو سوء الفهم واعوجاج السلیقة، وقد عرّفهم الإمام بقوله ـ عندما شـهروا سـیوفهم علیه فی النهروان ـ :«فأنا نذیرکم أن تصبحوا صرعی بأثناء هذا النهر وبأهضام هذا الغائط علی غیر بیّنة من ربّکم ولاـ سـلطان مبین معکم، قـد طوّحت بکم الـدار واحتبلکم المقـدار، وقـد کنت نهیتکم عن هـذه الحکومـة فـأبیتم علی إبـاء المخالفین المنابـذین، حتی صـرفت رأیی إلی هواکم وأنتم معاشـر أخفّاء الهام، سـفهاء الأحلام».(۱) وللإمام کلمة أُخری یشـیر فیها إلی السـبب الـذی فـارقوا به عن الحقّ قال صـلواتاللّه علیه:«لا تقتلوا الخوارج بعـدی، فلیس من طلب الحقّ فأخطأه کمن طلب الباطل فأدرکه»(یعنی معاویة وأصحابه). قال الإمام عبده: والخوارج من بعده وإن کانوا قد ضلّوا بسوء عقیدتهم فیه إلّاأنّ ضلّتهم لشبهة تمکّنت فی نفوسهم، فاعتقدوا أنّ الخروج عن طاعة الإمام ممّا یوجبه الدین علیهم، فقد طلبوا حقّاً وأرادوا تقریره شرعاً، فأخطأوا الصواب فیه.(۲) وقد زعموا أنّ مسألة التحکیم تخالف قوله سبحانه: (إِنِ الحُکْمُ إِلّاللّه).(۳) وسیوافیک مفاد الآیة ومقالة المحتجین بهاـ عند البحث عن عقائد تلک الفرقة ـ کی یظهر مدی اعوجاج فهم القوم. ظهور المرجئة

قـد کـان لظهـور الخوارج أثر بـارز فی حـدوث الفتن وظهور الحوادث الأُخـر فی المجتمع الإسـلامی، وقـد نجمت المرجئـة من تلک الناحیة حیث إنّ الإرجاء

---

۱ . نهج البلاغة شرح محمد عبده:۱/۸۲، الخطبة۳۵.

۲ . نهج البلاغة شرح محمد عبده:۱/۱۰۳ الخطبة ۵۸.

۳ . یوسف:۴۰. (۵۸)

بمعنی التأخیر قال سبحانه: (أَرْجه وَأَخاهُ وَأَرسل فِی المدَائنِ حاشِرین) .(۱) ولهذه الفرقة (المرجئة) آراء خاصة نشیر إلیها فی محلّها،

غير أنّ اللبنة الأولى لظهورها هى اختلافهم فى أمر على وعثمان، فهؤلاء (الخوارج) كانوا يحترمون الخليفتين أبا بكر وعمر ويبغضون علياً وعثمان، على خلاف أكثرية المسلمين، ولكن المرجئة الأُولى لما لم يوفقوا لحلّ هذه المشكلة التجأوا إلى القول بالإرجاء فقالوا: نحن نقدّم أمر أبى بكر وعمر، ونؤخّر أمر الآخرين إلى يوم القيامة، فصارت المرجئة فرقة نابتة من خلاف الخوارج فى أمر الخليفتين، مع فوارق بينهم و بين المرجئة التى تأتى فى محلّها، والعامل لتكوّنها كأصلها، هو سوء الفهم واعوجاج التفكير. هذا هو أصل الإرجاء، ولبنته الأُولى، ولكنّه قد نسى فى الآونة الأخيرة ;وأخذ الأصل الآخر مكانه، و هو كون العمل داخلاً فى الإيمان أو لا؟ وبعبارة أُخرى: هل مرتكب الكبيرة مؤمن أو لا؟ ذهبت الخوارج إلى دخول العمل فى صميم الإيمان، فصار مرتكب الكبيرة كافراً. واختارت المعتزلة كون مرتكب الكبيرة غير مؤمن ولكنّه ليس بكافر، بل هو فى منزلة بين المنزلتين. وذهبت المرجئة الأُولى إلى خروج العمل من الإيمان، وأنّ إيمان مرتكب الكبيرة، كإيمان الملائكة والأنبياء بحجّة عدم دخالة العمل فى الإيمان. فاشتهروا بالقول: «قدّموا الإيمان وأخّروا العمل» فصار هذا أصلاً وأساساً ثانوياً للمرجئة. فكلّما أطلقت المرجئة لا يتبادر منها إلاّ هؤلاء. إنّ الاكتفاء فى تفسير الإيمان بالشهادة اللفظية أو المعرفة القلبية، وأنّ عصاة المؤمنين لا يعذبون أصلاً، وانّ النار للكافرين(۲) واقتحام الكبائر لا يضر أبداً،

---

۱ . الأعراف:۱۱۱.

۲ . شرح المقاصد للتفتازانى:۲/۲۲۹، ولاحظ أيضاً ص ۲۳۸. (۵۹)

فكرة خاطئة تسير بالمجتمع وخصوصاً الشباب فيه إلى الخلاعة والانحلال الأخلاقى وترك القيم. وعلى كلّ تقدير إنّ نظرية الإرجاء فى كلا الموضعين نظرية باطلة نشأت من الاعوجاج فى فهم المعارف والانحراف فى تفسير الذكر الحكيم، والحديث المأثور عن النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . ولما كان مذهب الإرجاء لصالح السلطة الأموية أخذت تروّجه وتسانده حتى لم يلبث أن فشا فى الإرجاء، ولم تبق كورة إلاّ وفيها مرجئى، كما سيوافيك ذلك عند البحث عن عقائد هذه الفرقة. وليس ظهور الخوارج أو المرجئة وحدهما نتاج الإعوجاج الفكرى، بل هناك مذاهب أُخرى نجمت من هذا المنشأ. عصمنا اللّه جميعاً من الزلل فى القول والعمل. *** (ادعُ إِلى سَبيلِ رَبّكَ بِالحكْمَةِ وَالْموعِظَةِ الحَسَنةِ وَجادِلْهُمْ بِالّتى هِىَ أَحْسَن) (۱). _____

۱ . النحل: ۱۲۵.

العامل الثالث المنع عن كتابة الحديث وتدوينه بل

العامل الثالث المنع عن كتابة الحديث وتدوينه بل التحدّث عنه

إنّ هنا عاملاً ثالثاً لتكوّن الفرق ونشوء الفوضى فى العقائد والأُصول، وهو المنع عن كتابة الحديث وتدوينه بل التحدّث عنه بعد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ إلى عهد المنصور العباسى. توضيحه: الحديث عبارة عمّا ينسب إلى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ من قول أو فعل أو تقرير نازل منزلة التفسير لمعانى الكتاب الحكيم، مبيّن لمجمله، شارح لمعانيه، كما يعرب عنه قوله سبحانه: (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون) .(۱) أى لا لتقرأ فقط، بل تبيّن وتشرح ما نزل، بقولك وفعلك وتقريرك. إذا كانت السنّة هى فى الدرجة الثانية من الدين بعد القرآن الكريم فى الحجية والاعتبار، حتى إنّك لا تجد فيها شيئاً إلاّ وفى القرآن أُصوله وجذوره، ولا إسهاباً إلاّ وفيه مجمله وعناوينه. وإذا كان الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لا يصدر فى قوله وكلامه إلاّ بإيحاء من اللّه سبحانه كما يصرح بذلك قوله سبحانه: (ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى* وَما يَنْطِقُ عَنِ الهَوى* إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْىٌ يُوحى).(۲) _____

۱ . النحل:۴۴.

۲ . النجم:۲ ـ ۴. (۶۱)

فهل يصحّ للرسول أن يمنع عن تدوينه وكتابته أو مدارسته ومذاكرته؟! وإذا كان الرسول منع دراسة الحديث ونقله ونشره وتدوينه، فما معنى قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فى خطبته فى منى عام حجّة الوداع: «نضر اللّه امرأً سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلّغها، فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(۱) ؟! وما معنى قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: «نضّر اللّه امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما يسمع، فرب مبلّغ أوعى من سامع»(۲)؟! أو قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: «اللّهمّ ارحم خلفائى، اللّهم ارحم خلفائى، اللّهمّ ارحم خلفائى» قيل: يا رسول اللّه ومن خلفاؤك؟ قال: «الذين يأتون من بعدى يروون حديثى وسنّتى»(۳)؟! كيف تصحّ نسبة المنع إلى الرسول الأعظم، مع أنّ المستفيض منه خلافه؟! وإليك بعض ما ورد عنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ. أمر الرسول بكتابة حديثه

۱. روى البخارى عن أبى هريرة أنّ خزاعة قتلوا رجلاً من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه، فأُخبر بذلك النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، فركب راحلته فخطب، فقال: «إنّ اللّه حبس عن مكة القتل أو الفيل(شكّ أبو عبد اللّه) وسلّط عليهم رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ والمؤمنين. ألا ـ وإنّها لم تحل لأحد قبلى ولم تحل لأحد بعدى ـ إلى أن قال ـ: فجاء رجل من أهل اليمن فقال: اكتب لى يا رسول اللّه؟ فقال: «اكتبوا لأبى فلان ـ إلى أن قال ـ: كتب له هذه الخطبة».(۴) ۲. وروى أنّ رجلاً من الأنصار كان يجلس إلى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فيسمع من النبى الحديث فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فقال: يا رسول اللّه إنّى أسمع منك الحديث _____

۱ . سنن الترمذى:۵/۳۴ ح۲۶۵۷، ۲۶۵۸.

۲ . سنن الترمذى:۵/۳۴ ح۲۶۵۸.

۳ . كنزالعمال:۱۰/۲۲۱، رقم الحديث۲۹۱۶۷ ;و بحارالأنوار:۲/۱۴۵ ح۷.

۴ . صحيح البخارى: ۲۹ـ۳۰، باب كتابة العلم، الحديث ۲. (۶۲)

فيعجبنى ولا أحفظه، فقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: «استعن بيمينك» وأومأ بيده للخط.(۱) ۳. وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه قال: قلت: يا رسول اللّه أكتب كلّ ما أسمع منك؟ قال: «نعم». قلت: فى الرضا والسخط؟ قال: «نعم فإنّه لا ينبغى لى أن أقول فى ذلك إلّاحقاً».(۲) ۴. وعن عبد اللّه بن عمرو قال: كنت أكتب كلّ شىء أسمعه من رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أُريد حفظه، فنهتنى قريش وقالوا: تكتب كلّ شىء سمعته من رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ورسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بشر يتكلم فى الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، فأومأ بإصبعه إلى فيه وقال:«اكتب، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلّا حقّ».(۳) ۵. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جدّه، قال: قلت: يا رسول اللّه إنّا نسمع منك أحاديث لا نحفظها أفلا نكتبها؟ قال: «بلى فاكتبوها».(۴) أضف إلى ذلك أنّ الذكر الحكيم يحثّ المسلمين على كتابة ما يتداينون بينهم. قال سبحانه: (يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا ـ يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُب وَلْيُمْلِلِ الَّذى عَلَيْهِ الحَقّ...) ثمّ يعود ويؤكد على المؤمنين أن لا يسأموا من الكتابة فقال سبحانه:(وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغيراً أَوْ كَبيراً إِلى أَجلِهِ...).(۵) _____

۱ . سنن الترمذى:۵/۳۹، كتاب العلم، باب ما جاء فى الرخصة فيه، ح۲۶۶۶.

۲ . مسند أحمد:۲/۲۰۷.

۳ . سنن الدارمى:۱/۱۲۵، باب من رخّص فى كتابة العلم ;سنن أبى داود:۲/۳۱۸، باب فى كتابة العلم ;مسندأحمد:۳/۱۶۲.

۴ . مسند أحمد:۲/۲۱۵.

۵ . البقرة:۲۸۲. (۶۳)

فإذا كان المال الذى هو زينة الحياة الدنيا من الأهمية بهذه المنزلة، فكيف بأقوال النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وأفعاله وتقاريره التى تعتبر تالى القرآن الكريم حجّية وبرهاناً؟ وهناك كلمة قيّمة للخطيب البغدادى نأتى بها برمتها: وقد أدّب اللّه سبحانه عباده بمثل

ذلک فی الدین، فقال عزّ وجلّ: (وَلا تَسأمُوا أنْ تَکْتُبُوهُ صَغِیراً أوْ کَبیراً إلی أجَلِهِ ذلِکَمْ أقْسطُ عِنْدَ اللّهِ وَأقْوَمُ لِلشَّهادةِ وَأدنی أَلّا تَرْتابُوا) .(۱) فلمّا أمر اللّه تعالی بکتابة الدین حفظاً له، واحتیاطاً علیه وإشفاقاً من دخول الریب فیه، کان العلم الذی حفظه أصعب من حفظ الدین، أحری أن تباح کتابته خوفاً من دخول الریب والشکّ فیه. بل کتابة العلم فی هذا الزمان، مع طول الاسناد، واختلاف أسباب الروایة، أحج من الحفظ، ألا تری أنّ اللّه عزّوجلّ جعل کتب الشهادة فیما یتعاطاه الناس من الحقوق بینهم، عوناً عند الجحود، وتذکرة عند النسیان، وجعل فی عدمها عند المموّهین بها أوکد الحجج ببطلان ما ادّعوه فیها، فمن ذلک أنّ المشرکین لما ادّعوا بهتاً اتخاذ اللّه سبحانه بنات من الملائکة، أمر اللّه نبینا ـ صلای الله علیه وآله وسلَّم ـ أن یقول لهم: (فأْتُوا بِکِتابِکُمْ إنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ) .(۲) ولمّا قالت الیهود: (ما أنزلَ اللّهُ علی بشر مِنْ شَیْء) (۳)، وقد استفاض عنهم قبل ذلک للإیمان بالتوراة، قال اللّه تعالی لنبیّنا ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قل لهم: (مَنْ أَنْزلَ الکتابَ الَّذی جاءَ بِهِ مُوسی نُوراً وَهدیً لِلناسِ تَجْعَلُونهُ قَراطِیسَ تُبْدُونها وَتُخْفُونَ کَثیراً) (۴)، فلم یأتوا علی ذلک ببرهان، فأطلع اللّه علی عجزهم عن ذلک بقوله:(قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فی خَوضِهِمْ یَلْعَبُون) .(۵) _____

۱ . البقرة:۲۸۲.

۲ . الصافات:۱۵۷.

۳ . الأنعام:۹۱.

۴ . الأنعام:۹۱.

۵ . الأنعام:۹۱. (۶۴)

وقال تعالی ـ رادّاً علی متّخذی الأصنام آلهة من دونه ـ : (أَرونی ماذا خَلَقُوا مِنَ الأَرضِ أَمْ لَهُمْ شِرکٌ فِی السَّماواتِ ائتُونی بِکتاب مِنْ قَبْلِ هذا أو أَثارة مِنْ عِلْم إنْ کُنْتُمْ صادِقین) .(۱) والأثارة والأثرة، راجعان فی المعنی إلی شیء واحد،وهو ما أثر من کتب الأوّلین. وکذلک سبیل من ادّعی علماً أو حقاً من حقوق الأملاک، أن یقیم دون الإقرار برهاناً، إمّا شهادة ذوی عدل أو کتاباً غیر مموّه، وإلّافلا سبیل إلی تصدیقه. والکتاب شاهد عند التنازع... إلی آخر ما ذکره.(۲) نری أنّه سبحانه قد شرح دساتیر وحیه وآی قرآنه بالأمر بالقراءة مبیّناً أهمیة القلم فی التعلیم والتعلّم حیث قال عزّمن قائل: (اقرأ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذی خَلَق* خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَق* اقْرَأْ وَرَبّکَ الأَکْرَم* الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَم).(۳) بل و عظّم سبحانه القلم والکتابة تعظیماً، حتی جعلها بمرتبة استحقاق القسم بها فهو جلّ وعلا یقول: (ن وَالقَلَم وما یَسْطُرُون) .(۴) أفهل یعقل معه أن ینهی رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ عن کتابة ما هو قرین القرآن وتالیه فی الحجیة، أعنی: السنة الشریفة؟! کلّا. أُسطورة المنع عن کتابة الحدیث

هذا إن دلّ علی شیء فإنّما یدلّ علی أنّ ما نسب إلیه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ من النهی عن کتابة الحدیث، یخالف منطق الوحی والحدیث والعقل، وما هو إلّاولید الأوهام والسیاسات التی أخذت تمنع نشر حدیث الرسول ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وتدوینه لغایات سیاسیة لا تخفی علی ذی _____

۱ . الأحقاف:۴.

۲ . تقیید العلم:۷۰ـ۷۱.

۳ . العلق:۱ـ۴.

۴ . القلم:۱. (۶۵)

لب. فمثلاً روی مسلم فی صحیحه وأحمد فی مسنده أنّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: «لا تکتبوا عنّی، ومن کتب عنّی غیر القرآن فلیمحه».(۱) وفی روایة: إنّهم استأذنوا النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ أن یکتبوا عنه فلم یأذنهم.(۲) وفی مسند أحمد أنّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ نهی أن نکتب شیئاً من حدیثه(۳). وأیضاً ورد فی مسند أحمد عن أبی هریرة أنّه قال:«کنا قعوداً نکتب ما نسمع من النبی، فخرج علینا فقال: «ما هذا تکتبون»؟ فقلنا: ما نسمع منک، فقال: «أکتاب مع کتاب اللّه؟» فقلنا: ما نسمع. فقال:

«اكتبوا كتاب اللّه، امحضوا كتاب اللّه، أكتاب غير كتاب اللّه، امحضوا أو خلصوه» . قال: فجعلنا ما كتبنا فى صعيد واحد ثمّ أحرقناه بالنار».(۴) ثمّ إنّ القوم لم يكتفوا بما نسبوه إلى النبى فى مجال كتابة الحديث، بل ذكروا هناك أحاديث موقوفة على الصحابة والتابعين تنتهى إلى الشخصيات البارزة: كأبى سعيد الخدرى، وأبى موسى الأشعرى، وعبد اللّه بن مسعود، وأبى هريرة، وعبد اللّه بن عباس، وعبد اللّه بن عمر، وعمر بن عبد العزيز، وعبيدة، وإدريس بن أبى إدريس، ومغيرة بن إبراهيم، إلى غير ذلك.(۵) وروى عروة بن الزبير أنّ عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن، فاستشار فى ذلك أصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير اللّه فيها شهراً، ثمّ أصبح يوماً و قد عزم اللّه له، فقال: إنّى كنت أردت أن أكتب السنن، وإنّى ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب اللّه، وإنّى واللّه لا ألبس كتاب اللّه بشىء _____

۱ . سنن الدارمى:۱/۱۱۹ ;مسند أحمد:۳/۱۲.

۲ . سنن الدارمى:۱/۱۱۹.

۳ . مسند أحمد:۵/۱۸۲.

۴ . مسند أحمد:۳/۱۲.

۵ . جمع الخطيب فى «تقييد العلم»: ۲۹ـ ۲۸، الروايات المنسوبة إلى النبى والموقوفة على الصحابة والتابعين. (۶۶)

أبداً.(۱) وروى ابن جرير أنّ الخليفة عمر بن الخطاب كان كلّما أرسل حاكماً أو والياً إلى قطر أو بلد، يوصيه فى جملة ما يوصيه: جرّدوا القرآن وأقلّوا الرواية عن محمّد وأنا شريككم.(۲) وكان عمر قد شيع قرظة بن كعب الأنصارى ومن معه إلى «صرار» على ثلاثة أميال من المدينة، وأظهر لهم أنّ مشايعته لهم إنّما كانت لأجل الوصية بهذا الأمر، وقال لهم ذلك القول. قال قرظة بن كعب الأنصارى: أردنا الكوفة، فشيّعنا عمر إلى «صرار» فتوضأ فغسل مرتين، وقال: تدرون لم شيعتكم؟ فقلنا: نعم، نحن أصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، فقال: إنّكم تأتون أهل قرية لهم دويّ بالقرآن كدويّ النحل، فلا تصدّوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جرّدوا القرآن، وأقلّوا الرواية عن رسول اللّه، وامضوا وأنا شريككم.(۳) وقد حفظ التاريخ أنّ الخليفة قال لأبى ذر، وعبد اللّه بن مسعود، وأبى الدرداء:ما هذا الحديث الذى تفشون عن محمّد ؟!.(۴) وذكر الخطيب فى «تقييد العلم» عن القاسم بن محمد: أنّ عمر بن الخطاب بلغه أنّ فى أيدى الناس كتباً، فاستنكرها وكرهها، وقال: أيّها الناس إنّه قد بلغنى أنّه قد ظهرت فى أيديكم كتب، فأحبها إلى اللّه، أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاب إلاّ أتانى به فأرى فيه رأيى. قال فظنوا أنّه يريد ينظر فيها ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم، فأحرقها بالنار ثمّ قال: أمنية كأمنية أهل الكتاب .(۵) _____

۱ . تقييد العلم: ۴۹.

۲ . تاريخ الطبرى:۳/۲۷۳، طبعة الأعلمى بالأُفست.

۳ . طبقات ابن سعد:۶/۷ ;المستدرك للحاكم:۱/۱۰۲.

۴ . كنز العمال:۱۰/۲۹۳ ح ۲۹۴۷۹.

۵ . تقييد العلم: ۵۲. (۶۷)

وقد صار عمل الخليفتين سنّة، فمشى عثمان مشيهما، ولكن بصورة محدودة وقال على المنبر: لا يحل لأحد يروى حديثاً لم يسمع به فى عهد أبى بكر ولا عهد عمر .(۱) كما أنّ معاوية اتبع طريقة الخلفاء الثلاث فخطب وقال: يا ناس أقلّوا الرواية عن رسول اللّه وإن كنتم تتحدّثون فتحدّثوا بما كان يتحدّث به فى عهد عمر.(۲) حتى أنّ عبيد اللّه بن زياد عامل يزيد بن معاوية على الكوفة، نهى زيد بن أرقم الصحابى عن التحدّث بأحاديث رسول اللّه .(۳) وبذلك أصبح ترك كتابة الحديث سنّة إسلامية، وعدّت الكتابة شيئاً منكراً مخالفاً لها. هذه هى بعض الأقاويل التى رواها أصحاب الصحاح والسنن، وفى نفس الوقت نقلوا أحاديث تناقضها وتأمر بكتابة الحديث والسنّة كما ستوافيك. العقل والمنع عن كتابة الحديث

كيف يسمح العقل والمنطق أن يحكم بصحّة الأحاديث الناهية عن الكتابة، مع أنّ الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أمر فى أخريات حياته أن يحضروا له قلماً ودواة ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً! وما كان المكتوب (على فرض كتابته) إلّا حديثاً من أحاديثه، فقد روى البخارى عن ابن عباس أنّه قال:لمّا اشتدّ بالنبى وجعه قال: ائتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، قال عمر: إنّ النبىّ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ غلبه الوجع وعندنا كتاب اللّه حسبنا. فاختلفوا وكثر اللغط قال: «قوموا عنّى ولا ينبغى عندى التنازع» فخرج ابن عباس يقول: الرزية كلّ الرزية ماحال بين رسول اللّه وبين كتابه.(۴) _____

۱ . كنز العمال:۱۰/۲۹۵، ح ۲۹۴۹۰.

۲ . كنز العمال:۱۰/۲۹۱، ح ۲۹۴۷۳.

۳ . فرقة السلفية، ص ۱۴، نقلاً عن مسند الإمام أحمد.

۴ . صحيح البخارى :۱/۳۰ كتاب العلم، باب كتابة العلم. (۶۸)

أفهل يجتمع هذا الأمر مع النهى عن تدوينه؟! ثمّ إنّنا نرى أنّ الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بعث كتب إلى الملوك والساسة والأُمراء والسلاطين وشيوخ القبائل ورؤسائها ناهز عددها ثلاثمائة كتاب فى طريق الدعوة والتبليغ أو حول العهود والمواثيق وقد حفظ التاريخ متون هذه الرسائل التى جمع بعضها نخبة مع المحقّقين فى كتب خاصة.(۱) والتاريخ يصرح بأنّ الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ كان يملى والكاتب يكتب، فلما ازدادت الحاجة وكثرت العلاقات الاجتماعية أصبحت الحاجة إلى كتّاب يمارسون عملهم، فأدّى ذلك إلى كثرة الكتّاب فجعل لكلّ عمل كاتباً، ولكلّ كاتب راتباً معيناً. وقد كان أكثرهم كتابة، على بن أبى طالب صلوات وسلامه عليه، فقد كان يكتب الوحى وغيره من العهود والمصالحات ،وقد أنهى المؤرخون كتّابه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ إلى سبعة عشر كاتباً. فهل يجوز أن يكتب الرسول الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ هذه المكاتبات والعهود والمصالحات إلى بطون القبائل ورؤساء العشائر وهو يعلم أنّهم يحتفظون بهذه المكاتبات بحجّة أنّها من أوثق الوثائق السياسية والدينية، ثمّ ينهى عن تسطير كلامه وحديثه؟! فما هذان إلّانقيضان لا يجتمعان. الغايات السياسة والأهداف الدينية

ومع ذلك كلّه فقد غلبت الغايات السياسية على الأهداف الدينية وقامت بكلّ قوة أمام حديث النبى ونشره وكتابته، حتّى إنّ الخليفة أبا بكر أحرق فى خلافته خمسمائة حديث كتبه عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ (۲). و لمّا قام عمر بعده بالخلافة نهى عن كتابة الحديث وكتب إلى الآفاق: أنّ من كتب حديثاً فليمحه.(۳) ثمّ نهى عن التحدّث، فتركت عدّة من الصحابة الحديث

---

۱ . «كالوثائق السياسية» لمحمد حميد اللّه، و «مكاتيب الرسول» للعلّامة الأحمدى.

۲ . كنز العمال:۱۰/۲۳۷و ۲۳۹.

۳ . مسند أحمد:۳/۱۲و ۱۴. (۶۹)

عن رسولاللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ (۱) فلم يكتب الحديث ولم يدوّن إلّا فى عهد المنصور عام ۱۴۳هـ كما سيوافيك بيانه. وقد بلغت جسارة قريش على ساحة النبى الأقدس أن منعوا عبد اللّه بن عمرو عن الاهتمام بحديث النبى وكتابته مدّعين بأنّه بشر يغضب(۲). أى واللّه إنّه بشر يرضى ويغضب، ولكن لا يرضى ولا يغضب إلّا من حقّ ولا يصدر إلّا عنه. إنّ الرزية الكبرى هى أن يمنع التحدّث بحديث رسوله وكتابته وتدوينه ويحل محله التحدّث عن العهد القديم والجديد وعن الأحاديث الإسرائيلية والمسيحية والمجوسية(۳) فتمتلئ الأذهان والصدور بالقصص الخرافية التى لا تمت إلى الإسلام بصلة ولا يصدقها العقل والمنطق كما سيمر عليك شرح تلك الفاجعة العظمى التى ألمت بالإسلام والمسلمين. فلو صحّ ما نقل عن أبى هريرة من جمع ما كتبه الصحابة عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فى مكان واحد وحرقه بالنار، لوجب على المسلمين كافة أن يجمعوا كلّ مصادر أحاديث الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وعلى رأسها صحيح البخارى وصحيح مسلم وحرقها فى مكان واحد وذلك اقتداء بالسلف الصالح!!، وإذا صحّ

فهل يبقى من الإسلام ما يرجع إليه فى فهم القرآن الكريم وتمييز الحلال عن الحرام؟! والذى أظنّه(وظن الألمعى صواب) أنّ الذى منع من تدوين الحديث ونشره ومدارسته وكتابته بعد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، هو الذى منع كتابة الصحيفة يوم الخميس عند احتضار النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، _____

۱ . مستدرك الحاكم:۱/۱۰۲و ۱۰۴.

۲ . المصدر نفسه.

۳ . وقد أذن عمر بن الخطاب لتميم الدارى النصرانى الذى استسلم عام ۹ من الهجرة أن يقص كما فى كنز العمال:۱/۲۸۱، فالتحدّث بحديث رسول اللّه يكون ممنوعاً و «الدارى» وأمثاله يكونون أحراراً فى بث الأساطير والقصص المحرّفة؟! (۷۰)

فالغاية بداية ونهاية وقبل رحلته ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وبعدها واحدة لم تتغير، وأمّا حقيقة تلك الغاية فتفصيلها موكول إلى آونة أُخرى ونأتى بمجملها: كان رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ منذ أن صدع بالدعوة، وأجهر بها، ينص على فضائل على ومناقبه فى مناسبات شتّى، فقد عرّفه فى يوم الدار الذى ضم فيه أكابر بنى هاشم وشيوخهم، بقوله: «إنّ هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا». وفى يوم الأحزاب بقوله: «ضربة على يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين». وفى اليوم الذى غادر فيه المدينة متوجهاً إلى تبوك، وقد ترك علياً خليفته على المدينة، عرّفه بقوله: «أما ترضى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبىّ بعدى». إلى أن عرّفه فى حجّة الوداع فى غديرخم بقوله:«من كنت مولاه، فهذا علىٌّ مولاه».(۱) وغير ذلك من المناقب والفضائل المتواترة، وقد سمعها كثير من الصحابة فوعوها. فكتابة حديث رسول اللّه بمعناها الحقيقى، لا تنفك عن ضبط ما أثر عنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فى حقّ أوّل المؤمنين به، وأخلص المناصرين له فى المواقف الحاسمة، وليس هذا شيئاً يلائم شؤون الخلافة التى تقلّدها المانع عن الكتابة. وهناك وجه آخر للمنع عنها، هو أنّ علياً كان أحد المهتمين بكتابة حديث رسول اللّه وضبطه كما كان مولعاً بضبط الوحى وكتابته. وقد كتب من أحاديث رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ما أملى عليه فصار له أُذناً واعية، وهو ـ عليه السَّلام ـ _____

۱ . سيوافيك مصادر هذه الأحاديث عند البحث عن عقيدة الشيعة، و من أراد الوقوف فليرجع إلى كتب المناقب للإمام علىـ عليه السَّلام ـ. (۷۱)

بالنسبة إلى رسول اللّه كما قال هو نفسه: «إنّى كنت إذا سألته أنبأنى، وإذا سكتُّ ابتدأنى»(۱) . وهو أوّل من ألّف أحاديث رسول اللّه وكتب، وهذه منقبة عالية لأمير المؤمنين دون غيره، إلّا أقلّ القليل. فاهتم مخالفوه بإخفاء هذه الفضيلة، باختلاق حديث منع الكتابة، فروى مسلم وغيره عنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: «لا تكتبوا عنّى سوى القرآن، ومن كتب فليمحه»(۲) وكانت الغاية من تلك المقالة، الطمس على ما كتبه على ـ عليه السَّلام ـ من الأحاديث. على أنّهم لم يكتفوا بذلك، فرووا عن على أنّه قال: «ليس عندنا كتاب سوى ما فى قراب السيف».(۳) وروى البخارى عن أبى جحيفة، قال: قلت لعلى: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلّا كتاب اللّه، أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما فى هذه الصحيفة، قال: قلت: فما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر.(۴) مع أنّ الكتاب الذى كتبه على بإملاء رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، كتاب كبير رآه أئمة الشيعة، وهو من مواريث النبوة وكان مشتملاً على أحاديث فقهية، وغيرها. وقد نقل عنه مشايخنا المحدّثون الأُول فى جوامعهم، ولو صحّ وجود كتاب فى قراب سيفه، فهو لا يمت إلى هذا الكتاب بصلة. وقد قام زميلنا العلّامة الحجّة الشيخ على الأحمدى، بجمع ما روى الأئمّة عن هذا الكتاب من الأحاديث فى موسوعته، وأخرجها من الكتب الأربعة، والجامع الأخير وسائل الشيعة.(۵) إنّ الخسارات التى منى الإسلام والمسلمون بها من جراء مثل هذا المنع، _____

۱ . تاريخ الخلفاء: ۱۱۵.

۲ . سنن الدارمى:۱/۱۱۹.

۳ . مسند أحمد:۱/۱۱۹.

۴ . صحيح البخارى:۱/ ۲۹، باب كتابة العلم، الحديث۱.

۵ . لاحظ مكاتيب الرسول:۱/۷۲ـ ۸۹. (۷۲)

كائناً ما كان سببه، كانت وما تزال عظيمة ووخيمة، وسنشير إلى بعضها فى محلها إن شاء اللّه تعالى. أعذار مفتعلة

إذا كان المنع من كتابة السنّة أمراً عجيباً، فتبرير هذا المنع بأنّه كان لصيانة اختلاط الحديث بالقرآن الكريم أعجب منه، وذلك لأنّ التبرير هذا أشبه بالاعتذار الأقبح من الذنب، لأنّ القرآن الكريم فى أُسلوبه وبلاغته يغاير أُسلوب الحديث وبلاغته، فلا يخاف عليه من الاختلاط بالقرآن مهما بلغ من الفصاحة، فقبول هذا التبرير يلازم إبطال إعجاز القرآن الكريم وهدم أُصوله من القواعد. ومثله، الأعذار المنحوتة الأُخرى لتبرير هذا المنع، كخوف الانكباب على دراسة غير القرآن، الذى نسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب على ما مرّ، غير أنّ مرور الزمان أثبت خلاف تلك الفكرة، لأنّ كتابة الحديث من عصر المنصور لم تؤثر فى دراسة القرآن وحفظه وتعليمه وتعلّمه. وهناك أعذار منحوتة أُخرى لا تقصر فى البطلان عن سابقيها ولم تخطر ببال المانع أو المانعين أبداً، وإنّما هى وليدة «حبّ الشىء الذى يعمى ويصم» بعد لأى من الدهر، والهدف منه هو إسدال العذر على العمل السيِّء، أعاذنا اللّه منه. وقد نحت الخطيب البغدادى مثل هذه الأعذار، وقال: قد ثبت أنّ كراهة من كره الكتابة من الصدر الأوّل، إنّما هى لئلا يضاهى بكتاب اللّه تعالى غيره، أو يشتغل عن القرآن بسواه. ونهى عن الكتب القديمة أن تتخذ، لأنّه لا يعرف حقّها من باطلها، وصحيحها من فاسدها. مع أنّ القرآن كفى منها، وصار مهيمناً عليها، ونهى عن كتب العلم فى صدر الإسلام وجدته، لقلّة الفقهاء فى ذلك الوقت، والمميزين بين الوحى وغيره، لأنّ أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا فى الدين، ولا جالسوا العلماء العارفين، فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن. ويعتقدوا أنّ ما اشتملت عليه كلام الرحمن.(۱) _____

۱ . تقييد العلم: ۵۷. (۷۳)

وقد استمر المنع من تدوين الحديث إلى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز(۹۹ـ۱۰۱هـ) فأحسّ بضرورة تدوين الحديث، فكتب إلى أبى بكر بن حزم فى المدينة: انظر ما كان من حديث رسول اللّه فاكتبه، فإنّى خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلاّ أحاديث النبى، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإنّ العلم لا يهلك حتى يكون سراً.(۱) ومع هذا الإصرار المؤكّد من الخليفة، صارت رواسب الحظر السابق المؤكّد من قبل الخلفاء الماضين حائلة دون القيام بما أمر به الخليفة، فلم يكتب شىء من أحاديث النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بعد صدور الأمر منه، إلاّ صحائف غير منظمة ولا مرتبة، إلى أن دالت دولة الأمويّين وقامت دولة العباسيّين، وأخذ أبو جعفر المنصور بمقاليد الحكم، فقام المحدّثون فى سنة مائة وثلاثة وأربعين بتدوين الحديث، وفى ذلك قال الذهبى: وفى سنة مائة وثلاثة وأربعين شرع علماء الإسلام فى هذا العصر فى تدوين الحديث والفقه والتفسير، فصنّف ابن جريج بمكة، ومالك الموطأ بالمدينة، والأوزاعى بالشام،وابن أبى عروبة، وحماد بن سلمة وغيرهما فى البصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثورى بالكوفة، وصنّف ابن إسحاق المغازى، وصنّف أبوحنيفة الفقه والرأى ـإلى أن قالـ وقبل هذا العصر كان الأئمّة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة.(۲) ومعنى هذا، أنّ العالم الإسلامى اندفع فجأة بعد مضى ۱۴۳ سنة من هجرة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ نحو هذا الأمر، فاشتغل العلماء بجمع الأحاديث والفقه وتدوينهما، وأُلّفت كتب كثيرة فى هذا المجال، واستمرت تلك الحركة إلى حدود سنة ۲۵۰، فجمعت أحاديث كثيرة، و دُوّنت العقائد على طبق الأحاديث المضبوطة، فإذا كان هذا هو تاريخ الحديث وتدوينه وانتشاره، يتبيّن للقارئ بسهولة أنّ حديثاً لم يكتب طوال قرن ونصفه كيف تكون حاله مع أعدائه الذين كانوا له بالمرصاد، وكانوا يكذبون عليه بما يقدرون، وينشرون _____

۱ . صحيح البخارى:۱/۲۷.

۲ . تاريخ الخلفاء للسيوطى:۲۶۱. (۷۴)

كل غث وسمين باسم الدين وباسم الرسول، كما سيوافيك بيانه، وما قيمة العقائد التى دونت على أساس تلك الأحاديث؟!! نحن لا ننكر أنّ العلماء والمحدّثين قاموا بوظيفتهم وواجبهم الدينى تجاه السنّة النبوية، وكابدوا وتحملوا المشاق فى استخراج الصحيح من السقيم، لكن العثور على الصحيح بعد هذه الحيلولة الطويلة، من أشقّ المشاكل وأصعب الأُمور. وبسبب هذه الحيلولة كلّما بعد الناس عن عصر الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ازداد عدد الأحاديث، حتى أخرج محمد بن إسماعيل البخارى صحيحه عن ستمائة ألف (۶۰۰،۰۰۰) حديث ولأجل ذلك نرى أنّ هرم الأحاديث يتصل بزمن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، وقاعدة ذلك الهرم تنتهى إلى القرون المتأخّرة، فكلّما قربنا من زمن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ نجد الحديث قليلاً، والعكس بالعكس. وهذا يدّل على أنّ الأحاديث عالت حسب وضع الوضّاعين وكذب الكذّابين. كلمتان قيّمتان

۱. هناك كلمة للدكتور محمد حسين هيكل أماط الستر عن وجه الأحاديث المنسوبة إلى النبى الأكرم وقال: وسبب آخر يوجب تمحيص ما ورد فى كتب السلف، ونقده نقداً دقيقاً على الطريقة العلمية، أن أقدمها، كتب بعد وفاة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بمائة سنة أو أكثر، وبعد أن فشت فى الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية. كان اختلاق الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الذيوع والغلب، فما بالك بالمتأخر ممّا كتب فى أشد أزمان التقلقل والاضطراب؟ وقد كانت المنازعات السياسية سبباً فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه و دوّنوا ما اعتقدوه صحيحاً منه، من جهد وعنت أدى إليهما حرص هؤلاء الجامعين على الدقة فى التمحيص حرصاً لا يتطرق إليه ريب. ويكفى أن يذكر الإنسان ما كابده البخارى من مشاق وأسفار فى مختلف أقطار الدولة الإسلامية لجمع (۷۵)

الحديث وتمحيصه، وما رواه بعد ذلك من أنّه ألفى الأحاديث المتداولة تربى على ستمائة ألف حديث لم يصح منها أكثر من أربعة آلاف. وهذا معناه أنّه لم يصح لديه من كلّ مائة وخمسين حديثاً إلّاحديث واحد. أمّا أبو داود فلم يصحّ لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة، وكذلك كان شأن سائر الذين جمعوا الحديث. وكثير من هذه الأحاديث التى صحت عندهم كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء، انتهى بهم إلى نفى كثير منها، كما كان الشأن فى مسألة الغرانيق. فإذا كان ذلك شأن الحديث، وقد جهد فيه جامعوه الأوّلون ما جهدوا، فما بالك بما ورد فى المتأخر من كتب السيرة؟ وكيف يستطاع الأخذ به دون التدقيق العلمى فى تمحيصه. والواقع أنّ المنازعات السياسية التى حدثت بعد الصدر الأوّل من الإسلام أدت إلى اختلاق كثير من الروايات والأحاديث تأييداً لها. فلم يكن الحديث قد دون إلى عهد متأخر من عصر الأمويين. وقد أمر عمر بن عبد العزيز بجمعه، ثمّ لم يجمع إلّا فى عهد المأمون، بعد أن أصبح«الحديث الصحيح فى الحديث الكذب، كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود» على قول الدارقطنى.(۱) ۲. وهناك كلمة أُخرى للعلّامة الأمينى قال: «ويعرب عن كثرة الموضوعات اختيار أئمّة الحديث أخبار تأليفهم الصحاح والمسانيد من أحاديث كثيرة هائلة، والصفح عن ذلك الهوش الهائش. قد أتى أبو داود فى سننه بأربعة آلاف وثمانمائة حديث وقال: انتخبته من خمسمائة ألف حديث.(۲) ويحتوى صحيح البخارى من الخالص بلا تكرار ألفى حديث وسبعمائة وواحداً وستين حديثاً اختارها من زهاء ستمائة ألف حديث.(۳) وفى صحيح مسلم أربعة

---

۱ . «حياة محمد» تأليف محمد حسين هيكل : ۴۹ـ ۵۰ من الطبعة الثالثة عشر.

۲ . طبقات الحفاظ للذهبى:۲/۱۵۴ ;تاريخ بغداد:۲/۵۷ ;المنتظم لابن الجوزى:۵/۹۷.

۳ . إرشاد السارى:۱/۲۸ و صفة الصفوة:۴/۱۴۳. (۷۶)

آلاف حديث أصول، دون المكررات صنّفها من ثلاثمائة ألف.(۱) وذكر أحمد بن حنبل فى مسنده ثلاثين ألف حديث، وقد انتخبها من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث، وكان يحفظ ألف ألف حديث.(۲) وكتب أحمد بن الفرات (المتوفّى ۲۵۸هـ) ألف ألف وخمسمائة ألف حديث، فأخذ من ذلك ثلاثمائة ألف فى التفسير والأحكام والفوائد وغيرها.(۳) هذا كلام إجمالى عن الحديث، والتفصيل فى تاريخ الحديث وتطوره يترك إلى الكتب المختصة بذلك، غير أنّ الذى نركز القول عليه هو الآثار السلبية التى خلفها

هذا المنع فى المجتمع الإسلامى يوم ذاك، حتى يقف القارئ على علل تكوّن المذاهب وتشعب الفرق، وإنّ من الآثار المهمة حرمان الأُمّة عن السنّة النبوية الصحيحة قرابة قرن ونصف، وعول الأحاديث حسب جعل الوضّاعين والكذّابين، وبالتالى تكوّن العقائد والمذاهب حسبها. _____

۱ . المنتظم :۵/۳۲; طبقات الحفّاظ:۲/۱۵۱ـ ۱۵۷.

۲ . ترجمة أحمد المنقولة من طبقات ابن السبكى المطبوعة فى آخر الجزء الأوّل من مسنده ;طبقات الذهبى:۲/۱۷.

۳ . خلاصة التهذيب:۹، ولاحظ الغدير:۵/۲۹۲ـ ۲۹۳. (۷۷)

العامل الرابع فسح المجال للأحبار والرهبان

العامل الرابع فسح المجال للأحبار والرهبان للتحدّث عن العهدين

لقد خسر الإسلام والمسلمون من جرّاء حظر تدوين الحديث ونشره، خسارة عظمى لا يمكن تحديدها بالأرقام والأعداد. كيف؟! وقد انتشرت الفوضى فى العقائد، والأعمال، والأخلاق، والآداب، وصميم الدين، ولباب الأُصول، كنتيجة لهذا المنع، لأنّ الفراغ الذى خلفه هذا العمل، أوجد أرضية مناسبة لظهور بدع يهودية، وسخافات مسيحية، وأساطير مجوسية، خاصة من ناحية كهنة اليهود، ورهبان النصارى، الذين افتعلوا أحاديث كثيرة ونسبوها إلى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام كما افتعلوا على لسان النبى الأكرم ـ صلاى الله عليه وآله وسلّم ـ لأساطير، وقد وقف على ذلك عدة من الأجلّة. ۱. يقول الشهرستانى: وضع كثير من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، أحاديث متعددة فى مسائل التجسيم والتشبيه، وهى كلّها مستمدة من التوراة.(۱) ۲. ويظهر من المقدسى وجود تلك العقائد فى العرب الجاهليين، يقول فى «البدء والتاريخ» عند الكلام عن شرائع أهل الجاهلية: كان فيهم من كلّ ملّة ودين، وكانت الزندقة والتعطيل فى قريش والمزدكية والمجوسية فى تميم _____

۱ . الملل والنحل:۱/۱۱۷. (۷۸)

واليهودية والنصرانية فى غسان والشرك وعبادة الأوثان فى سائرهم.(۱) ۳. نعم كان لليهود المتظاهرين بالإسلام دور كبير فى بثّ هذه العقائد، يقول الكوثرى: إنّ عدّة من أحبار اليهود ورهبان النصارى ومؤابذة المجوس أظهروا الإسلام فى عهد الراشدين ثمّ أخذوا بعدهم فى بثّ ما عندهم من الأساطير.(۲) ۴. قال ابن خلدون، عندما تكلّم عن التفسير النقلى وأنّه كان يشتمل على الغث والسمين والمردود: والسبب فى ذلك أنّ العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنّما غلبت عليهم البداوة والأُمّية. وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء ممّا تتشوّق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنّما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، ... مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد اللّه بن سلام وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم وتساهل المفسرون فى مثل ذلك، وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات، وأصلها كلها كما قلنا من التوراة أو ممّا كانوا يفترون.(۳) ۵. قال الإمام محمد عبده: قد وضع الزنادقة اللابسون لباس الإسلام غشاً ونفاقاً وقصدهم بذلك إفساد الدين، وإيقاع الخلاف والافتراق فى المسلمين. وقال حماد بن زيد: وضعت الزنادقة أربعة عشر ألف حديث وهذا بحسب ما وصل إليه علمه واختباره فى كشف كذبها، وإلّافقد نقل المحدّثون أنّ زنديقاً واحداً وضع هذا المقدار. قالوا: لما أخذ ابن أبى العوجاء ليضرب عنقه، قال وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أُحرّم فيها الحلال و أُحلّ الحرام.(۴) وابن أبى العوجاء هو ربيب حماد بن سلمة المحدّث الشهير الذى ينقل الذهبى عن ابن الثلجى قال: سمعت عباد بن صهيب _____

۱ . البدء والتاريخ:۴/۳۱.

۲ . مقدّمة تبيين كذب المفترى:۱۰.

۳ . مقدّمة ابن خلدون:۴۳۹.

۴ . تفسیر المنار:۳/۵۴۵، ونقله فی الأضواء:۱۱۵ ولعلّ فی قوله«هذا المقدار» تصحیفاً. (۷۹)

یقول: إنّ حماداً کان لا یحفظ وکانوا یقولون إنّها دسّت فی کتبه. وقد قیل: إنّ ابن أبی العوجاء کان ربیبه فکان یدسّ فی کتبه.(۱) ۶. قال السید المرتضی: لما قبض محمد بن سلیمان، وهو والی الکوفة من قبل المنصور، عبد الکریم بن أبی العوجاء وأحضره للقتل وأیقن بمفارقة الحیاة قال: لئن قتلتمونی فقد وضعت فی أحادیثکم أربعة آلاف حدیث مکذوبة.(۲) ۷. یقول ابن الجوزی: إنّ عبد الکریم کان ربیباً لحماد بن سلمة وقد دسّ فی کتب حماد بن سلمة.(۳) نری أنّ المحدّثین یروون باسنادهم عن حماد، عن قتادة، عن عکرمة، عن ابن عباس، مرفوعاً: رأیت ربی جعداً أمرد علیه حلّة خضراء. وفی روایة أُخری: إنّ محمّداً رأی ربّه فی صورة شاب أمرد، دونه ستر من لؤلؤ قدمیه أو رجلیه فی خضرة.(۴) ۸. وقال الشیخ محمد زاهد الکوثری المصری فی تقدیمه علی کتاب «الأسماء والصفات» للحافظ أبی بکر البیهقی: إنّ مرویات حماد بن سلمة فی الصفات، تجدها تحتوی علی کثیر من الأخبار التافهة تتناقلها الرواة طبقة عن طبقة، مع أنّه قد تزوج نحو مائة امرأة، من غیر أن یولد له ولد منهن، وقد فعل هذا الزواج والنکاح فعله، بحیث أصبح فی غیر حدیث «ثابت البنانی» لا یمیز بین مروایاته الأصلیّة وبین ما دسّه فی کتبه ربیبه ابن أبی العوجاء، وربیبه الآخر زید المدعو بـ«ابن حماد»، فضلّ بمروایاته الباطلة کثیر من البسطاء . ویجد المطالع الکریم نماذج شتّی من أخباره الواهیة فی باب التوحید من کتب الموضوعات المبسوطة وفی کتب الرجال، وفعلت مرویات نعیم بن ــــــــــــــــــــ

۱ . میزان الاعتدال:۱/۵۹۳، ومات حماد عام ۱۶۷هـ

۲ . أمالی المرتضی:۱/۱۲۷ـ ۱۲۸.

۳ . الموضوعات:۳۷ طبع المدینة، ولاحظ تهذیب التهذیب:۳/۱۱ـ۱۶.

۴ . میزان الاعتدال:۱/۵۹۳ـ ۵۹۴،وهذه الأساطیر المزخرفة من مفتعلات الزنادقة نظراء: ابن أبی العوجاء دسّوها فی کتب المحدّثین الإسلامیین، تعالی اللّه عمّا یقول الظالمون. (۸۰)

حماد مثل ذلک، بل تحمّسه البالغ أدّی به إلی التجسیم، کما وقع ذلک لشیخ شیخه مقاتل بن سلیمان، وتجد آثار الضرر الوبیل فی مروایاتهما فی کتب الرواة الذین کانوا یتقلّدونها من غیر معرفة منهم لما فی هذه الکتب ککتاب «الاستقامة» لخشیش بن أصرم، والکتب التی تسمّی بـ«السنّة» لعبد اللّه (ابن أحمد بن حنبل) وللخلال، و «التوحید» لابن خزیمة وغیرهم ممّا تجد فیها ما ینبذه الشرع والعقل، ولا سیما کتاب «النقض» لعثمان بن سعید الدارمی السجزیّ المجسّم فإنّه أوّل من اجترأ بالقول «إنّ اللّه لو شاء لاستقرّ علی ظهر بعوضة فاستقلّت به بقدرته فکیف علی عرش عظیم» هذا بعض ما لعب به أعداء الإسلام فی أُصول الدین.(۱) ولا یقصر عنها کتاب «العلو» للذهبی. ۹. وقال الدکتور أحمد أمین: اتصل بعض الصحابة بوهب بن منبه، وکعب الأحبار، وعبد اللّه بن سلام، واتصل التابعون بابن جریج،وهؤلاء کانت لهم معلومات رووا عن التوراة والإنجیل وشروحها وحواشیها، فلم یر المسلمون بأساً من أن یقصوها بجانب آیات القرآن، فکانت منبعاً من منابع التضخیم.(۲) ۱۰. قال أبو ریة: لما قویت شوکة الدعوة المحمدیة، واشتد ساعدها، وتحطمت أمامها کل قوة تنازعها، لم یر من کانوا یقفون أمامها، ویصدون عن سبیلها، إلّا أن یکیدوا لها عن طریق الحیلة والخداع، بعد أن عجزوا عن النیل منها بعدد القوة والنزاع. ولما کان أشد الناس عداوة للذین آمنوا الیهود، لم یجدوا بدّاً من أن یستعینوا بالمکر، ویتوسّلوا بالدهاء، لکی یصلوا إلی ما یبتغون، فهداهم المکر الیهودی إلی أن یتظاهروا بالإسلام، ویطووا نفوسهم علی دینهم، حتی یخفی کیدهم، ویجوز علی المسلمین مکرهم.(۳) أو لیس ذلک الاستغلال والسیطرة علی عقول المسلمین، هو نتیجة

---

۱ . نظرة فی کتاب «الأسماء والصفات» للبیهقی مقدمة الشیخ محمد زاهد الکوثری:ص ۵، وقال بمقالة السجزی ابن تیمیة فی کتابه «غوث العباد» المطبوع بمصر مطبعة الحلبی عام ۱۳۵۱هـ

۲ . ضحی الإسلام:۲/۱۳۹.

۳ . أضواء علی السنّة المحمدیة:۱۳۷. (۸۱)

أُمور، منها: المنع من التحدّث عن الرسول، وفسح المجال لأبناء أهل الکتاب، حتی یتمکّنوا من نشر الکلم الباطل، ویمزقوا أُصول الإسلام وفروعه؟ والعجب أنّ التفاسیر إلی یومنا هذا مکتظة بأقوالهم و أحادیثهم، ولها من القیمة عند قرّائها مکان. ۱۱. قال العلاّمة الشیخ جواد البلاغی: الرجوع فی التفسیر وأسباب النزول إلی أمثال عکرمة، ومجاهد، وعطاء، والضحاک، کما ملئت کتب التفاسیر بأقوالهم المرسلة، ممّا لا یعذر فیه المسلم فی أمر دینه، لأنّ هؤلاء الرجال غیر ثقات فی أنفسهم، ومجتمعون علی موائد أهل الکتاب من الأحبار والرهبان. قیل للأعمش: ما بال تفسیر مجاهد مخالف؟ أو شیء نحوه قال: أخذه من أهل الکتاب ویکفی فی ذلک أنّ مجاهداً الآخذ منهم فسر قوله تعالی: (عَسی أنْ یَبْعَثَکَ رَبّکَ مَقاماً مَحْمُوداً) قال: یجلسه معه علی العرش. وأمّا عطاء، فقد قال أحمد: لیس فی المراسیل أضعف من مراسیل الحسن وعطاء، کانا یأخذان عن کلّ أحد. وقال النسائی: وأمّا مقاتل بن سلیمان کان یکذب، وعن یحیی قال: حدیثه لیس بشیء، وقال ابن حبان: کان یأخذ من الیهود والنصاری من علم القرآن الذی یوافق کتبهم.(۱) وأمّا الخرافات والأساطیر فی تفسیر الکون وبدء الخلیقة وأحوال الأُمم الماضیة فحدث عنها ولا حرج، فقد ملأوا الصدور والطوامیر وتأثّرت بهم طبقات من المسلمین، ممن کتبوا حول المواضیع السالفة. یقول الدکتور علی سامی النشار: إنّ الحدیث کان معترکاً متلاحماً وبحراً خضماً لا- یعرف السالک فیه موطن الأمان ولذلک قام أهل الحدیث بمجهود رائع فی محض الأحادیث وتوضیح الصادق والکاذب منها عن طریق الروایة وفیها السند،وعن طریق الدرایة وفیها النقد الباطنی للنصوص،ولذلک أنشأوا _____

۱ . آلاء الرحمن:۱/۴۶، نقلاً عن الذهبی. (۸۲)

علم مصطلح الحدیث.(۱) یلاحظ علیه: أنّ جهود أهل الحدیث غیر منکرة، ولکنّها لم تکن علی وجه تقلع الموضوعات عن کتب الحدیث وموسوعاتهم لأنّ القائمین بهذا الأمر کانوا متأثرین بها، ولأجل ذلک تجد أحادیث التشبیه والتجسیم والجبر والرؤیة وعصیان الأنبیاء مبثوثة فی الصحاح والمسانید، و سیمرّ علیک بعضها فی هذا الجزء. ولعل القارئ الکریم یحسب أنّ هذه الکلمات الصادرة من أساتذة الفن، ورجال التحقیق فی الملل والنحل، صدرت من غیر تحقیق وتدقیق، إلّا أنّ المراجع للکتب الرجالیة، یقف علی صدق المقال، ویکتشف أنّه کان هناک رجال یتظاهرون بالإسلام ـ و فی الوقت نفسه ـ یبثّون ما لدیهم من الإسرائیلیات والمسیحیات والمجوسیات، تحت غطاء هذا التظاهر، وإلیک نزراً من تاریخ بعض هؤلاء الرجال: ۱. کعب الأحبار

هو کعب بن ماتع الحمیری، قالوا: هو من أوعیة العلم ومن کبار علماء أهل الکتاب، أسلم فی زمن أبی بکر، وقدم من الیمن فی خلافة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغیرهم، وأخذ هو من الکتاب والسنّة عن الصحابة، وتوفّی فی خلافة عثمان، وروی عنه جماعة من التابعین، وله شیء فی صحیح البخاری وغیره. قال الذهبی: العلاّمة الحبر الذی کان یهودیاً فأسلم بعد وفاة النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ ، وقدم المدینة من الیمن فی أیام عمر ، فجالس أصحاب محمد فکان یحدّثهم عن الکتب الإسرائیلیة ویحفظ عجائب. إلی أن قال: حدّث عنه أبو هریرة ومعاویة وابن عباس، وذلک من قبیل _____

۱ . نشأة الفکر الفلسفی فی الإسلام:۱/۲۸۶، الطبعة السابعة. (۸۳)

روایة الصحابی عن التابعی وهو نادر عزیز، وحدّث عنه أیضاً أسلم مولی عمر وتبیع الحمیری ابن امرأة کعب. وروی عنه عدّة من التابعین کعطاء بن یسار وغیره مرسلاً. وقع له روایة فی سنن أبی داود والترمذی والنسائی.(۱) تری الذهبی أیضاً فی کتابه«تذکرة الحفاظ» یعرفه بأنّه من أوعیة العلم.(۲) ومعنی ذلک أنّ الصحابة کانوا یعتقدون أنّه من محال العلم والفضل، ولهذا السبب أخذ عنه الصحابة وغیرهم. وعندئذ یسأل: إذا أخذ عنه الصحابة وغیرهم علی أنّه من أوعیة العلم، فما هو ذاک الذی أخذوه عنه؟ هل أخذوا عنه سوی الإسرائیلیات المحرّفة والکاذبة؟ فإنّه لم یکن عنده ـ علی فرض کونه صادقاً ـ سوی تلک الأساطیر والقصص الموهومة. فهل تسعد أُمّة أخذت معالم دینها عن المحدّث الیهودی، المعتمد علی الکتب المحرفة بنص القرآن الکریم؟! ولکن کما قلنا، هذا الفرض مبنی علی کونه صادقاً، أمّا إذا کان کاذباً فالخطب أفدح وأجل، ولا یقارن بشیء. والمطالع الکریم فی مروایاته یقف علی أنّه یرکز

على القول بأمرين: التجسيم والرؤية، وقد اتخذهما أهل الحديث والحنابلة من الآثار الصحيحة، فبنوا عليهما العقائد الإسلامية وكفروا المخالف، وإليك كلا الأمرين: _____

۱ . سير أعلام النبلاء:۳/۴۸۹ ولاحظ تفسير ابن كثير :۳/۳۳۹ سورة النمل حيث قال: ـ بعد ما أورد طائفة من الأخبار فى قصة ملكة سبأ مع سليمان ـ: والأقرب فى مثل هذه السياقات أنّها متلقاة عن أهل الكتاب، ممّا وجد فى صحفهم كروايات كعب ووهب، سامحهما اللّه تعالى فى ما نقلاه إلى هذه الأُمّة، من أخبار بنى إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب ممّا كان وما لم يكن، وممّاحرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا اللّه سبحانه عن ذلك بما هو أصحّ منه وأنفع وأوضح وأبلغ.

۲ . تذكرة الحفاظ :۱/۵۲. (۸۴) الأوّل: تركيزه على التجسيم

إنّ الأحاديث المنقولة عن ذلك الحبر اليهودى، تعرب بوضوح عن أنّه نشر بين الأُمّة الإسلامية فكرة التجسيم، التى هى من عقائد اليهود. قال: إنّ اللّه تعالى نظر إلى الأرض فقال: إنّى واطئ على بعضك، فاستعلت إليه الجبال وتضعضعت له الصخرة، فشكر لها ذلك فوضع عليها قدمه، فقال: هذا مقامى، ومحشر خلقى، وهذه جنتى وهذه نارى، وهذا موضع ميزانى، وأنا ديان الدين.(۱) ففى هذه الكلمة من هذا الحبر، تصريح بتجسيمه سبحانه أوّلاً: وقد شاعت هذه النظرية بين أبناء الحديث والحشوية منهم ;وثانياً: التركيز على الصخرة التى هى مركز بيت المقدس ;وثالثاً: أنّ الجنة والنار والميزان ستكون على هذه الأرض، ومركز سلطانها سيكون على الصخرة، وهذا من صميم الدين اليهودى المحرف. الثانى: تركيزه على رؤية اللّه

ومن كلامه أيضاً: إنّ اللّه تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ .(۲) وقد صار هذا النصّ وأمثاله مصدراً لتجويز فكرة رؤية اللّه سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة، وبالأخص فى الآخرة، وقد صارت هذه العقيدة اليهودية المحضة، إحدى الأُصول التى بنى عليها مذهب أهل الحديث والأشاعرة. ومن أعظم الدواهى، أنّ الرجل خدع عقول المسلمين وخلفائهم، فاتّخذوه واعظاً ومعلماً ومفتياً يفتيهم. وهنالك شواهد على ذلك: منها: التزلف إلى الخليفة الثانى

قال ابن كثير: أسلم كعب فى الدولة العمرية، وجعل يحدّث عمر عن _____

۱ . حلية الأولياء:۶/۲۰.

۲ . الشرح الحديدى:۳/۲۳۷. (۸۵)

كتبه قديماً، فربما استمع له عمر، فترخّص الناس فى استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده عنه غثّها وسمينها. وليس لهذه الأُمّة ـ و اللّه أعلم ـ حاجة إلى حرف و احد ممّا عنده.(۱) إنّ لهذا الرجل أساليب عجيبة فى اللعب بعقول المسلمين وخلفائهم، وإليك نماذج منها: أ. قال كعب، لعمر بن الخطاب: إنّا نجدك شهيداً وإنّا نجدك إماماً عادلاً، ونجدك لا تخاف فى اللّه لومة لائم. قال:هذا لا أخاف فى اللّه لومة لائم فأنى لى بالشهادة.(۲) ترى أنّه كيف يتزلّف إلى الخليفة، ويتنبّأ بشهادته وقتله فى سبيل اللّه. ب. نقل أبو نعيم أيضاً: أنّ كعباً مر بعمر، وهو يضرب رجلاً بالدرة. فقال كعب: على رسلك يا عمر، فوالذى نفسى بيده إنّه لمكتوب فى التوراة، ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء، ويل لحاكم الأرض من حاكم السماء ;فقال عمر: إلاّ من حاسب نفسه، فقال كعب: والذى نفسى بيده إنّها لفى كتاب اللّه المنزل، ما بينهما حرف: إلاّ من حاسب نفسه.(۳) وهذه الجملة تعرب عن أنّ كعباً كان يتزلّف إلى عمر، حتى إنّه يقرأ عليه نصّ التوراة المحرف لتصديق كلامه. ج. وروى أيضاً: أنّ عمر جلد رجلاً يوماً وعنده كعب، فقال الرجل حين وقع به السوط: سبحان اللّه، فقال عمر للجلاد: دعه فضحك كعب، فقال له: وما يضحكك، فقال: والذى نفسى بيده إنّ «سبحان اللّه» تخفيف من العذاب.(۴)

---

۱ . تفسير ابن كثير:۴/۱۷ .

۲ . حلية الأولياء:۵/۳۸۸ـ ۳۸۹.

۳ . المصدر السابق.

۴ . حلیة الأولیاء:۵/۳۸۹ـ ۳۹۰. (۸۶)

والکلمة هذه محاولة من الحبر الیهودی، لتوجیه عمل عمر، عندما أمر الجلّاد بترک المجلود. وهذه الأُمور صارت سبباً لجلب عطف الخلیفة، ففسح له التحدّث فی عاصمة الوحی، وأوساط المسلمین. ومنها: تزلّفه إلی عثمان ومن الخطب الفادح، أنّه صار بأفانین مکره، موضع ثقة لعثمان ومفتیاً له فی الأحکام، یصدر الخلیفة عن فتیاه، ویعمل بقوله، وإلیک ما یلی: أ. ذکر المسعودی أنّه حضر أبو ذر، مجلس عثمان ذات یوم، فقال عثمان: أرأیتم من زکی ماله هل فیه حق لغیره؟ فقال کعب: لا یا أمیر المؤمنین، فدفع أبو ذر فی صدر کعب، وقال له: کذبت یا ابن الیهودی، ثمّ تلا:(لیسَ البرَّ أنْ تُولّوا وُجُوهکُمْ قِبَلَ المَشْرِقِوالْمَغْرِبِ وَلکِنَّ البِرّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالیَومِ الآخرِ وَالمَلائِکةِ وَالکِتابِ والنَّبِیّینَ وَآتی المالَ عَلی حُبّهِ ذَوی القُربی وَالیَتامی وَالمساکِینَ وَابنَ السَّبیلِ والسائلینَ وَفِی الرِقابِ وَأقامَ الصَّلاةَ وَآتیَ الزَّکاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عاهَدُوا) .(۱) فقال عثمان: أترون بأساً أن نأخذ مالاً من بیت مال المسلمین فننفقه فی ما ینوبنا من أُمورنا ونعطیکموه؟ فقال کعب: لا بأس بذلک، فرفع أبو ذر العصا فدفع بها فی صدر کعب وقال: یابن الیهودی ما أجرأک علی القول فی دیننا، فقال له عثمان: ما أکثر أذاک لی، غیّب وجهک عنّی فقد آذیتنا.(۲) ب. ونقل أیضاً: أتی عثمان بترکة عبد الرحمن بن عوف الزهری من المال، فَنُضِدَ البدر، حتی حالت بین عثمان و بین الرجل القائل، فقال عثمان: إنّی لأرجو لعبد الرحمن خیراً، لأنّه کان یتصدّق، ویقری الضیف، وترک ما ترون ;فقال کعب الأحبار: صدقت یا أمیر المؤمنین، فشال أبوذر العصا فضرب بها رأس کعب، ولم یشغله ما کان فیه من الألم، وقال: یابن الیهودی ـــــــــــــــــــ

۱ . البقرة:۱۷۷.

۲ . مروج الذهب:۲/۳۳۹ ـ ۳۴۰. (۸۷)

تقول لرجل مات وترک هذا المال إنّ اللّه أعطاه خیر الدنیا وخیر الآخرة، وتقطع علی اللّه بذلک، وأنا سمعت رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ یقول: «ما یسرنی أن أموت وأدع ما یزن قیراطاً» فقال له عثمان: وار عنّی وجهک.(۱) ومنها: تزلّفه إلی معاویة نری أنّ کعباً یتنبأ بمولد النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وهجرته وملکه، فیقول: مولده بمکة، وهجرته بطیبة، وملکه بالشام.(۲) فماذا یرید کعب بقوله: وملکه بالشام؟ هل هو إلاّ تزلف إلی معاویة، وأنّه یرید أن یقول: إن ملک النبی لن یستقر إلاّ فیها؟ وقد کان معاویة یمهد وسائل الملک لنفسه بالشام. وقال أیضاً: إنّ أوّل هذه الأُمّة نبوة ورحمة، ثمّ خلافة ورحمة، ثمّ سلطان ورحمة، ثمّ ملک وجبریة، فإذاکان ذلک، فإنّ بطن الأرض یومئذ خیر من ظهرها.(۳) فتری أنّه یتنبأ بالسلطنة ویعدّها رحمة، وهذا المضمون انتشر فی الصحاح والمسانید بکثرة، وقد روی الترمذی، قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «الخلافة فی أُمّتی ثلاثون سنة ثمّ ملک بعد ذلک».(۴) و روی أبو داود قال: قال رسولاللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «خلافة النبوّة ثلاثون سنة ثم یؤتی اللّه الملک من یشاء».(۵) وسیوافیک أنّه أخذ منه أبو هریرة، ولأجل ذلک نری تلک الفکرة ـ فکرة الملک ـ جاءت فی روایات أبی هریرة، قال: الخلافة بالمدینة والملک بالشام.(۶) ـــــــــــــــــــ

۱ . مروج الذهب:۲/۳۴۰.

۲ . سنن الدارمی:۱/۵.

۳ . حلیة الأولیاء:۶/۲۵.

۴ . سنن الترمذی:۴/۵۰۳، کتاب الفتن، باب ما جاء فی الخلافة، رقم ۲۲۲۶.

۵ . سنن أبی داود: ۴/۲۱۱.

۶ . کنز العمال:۶/۸۸. (۸۸)

وقد أخذ عن ذلک الحبر الماکر عدة من الصحابة کابن عباس وأبی هریرة، ومعاویة وغیرهم.(۱) قال الذهبی: توفی فی خلافة عثمان(۲). وقال أبو نعیم فی حلیة الأولیاء إنّه توفّی کعب قبل مقتل عثمان بسنة(۳). وعلی ذلک توفّی عام ۳۴. وقال ابن الأثیر فی

حوادث سنة ۳۴: ففی هذه السنة توفّی کعب الأحبار.(۴) نعم توفّی فی ذاک العام، لکن بعد ما ملأ المجتمع الإسلامی بأساطیر، وقصص، وعقائد إسرائیلیة، حسبها السذّج من المحدّثین أنّها حقائق راهنة، فنقلوها ناسبین لها إلی کعب تارة، وإلی النبی الأعظم أُخری، وعلیها بنیت العقائد وانتظمت الأُصول، ومن تفحّص فی کتب الحدیث والتفسیر والتاریخ، یقف بوضوح علی أنّ کثیراً من المحدّثین والمفسرین والمؤرّخین، اعتمدوا علی أقواله ومروياته من دون أی غمز وطعن أو تردد وشک، وهذا من عجائب الأُمور وغرائبها. هذا غیض من فیض، وقلیل من کثیر من روایات ذلک الرجل وتسویلاته. فمن أراد الوقوف علی أحواله وأقواله وما بثّ بین المسلمین من أساطیر وقصص إسرائیلیة، فلیرجع إلی المصادر التالیة.(۵) هذا وإنّ صاحب الثقافة المنحرفة یبثّ فکرته بین المجتمع فی ظل دعامتین مؤثرتین: _____

۱ . سیر أعلام النبلاء:۳/۴۹۰.

۲ . تذکرة الحفاظ :۱/۵۲.

۳ . حلیة الأولیاء:۶/۴۵.

۴ . الکامل فی التاریخ:۳/۷۷.

۵ . الأعلام للزرکلی:۵/۲۲۸ ;تذکرة الحفاظ:۱/۵۲ ;سیر أعلام النبلاء:۳/۴۸۹ـ ۴۹۴ ;حلیة الأولیاء:۵/۳۶۴و ۶/۱ـ۴۸ ;الإصابة:۱/۱۸۶; النجوم الزاهرة:۱/۹ ;الکامل:۳/۱۷۷ ;شرح ابن أبی الحدید فی أجزائه المختلفة:۳/۵۴و۴/۷۷ـ ۱۴۷و ۸/۲۶۵و ۱۰/۲۲و ۱۲/۸۱و ۱۹۱و ۱۸/۳۶. (۸۹)

الأُولی: یحاول الاتسام بالعلم، ویعرّف نفسه للمجتمع بأنّه عالم کبیر، ومفکّر اجتماعی بلا منازع، حتی یتّخذ لنفسه من هذا الطریق مکاناً فی القلوب تنعطف إلیه النفوس وترتاح به. الثانیة: یحاول الاتّصال بأصحاب السلطة، حتی یتخذهم سناداً وعماداً فی مقابل العواصف القارعة التی یثیرها صلحاء الأُمّة ومفکّروها الواقعیون. فإذا تهیّأت لأصحاب الفکرة المنحرفة هاتان الدعامتان، سهل لهم النفوذ فی عقول بسطاء الأُمّة، وتمکّنوا من نفث أفکارهم المسمومة فی نفوسها، ولا تمر الأیام حتی تصبح أفکارهم حقیقة راهنة لا یمکن تجاوزها، ولا الدعوة علی خلافها، بل تصیر المخالفة لها ارتداداً عن الدین، وتشبّثاً بالباطل. ومن عجائب الأُمور أنّ الأحبار والرهبان عندما تظاهروا بالإیمان ولما یدخل الإیمان فی قلوبهم، هیمنوا علی عقول المسلمین من خلال الأمرین المذکورین. فمن جانب عرفوا بأنّهم من أوعیة العلم، وأنّ عندهم علوم الأوّلین والآخرین بتفصیلاتها، وأنّهم حفظة التوراة والإنجیل والزبور وغیرها من الکتب السماویة. ومن جانب آخر استعانوا بالحکم السائد، بحیث صاروا موضع ثقة عنده، یسمع لکلامهم ویصدر عن رأیهم. عند ذلک أخذت الإسرائیلیات والمسیحیات، مکان السنّة النبویة وصار نقلتها مصادر الحکم والفتیا، فأصبحت آراؤهم وأقوالهم مدارک الفقه وسناد التاریخ، ومعیاراً للحقّ والباطل فی العقائد، فیا لها من رزیة عظمت، ویا لها من مصیبة کبرت. هذا هو کعب الأحبار فقد استعان فی بث ثقافته (الثقافة الیهودیة) بهاتین الدعامتین، فهلم معی ندرس حیاة بعض زملائه، وسوف تقف علی أنّ الخط الذی مشی علیه کعب، قد مشی علیه زملاؤه، وإلیک البیان: (۹۰) ۲.وهب بن منبه الیمانی

وقد ابتلی المسلمون بعد کعب الأحبار بکتابی آخر قد بلغ الغایة فی بثّ الإسرائیلیات بین المسلمین حول تاریخ الأنبیاء والأُمم السالفة، وهو وهب بن منبه. قال الذهبی: ولد فی آخر خلافة عثمان، کثیر النقل عن کتب الإسرائیلیات، توفّی سنة ۱۱۴هـ وقد ضعّفه الفلاس.(۱) وقال فی تذکرة الحفاظ: عالم أهل الیمن، ولد سنة أربع وثلاثین وعنده من علم أهل الکتاب شیء کثیر، فإنّه صرف عنایته إلی ذلک وبالغ، وحدیثه فی الصحیحین عن أخیه همام.(۲) وترجمه أبو نعیم فی حلیة الأولیاء ترجمة مفصلة استغرقت قرابة ستین صفحة، وبسط الکلام فی نقل أقواله وکلماته القصار.(۳) وقد خدع عقول الصحابة بأفانین المکر، حیث صار یعرّف نفسه بأنّه أعلم ممّن قبله ومن عاصره بقوله لبعض حضّار مجلسه: یقولون عبد اللّه بن سلام أعلم أهل زمانه، وکعب أعلم أهل زمانه، أفرأیت من جمع علمهما؟ یعنی نفسه.(۴) وقد تسنّم الرجل، منبر التحدّث عن الأنبیاء والأُمم السالفة یوم کان نقل الحدیث عن النبی ـ صلّی الله

عليه وآله وسلَّم ـ ممنوعاً وأخذ بمجامع القلوب فأخذ عنه من أخذ، وكانت نتيجة ذلك التحدّث، انتشار الإسرائيليات حول حياة الأنبياء فى العواصم الإسلامية، وقد دوّن ما ألقاه فى مجلد واحد، أسماه فى كشف الظنون«قصص الأبرار وقصص الأخيار».(۵)

---

۱ . ميزان الاعتدال:۴/۳۵۲ ـ ۳۵۳.

۲ . تذكرة الحفاظ:۱/۱۰۰ـ ۱۰۱.

۳ . حلية الأولياء:۱/۲۳ـ ۸۱.

۴ . تذكرة الحفاظ:۱/۱۰۱.

۵ . كشف الظنون:۲/۲۲۳، مادة قصص. (۹۱) وهب بن منبه والتركيز على القدر

وليته اكتفى بهذا المقدار ولم يلعب بعقيدة المسلمين ولم ينشر نظرية الجبر التى لو ثبتت لما بقيت للشرائع دعامة، ويظهر من تاريخ حياته أنّه أحد المصادر لانتشار نظرية نفى الاختيار والمشيئة عن الإنسان، حتّى المشيئة الظلية التى لولاها لبطل التكليف ولغت الشريعة.

روى حماد بن سلمة عن أبى سنان قال: سمعنا وهب بن منبه قال: كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء فى كلّها: من جعل لنفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر، فتركت قولى.(۱) والمراد من القدر فى قوله: «كنت أقول بالقدر» ليس القول بتقدير اللّه سبحانه وقضائه، بل المراد هو القول بالاختيار والمشيئة للعبد كما يظهر من ذيل كلامه، وهذا النقل يعطى أنّ القول بنفى القدر والمشيئة للإنسان، قد تسرب إلى الأوساط الإسلامية، عن طريق هذه الجماعة وعن الكتب الإسرائيلية. أفيصح بعد هذا أن نعدّ القول بنفى المشيئة عقيدة جاء بها القرآن والسنة النبوية، ونكفّر من قال بالمشيئة للإنسان ولو مشيئة ظلية تابعة لمشيئته سبحانه، ونقاتل فى سبيل هذه العقيدة؟! ۳. تميم بن أوس الدارى من رواة الأساطير

الإسرائيليات المبثوثة فى كتب التفسير والحديث والتاريخ ترجع أُصولها إلى رجال الكنائس والبيع، وقد تعرّفت على اثنين منهم وهما كعب الأحبار ووهب بن منبه، وثالثهم هو تميم الدارى وله دور كبير فى بثّها حيث إنّه أوّل من تولى نشر هذه الأساطير، وقد حدّث عنه علماء الرجال والتراجم وأطبقوا على أنّه كان نصرانياً قدم المدينة فأسلم فى سنة ۹ هجرية، وله من الأوّليات أمران:

---

۱ . ميزان الاعتدال:۴/۳۵۳. (۹۲)

۱.كان أوّل من أسرج فى المسجد. ۲. أوّل من قصّ بين المسلمين، واستأذن عمر أن يقصّ على الناس قائماً، فأذن له.(۱) وكان يسكن المدينة ثمّ انتقل إلى الشام بعد قتل عثمان.(۲) هذا ما اتّفقت عليه الكتب الرجالية، ويستنتج منها ما يلى: إنّ الرجل كان قصّاصاً فى المدينة يوم لم يكن هناك من يعارضه ويكافئه، وبما أنّ الرجل كان قد قضى شطراً من عمره بين الأحبار والرهبان، فمن الطبيعى أن يقوم بقص كلّ ما تعلّمه من أساتذته من الإسرائيليات والأساطير المسيحية وبثّها بين المسلمين وهم يأخذونها منه زاعماً أنّها حقائق راهنة. ومن المؤسف أنّ السياسة الحاكمة سمحت لهذا الكتابى الذى أسلم فى أُخريات حياة الرسول بأن يتحدّث عن الأُمم السالفة والأنبياء السابقين. وفى الوقت نفسه منعت عن التحدّث عن رسول اللّه ونشر كلامه وتدوينه، بحجة واهية قد تعرّفت عليها. أو ليس النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» على ما رواه أبو هريرة حيث إنّه قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا باللّه وما أُنزل إليكم».(۳) وإذا كان النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أمرنا بعدم تصديق هؤلاء القصّاصين من أهل الكتاب، فما فائدة نقل هذه القصص وبثها بين المسلمين وإتلاف عمر الشباب والكهول بالاستماع إليها؟! _____

۱ . كنز العمال:۱/۲۸۱ الرقم ۲۹۴۴۸.

۲ . الإصابة:۱/۱۸۹ ;الاستيعاب فى هامش الإصابة ;أُسد الغابة:۱/۲۱۵ وغيرها من المصادر.

۳ . صحيح البخارى:۹/ ۱۱۱، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة. (۹۳)

ولكن ابن عباس يقول أشد مما نقله أبو هريرة: كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء؟ وكتابكم الذى أُنزل على رسول اللّه أحدث الكتب تقرأونه محضاً لم يشب وقد حدثكم أنّ أهل الكتاب بدّلوا كتاب اللّه وغيّروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند اللّه ليشتروا به ثمناً قليلاً؟! ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟! لا واللّه ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أُنزل إليكم.(۱) إنّ ابن عباس الذى هو وليد البيت النبوى أعرف بسنّة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ من أبى هريرة، فهو ينهى عن السؤال والاستماع إلى كلماتهم بالمرة. وبذلك يعلم أنّ ما أسند إلى النبى فى المسانيد من القول : «حدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج».(۲) إمّا موضوع، أو مؤوّل محمول على ما علم من صدق الكلام. طعن الشيطان لكلّ بنى آدم إلاّ عيسى

إذا كان كعب الأحبار و زميله وهب بن منبه والمتقدّم عليهما تميم الدارى، هم القصّاصون فى المجتمع الإسلامى والمتحدّثون عن التوراة والإنجيل، وكانت الصحابة ممنوعة عن التحدث عن النبى فمن الطبيعى أن ينتشر فى العواصم الإسلامية الأساطير الخرافية حتى ما يمس بكرامة الأنبياء وكرامة النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . وهذا البخارى ينقل فى صحيحه عن أبى هريرة، قال: قال النبى : كلّ بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبيه باصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب.(۳)

---

۱ . أضواء على السنّة المحمدية: ۱۵۴ـ ۱۵۵، نقلاً عن البخارى من حديث الزهرى.

۲ . مسند أحمد:۳/۴۶.

۳ . صحيح البخارى:۴/۱۲۵، باب صفة إبليس وجنوده ;و ۴/۱۶۴، كتاب بدء الخلق. (۹۴)

وقد نقله أحمد فى مسنده باختلاف يسير. ومعنى هذا الحديث الذى ينقله عن ذلك الصحابى عن الرسول: أنّ الشيطان يطعن كلّ ابن آدم إلاّ ـ واحداً منه وهو عيسى بن مريم، وأمّا الأنبياء كموسى ونوح وإبراهيم وحتى خاتمهم، لم يسلموا من طعن الشيطان. أو ليس ذلك الحديث يخالف كتاباللّه حيث يقول:(إِنّ عِبادى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ، إِلاّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِين) (۱)؟! فإذن، كيف يمكن أن يقول النبى ذلك و قدأُوحى إليه أنّه ليس للشيطان سلطان على عباد اللّه المخلصين(۲) وخيرهم الأنبياء والمرسلون وفى مقدّمهم نبى العظمة؟! ومن المحتمل جداً أنّ هذا الخبر وصل إلى أبى هريرة من رواة عصره، نظراء كعب الأحبار أو زميله تميم الدارى وأضرابهما وقد نسبوه إلى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . إنّ هذا الحديث ونظائره أوجد مشاكل فى الدين وأعطى حججاً بأيدى المخالفين حتى يهاجموا الرسول الأكرم والأنبياء، ويزعموا بأنّهم سقطوا فى الخطيئة واقترفوا الآثام، إلاّعيسى بن مريم فإنّه أرفع من طبقة البشر وإنّه وحده قد استحقّ العصمة والصون من الآثام. فهؤلاء المحدّثون لو فرض أنّهم صادقون فى نيّاتهم، لكنّهم كالصديق الجاهل أضروا بالإسلام بنقل هذه القصص والأساطير وأيّدوا العدو بها وأتعبوا المسلمين من بعدهم. تميم الدارى وقصة الجساسة

إنّ لتميم الدارى حديثاً معروفاً باسم حديث الجساسة، نقله مسلم فى الجزء الثامن من صحيحه تجد فيه من الغرائب ما تندهش منها العقول. روى عن فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس ـوكانت من المهاجرات الأُول ـ : سمعت نداء المنادى (منادى رسول اللّه) ينادى: _____

۱ . الحجر:۴۲.

۲ . النحل:۹۹ ;والحجر:۴۲. (۹۵)

الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد فصلّيت مع رسول اللّه، فكنت فى صف النساء التى تلى ظهور القوم فلما قضى رسول اللّه صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: ليلزم كلّ إنسان مصلاّه. ثمّ قال: أتدرون لم جمعتكم؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: إنّى واللّه ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأنّ تميماً الدارى كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم وحدّثنى حديثاً وافق الذى كنت أُحدثكم عن مسيح الدجال، حدّثنى أنّه ركب فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهراً فى البحر، ثمّ

أرفئوا إلى جزيرة فى البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا فى أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجسّاسة. قالوا: وما الجسّاسة؟ قالت: أيّها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل فى الدير فإنّه إلى خبركم بالأشواق. قال: لما سمّت لنا رجلاً فزعنا منها أن تكون شيطانة. قال: فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبرى فأخبرونى ما أنتم؟ قالوا: نحن أُناس من العرب ركبنا فى سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهراً ثمّ أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا فى أقربها، فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ما أنت؟ قالت: أنا الجسّاسة. قلنا:وما الجسّاسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل فى الدير فإنّه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة. فقال: أخبرونى عن نخل بيسان. قلنا:عن أى شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أمّا إنّه يوشك أن لا يثمر. قال: أخبرونى عن بحيرة الطبرية. قلنا: عن أى شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا:هى كثيرة الماء. قال: أما إنّ ماءها يوشك أن يذهب. قال: أخبرونى عن عين زغر. قالوا: عن أى شأنهاتستخبر؟ قال: هل فى العين ماء وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم هى كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبرونى عن نبى الأُمّيين ما فعل؟ قالوا: قد (۹۶)

خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟فأخبرناه أنّه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. أما إنّ ذاك خير لهم أن يطيعوه وإنّى مخبركم عنّى إنّى أنا المسيح وإنّى أوشك أن يؤذن لى فى الخروج، فأخرج فأسير فى الأرض، فلا أدع قرية إلّا هبطتها فى أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرّمتان علىّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما استقبلنى ملك بيده السيف صلتاً يصدنى عنها وإنّ على كل نقب منها ملائكة يحرسونها. قالت: قال رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: وطعن بمخصرته فى المنبر هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة، يعنى: المدينة، ألا هل كنت حدّثتكم ذلك؟ فقال الناس: نعم، فإنّه أعجبنى حديث تميم إنّه وافق الذى كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ألا إنّه فى بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق، ما هو. وأومأ بيده إلى المشرق. قالت: فحفظت هذا من رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ.(۱) وقد علّق المحقّق المصرى أبو رية على هذا الحديث وقال: لعل علماء الجغرافية يبحثون عن هذه الجزيرة ويعرفون أين مكانها من الأرض، ثمّ يخبروننا حتى نرى ما فيها من الغرائب التى حدثنا بها سيدنا تميم الدارى ؟!!(۲) وأعجب منه أن يحدث نبى العظمة الذى يقول سبحانه فى حقّه :(وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللّه عَلَيْكَ عَظيماً).(۳) عن تميم الدارى ويستشهد بكلام نصرانى دخل فى الإسلام حديثاً، ونعم ما قال شاعر المعرة: فيا موت زر إنّ الحياة ذميمة.

---

۱ . صحيح مسلم:۲۰۳/۸ـ۲۰۵، باب فى الدجّال.

۲ . أضواء على السنة النبويّة:۱۷۱.

۳ . النساء:۱۱۳. (۹۷) ۴. ابن جريج الرومى ورواية الموضوعات

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومى، ولاؤه لآل خالد بن أسيد الأموى، ولد سنة ۸۰ وتوفّى عام ۱۵۰، قال أحمد بن حنبل: كان من أوعية العلم وهو وابن أبى عروبة أوّل من صنف الكتب، وقال عبد الرزاق: كان ابن جريج ثبتاً لكنّه يدس.(۱) ونقل الذهبى أيضاً عن عبد اللّه بن حنبل قال: «إنّ بعض هذه الأحاديث الذى يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة كان ابن جريج لا يبالى من أين يأخذها».(۲) نعم، روى الكلينى بسنده عن الفضل الهاشمى، قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام ـ عن المتعة فقال: «الق عبد الملك ابن جريج، فسله عنها، فإنّ عنده منها علماً، فلقيته، فأملى على شيئاً كثيراً فى استحلالها، وكان فيما روى لى فيها ابن جريج أنّه ليس فيها وقت ولا عدد، وإنّما هى بمنزلة الإماء، يتزوج منهن كم شاء، وصاحب الأربع نسوة يتزوج منهن ما شاء، بغير ولى ولا شهود، فإذا

انقضى الأجل، بانت منه بغير طلاق، ويعطيها الشيء اليسير، وعدتها حيضتان، وإن كانت لا تحيض فخمسة وأربعون يوماً. قال: فأتيت بالكتاب أبا عبد اللّه ـ عليه السَّلام ـ ، فقال: «صدق». وأقر به.(۳) ولعلّ إرجاع الإمام ـ عليه السَّلام ـ سائله إليه، لأجل اعترافه بالحق فى تلك المسألة، وليس هذا دليلاً على وثاقته مطلقاً. حصيلة البحث

إنّ هذه العصابة التى أتينا بأسمائهم وذكرنا عنهم شيئاً، كانوا هم الأُسس فى تسرب القصص الخرافية لليهود و المسيحيين إلى متون كتب المسلمين وصارت _____

۱ . تذكرة الحفاظ:۱/۱۶۹ـ ۱۷۱.

۲ . ميزان الاعتدال:۲/۶۵۹.

۳ . الوسائل:۱۴، كتاب النكاح، الباب ۴ من أبواب المتعة، الحديث۸. (۹۸)

نواة لكثير من القصّاصين والوضّاعين الذين نسجوا على منوالهم ونقلوا كلّ ما سمعوه من غث وسمين باسم الدين، ولأجل ذلك نجد كثيراً من كتب التفسير والتاريخ والحديث حتى ما يسمّى بالصحاح والمسانيد، مملوءة بالإسرائيليات والمسيحيات بل والمجوسيات. يقول «جولد تسيهر» فى هذا المضمار فى كتابه «العقيدة والشريعة»: هناك جمل أخذت من العهد القديم والعهد الجديد وأقوال للربانيين، أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة وتعاليم من الفلسفة اليونانية، وأقوال من حكم الفرس والهنود، كلّ ذلك أخذ مكانه فى الإسلام عن طريق الحديث ـ إلى أن قال ـ : ومن هذا الطريق تسرب كنز كبير من القصص الدينية حتى إذا ما نظرنا إلى الرواة المعدودة من الحديث ونظرنا إلى الأدب الدينى اليهودى، فإنّنا نستطيع أن نعثر على قسم كبير دخل الأدب الدينى الإسلامى من هذه المصادر اليهودية.(۱) نحن لا نصدق هذا المستشرق الحاقد على الإسلام فى كلّ ما يقول ويقضى، إلّا أنّنا نوافقه فى أنّ ما يؤثر عن أمثال كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وتميم الدارى، وعبد الملك بن جريج وغيرهم، من الإسرائيليات، ليس من صلب الإسلام وحديثه. والعجب أنّ هذه الجماعة لم تتمكن من إخفاء نواياها السيئة، فترى أنّ اليهودى منهم ينقل فضائل موسى ويرفعه فوق جميع الأنبياء، كما أنّ النصرانى منهم أخذ يرفع مقام المسيح ـ عليه السَّلام ـ على جميعهم ويصفه بالعصمة وحده دون غيرهم. نعم ليس كلّ ما ورد فى الشريعة الإسلامية ووافق التعاليم اليهودية والنصرانية، مأخوذاً من كتبهم لأنّ الشرائع السماوية واحدة فى جوهرها متحدة فى أُصولها، وبينها مشتركات كثيرة والاختلاف إنّما هو فى الشرعة والمنهاج لا فى الجوهر واللباب، قال سبحانه: (لِكُلّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرعَةً وَمِنْهاجاً) .(۲) _____

۱ . العقيدة والشريعة فى الإسلام تأليف المستشرق «جولد تسيهر» ترجمة الأساتذة الثلاثة.

۲ . المائدة:۴۸. (۹۹)

فالاختلاف إنّما هو فى الطرق الموصلة إلى ماء الحياة، أعنى: الأُصول والتعاليم السماوية النازلة من مصدر الوحى. فلو كان هناك اختلاف فإنّما هو فى القشور والأثواب، لا فى الجوهر واللباب. وقد فصلنا الكلام فى ذلك فى «مفاهيم القرآن».(۱) خاتمة المطاف

وأخيراً نقول: إنّ المتظاهرين بالإسلام من الأحبار والرهبان الذين كان لهم دور كبير فى بثّ الإسرائيليات وتكوين المذاهب، ليسوا منحصرين فى من ذكرناهم، بل هناك جماعة منهم لعبوا دوراً فى هذا المضمار يجد المتتبع أسماءهم ويقف على أقوالهم فى كتب الرجال والتراجم والروايات والأحاديث، كعبد اللّه بن سلام الذى أسلم فى حياة النبى، وطاووس بن كيسان الخولانى، الحمدانى بالولاء من التابعين، ولد عام ۳۳ وتوفّى عام ۱۰۶، وغيرهم ممّن تركنا البحث عنهم اختصاراً. ولإتمام البحث نأتى بنص بعض المحقّقين فى ذاك المجال وهى كلمة للدكتور «رمزى نعناعة» حول الإسرائيليات، قال: تسرب كثير من الإسرائيليات عن طريق نفر من المسلمين أنفسهم أمثال: عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فقد روى أنّه أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب يوم اليرموك، فكان يحدّث الناس ببعض ما فيها اعتماداً على حديث مروى.(۲) وعن هؤلاء المفسرين الذين لا يتورّعون عن تفسير القرآن بمثل هذه الخيالات والأوهام يقول النظام: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا فى كلّ مسألة، فإنّ كثيراً منهم يقول بغير رواية من

أساس، وليكن عندكم عكرمة والكلبى والسدى والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبو بكر _____

۱ . مفاهيم القرآن:۳/۱۱۹ـ ۱۲۴.

۲ . وهو قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : حدّثوا عنى...،وحدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج . مسند أحمد:۳/۴۶. (۱۰۰)

الأصم فى سبيل واحدة فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم.(۱) وقال أيضاً حول قصة آدم وحواء: ونقرأ تفسير الطبرى وتفسير مقاتل بن سليمان فى هذه القصة فيتجلّى لنا بوضوح انّهما أخذا ما جاء فى التوراة وشروحها من تفصيل لهذه القصة، ووضعوه تفسيراً لآيات القرآن الكريم وهم يروون ذلك عن وهب بن منبه تارة، وعن إسرائيل عن أسباط عن السدى تارة أُخرى.(۲) ومثلاً ـ نجد القرآن الكريم قد اشتمل على موضوعات وردت فى الإنجيل كقصة ولادة عيسى بن مريم ومعجزاته، فجاء المفسرون ينقلون عن مسلمة اليهود والنصارى شروحاً لهذه الآيات.(۳) وقال أيضاً: ولم يقتصر تأثير الإسرائيليات على كتب التفسير، بل تعدّاها إلى العلوم الإسلامية الأُخرى، فقد عنى بعض المسلمين بنقل تاريخ بنى إسرائيل وأنبيائهم كما فعل أبو إسحاق والطبرى فى تاريخيهما وكما فعل ابن قتيبة فى كتاب المعارف... كذلك كان لليهود أثر غير قليل فى بعض المذاهب الكلامية، فابن الأثير يروى عند الكلام على «أحمد بن أبى دؤاد» أنّه كان داعية إلى القول بخلق القرآن، وأخذ ذلك عن بشر المريسى وأخذ بشر من الجهم بن صفوان، وأخذ الجهم من الجعد بن أدهم، وأخذه الجعد عن أبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت ابن أُخت لبيد الأعصم وختنه، وأخذه طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودى وكان لبيد يقول:خلق التوراة، وأوّل من صنف فى ذلك طالوت وكان زنديقاً فأفشى الزندقة.(۴) وسيوافيك أنّ القول بقدم القرآن وكونه غير مخلوق، أيضاً تسرّبت من اليهود حينما قالوا بقدم التوراة، أو من النصرانية حينما قالوا بقدم «الكلمة» التى هى المسيح. فللأحبار والرهبان دور راسخ فى خلق هذه _____

۱ . الحيوان للجاحظ:۱/۳۴۳ـ ۳۴۶.

۲ . تفسير مقاتل:۱/۱۸ ;وتفسير الطبرى:۱/۱۸۶ ومابعده.

۳ . تفسير الطبرى:۳/۱۹۰ و ص ۱۱۲.

۴ . الكامل لابن الأثير:۵/۲۹۴ حوادث سنة ۲۴۰ ;ولاحظ الإسرائيليات وأثرها فى كتب التفسير للدكتور رمزى نعناعة: ۱۱۰ـ۱۱۱. (۱۰۱)

العقائد وطرح قدم القرآن خاصة على بساط البحث مع أنّه لم يرد فى ذلك نصّ عن النبى والصحابة. قال«زهدى حسن» ـ عند البحث عن تأثير الديانات ـ فى تكون العقائد: فمن أهل تلك الأديان من تركوا أديانهم ودخلوا فى الإسلام. لكنّهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من عقائدهم القديمة ولم يتسن لهم أن يتجرّدوا من سلطانها، لأنّ للمعتقدات الدينية على نفوس الناس قوة نافذة وهيمنة عظيمة فلا تزول بسهولة ولا تنسى بسرعة، ولهذا فإنّهم نقلوا إلى الإسلام ـ عن غير تعمد أو سوء قصد ـ بعض تلك المعتقدات ونشروها بين أهله. ومنهم ـ و هذا يصحّ عن الفرس كما سنرى ـ من اعتنق الإسلام لا عن إيمان به أو تحمس له وإنّما لغايات فى نفوسهم فعل بعضهم ذلك طمعاً فى مال يجنيه أو جاه يناله، وأقدم البعض الآخر عليه بدافع الحقد على المسلمين الذين هزموا دينهم وهدموا ملكهم، فأظهروا الإسلام وأبطنوا عداوته ودأبوا على محاربته والكيد له، فكانوا خطراً عليه كبيراً، وشراً مستطيراً، لأنّهم ما انفكوا ينفثون فيه ما فى صدورهم من الغل والغيظ، ويروجون بين أبنائه من الأفكار والآراء ما لا تقره العقيدة الإسلامية حباً فى تشويه تلك العقيدة ورغبة فى إفسادها. وكثيرون من غير المسلمين تمسكوا بأديانهم الأصلية، لأنّ الإسلام منحهم حرية العبادة، ولم يتدخل فى شؤونهم الخاصة ما داموا يدفعون الجزية، ولما توطدت أركان الدولة الإسلامية وتوسعت أعمالها فى عهد بنى أُمية، ولما لم تكن للعرب الخبرة الكافية فى أُمور الإدارة، فإنّهم اضطروا إلى أن يعتمدوا فى تصريف شؤون البلاد على أهل الأمصار المتعلمين الذين اقتبسوا مدنية الفرس وحضارة البيزنطيين، فأسندوا إليهم أعمال الدواوين. وهكذا كانوا يحيون بين ظهرانى المسلمين، ويحتكون دوماً بهم...والاحتكاك يؤدى إلى تبادل الرأى،والآراء سريعة الانتقال شديدة العدوى. وقال أيضاً: إنّ الأمويين قربوهم (المسيحيين) إليهم، واستعانوا بهم،

وأسندوا إليهم بعض المناصب العالية، فقد جعل معاوية بن أبى سفيان (۱۰۲)

«سرجون بن منصور» الرومى المسيحى كاتبه وصاحب أمره(۱) وبعد أن قضى معاوية بقيت لسرجون مكانته فكان يزيد يستشيره فى الملمّات ويسأله الرأى.(۲) ثمّ ورث تلك المكانة ولده يحيى الدمشقى(۳) الذى خدم الأمويين زمناً ثمّ اعتزل العمل سنة (۱۱۲هـ/ ۷۳۰م) والتحق بأحد الأديرة القريبة من القدس حيث قضى بقية حياته يشتغل فى الأبحاث الدينية ويصنف الكتب اللاهوتية، وليس من يجهل الأخطل الشاعر المسيحى الذى قدمه الأمويون وأغدقوا عليه العطايا وجعلوه شاعر بلاطهم. وكيف كان يزيد بن معاوية يعتمد عليه فى الرد على أعداء بنى أُمية وهجوهم.(۴) إنّ احتكاك المسلمين بأُولئك المسيحيين لا يمكن أن يكون قد مضى دون أن يترك فيهم أثراً، ولا سيما برجل ممتاز كيحيى الدمشقى الذى كان آخر علماء اللاهوت الكبار فى الكنيسة الشرقية وأعظم علماء الكلام فى الشرق المسيحى.(۵) ***

وقال أحمد أمين عندالبحث عن مصادر القصص فى العصر الأوّل: ولا بدّ أن نشير هنا إلى منبعين كبيرين لهؤلاء القصص وأمثالهم(۶)، تجد ذكرهما كثيراً فى رواية القصص وفى التاريخ وفى الحديث وفى التفسير، هما: وهب بن منبه، وكعب الأحبار. فأمّا وهب بن منبه فيمنى من أصل فارسى، وكان من أهل الكتاب الذين _____

۱ . تاريخ الطبرى:۶/۱۸۳ ;وابن الأثير:۴/۷.

۲ . الطبرى:۶/۱۹۴ـ ۱۹۹ وابن الأثير:۴/۱۷.

۳ . هو القديس يحيى الدمشقى (۸۱ـ ۱۳۷هـ=۷۰۰ ـ ۷۵۴م) واسمه العربى منصور. كان يحيى الدمشقى عالماً كبير القدر من علماء الدين وقديساً محترماً فى الكنيستين: الشرقية والغربية .

۴ . الأغانى:۱۴/۱۱۷.

۵ . لاحظ كتاب «المعتزلة» : ۲۳ـ ۲۴تأليف زهدى حسن جار اللّه.

۶ . كذا فى المصدر. (۱۰۳)

أسلموا، وله أخبار كثيرة وقصص تتعلّق بأخبار الأول ومبدأ العالم وقصص الأنبياء، وكان يقول: قرأت من كتب اللّه اثنين وسبعين كتاباً وقد توفى حوالى سنة (۱۱۰هـ) بصنعاء. وأمّا كعب الأحبار أو كعب بن ماتع فيهودى من اليمن كذلك، ومن أكبر من تسربت منهم أخبار اليهود إلى المسلمين، أسلم فى خلافة أبى بكر وعمر ـ على خلاف فى ذلك ـ و انتقل بعد إسلامه إلى المدينة ثمّ إلى الشام، وقد أخذ عنه اثنان، هما أكبر من نشر علمه: ابن عباس ـ و هذا يعلل ما فى تفسيره من إسرائيليات ـ وأبو هريرة ولم يؤثر عنه أنّه ألّف كما أثر عن وهب بن منبه، ولكن كلّ تعاليمه ـ على ما وصل إلينا ـ كانت شفوية، وما نقل عنه يدلّ على علمه الواسع بالثقافة اليهودية وأساطيرها. جاء فى «الطبقات الكبرى» حكاية عن رجل دخل المسجد فإذا عامر بن عبد اللّه بن القيس جالس إلى كتب وبينها سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ.(۱) وقد لاحظ بعض الباحثين أنّ بعض الثقات كابن قتيبة والنووى ما رويا عنه أبداً. وابن جرير الطبرى يروى عنه قليلاً، ولكن غيرهم كالثعلبى والكسائى ينقل عنه كثيراً من قصص الأنبياء كقصة يوسف والوليد بن الريان وأشباه ذلك. ويروى «ابن جرير» أنّه جاء إلى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له:اعهد، فإنّك ميت فى ثلاثة أيام. قال: وما يدريك؟ قال: أجده فى كتاب اللّه عزّوجلّ فى التوراة. قال عمر:إنّك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة؟ قال: اللّهمّ لا، ولكن أجد صفتك وحليتك وأنّه قد فنى أجلك. وهذه القصة إن صحت، دلّت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثمّ وضعها هو فى هذه الصبغة الإسرائيلية، كما تدلنا على مقدار اختلاقه فيما ينقل. وعلى الجملة: فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم فى عقيدتهم وعلمهم كثير كان له فيهم أثر غير صالح.(۲) *** _____

۱ . طبقات ابن سعد:۷/۷۹.

۲ . فجر الإسلام: طبع دار الكتاب العربى:۱۶۰ـ ۱۶۱. (۱۰۴) (وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَما

يَشْعُرُونَ) .(۱) _____

۱ . آل عمران:۶۹. (۱۰۵)

العامل الخامس الاحتكاك الثقافى واللقاء الحضارى

العامل الخامس الاحتكاك الثقافى واللقاء الحضارى

مضى النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ إلى جوار ربّه وقام المسلمون بعده بفتح البلاد ومكافحة الأُمم المخالفة للإسلام والسيطرة على أقطارها، وكانت تلك الأُمم ذات حضارة وثقافة فى المعارف والعلوم والآداب، وكان بين المسلمين رجال ذوو دراية ورغبة فى كسب العلوم وتعلم ما فى تلك الحضارات من آداب وفنون فأدّت هذه الرغبة إلى المذاكرة والمحاورة أوّلاً، ونقل كتبهم إلى اللغة العربية ثانياً. يقول بعض المؤرّخين فى هذا الصدد: ولم تلبث كتب أرسطو، وأنبذقليس، وهرقليوس،وسقراط، وأبيقور،وجميع أساتذة مدرسة الإسكندرية من الفلاسفة، أن ترجمت إلى اللغة العربية وكان هناك ما جعل أمر تلك الترجمة سهلاً، فقد كانت معارف اليونان والرومان منتشرة فى بلاد الفرس وسوريا منذ أن وجد العرب فى بلاد فارس وسوريا، فلمّا استولى المسلمون على ما فيها من خزائن العلوم اليونانية قاموا بنقل ما هو باللغة السريانية إلى اللغة العربية. وأعان على أمر الترجمة أنّه نقل عدّة من الأسرى إلى العواصم الإسلامية، فصار ذلك سبباً لانتقال كثيرمن آراء الرومان والفرس إلى المجتمع الإسلامى (۱۰۶)

وانتشارها بينهم ولا شكّ أنّ بين تلك المعارف ما كان يضاد مبادئ الإسلام وأُسسه وكان بين المسلمين من لم يتدرع فى مقابلها ومنهم من لم يتورع فى أخذ الفاسد منها. فأصبحوا مغمورين فى هذه التيارات، نظراء: ابن أبى العوجاء، وحماد بن عجرد، ويحيى بن زياد، ومطيع بن أياس، وعبد اللّه بن المقفع، فهؤلاء وأمثالهم بين غير متدرع وغير متورع، اهتموا بنشر الإلحاد بين المسلمين وترجمة كتب الملاحدة والثنوية من الروم والفرس إلى أن عاد بعض المتفكّرين غير مسلمين للإسلام إلاّ بالقواعد الأساسية كالتوحيد والنبوة و المعاد وكانوا ينشرون آراءهم علناً ويهاجمون بها عقائد المؤمنين. نحن نرى فى التراث اليونانى بفضل التراجم التى وصلت إلينا أبحاثاً حول علمه سبحانه وإرادته وقدرته وأفعاله حتى مسألة الجبر والاختيار، وقد كان لتلك الآراء تأثير عميق على عقول المسلمين وهم بين متدرّع بالحضارة الإسلامية يكافح الشبه ويميز الصحيح من الفاسد، وبين ضعيف فى التعقّل والتفكّر ليس له من الشأن إلاّ الأخذ، فصارت تلك الآراء من مبادئ تكوّن الفرق واختلاق النحل. دور أهل البيت فى عصر الترجمة

وفى هذا الجو المشحون بالآراء والعقائد الصحيحة وغير الصحيحة، قام أهل البيت بتربية جموع غفيرة من ذوى الاستعداد على المبادئ الأصيلة والمفاهيم الإسلامية وتعريفهم بالأُصول الدينية المستقاة من الكتاب والسنّة والعقل،وصاروا يناظرون كلّ فرقة ونحلة بما فيهم الملاحدة والثنوية بأمتن البراهين وأسلمها. وقد حفظ التاريخ أسماء طائفة منهم، كهشام بن الحكم، وأبى جعفر مؤمن الطاق، وجابر بن يزيد، وأبان بن تغلب البكرى، ويونس بن (۱۰۷)

عبد الرحمن، وفضال بن الحسن بن فضال، ومحمد بن خليل السكاك، وأبى مالك الضحاك، وآل نوبخت جميعاً، إلى غير ذلك ممن برع فى علم الكلام، وناظر الفرق، بين من تتلمذ على الأئمة، أو من تتلمذ على خريجى مذهبهم، وتواصلت حلقات مناظراتهم حتى القرون المتأخرة وألفت كتب فى العقائد والكلام والملل والنحل، يقف القارئ على تاريخهم فى كتب الرجال والتراجم وقد حفظ الكثير من نصوص هذه المناظرات والاحتجاجات لحدّ الآن. كما قامت المعتزلة بمقاومة هذه التيارات الإلحادية والثنوية، وبإزالة الشبه بفضل الأُصول القرآنية والعقلية، وقد نجحوا فى ذلك نجاحاً باهراً وإن لم يكونوا ناجحين فى كلّ ما هو الحقّ من الأُصول والفروع الإسلامية. وبما أنّ أهل الحديث لا يحسنون طريقة المعتزلة فى الاحتجاج والبرهنة، لذا كانوا يعادونهم، كما أنّ الملاحدة والثنوية كانوا يعادونهم أيضاً، لما يجدون فيهم من قوّة التفكير والقدرة على الاحتجاج والمناظرة. وعلى ذلك فقد وقعت المعتزلة بين عدوين:أحدهما من الداخل، وهم أهل الحديث، والآخر من الخارج، وهم الملاحدة والثنوية. نعم كان بين المسلمين من يأبى الخوض

فى المسائل العقلية ويكتفى بما وصل إليه من الصحابة، ويقتصر على ما حصل عليه من الدين بالضرورة وهم الحشوية من أهل الحديث وأكثر الحنابلة ولما التحق الشيخ أبو الحسن الأشعرى بالحنابلة لم يجد محيصاً فى الدفاع عن عقائدهم عن الخوض فى المسائل الكلامية، فألّف رسالة أسماها «فى استحسان الخوض فى الكلام». (۱۰۸)

العامل السادس الاجتهاد فى مقابل النص

العامل السادس الاجتهاد فى مقابل النص

إذا كانت العوامل الخمسة الماضية من عوامل تكون المذاهب الكلامية فالاجتهاد فى مقابل النص ممّا يتكون به المذاهب الكلامية والفقهية. روى الفريقان أنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ كان مسجى على فراش الموت والحجرة غاصة بأصحابه فقال: «يا أيّها الناس يوشك أن أقبض سريعاً فينطلق بى، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم ألا أنّى مخلف فيكم كتاب اللّه عزّ وجلّ وعترتى أهل بيتى».(۱) فجعل العترة أعدال كتاب اللّه وقرناءه كما أنّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ جعلهم أمان الأُمّة من الاختلاف وسفينتها من الهلاك، إلى غير ذلك من الأحاديث التى ستمر عليك عند البحث عن الشيعة. ومع ذلك استأثر القوم بالأمر يوم السقيفة و أوّلوا نصوصه لا يلوون على شىء وقد قضوا أمرهم بينهم دون أن يؤذنوا به أحداً من بنى هاشم وأهل بيت النبوة وكأنّه عناهم الشاعر فى المثل السائر حيث قال: ويقضى الأمر حين تغيب تيم * ولا يستأذنون وهم شهود نرى أنّ الأُمّة بعد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ رجعوا إلى كلّ صحابى وتابعى وإلى _____

۱ . لاحظ ص ۳۶ من كتابنا هذا. (۱۰۹)

من أدرك صحبة النبى شهراً أو أقلّ ومع ذلك أعرضوا عن أهل بيته وعترته وهم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحى والتنزيل، وما هذا إلّا اجتهاد فى مقابل النصّ. وأمّا المذاهب الفقهية التى أُسّست فى ظل هذا العامل فحدث عنها ولا حرج، ويكفى فى ذلك المراجعة إلى الكتب الفقهية فى المسائل التالية: ۱. إسقاط سهم المؤلّفة قلوبهم من الزكاة مع النص عليه فى محكم الذكر. ۲. إسقاط سهم ذوى القربى من الخمس بوفاة رسول اللّه مع النصّ عليه فى محكمات الفرقان وصحاح السنن. ۳. الحكم بعدم توريث الأنبياء مع ما فى الذكرالحكيم من النصوص الصريحة فى توريثهم. ۴. النهى عن متعة الحجّ مع النصّ الوارد عليها فى الآية (۱۹۶) من سورة البقرة. ۵. النهى عن متعة النساء مع النصّ عليه فى محكم الذكر وصحاح الروايات. ۶.إسقاط «حى على خير العمل» من الأذان والإقامة مع كونه جزءاً من كلّ منهما. إلى غير ذلك من الموارد التى جمعها العلّامة الأكبر السيد شرف الدين العاملى (المتوفّى۱۳۷۷هـ) فى كتابه«النص والاجتهاد» وهو من الكتب الممتعة فى ذلك الموضوع وفى آخر الكتاب فصل جمع فيه نصوص الإمامة المتوالية من مبدأ أمر الرسول إلى انتهاء عمره الشريف. *** (ثُمَّ أَورَثنا الكِتابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالخَيْراتِ بِإِذْنِ اللّه ذلِكَ هُوَ الفَضْلُ الْكَبير) (۱). _____

۱ . فاطر: ۳۲ . (۱۱۰) (۱۱۱)

الفصل الرابع فى معنى القدرية والمعتزلة

الفصل الرابع فى معنى القدرية والمعتزلة والرافضةوالحشوية

إنّ كتب الملل والنحل مشحونة باصطلاحات يستخدمونها فى التعبير عن الفرق ويعبرون عن أكثرهم بإدخال ياء النسبة إلى أصحاب الرأى، غير أنّ هناك اصطلاحات اختلفوا فى معناها أو وقع لهم الاشتباه فى تفسيرها، فلنذكر هاهنا القسم الأخير:

۱. القدرية قد تداول استعمال لفظ القدرية فى علمى الملل والكلام، فأصحاب الحديث كإمام الحنابلة ومتكلّمى الأشاعرة يطلقونها ويريدون منها «نفاة القدر ومنكريه» بينما تستعملها المعتزلة فى مثبتى القدر والمقرين به، وكلّ من الطائفتين ينزجر من الوصمة بها ويفر

منها فرار المزكوم من المسك ;وذلك لما رواه أبو داود فی سننه، والترمذی فی صحیحه، من روایات فی ذم القدریة والقدح فیهم. وإلیك بیانها: ۱. عبد اللّه بن عمر: إنّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: القدریة مجوس هذه الأُمّة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم. ۲. عبد اللّه بن عباس: إنّ النبی قال: لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم.(۱) _____

۱ . أی لا تحاکموهم وتناظروهم ولا تجادلوهم. وفی المصدر عمر بن الخطاب مکان «عبد اللّه بن عباس». (۱۱۲)

۳. عبد اللّه بن عباس قال: قال رسول اللّه: صنفان من أُمّتی لیس لهما فی الإسلام نصیب: المرجئة والقدریة.(۱) ولأجل هذه الروایات یتهم کلّ من الطائفتین، الأُخری بالقدریة لینزّه نفسه من ذلك العار والشنار. ولا یخفی أنّ متون الأحادیث تعرب عن کونها موضوعة علی النبی الأکرم، خصوصاً الحدیث الأخیر فقد جاء فیه: المرجئة والقدریة معاً، إذ إنّ هذین المصطلحین برزا بین المسلمین فی النصف الثانی من القرن الأوّل عندما اتّهم معبد الجهنی وتلمیذه غیلان الدمشقی بالقدر والإرجاء، و ذاع هذان الاصطلاحان بین المسلمین إلی الآن ومن البعید وجودهما فی زمن الرسول الأعظم وشیوعهما فی ذلك العصر،وعند ذلك کیف یتکلّم الرسول بکلمات بعیدة عن أذهان أصحابه، وغریبة علی مخاطبیه، کلّ ذلك یثیر الشکّ أو سوء الظن بوضع هذه الأحادیث ودسّها بین المسلمین، حتی یتسنّی لکلّ من الطائفتین، تعییر الأُخری بها والنیل من کرامتها،وما ذکرناه من التشکیك وإن کان لا یخرج عن دائرة الاستحسان، غیر أنّ وقوع الضعاف فی أسنادها یؤید ذلك التشکیك ویقوّیه. أمّا الحدیث الأوّل، فقد رواه أبو داود فی سننه بالسند التالی: حدثنا موسی بن إسماعیل، حدثنا عبد العزیز بن أبی حازم، قال: حدثنی بمنی عن أبیه، عن ابن عمر، عن النبی.(۲) ویکفی فی ضعف الحدیث، أنّ أبا حازم سلمة بن دینار، لم یدرك عبد اللّه بن عمر، وقد روی عنه فی مواضع بوسائط، لا یثبت منها شیء.(۳) وأمّا الحدیث الثانی، فقد رواه أیضاً بالسند التالی: _____

۱ . جامع الأُصول:۱۰/۵۲۶. راجع سنن أبی داود:۴/۲۲۲، باب فی القدر، الحدیث ۶۴۹۱ و ۶۴۹۲ ;سنن الترمذی:ج۴، کتاب القدر باب ۱۳، الحدیث ۲۱۴۹.

۲ . سنن أبی داود:۴/۲۲۲، الباب فی القدر، الحدیث ۴۶۹۱.

۳ . جامع الأُصول :۱۰/۵۲۶ قسم التعلیق ;واللآلی المصنوعة :۱/۲۵۸. (۱۱۳)

حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا عبد اللّه بن یزید المقری أبو عبد الرحمن، قال حدثنی سعید بن أبی أیوب، قال حدثنی عطاء بن دینار، عن حکیم بن شریك الهذلی، عن یحیی بن میمون الحضرمی، عن ربیعة الجرشی، عن أبی هریرة، عن عمر بن الخطاب.(۱) ویکفی فی ضعف الحدیث أنّ فی أسناده، حکیم بن شریك الهذلی البصری الذی هو مجهول.(۲) وأمّا الحدیث الثالث، فقد رواه الترمذی فی سننه بالسند التالی: حدثنا واصل بن عبد الأعلی الکوفی، حدثنا محمد بن فضیل، عن القاسم بن حبیب، وعلی بن نزار، عن نزار عن عکرمة.(۳) ویکفی فی ضعف الحدیث أنّ قاسم بن حبیب ضعیف، ونزار وابنه علی، من المجاهیل. أفیصح الاحتجاج بأحادیث هذه أسنادها؟ هذه حال الأحادیث الواردة فی الصحاح. غیر أنّ هناك أحادیث وردت فی غیرها تختلف مع ما ورد فیها سنداً، وإن کانت تتحد لفظاً. وقد جمعها السیوطی فی کتابه «اللآلی المصنوعة فی الأحادیث الموضوعة».(۴) مثلاً: روی ابن عدی، بسند عن مکحول عن أبی هریرة مرفوعاً: إنّ لکلّ أُمّة مجوساً، وإنّ مجوس هذه الأُمّة القدریة، فلا تعودوهم إذامرضوا، ولا تصلّوا علیهم إذا ماتوا. وفی سنده جعفر بن الحارث، قال عنه السیوطی: لیس بشیء. ورواه خیثمة بسند عن أبی هریرة، وفی سنده غسان، قال عنه السیوطی: مجهول. _____

۱ . سنن أبی داود:۴/۲۲۸، باب فی القدر، الحدیث ۴۷۱۰.

۲ . جامع الأُصول:۱/۵۲۶، قسم التعلیق.

۳ . سنن الترمذی :۴/۴۵۴، باب ما جاء فی القدریة، رقم الحدیث ۲۱۴۹.

۴ . لاحظ ج۱، ص ۲۵۴ ـ ۲۵۶. (۱۱۴)

ورواه الدارقطنی، بسند عن أبی هریرة، وفیه مجاهیل، حتی قال النسائی: هذا الحدیث باطل کذب.(۱) ونکتفی بهذا المقدار فی البحث عن سند الروایات. هذا حال رجال الأحادیث المذکورة، ومن المعلوم أنّه لا یمکن الاحتجاج بأحادیث هذا شأنها، وعلی فرض صحتها فالصحیح تفسیر القدریة بمعنی مثبتی القدر والحاکمین به، لا نفاته. فإنّ تلک الکلمة کأشباهها من العدلیة وغیرها تطلق ویراد منها مثبتو مبادئها، أعنی: العدل، لا نفاتها. وإطلاق تلک الکلمة وإرادة النفی منها من غرائب الاستعمالات. نعم أخرج أبو داود فی سننه(۲)، عن حذیفة بنالیمان قال: «قال رسول اللّه: لکلّ أُمّة مجوس، ومجوس هذه الأُمّة الذین یقولون لا قدر». وهذا الحدیث علی فرض صحته یمکن أن یکون قرینة علی تفسیر القدریة فی هذا المورد، ویکشف عن أنّ ذلک الاستعمال البعید عن الأذهان، کان مقروناً بالقرینة. ولکن الاحتجاج بالحدیث غیر تام، إذ فی سنده عمر مولی غفرة، عن رجل من الأنصار، عن حذیفة، فالراوی والمروی عنه مجهولان.(۳) فقه الحدیث

وبعد ذلک کلّه، ففقه الحدیث یقتضی أن نقول: إنّ المراد من القدریة هم مثبتو القدر، لا نفاته، بقرینة تشبیههم بالمجوس، فإنّ المجوس معروفة بالثنویة، وإنّ خالق الخیر غیر خالق الشر، ومبدع النور غیر مبدع الظلمة، وإنّ هناک إلهین خالقین فی عالم واحد، یستقل کلّ فی مجاله الخاص، حسب ما یناسب ذاته. والقائل بالقدر یحکّم القدر علی أفعاله سبحانه وأفعال عباده، فکأنّ

---

۱ . اللآلی المصنوعة: ۱/۲۵۸.

۲ . سنن أبی داود: ۴/۲۲۲ ح ۴۶۹۲.

۳ . الجرح والتعدیل:۶/۱۴۳. (۱۱۵)

التقدیر إله حاکم علی أفعال اللّه وأفعالهم، فإذا قدر شیئاً وقضی لا یمکن له نقض قضائه وقدره، بل یجب علیهما أن یصیرا حسب ما قدر، فالفواعل علی هذا المعنی ـ سواء أکانت شاعرة عالمة بذاتها وأفعالها أو غیر شاعرة وعالمة ـ مسیّرة لا مخیّرة، لأجل حکومة القدر وسیادته علی اللّه وأفعاله وعلی حریة عبده، فأی إله أعلی وأسمی من القدر بهذا المعنی. فصحّ تشبیه القدریة ـ بهذا المعنی ـ بالمجوس القائلین بالثنویة وتعدد الإله. وأمّا نفاة القدر الذین یقولون لا قدر ولا قضاء بل للّه الحکم فی أوّله وآخره، وأنّ عباده مخیّرون فی أعمالهم وأفعالهم، فهم أشبه بالموحدین من القائلین بالمعنی السابق الذکر. نعم یمکن تقریب کون النفاة بحکم المجوس ببیان آخر وهو: أنّ تلک الفرقة یعتقدون بالتفویض، وأنّ الإنسان مفوض إلیه فی فعله، مستقل فی عمله وکلّ ما یقوم به. فعند ذلک یکون الإنسان فاعلاً غیر محتاج فی فعله إلی خالقه وبارئه،ویصیر نداً له سبحانه وتعالی فکما هو مستقل فی خلقه فذاک أیضاً مستقل فی عمله. وهذا الاعتقاد یشبه قول الثنویة، من الاعتقاد بخالقین مستقلین: خالق النور وخالق الظلمة. وفی مورد البحث یعتقد نفاة القدر بخالقین: اللّه سبحانه بالنسبة إلی ما سواه غیر أفعال الإنسان، والإنسان فی مجال أفعاله وأعماله، فلکلّ مجال خاص، وهذا الاعتقاد یخالف التوحید فی الخالقیة والفاعلیة، وأنّه لیس هناک إلاّ خالق واحد، کما أنّه لیس هناک فاعل مستقل. فکلّ ما فی الوجود من الآثار مع استناده إلی مبادئها ومؤثراتها، مستند إلی اللّه سبحانه، وسیوافیک توضیحه عند البحث فی القضاء والقدر. ولا یخفی ما فی هذا الوجه من الوهن، لأنّ الحدیث یرکز علی کونهم بمنزلة المجوس، لأجل کونهم نافین للقدر، لا لأجل کونهم قائلین بالتفویض،وأنّ الإنسان بعد الوجود،مفوض إلیه فعله وعمله،ولا صلة لفعله إلی اللّه سبحانه بوجه من الوجوه. وقولهم بالتفویض وإن کان یصحح ذلک، لکنّه (۱۱۶)

لیس مذکوراً فی الحدیث فالحقّ تفسیر الحدیث بالقائلین بالقدر والمثبتین له علی الوجه الذی عرفته، لا بنفاته. هذا، والقاضی عبد الجبار نقل حدیثاً یوضح لنا مفاد هذا الحدیث حیث قال: «لعنت القدریة والمرجئة علی لسان سبعین نبیاً، قیل له: ومن القدریة یا رسول اللّه؟ قال: «قوم یزعمون أنّ اللّه قدّر علیهم المعاصی وعذبهم علیها. والمرجئة قوم یزعمون أنّ الإیمان بلا عمل».(۱) ونقل أیضاً قول الرسول:«لعن اللّه القدریة علی لسان سبعین نبیاً، قیل: من القدریة یا رسول اللّه؟قال: «الذین یعصون اللّه تعالی ویقولون کان ذلک

بقضاء اللّه وقدره... وهم خصماء الرحمن وشهود الزور وجنود إبليس».(۲) وقد رواه بعض المفسرين أيضاً، كالزمخشرى فى كشافه(۳)، والرازى فى مفاتيحه.(۴) هذا وإنّ تبوّؤ النبى الأكرم عن طائفة باسمهم دون أن يذكر وصفهم بعيد جداً. وهنا نكتة يجب التنبيه عليها وهى أنّه لا شكّ أنّ للّه سبحانه قضاء وقدراً، وانّه لا يمكن للمؤمن العارف بالكتاب والسنّة إنكار ذلك،وقد قال سبحانه: (ما أَصابَ مِنْ مُصيبَة فِي الأَرْضِ وَلا فى أَنفُسِكُمْ إِلاّ فى كِتاب مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلى اللّهِ يَسير) (۵) وقال سبحانه: (إِنّا أَنْزَلْناهُ فى لَيْلَة مُبارَكة إِنّا كُنّا مُنْذِرينَ* فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْر حَكِيم).(۶) _____

۱ . المغنى:۸/۳۲۶(المخلوق).

۲ . شرح الأُصول الخمسة: ۷۷۵، الطبعة الأُولى.

۳ . الكشاف:۱/۱۰۳.

۴ . المفاتيح:۱۳/۱۸۴.

۵ . الحديد:۲۲.

۶ . الدخان:۳ و ۴. (۱۱۷)

وهذه الآيات والأحاديث المتضافرة التى نقلها أصحاب الحديث لا تترك منتدحاً لمسلم أن ينكر القضاء والقدر، نعم الكلام فى تفسيرهما وتحديد معناهما على نحو لا يضاد ولا يخالف حاكمية اللّه واختياره أوّلاً، ولا يزاحم حرية الإنسان وإرادته ثانياً، إذ كما أنّ القدر والقضاء من الأُمور اليقينية، فكذا حاكميته سبحانه واختياره، وحرية العبد وإرادته من الأُمور اليقينية أيضاً وسوف يوافيك أنّ معنى القضاء والقدر الثابتين فى الشرع، ليس كما تصوّره أصحاب الحديث والأشاعرة: من تحكيم القدر على اختياره سبحانه، وإرادة عباده. بل تقديره وقضاؤه لا يعنى إبطال حرية الإنسان واختياره، ولأجل كون المقام من مزال الأقدام، نهى الإمام أمير المؤمنين البسطاء عن الخوض فى القضاء والقدر، فقال فى جواب من سأله عن القدر:«طريق مظلم فلا تسلكوه، وبحر عميق فلا تلجوه، وسر اللّه فلا تتكلّفوه».(۱) ولكن كلامه ـ عليه السَّلام ـ متوجه إلى البسطاء من الأُمّة الذين لا يتحملون المعارف العليا، لا إلى أهل المعرفة والنظر. ولأجل ذلك وردت جمل شافية فى القضاء والقدر عن أئمّة أهل البيت ـ عليهم السَّلام ـ وسيوافيك شطر منها عند عرض مذهب أهل الحديث فى هذا الموقف. ۲. الاعتزال والمعتزلة

المعتزلة طائفة من العدلية نشأت فى أوائل القرن الثانى الهجرى، ويرجع أصلها إلى «واصل بن عطاء» تلميذ الحسن البصرى، ولهم منهج كلامى خاص وأُصول معينة اتفقوا عليها، وسوف نرجع إلى دراسة مذهبهم بعد الفراغ من دراسة مذهب أهل الحديث أوّلاً، والأشاعرة ثانياً، غير أنّ الذى نركز عليه هنا هو الوقوف على وجه تسميتهم بالمعتزلة تارة، ووصف مدرستهم بالاعتزال أُخرى، وهناك آراء ستة نشير إلى بعضها: أ. دخل رجل على الحسن البصرى (المتوفّى عام ۱۱۰هـ) فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم _____

۱ . شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده:قسم الحكم، الرقم ۲۸۷. (۱۱۸)

كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج ;وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل ليس ـ على مذهبهم ـ ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كمالا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأُمّة فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً؟ فتفكّر الحسن فى ذلك وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء (تلميذه): أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً، ولا كافر مطلقاً، بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر. ثمّ قام واعتزل إلى أسطوانة من اسطوانات المسجد، يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنّا واصل، فسمّى هو وأصحابه معتزلة.(۱) وقد كان لمسألة مرتكب الكبائر دوى عظيم فى تلك العصور، وهو أمر أحدثه الخوارج فى البيئات الإسلامية تعييراً لعلى ـ عليه السَّلام ـ حيث إنّه بزعمهم ارتكب الكبيرة لمّا حكّم الرجال فى أمر الدين، وليس للرجال شأن فى هذا المجال، فعادوا يكفّرونه حسب معاييرهم الباطلة. ولأجل ذلك انتشر السؤال

عن حكم مرتكب الكبيرة، هل هو كافر أو مؤمن فاسق؟ فالتجأ واصل بن عطاء إلى القول بالمنزلة بين المنزلتين. وظاهر الرواية، أنّ واصل بن عطاء أجاب عن السؤال ارتجالاً وبلا تروّ، غير أنّا نرى أنّ المعتزلة اتّخذوه أصلاً من الأُصول الخمسة التى لا يختلف فيها أحد منهم، فيبدو أنّه انتهى إلى تلك النظرية عن تحقيق وتفكير وتبعه أصحابه طوال قرون من دون أن يكون هناك حافز سياسى أو داع غير إراءة الحقّ وإصابة الواقع. ومع ذلك كلّه نرى عبد الرحمن بدوى يعتبر تلك الفكرة منهم فكرة سياسية اتّخذوها ذريعة على ألاّ ـ ينصروا أحد الفريقين المتنازعين(أهل السنّة والخوارج) حيث قال: وإنّما اختار المعتزلة الأوّلون هذا الاسم، أو على الأقل

---

١ . الفرق بين الفرق : ١١٨ ;الملل والنحل للشهرستانى:١/۴٨. (١١٩)

تقبّلوه، بمعنى المحايدين أو الذين لا ينصرون أحد الفريقين المتنازعين(أهل السنة والخوارج) على الآخر فى المسألة السياسيّة الدينية الخطيرة: مسألة الفاسق ما هو حكمه؟ هل هو كافر مخلّد فى النار كما يقول الخوارج، أو هو مؤمن يعاقب على الكبيرة بقدرها كما يقول أهل السنّة، أو هو فى منزلة بين المنزلتين وهو ما يقول به المعتزلة.(١) ب. وهناك رأى ثان فى وجه تسميتهم بها، يظهر ممّا ذكره أبو الحسين محمد ابن أحمد بن عبد الرحمن الملطى الشافعى(المتوفّى عام ٣٧٧هـ) حيث يقول: وهم سمّوا أنفسهم معتزلة وذلك عندما بايع الحسن بن على ـ عليه السَّلام ـ معاوية وسلم إليه الأمر، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس، وقد كانوا من أصحاب على،ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة فسمّوا بذلك معتزلة.(٢) وهذا الرأى قريب من جهة أنّ المعتزلة أخذوا تعاليمهم فى التوحيد والعدل، عن الإمام على بن أبى طالب ـ عليه السَّلام ـ لأنّهم يقرّون بأنّ مذهبهم يصل إلى واصل بن عطاء، وأنّ واصلاً يستند إلى محمد بن على بن أبى طالب ـ عليه السَّلام ـ المعروف بابن الحنفية بواسطة ابنه أبى هاشم وأنّ محمداً أخذ عن أبيه، وأنّ علياً أخذ عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ .(٣) وعلى ذلك فليس ببعيد أن يرجع وجه التسمية إلى زمن تصالح الإمام الحسن ـ عليه السَّلام ـ مع معاوية. والذى يبعد ذلك أنّ من الأُصول الاعتقادية للمعتزلة هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى هذا الأصل خرجت أوائلهم على الوليد الفاسق بن يزيد ابن عبد الملك ونصروا يزيد الناقص بن الوليد بن عبد الملك الذى كان على خط

---

١ . مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوى:١/٣٧.

٢ . التنبيه والرد: ٣۶.

٣ . رسائل الجاحظ تحقيق عمر أبى النصر: ٢٢٨، وغيره ممّا كتب فى تاريخ المعتزلة كطبقات المعتزلة للقاضى عبد الجبار، والمنية والأمل لأحمد بن يحيى بن المرتضى. (١٢٠)

الاعتزال، وقد فصّل الكلام فيه المسعودى فى تاريخه(١)، وعلى ذلك فلا يصح أن يقال إنّهم لزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة. والحقّ أن يقال: إنّ هناك طائفتين سمّيتا بالمعتزلة، لا صلة بينهما سوى الاشتراك فى الاسم، ظهرت إحداهما بعد تصالح الإمام الحسن بن على ـ عليهما السَّلام ـ مع معاوية، وهؤلاء طائفة سياسية بحتة. وطلعت الأُخرى فى زمن الحسن البصرى بعد اعتزال واصل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد، وهؤلاء طائفة كلامية عقائدية. هذا وإنّ المعروف فى وجه التسمية هو الوجه الأوّل دون الثانى ودون سائر الوجوه البالغة ستة أوجه. وسيوافيك بيان تلك الأوجه الستة عند بيان عقائد المعتزلة فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة. ٣. الرفض والرافضة ووجه التسمية

الرفض: بمعنى الترك. قال ابن منظور فى اللسان: «الرفض تركك الشىء تقول: رفضنى فرفضته، رفضت الشىء أرفضه رفضاً. تركته وفرقته، والرفض، الشىء المتفرق والجمع: أرفاض». هذا هو المعنى اللغوى وأمّا حسب الاصطلاح فى الأعصار المتأخرة فهو يطلق على مطلق محبى أهل البيت تارة، أو على شيعتهم جميعاً أُخرى، أو على طائفة خاصة منهم ثالثة. وعلى كلّ تقدير فهذاالاصطلاح اصطلاح سياسى أُطلق على هذه الطائفة وهو موضوع لا كلام فيه، إنّما الكلام فى وجه التسمية ومبدأ نشوئها، فإنّنا نرى ابن منظور يقول فى وجه

التسمیة«الروافض: جنود ترکوا قائدهم وانصرفوا، فکلّ طائفة منهم رافضة، والنسبة إلیهم رافضی، والروافض قوم من الشیعة سمّوا بذلک لأنّهم ترکوا زید بن علی، قال الأصمعی: کانوا _____

۱ . مروج الذهب:۳/۲۱۲ـ۲۲۶. (۱۲۱)

قد بایعوا زید بن علی ثمّ قالوا له: ابرأ من الشیخین نقاتل معک فأبی وقال: کانا وزیری جدی فلا أبرأ منهما، فرفضوه وارفضوا عنه، فسمّوا رافضة،وقالوا الروافض ولم یقولوا: الرفاض لأنّهم عنوا الجماعات.(۱) غیر أنّ ابن منظور، وإن أصاب الحقّ فی صدر کلامه وجعل للّفظ معنی وسیعاً یطلق علی المسلم والکافر، والمسلم شیعیّه و سنیّه لکن استشهد علی وجه تسمیة قسم من شیعة علی ـ علیه السَّلام ـ بها بقول الأصمعی، وهو منحرف عن علی وشیعته، فکیف یمکن الاعتماد علی قوله، خصوصاً إذا تضمن تنقیصاً وازدراء بهم، ولیس ذلک بدعاًمن ابن منظور وأضرابه، بل هو مطرد فی کلّ مورد یستشهدون بشیء فیه وقیعة للشیعة، فتری هناک أثراً من مطعون إلی منحرف إلی ناصبی إلی خارجی و«فی کلّواد أثر من ثعلبة» وعلی أی تقدیر هذه الفکرة هی المعروفة بین أرباب الملل فی تسمیة شیعة الإمام بالرافضة، ونداء محبیه بالرفضة. یقول البغدادی فی «الفَرْق بینالفِرَق» عند البحث عن الزیدیة: وکان زید بن علی قد بایعه خمسة عشر ألف رجل من أهل الکوفة وخرج بهم علی والی العراق وهو یوسف بن عمر الثقفی عامل هشام بن عبد الملک، فلمّا استمر القتال بینه و بین یوسف بن عمر الثقفی قالوا له: إنّا ننصرک علی أعدائک بعد أن تخبرنا برأیک فی أبی بکر وعمر، بعد أن ظلما جدک علی بن أبی طالب. فقال زید بن علی: لا أقول فیهم إلّا خیراً، وما سمعت من أبی فیهم إلّا خیراً. وإنّما خرجت علی بنی أُمیة الذین قتلوا جدی الحسین، وأغاروا علی المدینة یوم وقعة الحرة، ثمّ رموا بیت اللّه بالمنجنیق والنار. ففارقوه عند ذلک، حتی قال لهم رفضتمونی، ومن یومئذ سمّوا رافضة.(۲) قال البزدوی أحد المؤلفین فی الفرق عند البحث عن مذهب الروافض: «وإنّما سموا روافض، لأنّهم وقعوا فی أبی بکر وعمر فزجرهم زید فرفضوه _____

۱ . لسان العرب:۷/۱۵۷، مادة رفض.

۲ . الفرق بین الفرق: ۳۵. (۱۲۲)

وترکوه فسموا روافض».(۱) هذا ما لدی القوم من أوّلهم وآخرهم، فقد أخذوا بقول الأصمعی الناصبی فی التسمیة ومن لفّ لفّه وحذا حذوه. نظرنا فی الموضوع

لا أظن الأصمعی وهو خبیر فی اللغة یجهل بحقیقة الحال ولکن عداءه قد جرّه إلی هذا التفسیر، فإنّ الحقّ أنّ الرافضة کلمة سیاسیة کانت تستعمل قبل أن یولد زید بن علی ومن بایعه من أهل الکوفة، فالکلمة تطلق علی کلّ جماعة لم تقبل الحکومة القائمة، سواء أکانت حقاً أو باطلاً. هذا هو معاویة بن أبی سفیان یصف شیعة عثمان ـ الذین لم یخضعوا لحکومة علی بن أبی طالب ـ علیه السَّلام ـ وسلطته ـ بالرافضة ویکتب فی کتابه إلی «عمرو بن العاص» وهو فی البیع فی فلسطین أمّا بعد: فإنّه کان من أمر علی وطلحة والزبیر ما قد بلغک، وقد سقط إلینا(۲) مروان ابن الحکم فی رافضة أهل البصرة وقدم علینا جریر بن عبد اللّه فی بیعة علی، وقد حبست نفسی علیک حتی تأتینی، أقبل أُذاکرک أمراً.(۳) تری أنّ معاویة یصف من جاء مع مروان بن الحکم بالرافضة وهؤلاء کانوا أعداء علی ومخالفیه، وما هذا إلّا لأنّ هؤلاء الجماعة کانوا غیر خاضعین للحکومة القائمة آنذاک. وعلی ذلک فتلک لفظة سیاسیة تطلق علی القاعدین عن نصرة الحکومة والالتفاف حولها، وبما أنّه کان من واجب هذه الجماعة البیعة للحکومة والمعاملة معاملة الحکومة الحقة، ولکنّهم لم یقوموا بواجبهم فترکوه فتفرقوا عنها، فسمّوا رافضة. فقد خرجنا بهذه النتیجة: إنّ کلمة الرفض والرافضة لیستا من

---

۱ . أُصول الدین: ۲۴۸.

۲ . سقط إلینا: نزل إلینا.

۳ . وقعة صفین : ۲۹. (۱۲۳)

خصائص الشیعة، بل هی لغة عامة تستعمل فی کلّ جماعة غیر خاضعة للحکومة القائمة، وبما أنّ الشیعة منذ تکونها لم تخضع للحکومات القائمة بعد رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ، فکانت رافضة حسب الاصطلاح الذی عرفت، ولم یکن ذلک الاصطلاح موهوباً من زید بن علی لشیعة جدّه. کیف وقد ورد ذلک المصطلح علی لسان أخیه محمد الباقر ـ علیه السَّلام ـ الذی توفّی قبل زید بن علی وثورته بست سنوات؟! روی أبو الجارود عن أبی جعفر ـ علیه السَّلام ـ: إنّ رجلاً یقول إنّ فلاناً سمّانا باسم، قال: وما ذاک الاسم؟ قال: سمّانا الرافضة. فقال أبو جعفر ـ مشیراً بیده إلی صدره ـ: وأنا من الرافضة وهو منی، قالها ثلاثاً.(۱) وروی أبو بصیر فقال: «قلت لأبی جعفر ـ علیه السَّلام ـ: جعلت فداک اسم سمینا به، استحلت به الولاة دماءنا وأموالنا وعذابنا، قال: «وما هو؟» قال: الرافضة، فقال أبو جعفر ـ علیه السَّلام ـ: «إنّ سبعین رجلاً من عسکر فرعون رفضوا فرعون، فأتوا موسی ـ علیه السَّلام ـ فلم یکن فی قوم موسی أحد أشدّ اجتهاداً وأشد حباً لهارون منهم، فسمّاهم قوم موسی الرافضة».(۲) وهذه التعابیر عن أبی جعفر باقر العلوم ـ علیه السَّلام ـ أصدق شاهد علی أنّ مصطلح الرفض لیس ولید فکرة زید، وأجلّه عن هذه النسبة والفکرة، بل کان مصطلحاً سائداً فی أقوام، فکلّ من لم یخضع للحاکم القائم، والحکومة السائدة وصار یعیش بلا إمام ولا حاکم سمّی رافضیاً والجماعة رافضة أو رفضة. وبهذا الملاک أطلق لفظ الرافضی علی من لم یعتقد بشرعیة حکومة الخلفاء حتی شاع وذاع قبل مقتل زید کما عرفت وبعده. فعن معاذ بن سعید الحمیری قال: «شهد السید إسماعیل بن محمد الحمیری رحمه اللّه ، عند «سوار» القاضی بشهادة فقال له: ألست

---

۱ . بحار الأنوار:۶۵/۹۷ الحدیث۲ نقلاً عن المحاسن للبرقی، المتوفّی عام ۲۷۴هـ

۲ . بحارالأنوار:۶۵/۹۷ الحدیث۳. (۱۲۴)

إسماعیل بن محمد الذی یعرف بالسید؟ فقال: نعم. فقال له: کیف أقدمت علی الشهادة عندی، وأنا أعرف عداوتک للسلف؟ فقال السید: قد أعاذنی اللّه من عداوة أولیاء اللّه، وإنّما هو شیء لزمنی. ثمّ نهض فقال له: قم یا رافضی فواللّه ما شهدت بحقّ، فخرج السید رحمه اللّه وهو یقول: أبوک ابن سارق عنز النبی * وأنت ابن بنت أبی جحدر ونحن علی زعمک الرافضو * ن لأهل الضلالة والمنکر(۱) وروی أنّه کان عبد الملک بن مروان لمّا سمع من الفرزدق قصیدته المعروفة فی مدح الإمام علی بن الحسین قال له: أو رافضی أیضاً أنت؟ فقال الفرزدق: إن کان حبّ آل محمّد رفضاً فأنا هذاک، فقال عبد الملک: قل فیّ مثل ما قلته فیه وعلیّ أن أضعف عطاءک....(۲) ۴. الحشویة

لقد کثر الکلام حول تفسیر الحشویة و ما هو المراد منها ؟ ونحن نأتی هنا بمجمل القول من أوثق المصادر.. قال الجرجانی: وسمّیت الحشویة حشویة، لأنّهم یحشون الأحادیث التی لا أصل لها فی الأحادیث المرویة عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ، وجمیع الحشویة یقولون بالجبر والتشبیه، وتوصیفه تعالی بالنفس والید والسمع والبصر، وقالوا: إنّ کلّ حدیث یأتی به الثقة من العلماء فهو حجّة أیّاً کانت الواسطة.(۳) وقد ذکر الصفدی: أنّ الغالب فی الحنفیة معتزلة. والغالب فی الشافعیة أشاعرة، والغالب فی المالکیة قدریة (لعلّه یعنی جبریة) والغالب فی الحنابلة حشویة.(۴) ونقل الشیخ محمد زاهد الکوثری فی تقدیمه علی کتاب «تبیین کذب

---

۱ . الغدیر:۲/۲۵۶ طبع بیروت.

۲ . أمالی السید المرتضی:۱/۶۸ فی التعلیق.

۳ . التعریفات: ۳۴۱ ;الحور العین: ۲۰۴ ;معرفة المذاهب: ۱۵.

۴ . الغیث المنسجم للصفدی:۲/۴۷، وراجع ضحی الإسلام لأحمد أمین:۳/۷۱. (۱۲۵)

المفتری» وجهاً آخر، وقال: وکان الحسن البصری من جلة التابعین، ومن استمر سنین ینشر العلم فی البصرة، ویلازم مجلسه نبلاء أهل العلم، وقد حضر مجلسه یوماً أُناس من رعاع الرواة، و لمّا تکلموا بالسقط عنده قال ردّوا هؤلاء إلی حشا الحلقة ـ أی جانبها ـ فسمّوا

الحشویة، ومنهم أصناف المجسمة والمشبهة.(۱) *** قال الصادق ـ علیه السَّلام ـ : «العامل علی غیر بصیرة کالسائر علی سراب بقیعة، لا یزیده سرعة السیر إلّا بعداً».(۲) _____

۱ . تبیین کذب المفتری:۱۱.

۲ . الوسائل:الباب ۱۸ من أبواب صفات القاضی، الحدیث ۳۶.

الفصل الخامس نظرة فی کتب أهل الحدیث

الفصل الخامس نظرة فی کتب أهل الحدیث (الحنابلة والحشویة)

لا ـ نقاش فی أنّ الحدیث النبوی حجّة إلهیة کالقرآن الکریم ولا یعدل المسلم المؤمن عنهما إلی غیرهما، فالکتاب معجزة خالدة واللفظ والمعنی منه سبحانه، وأمّا السنّة فلفظها للنبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ والمفاد والمضمون منه سبحانه. فلا فرق بین قوله تعالی: (فَأَصْلِحُوا بَیْنَ أَخَوَیْکُم) (۱) وقوله ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «الصلح جائز بین المسلمین».(۲) کما لا ـ فرق بین قوله سبحانه:(فَتَیَمَّمُوا صَعیداً طَیِّباً) (۳) وقوله ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «التراب أحد الطهورین یکفیک عشر سنین».(۴) فالمسلم المؤمن باللّه وکتابه ورسالة نبیه لا ـ یفرّق بین کتابه تعالی وکلامه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ، کما لا یفرق بین قوله وفعله، بین إشارته وتقریره، فکلّ حجّة إلهیة یجب العمل علی وفقه ولا یکون المسلم مسلماً إلّا إذا استسلم فی هذه المجالات کلّها. قال سبحانه:(یا أَیُّها الَّذِینَ آمَنُوا لا _____

۱ . الحجرات:۱۰.

۲ . التاج الجامع للأُصول:۲/۲۰۲، رواه الترمذی وأبو داود والبخاری.

۳ . المائدة:۶.

۴ . سنن الترمذی:۱/۲۱۲ باب ما جاء فی التیمم للجنب. (۱۲۸) تُقَدّمُوا بَیْنَ یَدَی اللّه وَرَسُولهِ وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَمیعٌ عَلیمٌ) .(۱)

إنّ للحدیث النبوی من جلالة الشأن وعلو القدر مالا ـ یختلف فیه اثنان، ولا یحتاج فی إثباته إلی برهان. إذ هی الدعامة الثانیة ـ بعد الذکر الحکیم ـ للدین والأخلاق، والحکم والآداب، ممّا یتمتع به المسلمون فی دینهم ودنیاهم. وهذه المکانة الجلیلة والمنزلة الرفیعة، تقتضی مزید العنایة بها ودراستها بأحسن الأسالیب العلمیة والمنطقیة، حتی یتمیّز الصحیح من الزائف ولا ینسب إلیه کلّ ما یحمل اسم الحدیث والسنّة، أو کلّ ما یوجد فی بطون الکتب وضمائر الأسفار، معقولاً کان أو غیر معقول، مخالفاً کان للقرآن أو لا. إنّ قوله ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «من کذب علی متعمداً فلیتبوّأ مقعده من النار» إخطار أکید للواعین بأنّ أعداء الدین لبالمرصاد وسوف ینسبون إلیه کلّ مغسول من البلاغة، وعار عن الفصاحة وینقلون منه کلّ معنی ثقیل علی الفطرة، أو مضاد للعقل السلیم، الذی به عرفناه سبحانه وعرفنا براهین رسالة رسوله. وقد دق رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ بکلامه هذا جرس الإنذار للأُمّة لا سیما للوعاة منهم وحفاظ أحادیثه حتی لا ـ یظنوا أنّ کلّ ما یصل إلیهم باسم الحدیث هو الحدیث النبوی علی حقیقته، بألفاظه ومعانیه، ولیس قبول کلّ حدیث ـ ولو کان فیه ما فیه ـ آیة التسلیم للّه وللرسول، وآیة عدم التقدّم علیهما فی میادین الأُصول والفروع. ویتضح ذلک أشد الوضوح إذا وقفت علی ما تلوناه علیک من أنّ الحدیث النبوی رزیء بالموضوعات التی تولّی کبرها أعداء الدین والإسلام أوّلاً ـ وتجرة الحدیث ثانیاً، یضعون الأحادیث تزلّفاً إلی الحکام وتقرّباً منهم. هذا هو أبو هریرة أکثر الصحابة روایة عن رسول اللّه مع أنّه لم یصاحب النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ إلّا سنتین أو أقلّ منهما جاء بروایات فیها _____

۱ . الحجرات:۱. (۱۲۹)

طامات وغرائب بقیت علی مر الدهر، وقد أتعب شراح الصحاح والمسانید أنفسهم الزکیة لحلها وتوجیهها. غیر أنّ المتحری للحقیقة ومن یری أنّ الحقّ أولی من الصحابة والصحابی یری فی أحادیثه آثار الوضع والدس والاختلاق بما لا مجال فی المقام لذکرها.(۱)

وقد أتينا فى بعض الفصول السابقة بإلمامة توقفك على مأساة نقل الحديث والتحدّث به وكتابته ونشره بين الأمّة،وعرفت أنّ ترك الكتابة بل ترك التحدث كان فضيلة، وخلافه بدعة. ولكن الظروف والأحوال ألجأت المسلمين إلى الكتابة والتدوين ونشره فى أواخر النصف الأوّل من القرن الثانى. ولأجل ذلك صار العثور على الحديث الصحيح الذى حدث به رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أمراً صعباً لما مر من دس الدسّاسين ووضع الوضّاعين تزلّفاً إلى أصحاب السلطة والعروش، وغير ذلك من دواعى الجعل. غير أنّ الأحاديث والمأثورات المروية فى كتب الحديث، أخذت لنفسها بعد التدوين مقاماً عالياً، وأضيفت إليها آراء الصحابة وأقوال التابعين فصار الجميع هو الأصل الأصيل فى تنظيم العقائد وتشريع الأحكام سواء أكان موافقاً للقرآن أم مخالفاً، وسواء أكان موافقاً للعقل السليم أم مخالفاً له، وقد بلغ التحجّر بهم إلى حدّ أن قالوا: ١. إنّ السنّة لا تنسخ بالقرآن، ولكن السنّة تنسخ القرآن وتقضى عليه، والقرآن لا ينسخ السنّة ولا يقضى عليها.(٢) ٢. إنّ القرآن أحوج إلى السنّة من السنّة إلى القرآن.(٣) ٣. إنّ القول بعرض الأحاديث على الكتاب قول وضعه الزنادقة.(۴) _____

١ . لاحظ فى الوقوف على قيمة أحاديث أبى هريرة كتاب «أبوهريرة شيخ المضيرة» للعلاّمة المصرى الشيخ محمود أبو رية.

٢ . مقالات الإسلاميين:٢/٢۵١.

٣ . جامع بيان العلم:٢/٢٣۴.

۴ . عون المعبود فى شرح سنن أبى داود:۴/۴٢٩. (١٣٠)

فبلغ بهم التقليد إلى حدّ صاروا يأخذون بظواهر كلّ ما رواه الرواة من الأخبار والآثار الموقوفة والمرفوعة، والموضوعة والمصنوعة وإن كانت شاذة أو منكرة أو غريبة المتن أو من الإسرائيليات مثل ما روى عن كعب ووهب و... أو معارضة بالقطعيات التى تعد من نصوص الشرع ومدركات الحس ويقينيات العقل ويكفّرون من أنكرها ويفسّقون من خالفها....(١) فإذا كان هذا مصير الحديث مع كونه مصدراً للعقائد والأُصول فلا محالة تنجم عنه مناهج ومذاهب لا تفترق عن معتقدات اليهودية والنصرانية والمجوسية بكثير. فظهرت بينهم مذاهب التجسيم والتشبيه والرؤية والجبر وقدم كلام اللّه وغيره ممّا سبقهم إليه أهل الكتاب فى عهودهم القديمة والحديثة. وما هذا إلاّ لأجل أنّ الأحاديث المروية صارت حجّة فى مفادها ودليلاً فى مضامينها على إطلاقها من دون نظر فى إسنادها، أو دقة فى معانيها، ومن دون عرضها على الكتاب والعقل. فإذا كان الحديث بهذا المعنى مصدراً للأُصول والعقائد، فلا محالة تكون العقيدة الإسلامية أسيرة ما حدث عنه أصحاب الحديث فى القرون الثلاثة الأُولى، فيوجد فيها ما أوعزنا إليه من مسألة التجسيم وأخواتها. إنّ التجسيم والتشبيه والجبر وخلق الأعمال، التى ابتلى بها المسلمون فى القرون الأُولى، وبقيت آثارها إلى العصور الأخيرة، كلّها من نتائج غفلة عدّة من المحدّثين وتقصيرهم فى هذا المجال. فرووا مناكير الروايات، واغتروا بها، وبالتالى تورطوا فى جهالات متراكمة، وظلمات متكاثفة، نأتى بأسماء عدّة من هؤلاء وآثارهم الباقية، وإلاّفالمحدّثون المشبهون أكثر من هؤلاء بكثير، إلاّأنّ الدهر أكل على آثارهم وشرب: ١. عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد التميمى الدارمى السجستانى، صاحب المسند، ولد قبل المائتين بيسير، وتوفى عام ٢٨٠هـ له كتاب _____

١ . من كلام السيد رشيد رضا تلميذ الإمام عبده، لاحظ الأضواء:ص ٢٣. (١٣١)

«النقض»، يقول فيه: «اتّفق المسلمون على أنّ اللّه تعالى فوق عرشه و سماواته». و لمّا كان الذهبى، شديد الميل إلى الحنابلة، كثير الازدراء بأهل التنزيه، أخذته العصبية فحاول إصلاح عبارته، فقال: أوضح شىء فى هذا الباب قول اللّه عزّ وجلّ:(الرَّحمن عَلى العَرْش اسْتَوى)(١) فليُمَرْ كما جاء، كما هو معلوم من مذهب السلف، وينهى الشخص عن المراقبة والجدال وتأويلات المعتزلة.(٢) يلاحظ عليه: أنّ كتاب اللّه ليس كتاب لغز، بل هو كتاب هداية، فما معنى إثبات شىء للّه تعالى وإمراره عليه، من دون التعرف على مفهومه ومعناه، وما أحسن قول تلميذه تاج الدين عبد الوهاب السبكى (٧٢٨ـ ٧٧٨هـ) فى طبقات الشافعية الكبرى فى حقّه: «إنّ الذهبى غلب عليه مذهب الإثبات ومنافرة التأويل والغفلة عن التنزيه، حتى أثر ذلك فى طبعه انحرافاً شديداً عن أهل التنزيه، وميلاً قوياً إلى أهل

الإثبات، فإذا ترجم لواحد من أهل الإثبات، يطنب فى وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن ويبالغ فى حقّه، ويتغافل عن غلطاته، ويتأوّل له ما أمكن ;وأمّا إذا ترجم أحداً من الطرف الآخر، كإمام الحرمين، والغزالى ونحوهما، لا يبالغ فى وصفه، ويكثر فى قول من طعن فيه، ويعيد ذلك، ويبديه، ويعتقده ديناً، وهو لا يشعر، ويعرض عن محاسنهم الطافحة، فلا يستوعبها، فإذا ظفر لأحد منهم بغلطة ذكرها، وكذلك فعله فى أهل عصرنا، إذا لم يقدر على أحد منهم بتصريح يقول فى ترجمته: «واللّه يصلحه»، وسببه المخالفة فى العقائد.(۳) ۲. خشيش بن أصرم، مصنف كتاب «الاستقامة» يعرّفه الذهبى بأنّه يرد فيه على أهل البدع(۴)، ويريد منه أهل التنزيه الذين لا يثبتون للّه سبحانه _____

۱ . طه:۵.

۲ . سير أعلام النبلاء:۱۳/۳۲۵.

۳ . طبقات الشافعية الكبرى:۲/۱۳.

۴ . تذكرة الحفاظ:۲/۵۵۱. (۱۳۲)

خصائص الموجود الإمكانى، وينزّهونه عن الجسم والجسمانيات. توفّى فى شهر رمضان سنة ۲۵۳هـ(۱) ۳. أحمد بن محمد بن الأزهر بن حريث السجستانى السجزى. نقل الذهبى فى «ميزان الاعتدال» عن السلمى قال: سألت الدارقطنى عن الأزهرى، فقال هو أحمد بن محمد بن الأزهر بن حريث، سجستانى، منكر الحديث، لكن بلغنى أنّ ابن خزيمة حسن الرأى فيه وكفى بهذا فخراً. (۲)توفّى سنة ۳۱۲هـ(۳) يلاحظ عليه: أنّه كفى بهذا ضعفاً، لأنّ ابن خزيمة هذا رئيس المجسمة والمشبهة، ومنه يعلم حال السجستانى، والجنس إلى الجنس يميل ۴. محمد بن إسحاق بن خزيمة. ولد عام ۳۱۱هـ وقد ألّف «التوحيد وإثبات صفات الرب»، وكتابه هذا مصدر المشبّهة والمجسّمة فى العصور الأخيرة. وقد اهتمت به الحنابلة، وخصوصاً الوهابية، فقاموا بنشره على نطاق وسيع. وسيوافيك بعض أحاديثه. ۵. عبد اللّه بن أحمد بن حنبل، (ولد عام ۲۱۳، وتوفّى عام ۲۹۰، يروى أحاديث أبيه (الإمام أحمد بن حنبل). وكتابه «السنّة» المطبوع لأوّل مرة بالمطبعة السلفية ومكتبتهاعام ۱۳۴۹هـ مشحون بروايات التجسيم والتشبيه، يروى فيه ضحك الرب، وتكلّمه، وأصبعه، ويده، ورجله، وذراعيه، وصدره، وغير ذلك ممّا سيمر عليك بعضه. وهذه الكتب الحديثية الطافحة بالإسرائيليات والمسيحيات جرّت الويل على الأُمّة وخدع بها المغفلون من الحنابلة والحشوية وهم يظنون أنّهم يحسنون صنعاً. _____

۱ . سير أعلام النبلاء:۲/۲۵۰ـ ۲۵۱.

۲ . ميزان الاعتدال:۱/۱۳۲.

۳ . سير أعلام النبلاء:۱۴/۳۹۶. (۱۳۳)

ولأجل أن يقف القارئ على بعض ما فى هذه الكتب من الأحاديث المزورة التى تخالف الذكر الحكيم وتناقض العقل والفطرة، نأتى بنماذج مما ورد فى الكتابين التاليين: ۱.« السنّة» لأحمد بن حنبل الذى رواه عنه ابنه عبداللّه. ۲. التوحيد لابن خزيمة. وهؤلاء وإن كانوا يتلون قوله سبحانه:(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىء) ولكنّهم يروون أحاديث تثبت للربّ سبحانه آلاف الأمثال و الأشباه. نعم، يقول ابن خزيمة: إنّا نثبت للّه ما أثبته اللّه لنفسه ونقر بذلك بألسنتنا ونصدق بذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد المخلوقين، وعز ربّنا عن أن نشبهه بالمخلوقين.(۱) لكن هذه ا لعبارة اتخذها واجهة لتبرير نقل الروايات الصريحة فى التجسيم والجهة، ولا تتحمل تلك الروايات هذا التأويل الذى لهج به ابن خزيمة وأبناء جلدته. و هذا كتاب السنة لإمام الحنابلة وقد رواه عنه ابنه تجد فيه أحاديث تعرب عن أنّ للّه سبحانه ضحكاً وأصبعاً ويداً وذراعين ووجهاً، التى يتبادر منها البدع اليهودية والمسيحية. و ما نذكره هنا إنّما هو نماذج ممّا ورد فى الكتابين المذكورين، والسابر فيهما يجد أضعاف أمثاله، وأكثر هذه الأحاديث قد أخرجت فى الصحاح والسنن. إنّ كتاب «التوحيد» لابن خزيمة قد وقع مورد القبول عند أهل الحديث والحنابلة، كيف، وقد جمع الأحاديث من هنا وهناك وحشاها فى كتابه من غير فحص ولا تنقيب، وهذه كانت المنية الكبرى للحنابلة فى تلك العصور. ولأجل ذلك صار الكتاب يقرأ على العلماء والفضلاء

حتى يتخذوه ميزاناً لتمييز الحقّ عن الباطل، ولا يتخلف أحد عن الاعتراف بما جاء فيه. _____

۱ . التوحيد لابن خزيمة: ۱۱. (۱۳۴)

قال ابن كثير فى حوادث سنة ۴۶۰هـ وفى يوم النصف من جمادى الآخرة قرأ«الاعتقاد القادرى» الذى فيه مذهب أهل السنّة و الإنكار على أهل البدع. وقرأ أبو مسلم الكجى البخارى المحدّث كتاب «التوحيد»لابن خزيمة على الجماعة الحاضرين، وذكر بمحضر من الوزير ابن جهير وجماعة الفقهاء وأهل الكلام،واعترفوا بالموافقة.(۱) هذا، وبمرور الزمن وعلى أثر تفتح العقول أفلت شمس كتاب التوحيد وشطب المفكّرون من الأشاعرة على ما فيه. يقول الرازى فى هذا الصدد عند تفسير قوله سبحانه (ليس كمثله شىء) : «واعلم أنّ محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية فى الكتاب الذى سمّاه بـ«التوحيد» وهو فى الحقيقة كتاب الشرك، واعترض عليها. وأنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات، لأنّه كان رجلاً مضطرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل.(۲) هذا، ولو أنّ الرازى وقف على ما فى تعاليم الأشاعرة من الجبر الملتوى فى مقابل الجبر الصريح كما سيبين، والتجسيم والتشبيه الخفيين، لما اتخذ المذهب الأشعرى ـ الذى هو أحد وجهى العملةوالوجه الآخر هو عقيدة أهل الحديث ـ لنفسه شعاراً، ولما حماهم بحماس. يقول الدكتور أحمد أمين: وفى رأيى لو سادت تعاليم المعتزلة إلى اليوم لكان للمسلمين موقف آخر فى التاريخ غير موقفهم الحالى وقد أعجزهم التسليم وشلّهم الجبر،وقعد بهم التواكل.(۳) والصحيح أن يقال: لو سادتهم الحرية فى البحث والاستماع واتّباع الأحسن لكان موقفهم غير هذا. _____

۱ . البداية والنهاية:۱۲/۹۶.

۲ . تفسير الإمام الرازى:۲۷/۱۵۰.

۳ . ضحى الإسلام:۳/۷۰. (۱۳۵) فى أنّ اللّه يضحك

۱. روى ابن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن يعلى ابن عطاء، عن وكيع بن حدس، عن عمّه أبى رزين قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : ضحك ربّنا من قنوط عباده وقرب غيره قال: قلت: يا رسول اللّه أو يضحك الرب؟ قال: نعم. قلت: لن نعدم من ربّ يضحك خيراً.(۱) رواه ابن خزيمة لكن بدل قوله نعم، قال: إى والذى نفسى بيده إنّه ليضحك.(۲) ۲. روى عبد اللّه بن أحمد بن حنبل، عن إسماعيل بن أبى معمر، حدثنا سفيان، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : ضحك ربّنا من رجلين يقتل أحدهما صاحبه ثمّ يصيران إلى الجنة.(۳) ورواه ابن خزيمة بأسانيد مختلفة.(۴) ۳. وجاء فى خبر طويل رواه عن إسماعيل بن عبيد بن أبى كريمة الحرانى أبو أحمد قال: أملاه علينا إملاء فى دار كعب: قال حدّثنى محمد بن سلمة، عن أبى عبد الرحمن خالد بن أبى يزيد، حدّثنى زيد بن أبى أنيسة، عن المنهال بن عمرو، عن أبى عبيدة بن عبد اللّه، عن مسروق بن الأجدع، حدثنا عبد اللّه بن مسعود، عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: ... فيقول اللّه له ـ أى لمن أدخله الجنة ثمّ لم يزل يطلب منزلة أرفع من أُخرى ـ : لن ترضى أن أعطيك مثل الدنيا مذ يوم خلقتها إلى يوم أفنيتها وعشرة أضعافها؟ فيقول: أتستهزئ بى وأنت ربّ العالمين؟! _____

۱ . السنّة لعبد اللّه بن حنبل:۵۴.

۲ . التوحيد وإثبات صفات الرب:۲۳۵.

۳ . السنّة:۱۶۶.

۴ . التوحيد:۲۳۴. (۱۳۶)

قال: فضحك الرب من قوله. قال: فرأيت ابن مسعود إذا بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن قد سمعتك تحدّث هذا الحديث مراراً كلّما بلغت هذا المكان من هذا الحديث ضحكت. فقال ابن مسعود: إنّى سمعت رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ يحدث بهذا الحديث مراراً، كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو آخر أضراسه. الحديث.(۱)

ورواه ابن خزیمة عن ابن مسعود(۲) وأخرجه البخاری ومسلم والترمذی. ۴. وروی ابن خزیمة بأسانید متعددة عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: «یتجلّی لنا ربّنا عزّ وجلّ یوم القیامة ضاحکاً».(۳) قال ابن خزیمة فی«باب ذکر إثبات ضحک ربّنا عزّ وجلّ»: بلا صفة تصف ضحکه ـ جلّ ثناؤه ـ لا ولا یشبه ضحکه بضحک المخلوقین وضحکهم کذلک. بل نؤمن بأنّه یضحک کما أعلم النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ونسکت عن صفة ضحکه جلّ وعلا، إذ اللّه عزّوجلّ استأثر بصفة ضحکه لم یطلعنا علی ذلک، فنحن قائلون بما قال النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ مصدقون بذلک بقلوبنا، منصتون عمّا لم یبیّن لنا، ممّا استأثر اللّه تعالی بعلمه.(۴) وقد عرفت ما فی تأویله من الوهن وأنّ هذه الأحادیث لو صحت لوجب حملها علی ظواهرها من الضحک الملازم لبدو الأسنان والفم، والقول بأنّه یضحک ولا نعلم حقیقته، تأویل سخیف، بل الأمر دائر بین القبول تماماً أو الردّ کذلک. _____

۱ . السنّة:۲۰۶ـ ۲۰۸.

۲ . التوحید:۲۳۱.

۳ . التوحید:۲۳۶.

۴ . التوحید:۲۳۰ـ ۲۳۱. (۱۳۷) فی أنّ للّه یداً

۱. قال عبد اللّه بن أحمد بن حنبل: قرأت علی أبی إبراهیم بن الحکم بن أبان، حدّثنی أبی، عن عکرمة قال: إنّ اللّه لم یمس بیده شیئاً إلّاثلاثاً:خلق آدم بیده،وغرس الجنة بیده، وکتب التوراة بیده.(۱) ۲. وقال: قرأت علی أبی، حدّثنا إسحاق بن سلیمان، حدّثنا أبو الجنید ـ شیخ کان عندنا ـ عن جعفر بن أبی المغیرة، عن سعید بن جبیر: أنّهم یقولون إنّ الألواح من یاقوتة لا أدری قال حمراء أو لا ؟وأنا أقول: سعید بن جبیر یقول: إنّها کانت من زمردة وکتابتها الذهب، وکتبها الرحمن بیده، ویسمع أهل السماوات صریر القلم.(۲) ۳. وقال: حدّثنی أبی، حدّثنا یزید بن هارون، أنا الجریر، عن أبی عطاف قال: کتب اللّه التوراة لموسی بیده وهو مسند ظهره إلی الصخرة فی الألواح من در، یسمع صریف القلم، لیس بینه و بینه إلّا الحجاب.(۳) ۴. وقد أفرد ابن خزیمة لإثبات الید للّه صفحات کثیرة وممّا رواه عن أبی هریرة، عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: لمّا خلق اللّه الخلق کتب کتاباً وجعله تحت العرش: إنّ رحمتی تغلب غضبی.(۴) ۵. ومنها عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال:«إنّ اللّه یفتح أبواب السماء فی ثلث اللیل فیبسط یدیه فیقول: ألا عبد یسألنی فأعطه».(۵) ۶. ومنها: عن أبی هریرة، عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «ما تصدّق أحد بصدقة من طیب ـ و لا یقبل اللّه إلّاالطیب ـ إلّا أخذها اللّه _____

۱ . السنّة:۲۰۹.

۲ . السنّة:۷۶.

۳ . السنّة:۷۶.

۴ . التوحید:۵۸.

۵ . التوحید:۵۸، وروی ابن خزیمة أحادیث کثیرة جداً فی نزول اللّه إلی السماء الدنیا کل لیلة: ۱۲۵ـ ۱۳۶ ووصفها بأنّها أخبار ثابتة السند صحیحة القوام. (۱۳۸)

بیمینه، وإن کانت مثل تمرة، فتربو له من کف الرحمن».الحدیث.(۱) فی أنّ للّه عینین

استدلّ ابن خزیمة بما ورد من أنّ اللّه بصیر، علی أنّ له عینین، قال: نحن نقول: لربنا الخالق عینان یبصر بهما ما تحت الثری وتحت الأرض السابعة السفلی وما فی السماوات العلی وما بینهما من صغیر وکبیر... إلی أن قال: کما یری عرشه الذی هو مستو علیه. وبنو آدم وإن کانت لهم عیون یبصرون بها فإنّهم إنّما یرون ما قرب من أبصارهم ممّا لا حجب ولا ستر بین المرئی وبین أبصارهم... واستطرد فی ذکر نواقص عیون بنی آدم ثمّ قال: فما الذی یشبه ـ یا ذوی الحجا ـ عین اللّه الموصوفة بما ذکرنا، عیون بنی آدم التی وصفناها بعد.(۲) فی أنّ للّه أصبعاً

۱. روی عبد اللّه بن أحمد بن حنبل قال: سمعت أبی یقول: حدّثنا یحیی بن سعید بحدیث سفیان، عن الأعمش ومنصور، عن إبراهیم، عن عبیدة، عن عبد اللّه، عن النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: إنّ اللّه یمسک السماوات علی أصبع. قال أبی: وجعل یحیی یشیر بأصابعه، وأرانی کیف جعل یحیی یشیر بأصابعه یضع أصبعاً أصبعاً حتی أتی علی آخرها.(۳) ۲. أمّا حدیث سفیان المشار إلیه فهو ما رواه بإسناده عن عبد اللّه: أنّ یهودیاً أتی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ فقال: یا محمّد إنّ اللّه یمسک السماوات علی أصبع والأرضین علی أصبع والثری علی أصبع والجبال علی أصبع والخلائق علی أصبع ثمّ یقول: أنّا الملک. فضحک رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ حتی بدت نواجذه. ثمّ قال: «وما قدروا اللّه حقّ قدره». _____

۱ . التوحید: ۶۱.

۲ . التوحید: ۵۰ـ ۵۱.

۳ . السنّة: ۶۳. (۱۳۹)

ثمّ أضاف عبد اللّه بن أحمد: قال أبی، قال یحیی، قال فضیل بن عیاض، فضحک رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ تعجباً وتصدیقاً له. وروی هذا الخبر وما فی معناه بأسانید مختلفة عن ابن مسعود تارة، وعن ابن عباس أُخری.(۱) ۳. وقال حدّثنی أحمد بن إبراهیم سمعت وکیعاً یقول: نسلم هذه الأحادیث کما جاءت ولا نقول کیف کذا، ولا لم کذا، یعنی مثل حدیث ابن مسعود«إنّ اللّه یحمل السماوات علی أصبع والجبال علی أصبع وحدیث أنّ النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: «قلب ابن آدم بین أصبعین من أصابع الرحمن» ونحوها من الأحادیث.(۲) وأورد أخباراً مفادها أنّ اللّه تعالی حیث تجلّی للجبل فجعله دکاً إنّما تجلّی بأصبعه، ضربه علی رأس الجبل فاندک. ۴. منها: حدّثنی محمد بن أبی بکر المقدمی، حدّثنا هریم، حدّثنا محمد بن سواء، عن سعید، عن قتادة، عن أنس، عن النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: «فلمّا تجلّی ربّه للجبل» قال هکذا،وأشار بطرف الخنصر یحکیه.(۳) ۵. ومنها ما ذکره ابن خزیمة قال: حدّثنا عبد الوارث بن عبد الصمد، قال حدّثنا حماد بن سلمة، قال: حدّثنا ثابت، عن أنس بن مالک قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: «لمّا تجلّی ربّه للجبل» رفع خنصره وقبض علی مفصل منها، فانساخ الجبل، فقال له حمید:أتحدّث بهذا؟! فقال: حدّثنا أنس عن النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وتقول: لا تحدّث به؟(۴) _____

۱ . السنّة: ۶۲ـ ۶۴.

۲ . السنّة: ۶۴.

۳ . السنّة: ۶۵.

۴ . التوحید: ۱۱۳. (۱۴۰) فی أنّ للّه کلاماً وصوتاً

۱. قال عبد اللّه بن أحمد، حدّثنی أبو معمر، حدّثنا جریر، عن الأعمش، قال: وحدّثنا ابن نمیر وأبو معاویة کلّهم عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبد اللّه قال: إذا تکلم اللّه بالوحی، سمع أهل السماء صلصلة کصلصلة الحدیدة علی الصفا .(۱) وأخرج ابن خزیمة أخباراً کثیرة فی ذلک.(۲) فی أنّ للّه ذراعین وصدراً

۱. قال عبد اللّه بن أحمد، حدّثنی سریج بن یونس، حدّثنا سلیمان بن حیان أبوخالد الأحمر، عن هشام بن عروة، عن أبیه، عن عبد اللّه بن عمرو قال: لیس شیء أکثر من الملائکة، إنّ اللّه خلق الملائکة من نور، فذکره وأشار سریج بیده إلی صدره، قال: وأشار خالد إلی صدره فیقول: کن ألف ألف ألفین فیکونون.(۳) ۲. وقال:حدّثنی أبی، حدّثنا أبو أُسامة حماد بن أُسامة، عن هشام، عن أبیه، عن عبد اللّه بن عمرو قال: خلقت الملائکة من نور الذراعین والصدر.(۴) ۳. وقال:حدّثنیه أبو خیثمة زهر بن حرب، حدّثنا عبید اللّه بن موسی، حدّثنا شیبان، عن الأعمش، عن أبی صالح، عن أبی هریرة، عن النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: إن غلظ جلد الکافر اثنان وسبعون ذراعاً بذراع الجبار وضرسه مثل ذلک.(۵) _____

۱ . السنّة: ۷۱.

۲ . التوحید: ۱۴۵ـ ۱۴۷.

۳ . السنّة: ۱۹۰.

۴ . السنّة: ۱۹۰.

۵ . السنّة: ۱۹۰. (۱۴۱) فی أنّ للّه نفساً

۱. قال عبد اللّه بن أحمد، حدّثنی أبو معمر، حدّثنا جریر، عن الأعمش، عن حبیب بن أبی ثابت، عن ذر، عن سعید بن عبد الرحمن بن بزی، عن أبیه، عن أُبی بن کعب قال: لا تسبوا الریح فإنّها من نفس الرحمن.(۱) فی أنّ للّه رجلاً

۱. قال عبد اللّه بن أحمد بن حنبل، حدّثنی عبید اللّه بن عمر القواریری، حدّثنی حرمی بن عمارة، حدّثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالک قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «یلقی فی النار وتقول هل من مزید حتی یضع قدمه أو رجله علیها فتقول قط قط».(۲) وبهذا فسروا آیة (رَبّنا عَجِّل لَنا قِطَّنا قَبلَ یومِ الحِسَابِ) .(۳) وأخرج ابن خزیمة نحوه، عن أبی هریرة.(۴) ۲. وروی ابن خزیمة، عن أبی هریرة، عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: «وأمّا النار فلا تمتلئ حتی یضع اللّه رجله فیها فتقول قط قط، فهنالک تمتلئ». الحدیث. وهو حدیث اختصام الجنة والنار، وأشار إلی أنّه مستفیض(۵) والأخبار فی وضع اللّه رجله فی النار کثیرة جدّاً. ۳. روی عبد اللّه بن أحمد فی حدیث طویل تقدّمت الإشارة إلیه فی مسألة الضحک، عن النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: «فیتمثل الرب _____

۱ . السنّة: ۱۹۰.

۲ . السنّة: ۱۸۴.

۳ . ص:۱۶.

۴ . التوحید:۹۲.

۵ . التوحید:۹۳ـ ۹۵. (۱۴۲)

فیأتیهم، فیقول لهم ما لکم لا تنطلقون کما انطلق الناس؟ فیقولون: إنّ لنا إلهاً(ما رأیناه) فیقول: وهل تعرفونه إن رأیتموه؟ فیقولون: بیننا وبینه علامة إذا رأیناها عرفناه، فیقول: ما هی؟ فیقولون: یکشف عن ساقه، قال: فعند ذاک یکشف اللّه عن ساقه. قال: فیخر کلّ من کان نظره، ویبقی قوم ظهورهم کصیاصی البقر یدعون إلی السجود فلا یستطیعون وقد کانوا یدعون إلی السجود وهم سالمون».(۱) وأمّا موضع الرجلین فقد استفاضت الأخبار فی أنّه علی الکرسی. ۴. فمن ذلک ما رواه عبد اللّه بن أحمد، بإسناده عن عمر قال: إذا جلس علی الکرسی سمع له أطیط(۲) کأطیط الرحل الجدید.(۳) ۵. وبإسناده إلی ابن عباس قال: الکرسی موضع قدمیه، والعرش لا یقدر أحد قدره.(۴) ۶. وقال: کتب إلی عباس بن عبد العظیم، حدّثنا أبو أحمد الزبیری، حدّثنا إسرائیل، عن ابن إسحاق، عن عبد اللّه بن خلیفة قال: جاءت امرأة إلی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ فقالت: ادع اللّه أن یدخلنی الجنة، قال: فعظم الرب وقال وسع کرسیه السماوات والأرض. إنّه لیقعد علیه فما یفضل منه إلاّقید أربع أصابع، وإنّ له أطیطاً کأطیط الرحل إذ رکب.(۵) ورواه ابن خزیمة بزیادة«من ثقله» فی آخره.(۶) وقال المعلّق فی ذلک الحدیث: «مسألة أطیط العرش به سبحانه کأطیط الرحل وردت فی عدة أحادیث، فمن العلماء من ینکر ذلک ویقول: إنّ الأطیط صفة للعرش لا مدخل له فی الصفات، کالحافظ الذهبی والحق الذی یجب اتّباعه فی ذلک أن نؤمن بما _____

۱ . السنّة: ۲۰۶.

۲ . أی لیصوت باللّه کصوت الرحل ـ و هو کور الناقة ـ بالراکب الثقیل.

۳ . السنّة: ۷۹.

۴ . السنّة: ۷۹.

۵ . السنّة: ۸۰.

۶ . التوحید: ۱۰۶. (۱۴۳)

ورد به النص من غیر تشبیه ولا- تکییف، وأن نعتقد أنّ ربّنا لیس محمولاً علی العرش ولا محتاجاً إلیه بل العرش وما تحته کلّه محمول بقدرته.(۱) وذکر فی الکتابین أنّ العرش حملته أربعة ملائکة أحدهم علی صورة إنسان والثانی علی صورة ثور، والثالث علی صورة نسر، والرابع علی صورة أسد.(۲) وعلّق علیه فی الحاشیة بأنّ هذا لم یرد فی حدیث صحیح، ولعلّ الراوی أخذه من کعب الأحبار أو غیره من مسلمة أهل الکتاب.(۳) و مع ذلک ورد فی الکتابین وأخرجه ابن حنبل فی مسنده(۴) بالإسناد إلی عکرمة مولی ابن عباس: أنّ رسول اللّه - صلَّی الله علیه وآله وسلَّم - أنشد قول أُمیة بن أبی الصلت الثقفی: رجل وثور تحت رجل یمینه * والنسر للأُخری ولیث مرصد(۵) ورواه فی کتاب السنّة(۶) بزیادة: فقال رسول اللّه - صلَّی الله علیه وآله وسلَّم - : صدق صدق. فی أنّ للّه وجهاً

۱. روی عبد اللّه بن أحمد: حدّثنی أبی، حدّثنا یحیی بن سعید، حدّثنا ابن عجلان، حدّثنی سعید، عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه - صلَّی الله علیه وآله وسلَّم - : _____

۱ . التوحید: ۱۰۶، لاحظ التناقض فی کلامه، ولاحظ أنّ الأخبار تارة فصلت بین العرش والکرسی فجعلته جالساً علی العرش واضعاً قدمیه علی الکرسی، وأُخری جعلت جلوسه علی الکرسی.

۲ . السنّة: ۱۶۱ ;التوحید: ۹۲.

۳ . التوحید: ۹۲.

۴ . مسند أحمد:۱/۲۵۶.

۵ . التوحید: ۹۰ مع أبیات أُخر. قالوا: إنّ أُمیّة تنصّر فی الجاهلیة هو وورقة بن نوفل وکان ینشد الأشعار فی تمجید اللّه، ونسبوا إلی الرسول - صلَّی الله علیه وآله وسلَّم - أنّه قال فی حقّه: آمن شعره وکفر قلبه.

۶ . السنّة: ۱۸۷. (۱۴۴)

إذا ضرب أحدکم فلیجتنب الوجه، ولا- یقل قبح اللّه وجهک ووجه من أشبه وجهک، فإنّ اللّه خلق آدم علی صورته.(۱) ۲. وقال حدّثنی أبو معمر، حدّثنا جریر، عن الأعمش، عن حبیب بن أبی ثابت، عن عطاء، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه - صلَّی الله علیه وآله وسلَّم - : «لا تقبحوا الوجه، فإنّ اللّه خلق آدم علی صورة الرحمن».(۲) ۳. نقل ابن خزیمة أخباراً کثیرة فی ذلک(۳)، ثمّ قال: هذا باب طویل لو استخرج فی هذا الکتاب أخبار النبی - صلَّی الله علیه وآله وسلَّم - التی فیها ذکر وجه ربّنا عزّوجلّ لطال الکتاب، وقد خرجنا کلّ صنف من هذه الأخبار فی مواضعها فی کتب مصنّفة(۴) ثمّ استطرد فی کلام طویل محاولاً من جهة إثبات ما تقدّم للّه تعالی ومن جهة أُخری نفی التشبیه.(۵) فی أنّ اللّه یُری

لقد تضافرت الأخبار فی الکتابین علی أنّ اللّه یُری یوم القیامة کالبدر المنیر. وأنّه تعالی لا یُری فی الدنیا، غیر أنّ النبی - صلَّی الله علیه وآله وسلَّم - رآه عندما عرج به إلی السماء(۶)، ونحن نکتفی بهذین الخبرین. ۱. روی ابن خزیمة، عن معاذ بن هشام، قال: حدّثنی أبی، عن قتادة، عن أبی قلابة، عن خالد بن اللجلاج، عن عبد اللّه بن عباس: أنّ النبی - صلَّی الله علیه وآله وسلَّم - قال: «رأیت ربی فی أحسن صورة، فقال: یا محمد! قلت: لبیک وسعدیک، قال: فیم یختصم الملأ الأعلی؟ قلت: یا _____

۱ . السنّة : ۱۶۹ ورواه أیضاً بسند آخر فی ص ۶۴.

۲ . السنّة: ۶۴.

۳ . التوحید: ۱۰- ۱۸.

۴ . التوحید: ۱۸.

۵ . التوحید: ۲۱- ۲۴.

۶ . راجع التوحید: ۱۶۷ـ ۲۳۰. (۱۴۵)

رب لا أدری. قال: فوضع یده بین کتفی فوجدت بردها بین ثدیی فعلمت ما بین المشرق والمغرب». الحدیث(۱). وقد رواه بأسانید وطرق مختلفة. ۲. وقال: حدّثنا محمد بن عیسی، قال: حدّثنا سلمة بن الفضل، قال ;حدّثنی محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن الحرث بن عبد اللّه بن عیاش بن أبی ربیعة، عن عبد اللّه بن أبی سلمة، أنّ عبد اللّه بن عمر بن الخطاب بعث إلی عبد اللّه بن عباس یسأله: هل رأی محمد ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ربّه؟ فأرسل إلیه عبد اللّه بن عباس أن نعم. فرد علیه عبد اللّه بن عمر رسوله أن کیف رآه؟ قال: فأرسل أنّه رآه فی روضة خضراء دونه فراش من ذهب علی کرسی من ذهب یحمله أربعة من الملائکة: ملک فی صورة رجل، وملک فی صورة ثور، وملک فی صورة نسر، وملک فی صورة أسد.(۲) ونختم المقال بما ذکره ابن خزیمة قال: إنّا لا نصف معبودنا إلاّبما وصف به نفسه، إمّا فی کتاب اللّه أو علی لسان نبیه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ بنقل العدل موصولاً إلیه، لا نحتج بالمراسیل ولا بالأخبار الواهیة ولا نحتج أیضاً فی صفات معبودنا بالآراء والمقاییس.(۳) فی الجبر والقدر

روی عبد اللّه بن أحمد، عن أبیه أحمد بن حنبل، فی کتاب «السنّة» الروایات التالیة: ۱. روی عبد اللّه بن أحمد قال: حدّثنی أبی، حدّثنا زید بن یحیی الدمشقی، حدّثنا خالد بن صبیح المری، حدّثنا إسماعیل بن عبید اللّه أنّه سمع أُم الدرداء تحدّث عن أبی الدرداء، أنّه قال: سمعت النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ یقول: «فرغ اللّه إلی کلّ عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره،

---

۱ . التوحید: ۲۱۷.

۲ . التوحید: ۱۹۸.

۳ . التوحید: ۵۹. (۱۴۶)

وشقی أم سعید».(۱) ۲. حدّثنی أبی، حدّثنا هشیم، حدّثنا علی بن زید، سمعت أبا عبیدة بن عبد اللّه یحدّث قال: قال عبد اللّه: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: «إنّ النطفة تکون فی الرحم أربعین یوماً علی حالها لا تغیر، فإذا مضت الأربعون صار علقة ومضغة کذلک، ثمّ عظاماً کذلک، فإذا أراد اللّه أن یسوی خلقه بعث إلیها ملکاً فیقول الملک الذی یلیه: أی رب أذکر أم أُنثی؟، أشقی أم سعید؟ قصیر أم طویل؟ أناقص أم زائد، قوته وأجله؟، أصحیح أم سقیم؟، قال: فیکتب ذلک کلّه. فقال رجل من القوم: فیم العمل إذاً وقد فرغ من هذا کلّه؟ فقال: اعملوا فکلّ سیؤخذ لما خلق له».(۲) ۳. حدّثنی أبی، حدّثنا بهز بن أسد، حدّثنا بشر بن المفضل، حدّثنا داود، عن أبی نضرة، عن أسیر بن جابر، قال: طلبت علیاً فی منزله فلم أجده، فنظرت فإذا هو فی ناحیة المسجد. قال: فقلت له: کأنّه خوفه قال: فقال: إیه لیس أحد إلاّ ومعه ملک یدفع عنه ما لم ینزل القدر فإذا نزل القدر لم یغن شیئاً.(۳) ۴. حدّثنی أبی، حدّثنا معاذ بن معاذ، حدّثنا ابن عون، قال: حدّث رجل محمّداً عن رجلین اختصما فی القدر فقال أحدهما لصاحبه: أرأیت الزنی بقدر هو؟ قال الآخر: نعم، قال محمد: آی وافق رجل حیاً.(۴) ۵. حدّثنی أبی، قال عبد اللّه بن الحارث المخزومی، حدّثنا شبل بن عباد ـ مولی لعبد اللّه بن عامر ـ، عن ابن نجیح، عن مجاهد قول اللّه: (إِنّی _____

۱ . السنّة: ۱۲۵.

۲ . السنّة: ۱۲۶.

۳ . السنّة: ۱۳۲.

۴ . السنّة: ۱۳۴ـ ۱۳۵. (۱۴۷) أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون) (۱) قال: علم من إبلیس المعصیة وخلقه لها.(۲)

۶.حدّثنی أبی، حدّثنا عصام بن خالد الحضرمی، حدّثنا العطاف بن خلد، عن شیخ من أهل البصرة، حدّثنی طلحة بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبی بکر الصدیق، حدّثنی أبی، عن جدّی أنّه قال لرسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: یا رسول اللّه: العمل علی ما فرغ منه أو علی أمر مؤتنف؟ قال: بل علی أمر قد فرغ منه. قال: قلت: یا رسول اللّه ففیم العمل؟ قال: «إنّ کلاً میسر لما خلق له».(۳) ۷.

حدّثنی أبی، حدّثنا وکیع، حدّثنا ابن أبی لیلی، عن المنهال بن عمرو، عن سعید بن جبیر، عن ابن عباس فی قوله تعالی: (یَمْحُوا اللّهُ ما یَشاءُ ویُثبِت)(۴) قال: إلاّ الشقاء والسعادة والحیاة والموت.(۵) ۸. حدّثنی أبی، حدّثنا إسحاق بن عیسی، أخبرنی مالک، عن زیاد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاووس الیمانی، قال: «أدرکت ناساً من أصحاب النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ یقولون کلّ شیء بقدر، قال: وسمعت عبد اللّه بن عمر یقول: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: «کلّ شیء بقدر حتی العجز والکیس».(۶) ۹. حدّثنی أبی، حدّثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن سعید بن حیّان، عن یحیی بن یعمر، قال: «قلت لابن عمر: إنّ ناساً عندنا یقولون: الخیر والشر بقدر، وناس عندنا یقولون: الخیر بقدر والشر لیس بقدر. فقال ابن عمر: إذا رجعت إلیهم فقل لهم: إنّ ابن عمر یقول إنّه منکم بریء وأنتم منه براء.(۷) _____

۱ . البقرة:۳۰.

۲ . السنّة:۱۳۴ـ ۱۳۵.

۳ . السنّة:۱۳۴ـ ۱۳۵.

۴ . الرعد:۳۹.

۵ . السنّة:۱۳۴ـ ۱۳۵.

۶ . السنّة: ۱۳۹.

۷ . السنّة: ۱۴۱. (۱۴۸)

۱۰. حدّثنی أبی، حدّثنا عبد الرحمن بن مهدی، حدّثنا سفیان، عن عمرو ابن محمد، قال: کنت عند سالم بن عبد اللّه فجاءه رجل فقال: الزنی بقدر؟ فقال: نعم. قال: کتبه علی؟! قال: نعم، قال: کتبه علی؟ قال: نعم .ویعذبنی علیه؟ قال: فأخذ له الحصا.(۱) ۱۱. حدّثنی أبی، حدّثنا عبد الرزاق، أنا معمر، قال: کتب عمر بن عبد العزیز إلی عدی بن أرطأة: أما بعد، فإن استعمالک سعد بن مسعود علی عمان کان من الخطایا التی قدر اللّه علیک، وقدر أن تبتلی بها.(۲) ۱۲. حدّثنی أبی، حدّثنا وکیع، حدّثنا العلاء بن عبد الکریم سمعت مجاهداً یقول:(لَهُمْ أَعمال مِنْ دُون ذلِکَ هُمْ لَها عامِلُونَ) قال: أعمال لابدّ لهم من أن یعملوها.(۳) ۱۳. حدّثنی أبی، حدّثنا وکیع، وابن بشر قالا: حدّثنا إسماعیل بن أبی خالد،عن أبی صالح:(ما أَصابَکَ مِنْ حَسَنَة فَمِن اللّهِ وَما أَصابَکَ مِنْ سَیِّئَة فَمِنْ نَفْسِک) (۴) وأنا قدرتها علیک.(۵) ۱۴. حدّثنی أبی، حدّثنا عبد الصمد، حدّثنا حماد، حدّثنا حمید، قال قدم الحسن مکة، فقال لی فقهاء مکة: الحسن بن مسلم وعبد اللّه بن عبید لو کلمت الحسن فأخلأنا یوماً، فکلّمت الحسن فقلت: یا أبا سعید إخوانک یحبون أن تجلس لهم یوماً، قال: نعم ونعمة عین، فواعدهم یوماً فجاءوا فاجتمعوا وتکلّم الحسن وما رأیته قبل ذلک الیوم ولا بعده أبلغ منه ذلک الیوم، فسألوه عن صحیفة طویلة فلم یخطئ فیها شیئاً إلاّ فی مسألة. فقال له رجل: یا أبا سعید من خلق الشیطان؟ قال: سبحان اللّه، سبحان اللّه، وهل من خالق غیر اللّه! ثمّ قال: إنّ اللّه خلق الشیطان وخلق الشر وخلق الخیر، فقال _____

۱ . السنّة:۱۴۳.

۲ . السنّة: ۱۴۳ـ ۱۴۴.

۳ . السنّة: ۱۴۳ـ ۱۴۴.

۴ . النساء:۷۹.

۵ . السنّة: ۱۴۴. (۱۴۹)

رجل منهم: قاتلهم اللّه یکذبون علی الشیخ.(۱) ۱۵. حدّثنی أبی، حدّثنا إسماعیل ـ یعنی ابن علیة ـ، حدّثنا خالد الحذّاء قال: قلت للحسن: أرأیت آدم، أللجنة خلق أم للأرض؟ قال: للأرض. قال: قلت: أرأیت لو اعتصم؟ قال: لم یکن بدّمن أن یأتی علی الخطیئة.(۲) التدرّع باللا کیفیة

إنّ دلالـة الأحـاديث المتقدّمـة على التشبيه والتجسيم ممّا لا كلام فيه غير أنّ جماعـة منهم ـ لأجل الفرار عنهما ـ يتـدرعون بلفظـة «بلا كيف ولا تشبيه» أو غيرهما من العبارات المشابهـة. فيقولون تارة: إنّ للّه يـداً ورجلًا ووجهاً وقـدماً بلا كيف ولا تشبيه، وأُخرى: إنّ للّه يـداً لاـ كالأيـدى، ووجهـاً لاـ كـالوجوه، وقـدماً لاـ كالأقـدام، وثالثـة: إنّ لـه يـداً تنـاسب ذاتـه وهكـذا سـائر الأعضـاء. يقـول الإمـام الخطابى:وليست اليـد عنـدنا الجارحـة وإنّما هى صـفة جاء بها التوقيف، فنحن نطلقها على ما جاء ولا نكيّفها وهـذا مذهب أهل السـنّة والجماعة.(۳) ويقول ابن عبد البر: أهل السـنّة مجمعون على الإقرار بهذه الصـفات الواردة فى الكتاب والسـنّة ولم يكيفوا شيئاً فيها.(۴) إلى غير ذلك من الكلمات التى اتخـذتها الأشاعرة وقبلهم بعض الحنابلـة درعاً يتقون به عار التشبيه والتمثيل. وسـيوافيك عنـد البحث عن عقائد الأشاعرة أنّ هذه الألفاظ لا تفيد شيئاً، وإليك إجمال ذلك: _____

۱ . السنّة: ۱۴۴.

۲ . السنّة: ۱۴۵.

۳ . فتح البارى:۱۳/۴۱۷.

۴ . فتح البارى:۱۳/۴۰۷. (۱۵۰)

أوّلاً: إذا كان المصدر للاعتقاد بأنّ للّه سـبحانه أعضاء هى هذه الأحاديث ـ أو بعض الآيات على ما زعموا ـ فليس فيها شىء يدل على هـذه الكلمـة: «بلاـ كيف»، بـل هى إضافـة منهم بلا دليل. فليس لأهل الحـديث الـذين يفرون من التأويل، وحتى يسـمّون الحمل على المجاز والكنايـة تأويلاً ، إلّا الأخـذ بحرفيـة هـذه الأحاديث بتمامها، لا التصـرف فيها. وثانياً: إنّ اليـد وأضـرابها، موضوعـة حسب اللغة للأعضاء المحسوسة التى يعرفها كلّ من عرف اللغة، فإجراء هذه الصـفات عليه سـبحانه يمكن بإحدى صورتين: ۱. أن يجرى عليه بما هو المتبادر عند أهل اللغة بلا تصرف فيه. وهذا ما عليه المشبّهة والمجسّمة. ۲. أن يجرى عليه بما أنّها كناية عن معان كالبخل فى قول اليهود (يَدُ اللّهِ مَغْلُولَة) (۱)والإحسان والجود فى قوله سـبحانه: (بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتان) (۲) وهـذا ما عليه أهل التنزيه، وليس ذلك تأويلاً للقرآن أبـداً ولاـ اتّباعـاً لخلاـف الظـاهر، إذ لهـذه الألفـاظ عنـد الإفراد ظهور تصوّرى ويراد منهـا الأعضاء، وعنـد التركيب مع سائرها والوقوع فى طى الجمـل ظهور آخر، فربمـا يتّحد الظهوران، مثـل قولـك لولـدك:اغسـل يـدك قبـل الغـذاء. وربمـا يختلفان كما فى الجملتين المتقدّمتين، وليس هنا وجه ثالث حتى يتدرّع به أهل الحديث والحنابلة، دعاة التنزيه لفظاً لا معنى. وما يتفوّه به هؤلاء من أنّ للّه يـداً لاـ كالأيـدى، فـإن رجع إلى أحـد هـذين المعنيين فنعم الوفـاق إمّـا مع أهـل التشبيه أو مع أهل التنزيه، وإلّافيكون أشـبه بلقلقة اللسان. وباختصار: إنّ القائل بأنّ له يـداً لا يخلو فى إجراءاللفظ عليه سـبحانه أن يريـد أحـد وجهين: إمّا أن يريـد المعنى الحقيقى وهو العضو المحسوس فيكون مجسّماً ومشبّهاً، أو يريد المعنى المجازى وهو البخل أو الجود فيكون مؤوّلاً، وهو _____

۱ . المائدة:۶۴.

۲ . المائدة:۶۴. (۱۵۱)

يتحرز عن كلتا الطائفتين، فليس هنا وجه ثالث يلتجئ إليه أهل الحـديث والحنابلـة والأشاعرة. فظهر أنّ قولهم بأنّ للّه يـداً كالأيدى، لا مفاد صـحيح له. وبعبارة ثالثـة: إنّ لفظة اليد إمّا مشترك معنوى يطلق على جميع مصاديقه وأفراده من الواجب والممكن بوضع ومعنى واحـد. أو مشترك لفظى يجرى على كلّ من الواجب والممكن بمعنى ووضع خاص. فعلى الأوّل يجب أن يكون بين يـد الإنسان ويد الواجب وجه مشترك وهو عين القول بالتشبيه. وعلى الثانى يجب أن يكون المعنى الـذى يجرى على الإنسان مبائناً لما يجرى على اللّه سبحانه فهل هو البخل والجود؟ فهذا هو التأويل بزعمكم، أو غيرهما فبيّنوه لنا ما هو؟ الصحاح والمسانيد ومسألة التشبيه والتجسيم

ربمـا يتصوّر القارئ أنّ أمثال كتاب «السـنّة» لابن حنبل وكتاب «التوحيـد» لابن خزيمـة، تشـتمل على أحاديث التشبيه والتجسيم، وأمّا الصـحاح فهى خاليـة عـن هـذه الأسـاطير. ولكنّه إذا سبرهـا سـرعان مـا يرجع عن هـذه الفكرة ويرى أنّ الصـحاح كلّهـا وعلى رأسـها الصـحيحان قـد زخرت بها، حتّى مع غض النظر عن رؤيـة اللّه بهذه العيون المادية على ما رووا عن رسول اللّه من أنّه قال: «إنّكم ترون

ربّكم عياناً كما ترون هذا القمر» فالصحاح أيضاً تزخر بأحاديث التشبيه والتجسيم والجبر وما أشبه ذلك التى ورثها الرواة المسلمون من اليهود المجسمة والمجبرة... وإليك نماذج من ذلك: ۱. إنّ للّه مكاناً

قد احتل تحيّزاللّه سبحانه بمكان معين فى الصحاح مكانة عظيمة فتارة ترى أنّ مكانه حيال المصلّى وأمام وجهه، وأُخرى بأنّه فوق العرش وهو يئط (۱۵۲)

تحته أطيط الرحل بالراكب، وثالثة بين السحب الكثيفة، وإليك بعض ما روى فى ذلك المجال: ۱. روى عبد اللّه بن عمر أنّ رسول اللّه رأى بصاقاً فى جدار القبلة فحكه بيده ثمّ أقبل على الناس فقال: «إذا كان أحدكم يصلى لا يبصق قبل وجهه فإنّ اللّه قبل وجهه إذا صلّى».(۱) ۲. روى جبير بن محمد عن جدّه قال: أتى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أعرابى فقال: يا رسول اللّه جهدت الأنفس، وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق اللّه لنا، فإنّا نستشفع بك على اللّه ونستشفع باللّه عليك. قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: ويحك أتدرى ما تقول؟ وسبح رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فمازال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه، ثمّ قال: ويحك إنّه لا يستشفع باللّه على أحد من خلقه، شأن اللّه أعظم من ذلك، ويحك أتدرى ما اللّه: إنّ عرشه على سماواته لهكذا، وقال بأصابعه مثل القبة عليه وإنّه ليئط به أطيط الرحل بالراكب. قال ابن بشار: إنّ اللّه فوق عرشه وعرشه فوق سماواته.(۲) ۳. روى أبو رزين قال: قلت: يا رسول اللّه أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان فى عماء، ما تحته هواء و ما فوقه هواء و ماء ثمّ خلق عرشه على الماء».(۳) قال ابن منظور: العماء(ممدودة): السحاب المرتفع وقيل الكثيف. قال أبو زيد هو شبه الدخان يركب رؤوس الجبال وقال ابن سيده: العماء: الغيم الكثيف الممطر. _____

۱ . صحيح البخارى:۱، كتا ب الصلاة باب «حك البزاق باليد فى المسجد» ولاحظ أيضاً كتاب الصلاة باب «هل يلتفت لأمر ينزل» و صحيح مسلم:۲، باب «النهى عن البصاق فى المسجد فى الصلاة».

۲ . سنن أبى داود:۴/۲۳۲، رقم الحديث۴۷۲۶، باب فى الجهمية.

۳ . سنن ابن ماجة:۱/۷۸، باب فيما أنكرت الجهمية. (۱۵۳)

وعلى هذه الأحاديث نسجت عقيدة أهل الحديث والسلفية، وقال ابن تيمية محيى طريقتهم فى القرن الثامن بعد اندراسها: إنّه سبحانه فوق سماواته على عرشه، على على خلقه.(۱) إنّ هذه الروايات ونظائرها التى اكتفينا بالقليل منها أوجدت حجاباً غليظاً أمام الحقائق، فلم يقدر أحد حتى المتحرّرون من أهل السنّة كالشيخ محمّد عبده وأتباع منهجه وتلامذة مدرسته على رفض تلك النصوص المخالفة للعقل الذى به عرف سبحانه وصدق نبيّه وإعجاز كتابه. حتى التجأ الإمام أحمد ـ لأجل هذه الأحاديث ـ إلى تأويل الآيات الدالّة على كونه سبحانه محيطاً بالعالم كلّه، أعنى قوله سبحانه: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ) (۲) وقال: إنّ المراد هو إحاطة علمه سبحانه لا معيته وجوداً.(۳) نزوله سبحانه إلى السماء الدنيا

لم يقتنع أصحاب الحديث بما وصفوا به سبحانه من نسبة التحيز والمكان إليه حتى أثبتوا له الهبوط إلى السماء الدنيا. روى أبو هريرة أنّ رسول اللّه قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعونى فاستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فاغفر له؟».(۴) بل لم يقتنعوا بهذا وأثبتوا له الضحك. وهذا البخارى روى فى حديث: فلمّا أصبح غدا إلى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فقال: ضحك اللّه الليلة أو عجب من فعالكما.(۵) _____

۱ . مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية، والعقيدة الواسطية ص ۴۰۱.

۲ . الحديد:۴.

۳ . السنّة: ۳۶ .

۴ . صحيح البخارى:۲/۵۳ با ب«الدعاء والصلاة من آخر الليل».

۵ . صحيح البخارى:۵/۳۴ باب (وَيؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) من كتاب مناقب الأنصار. (۱۵۴)

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «يضحك اللّه لرجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة». قالوا: كيف يا رسول اللّه؟ قال: «يقتل هذا فيلج الجنة ثمّ يتوب اللّه على الآخر فيهديه إلى الإسلام ثمّ يجاهد فى سبيل اللّه فيستشهد».(۱) له سبحانه أعضاء، كأعضاء الإنسان

وذهب أصحاب الصحاح فى المجال إلى أكثر من ذلك ولم يقفوا عند ما ذكرناه من الصفات حتى أخذوا يصوّرونه كإنسان له أعضاء كالوجه واليد والأصابع والحقو، والساق والقدم، والقلم يخجل من نشر هذه الأساطير التى أدرجت ـ مع الأسف ـ باسم الحديث عن النبى الخاتم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فى الكتب وزخرت بها الصحاح، ونسجت على منوالها العقائد والأُصول، وعدّ من خالفها مرتداً كافراً يضرب عنقه وتقسم أمواله على الورثة. ولأجل إيقاف القارئ على صدق ما ادّعيناه فى حقّ أصحاب الصحاح نأتى من كلّ مورد بنموذج أو نموذجين: ۱. الوجه

عن أبى هريرة، عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «خلق اللّه آدم على صورته طوله ستون ذراعاً...».(۲) عن أبى هريرة عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإنّ اللّه خلق آدم على صورته».(۳) وقد أخذه أبو هريرة عن الأحبار و على رأسهم كعب الأحبار أُستاذه فى _____

۱ . صحيح مسلم:۶/۴۰، باب «بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر ويدخلان الجنة» من كتاب الإمارة.

۲ . صحيح البخارى:۸/۵۰ كتاب الاستئذان باب «بدو السلام».

۳ . صحيح مسلم:۸/۳۲ باب «النهى عن ضرب الوجه» من كتاب البر والصلة والآداب. (۱۵۵)

الأساطير والقصص. فهذه هى التوراة قد جاء فيها فى الإصحاح الخامس من سفر التكوين: لما خلق اللّه آدم، خلقه على صورة اللّه. وكان على أبى هريرة أن يبيّن عرض وجه آدم بعد أن بين أنّ طوله كان ستين ذراعاً، واللّه يعلم طول وجهه وعرضه وهو القائل (لَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ فى أَحْسَنِ تَقْويم) .(۱) ۲. له سبحانه يدان

روى أبوهريرة عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال:«إنّ يمين اللّه ملأى لاتغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنّه لم ينقص ما فى يمينه، وعرشه على الماء وبيده الأُخرى الفيض أو القبض، يرفع ويخفض».(۲) ۳. له سبحانه أصابع

روى عن عبد اللّه قال:جاء حبر من الأحبار إلى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فقال: يا محمد إنّ اللّه يجعل السماوات على أصبع والأرضين على اصبع والشجر على أصبع والماء والثرى على أصبع وسائر الخلائق على أصبع فيقول أنا الملك. فضحك النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثمّ قرأ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : (وَمَا قَدَروا اللّهَ حقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَميعاً قَبضتُهُ يَومَ القِيامَةِ وَالسَّمواتُ مَطوياتٌ بيمينهِ سُبحانهُ وَتَعالى عَمّا يُشْرِكُون).(۳) ۴. له سبحانه حقو(۴)!

عن أبى هريرة، عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «خلق اللّه الخلق _____

۱ . التين:۴.

۲ . صحيح البخارى:۹/۱۲۴، باب «وكان عرشه على الماء» من كتاب التوحيد.

۳ . صحيح البخارى:۶/۱۲۶ تفسير سورة الزمر. والآية ۶۷ من سورة الزُّمر. ۴ . الحقو: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف.

(۱۵۶)

فلمّا فرغ قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن، فقال له: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: ألا ترضين أنّ أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى يا رب قال: فذاك».(۱) ۵. اللّه سبحانه وساقه!

روى عن أبى سعيد قال: سمعت النبى يقول:«يكشف ربّنا عن ساقه فيسجد له كلّ مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رئاء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً».(۲) ۶. اللّه سبحانه وقدمه!

روی عن أنس، عن النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: «یلقی فی النار وتقول هل من مزید حتی یضع قدمه فتقول: قط قط».(۳) هذه نماذج ممّا ورد فی الصحاح من أحادیث التشبیه والتجسیم اکتفینا من کلّ مورد بحدیث واحد. وقد ترکت هذه الأحادیث آثاراً سلبیة فی معتقدات المسلمین فمن مشبه یقول: اعفونی من الفرج واللحیة وسلونی عمّا وراء ذلک(۴)، إلی متمسک بظواهرها لکن بلا تکییف، إلی مؤول یحملها علی معان بعیدة عن ظاهرها لیتخلص عن مغبة التجسیم. ولو أنّهم رجعوا إلی الذکر الحکیم وعرضوا هذه الأحادیث علیه لمیّزوا الصحیح عن الزائف، والمقبول عن المردود. (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا یُوعَظُونَ بِهِ لَکَانَ خَیراً لَهُمْ) .(۵)

---

۱ . صحیح البخاری:۶/۱۳۴.

۲ . صحیح البخاری:۶/۱۵۹ تفسیر سوره ن والقلم.

۳ . صحیح البخاری:۶/۱۳۸ تفسیر سورة ق.

۴ . الملل والنحل للشهرستانی:ص ۱۰۵ فصل المشبهة.

۵ . النساء:۶۶. (۱۵۷) الجبر فی ثوب الإیمان بالقدر

ذلک بعض ما ورد فی الصحاح حول التجسیم والتشبیه وإنّا نجل النبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وصحابته الأخیار عن أن ینبسوا بشیء منها ببنت شفة، وإنّما هی أساطیر وأوهام أخذها الضعاف من الرواة عن الأحبار والرهبان من دون اکتراث ولا مبالاة. وأمّا أحادیث الجبر ونفی الاختیار وأنّ الإنسان فی الحیاة کالریشة فی مهب الریاح فحدّث عنها ولا حرج. فالصحاح تزخر بها فی باب الإیمان بالقدر، وسیوافیک بعضها عند البحث عنه، ولو صحت هذه الأحادیث لما بقی لبعث الأنبیاء وتکلیف العباد بالواجبات والمحرّمات وغیرها معنی معقول. ونذکر هنا ما لا نذکره هناک: ۱. روی الترمذی عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: خرج علینا رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وفی یده کتابان فقال: أتدرون ما هذان الکتابان؟ قلنا: لا یا رسول اللّه إلاّ أن تخبرنا. فقال للذی بیده الیمنی: هذا کتاب من ربّ العالمین فیه أسماء أهل الجنّة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثمّ أجمل علی آخرهم فلا یزاد فیهم ولا ینقص منهم أبداً، وقال للذی فی شماله: هذا کتاب من ربّ العالمین فیه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمّ أجمل علی آخرهم فلا یزاد فیهم ولا ینقص منهم أبداً. قال أصحابه: ففیم العمل یا رسول اللّه إن کان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سدّدوا وقاربوا فإنّ صاحب الجنة یختم له بعمل أهل الجنّة، وإن عمل أی عمل، وإنّ صاحب النار یختم له بعمل أهل النار، وإن عمل أی عمل، ثمّ قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ بیده فنبذهما ثمّ قال: فرغ ربکم من عمل العباد، فریق فی الجنة وفریق فی السعیر.(۱) _____

۱ . جامع الأُصول:۱۰/۵۱۳، رقم الحدیث ۷۵۵۵. (۱۵۸)

ولا یخفی أنّ السؤال الوارد فی الحدیث موجه جدّاً، والجواب عنه غیر مقنع، فما معنی قوله :«سددوا وقاربوا»؟ لأنّه إذا کان الأمر قد فرغ منه فما معنی التسدید والتقارب؟! وما معنی الحث علی التوبة والإنابة؟! ولماذا جعل فریقاً فی الجنّةوفریقاً فی السعیر مع کونه رحماناً علی الکل، لا قسیّاً ولا متعنّتاً؟! ۲. روی البخاری ومسلم والترمذی عن علی بن أبی طالب ـ علیه السَّلام ـ : قال: «کنا فی جنازة فی بقیع الغرقد، فأتانا رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ، فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنکس وجعل ینکت بمخصرته، ثمّ قال: ما منکم من أحد إلاّوقد کتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. قالوا: یا رسول اللّه أفلا نتکل علی کتابنا؟ فقال: اعملوا فکلّ میسر لما خلق له. أمّا من کان من أهل السعادة فسیصیر لعمل أهل السعادة . وأمّا من کان من أهل الشقاء، فسیصیر لعمل أهل الشقاء، ثمّ قرأ(فَأَمّا مَنْ أَعْطی واتَّقی* وَصَدَّقَ بِالحُسْنی* فَسَنُیَسِّرهُ لِلْیُسْری) (۱). أخرجه البخاری ومسلم.(۲) وفی روایة الترمذی قال: کنا فی جنازة فی بقیع الغرقد، فأتی رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ فقعد وقعدنا ومعه مخصرة فجعل ینکت بها ثمّ قال: ما منکم من أحد أو من نفس منفوسة، إلاّ وقد کتب اللّه مکانها من الجنة والنار، وإلاّ وقد کتبت شقیة أو سعیدة فقال رجل: یا رسول اللّه أفلا نمکث علی کتابنا وندع العمل؟ فمن کان منّا من أهل السعادة لیکونن إلی أهل السعادة، ومن کان من أهل الشقاوة لیکونن إلی أهل

الشقاوة. فقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: بل اعملوا فكلّ ميسر، فأمّا أهل السعادة، فييّسرون لعمل أهل السعادة، وأمّا أهل الشقاوة، فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثمّ قرأ(فَأَمّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى* وَصَدَّقَ بِالحُسْنى* فَسَنُيَسِّرهُ لِلْيُسرى* وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى* وَكَذَّبَ بِالحُسْنى* فَسَنُيَسِّرهُ لِلْعُسرى) (۳) . (۴) _____

۱ . الليل:۵ـ۷.

۲ . جامع الأُصول:۱۰/۵۱۳، رقم الحديث۷۵۵۵.

۳ . الليل:۵ـ۱۰.

۴ . جامع الأُصول:۱۰/۵۱۵ـ ۵۱۶، رقم الحديث۷۵۵۷ وذيله. (۱۵۹)

۳. وفی أُخرى للترمذی: قال: بينما نحن مع رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وهو ينكت فی الأرض إذ رفع رأسه إلى السماء ثمّ قال: ما منكم من أحد إلاّ قد علم ـ و فی روايۀ إلاّقد كتب ـ مقعده من النار ومقعده من الجنۀ، قالوا: أفلا نتّكل يا رسول اللّه؟ قال: لا، اعملوا، فكلّ ميسر لما خلق له. وأخرج أبو داود الروايۀ الأُولى من روايتی الترمذی.(۱) و هذه الروايات لا ـ تصف العبد فقط بأنّه مكتوف اليد بل تصف اللّه أيضاً مكتوف اليد ومغلولها فلا يخضع القدر لقدرته، فلا يقدر على تغييره وتبديله. وهذا بنفسه نفس عقيدۀ اليهود التی نقلها القرآن عنهم (وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيديهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشاء) .(۲) كلام أحمد حول القدر

السابر فی كتب أهل الحديث يرى أنّهم يهتمون بأمر التقدير أكثر من اهتمامهم بسائر المسائل العقائديۀ، وكأنّ الاعتقاد بالتقدير عندهم أهمّ من الاعتقاد بالمبدأ والمعاد. ولأجل ذلك لا ـ ترى تشاجراً ولا ـ بحثاً مبسوطاً حول إمكان المعاد، ورفع شبهاته وتبيين خصوصياته. ولكن التقدير قد احتل مكانۀ مرموقۀ فی مجال العقيدۀ. وهذا القاضی أبو الحسين محمد بن أبی يعلى قد أخرج فی كتابه ما أملاه أحمد ابن محمد بن حنبل أو كتبه باسم «عقيدۀ أهل السنّۀ» وممّا جاء فيه(۳): قال: والقدر خيره وشره، وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه ومره، ومحبوبه ومكروهه، وحسنه وسيئه،وأوّله وآخره، من اللّه، قضاء قضاه، وقدر قدّره عليهم، لا يعدو واحد منهم مشيئۀ اللّه عزّوجلّ، ولا يجاوز قضاءه، بل _____

۱ . المصدر السابق.

۲ . المائدۀ:۶۴.

۳ . طبقات الحنابلۀ:۱/۲۵ـ ۲۷. (۱۶۰)

هم كلّهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقفون فيما قدر عليهم لأفعاله، وهو عدل منه عزّربّنا وجل، والزنى والسرقۀ وشرب الخمر وقتل النفس وأكل المال الحرام والشرك باللّه والمعاصی كلّها بقضاء وقدر، من غير أن يكون لأحد من الخلق على اللّه حجّۀ، بل للّه الحجّۀ البالغۀ على خلقه، (لا ـ يُسْأَلُ عَمّا يَفْعلُ وهُمْ يُسأَلُونَ)(۱) وعلم اللّه عزّ وجلّ ماض فی خلقه بمشيئۀ منه، قد علم من إبليس ومن غيره ممّن عصاه ـ من لدن أن عصى تبارك و تعالى إلى أن تقوم الساعۀ ـ المعصيۀ، وخلقهم لها، وعلم الطاعۀ من أهل الطاعۀ وخلقهم لها. وكلّ يعمل لما خلق له، وصائر لما قضى عليه وعلم منه، لا يعدو واحد منهم قدر اللّه ومشيئته. واللّه الفاعل لما يريد، الفعّال لما يشاء. ومن زعم أنّ اللّه شاء لعباده الذين عصوه الخير والطاعۀ وأنّ العباد شاءوا لأنفسهم الشر والمعصيۀ، فعملوا على مشيئتهم، فقد زعم أنّ مشيئۀ العباد أغلظ من مشيئۀ اللّه تبارك و تعالى، فأی افتراء أكثر على اللّه عزّوجلّ من هذا؟ ومن زعم أنّ الزنى ليس بقدر، قيل له: أرأيت هذه المرأۀ، حملت من الزنى وجاءت بولد، هل شاء اللّه عزّوجلّ أن يخلق هذا الولد؟ وهل مضى فی سابق علمه؟ فإن قال: لا، فقد زعم أنّ مع اللّه خالقاً وهذا هو الشرك صراحاً. ومن زعم أنّ السرقۀ وشرب الخمر وأكل المال الحرام، ليس بقضاء وقدر، فقد زعم أنّ هذا الإنسان قادر على أن يأكل رزق غيره، وهذا صراح قول المجوسيۀ. بل أكل رزقه وقضى اللّه أن يأكله من الوجه الذی أكله. ومن زعم أنّ قتل النفس ليس بقدر من اللّه عزّوجلّ، وأنّ ذلك (ليس) بمشيئته فی خلقه، فقد زعم أنّ المقتول مات بغير أجله.

وأی کفر أوضح من هذا. بل ذلک بقضاء اللّه عزّ وجلّ وذلک بمشیئته فی خلقه، وتدبیره فیهم، وما جری من سابق علمه فیهم. وهو العدل الحقّ الذی یفعل ما یرید، ومن أقرّ بالعلم لزمه الإقرار بالقدر والمشیئة علی الصغر والقماءة.(۲) _____

۱ . الأنبیاء: ۲۳.

۲ . طبقات الحنابلة للقاضی محمد بن أبی یعلی:۱/۲۵ـ۲۶. (۱۶۱)

وسیوافیک تمام الرسالة فی الفصل القادم. وممّا یوجب الأسف أنّ الوهابیة أخذت تروّج عقائد التجسیم والتشبیه، وإلیک قصیدة فی ذلک الباب نشرت فی عاصمة التوحید مکة المکرمة: للّه وجه لا یحد بصورة * ولربّنا عینان ناظرتان وله یدان کما یقول إلهنا * ویمینه جلّت عن الأیمان کلتا یدیه یمین وصفها * فهما علی الثقلان منفقتان(۱) کرسیه وسع السماوات العلی * والأرض وهو یعمه القدمان واللّه یضحک لا کضحک عبیده * والکیف ممتنع علی الرحمن واللّه ینزل کلّ آخر لیلة * لسمائه الدنیا بلا کتمان فیقول: هل من سائل فأجیبه * فأنا القریب أجیب من نادانی من قصیدة عبد اللّه بن محمد الأندلسی المالکی نشرت فی «أربح البضاعة فی معتقد أهل السنّة والجماعة» ص ۳۲ جمع علی بن سلیمان آل یوسف، منشور مکة المکرمة سنّة ۱۳۹۳هـ کما فی التمهید، الجزء الثالث ص ۹۰ لشیخنا الحجة محمّد هادی معرفة ـ دام ظلّه ـ _____

۱ . هکذا ورد. (۱۶۲) (۱۶۳)

الفصل السادس عصارات مدونة من عقائد أهل

الفصل السادس عصارات مدونة من عقائد أهل الحدیث

إنّ هذه الروایات التی سبقت تمثل عقائد أهل الحدیث فی العصور الأُولی الإسلامیة حیث نسجت العقائد علیها وحیکت علی نولها، وقد بلغت بشاعة الأمر إلی حدّ أوجبت سقوط عقیدة أهل الحدیث عن مقامها فی نفوس الناس بعد ما انتشرت فی أرجاء البلاد، ولولا ثورة الإمام الأشعری علی عقیدة أهل الحدیث لکانت البشاعة أکثر. ونحن نأتی فی هذا المجال ببعض الرسائل المدونة لبیان عقیدة أهل الحدیث والحنابلة: ۱. عقیدة الحنابلة علی لسان إمامهم

إنّ إمام الحنابلة کتب رسالة صغیرة حول عقیدة أهل الحدیث والسنّة وهی أخف وطأة ممّا ورد فی کتب الحدیث، وإلیک نصّ تلک الرسالة. قال: هذه مذاهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنّة، المتمسّکین بعروتها، المعروفین بها، المقتدی بهم فیها، من لدن أصحاب النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ إلی یومنا هذا. وأدرکت من أدرکت ـ من علماء الحجاز والشام وغیرها ـ علیها. فمن خالف شیئاً من هذه المذاهب، أو طعن فیها، أو عاب قائلها، (۱۶۴)

فهو مخالف مبتدع، وخارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنّة، وسبیل الحقّ. فکان قولهم: إنّ الإیمان قول وعمل ونیة، و تمسّک بالسنّة. والإیمان یزید وینقص. ویستثنی فی الإیمان، من غیر أن یکون لشک. إنّما هو سنّة ماضیة عن العلماء. فإذا سئل الرجل: مؤمن أنت؟ فإنّه یقول: أنا مؤمن إن شاء اللّه. ومؤمن أرجو، أو یقول: آمنت باللّه وملائکته وکتبه ورسله. ومن زعم أنّ الإیمان قول بلا عمل، فهو مرجئی. ومن زعم أنّ الإیمان هو القول، والأعمال فشرائع: فهو مرجئی. ومن زعم أنّ الإیمان لا یزید ولا ینقص، فقد قال بقول المرجئة. ومن أنکر الاستثناء فی الإیمان، فهو مرجئی. ومن زعم أنّ إیمانه کإیمان جبریل والملائکة فهو جهمی. والقدر خیره وشره، وقلیله وکثیره، وظاهره وباطنه،وحلوه ومرّه، ومحبوبه ومکروهه، وحسنه وسیّئه، وأوّله وآخره. واللّه عزّوجلّ قضی قضاءه علی عباده، لا یجاوزون قضاءه، بل هم کلّهم صائرون إلی ما خلقهم له، واقعون فیما قدر علیهم لا محالة، وهو عدل منه عزّ وجلّ. والزنی والسرقة، وشرب الخمر، وقتل النفس، وأکل المال الحرام، والشرک باللّه عزّ وجلّ،والذنوب والمعاصی، کلّها بقضاء وقدر من اللّه عزّ وجلّ، من غیر أن یکون لأحد من الخلق علی اللّه حجّة، بل للّه عزّوجلّ الحجّة البالغة علی خلقه (لا یسأل عمّا یفعل وهم یسألون) . وعلم اللّه عزّ وجلّ ماض فی خلقه بمشیئة منه، قد علم من إبلیس ومن غیره ممّن عصاه ـ من لدن أن عصاه إبلیس إلی أن تقوم الساعة ـ المعصیة،

وخلقهم لها، وعلم الطاعة من أهل الطاعة وخلقهم لها، فكلّ يعمل بما خلق (۱۶۵)

له، وصائر إلى ما قضى اللّه عليه منه، لم يعد أحد منهم قدر اللّه عزّوجلّ ومشيئته، واللّه الفعّال لما يريد. ومن زعم أنّ اللّه عزّ وجلّ شاء لعباده الذين عصوا، الخير والطاعة وأنّ العباد شاءوا لأنفسهم الشر والمعصية، يعملون على مشيئتهم، فقد زعم أنّ مشيئة العباد أغلب من مشيئة اللّه عزّ وجلّ. فأىّ افتراء على اللّه أكبر من هذا؟! ومن زعم أنّ الزنى ليس بقدر، قيل له: أرأيت هذه المرأة حملت من الزنى، وجاءت بولد، هل شاء اللّه عزّوجلّ أن يخلق هذا الولد؟ وهل مضى هذا فى سابق علمه؟ فإن قال: لا، فقد زعم أنّ مع اللّه تعالى خالقاً وهذا هو الشرك صريحاً. ومن زعم أنّ السرقة وشرب الخمر وأكل المال الحرام، ليس بقضاء فقد زعم أنّ هذا الإنسان قادر على أن يأكل رزق غيره. وهذا يضارع قول المجوسية. بل كلّ رزقه اللّه، وقضى اللّه عزّوجلّ أن يأكله من الوجه الذى أكله. ومن زعم أنّ قتل النفس ليس بقدر من اللّه عزّوجلّ، فقد زعم أنّ المقتول مات بغير أجله، وأىّ كفر أوضح من هذا؟ بل كان ذلك بقضاءاللّه عزّ وجلّ وقدره وكلّ ذلك بمشيئته فى خلقه، وتدبيره فيهم، وما جرى من سابق علمه فيهم. وهو العدل الحقّ الذى يفعل ما يريد. ومن أقرّ بالعلم لزمه الإقرار بالقدر والمشيئة. ولا نشهد على أحد من أهل القبلة أنّه فى النار لذنب عمله ولا بكبيرة أتاها، إلّا أن يكون فى ذلك حديث، فنروى الحديث كما جاء على ما روى. نصدق به. ونعلم أنّه كما جاء. ولا تنقض الشهادة. والخلافة فى قريش ما بقى من الناس اثنان، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها، ولا يخرج عليهم، ولا نقر لغيرهم بها إلى قيام الساعة. والجهاد ماض، قائم مع الإمام، برّاً أو فاجراً. ولا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل. (۱۶۶)

والجمعة والحجّ والعيدان مع الأئمّة، وإن لم يكونوا بررة عدولاً أتقياء. ودفع الصدقات والأعشار والخراج والفىء، والغنائم إلى الأمراء، عدلوا فيها أو جاروا. والانقياد لمن ولاّه اللّه عزّوجلّ أمركم لا تنزع يداً من طاعته، ولا تخرج عليه بسيفك، يجعل اللّه لك فرجاً ومخرجاً، ولا تخرج على السلطان، بل تسمع وتطيع فإن أمرك السلطان بأمر، هو للّه عزّ وجلّ معصية، فليس لك أن تطيعه وليس لك أن تخرج عليه، ولا تمنعه حقّه، ولا تعن على فتنة بيد ولا لسان، بل كفّ يدك ولسانك، وهواك. واللّه عزّوجلّ المعين. والكفّ عن أهل القبلة. ولا نكفر أحداً منهم بذنب، ولانخرجهم عن الإسلام بعمل، إلّا أن يكون فى ذلك حديث فيروى كما جاء، وكما روى، ونصدقه ونقبله ونعلم أنّه كما روى نحو ترك الصلاة وشرب الخمر، وما أشبه ذلك أو يبتدع بدعة ينسب صاحبها إلى الكفر والخروج عن الإسلام فاتبع الأثر فى ذلك ولا تجاوزه. ولا أحب الصلاة خلف أهل البدع، ولا الصلاة على من مات منهم. والأعور الدجّال خارج لا شكّ فى ذلك ولا ارتياب. وهو أكذب الكذّابين. وعذاب القبر حقّ. يسأل العبد عن دينه، وعن ربّه، ويرى مقعده من النار والجنة. ومنكر ونكير حق وهما فتناالقبور، نسأل اللّه عزّوجلّ الثبات. وحوض النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ حقّ، ترده أُمّته، وله آنية يشربون بها منه. الصراط حق يوضع على شفير جهنم ويمر الناس عليه، والجنة من وراء ذلك، نسأل اللّه عزّوجلّ السلامة فى الجواز. والميزان حقّ، توزن به الحسنات والسيّئات، كما شاء أن توزن. والصور حقّ، ينفخ فيه إسرافيل ـ عليه السّلام ـ فيموت الخلق، ثمّ ينفخ (۱۶۷)

فيه أُخرى فيقومون لربّ العالمين عزّ وجلّ للحساب والقصاص والثواب والعقاب. والجنة والنار واللوح المحفوظ حقّ، تستنسخ منه أعمال العباد ممّا سبقت فيه من المقادير والقضاء. والقلم حقّ، كتب اللّه به مقادير كلّ شىء وأحصاه فى الذكر تبارك وتعالى. والشفاعة حقّ يوم القيامة، يشفع قوم فى قوم فلا يصيرون إلى النار، ويخرج قوم من النار بعدما دخلوها بشفاعة الشافعين، ويخرج قوم من النار برحمة اللّه عزّوجلّ بعدما لبثوا فيهاما شاء اللّه عزّوجلّ، وقوم يخلدون فيها أبداً، وهم أهل الشرك والتكذيب والجحود والكفر باللّه عزّ وجلّ. ويذبح الموت يوم القيامة بين الجنّة والنار. وقد خلقت النار وما فيها، وخلقت الجنة وما فيها،خلقهما اللّه عزّوجلّ، ثمّ خلق الخلق لهما، لا يفنيان، ولا يفنى ما فيهما أبداً. فإن احتج مبتدع بقوله تعالى: (كُلُّ شَىء هالِكٌ إِلّا وجهَه) (۱) ونحو هذا من متشابه القرآن. قيل له: كلّ شىء ممّا كتب اللّه عزّوجلّ عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقهما اللّه عزّوجلّ للبقاء لا للفناءولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا. والحور العين، لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة أبداً لأنّ اللّه عزّ وجلّ خلقهنّ للبقاء، لا

للفناء، ولم يكتب عليهن الفناء ولا الموت، فمن قال خلاف ذلك فهو مبتدع. وخلق اللّه سبع سماوات، بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها _____

۱ . القصص:۸۸. (۱۶۸)

أسفل من بعض. وبين الأرض العليا والسماء الدنيا خمسمائة عام، وبين كلّ سماءين مسيرة خمسمائة عام. والماء فوق السماء السابعة، وعرش الرحمن تبارك وتعالى فوق الماء. واللّه عزّوجلّ على العرش. وهو يعلم ما فی السماوات السبع والأرضين السبع و[ما] بينهما وما تحت الثری، وما فی قعر البحار ومنبت كلّ شعرة، وكل شجرة، وكل زرعة، وكل نبت، ومسقط كلّ ورقة، وعدد ذلك وعدد الحصا والرمل والتراب، ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وآثارهم، وكلامهم وأنفاسهم ويعلم كلّ شیء لا يخفی عليه شیء من ذلك، وهو على العرش، فوق السماء السابعة وعنده حجب من نار ونور وظلمة وماء، وهو أعلم بها. فإن احتج مبتدع أو مخالف بقوله تعالى: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد) (۱) ، أو بقوله عزّ وجلّ:(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ) (۲) ، أو بقوله تعالى: (ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَة إِلّاهُوَ رابِعُهُمْ) (۳)ونحو هذا من متشابه القرآن. قيل: إنّما يعنی بذلك العلم. لأنّ اللّه تبارك وتعالى على العرش فوق السماء السابعة العليا، يعلم ذلك كلّه، وهو تعالى بائن من خلقه لا يخلو من علمه مكان، واللّه تعالى على العرش. وللعرش حملة يحملونه. واللّه عزّوجلّ على عرشه. واللّه تعالى سميع لا يشكّ، بصير لا يرتاب، عليم لا يجهل، جواد لا يبخل، حليم لا يعجل، حفيظ لا ينسی، يقظان(۴) لا يسهو، قريب لا يغفل، يتكلّم ويسمع وينظر، ويبصر ويضحك،ويفرح ويحب، ويكره ويبغض،ويرضی ويغضب ويسخط، ويرحم ويعفو ويعطی ويمنع، وينزل تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا كيف يشاء (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَیْءٌ وَهُوَ _____

۱ . ق:۱۶.

۲ . الحديد:۴.

۳ . المجادلة:۷.

۴ . لم ترد هذه الكلمة فی الكتاب ولا السنّة. ولعلّ الأولی أن يقال: (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوم) . (۱۶۹) السَّمِيعُ الْبَصِير) (۱) وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الربّ عزّوجلّ، يقلبها كيف يشاء ويوعيها ما أراد.

وخلق اللّه عزّوجلّ آدم ـ عليه السَّلام ـ بيده والسماوات والأرض يوم القيامة فی كفّه. ويخرج قوماً من النار بيده، وينظر أهل الجنة إلى وجهه. ويرونه فيكرمهم ويتجلى لهم فيعطيهم. ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدين، ويتولّى حسابهم بنفسه، لا يولی ذلك غيره عزّ وجلّ. والقرآن كلام اللّه، ليس بمخلوق، فمن زعم أنّ القرآن مخلوق فهو جهمی كافر. ومن زعم أنّ القرآن كلام اللّه عزّوجلّ ووقف، ولم يقل: مخلوق ولا غير مخلوق، فهو أخبث من الأوّل. ومن زعم أنّ ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقة، والقرآن كلام اللّه فهو جهمی. ومن لم يكفّر هؤلاء القوم كلّهم فهو مثلهم. وكلّم اللّه موسى تكليماً، من اللّه سمع موسى يقيناً، وناوله التوراة من يده، ولم يزل اللّه متكلماً عالماً، تبارك اللّه أحسن الخالقين. والرؤيا من اللّه عزّ وجلّ حقّ، إذا رأى صاحبها شيئاً فی منامه يقصّها على عالم،وقد كانت الرؤيا من الأنبياء وحياً. ومن السنّة: ذكر محاسن أصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ كلّهم أجمعين والكفّ عن الذی شجر بينهم. فمن سب أصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، أو واحداً منهم، فهو مبتدع رافضی، حبهم سنّة، الدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ ب آثارهم فضيلة. وخير هذه الأُمّة ـ بعد نبيّها ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ـ أبو بكر، وخيرهم ـ بعد أبی بكر ـ عمر، وخيرهم ـ بعد عمر ـ عثمان، وخيرهم ـ بعد عثمان ـ _____

۱ . الشورى:۱۱. (۱۷۰)

علی، رضوان اللّه عليهم، خلفاء راشدون مهديون. ثمّ أصحاب محمد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بعد هؤلاء الأربعة، لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساويهم، ولا يطعن على أحد منهم، فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ثمّ يستتيبه، فإن تاب قبل منه. وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة. وجلده فی المجلس حتی يتوب ويراجع.(۱) ثمّ إنّ الشيخ أبا جعفر

المعروف بالطحاوی المصری (المتوفّی عام ۳۲۱هـ) کتب رسالة حول عقیدة أهل السنّة تشتمل علی مائة وخمسة أصول، زعم أنّها عقیدة الجماعة والسنّة علی مذهب فقهاء الملة: أبی حنیفة النعمان بن ثابت الکوفی، وأبی یوسف یعقوب بن إبراهیم الأنصاری، وأبی عبد اللّه محمّد بن الحسن الشیبانی والرسالة صغیرة کتب علیها تعالیق وشروح کثیرة. ولما ثار الإمام الأشعری علی المعتزلة وانخرط فی سلک أهل الحدیث، جاء فی الباب الثانی من کتاب «الإبانة» بعقیدة أهل السنّةوالجماعة فی واحد وخمسین أصلاً، وإلیک هذه الرسالة. ۲. رسالة«الأشعری» فی عقیدة أهل الحدیث

قولنا الذی نقول به، ودیانتنا التی ندین بها: التمسک بکتاب ربّنا عزّ وجلّ، وبسنّة نبیّنا ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ،و ما روی عن الصحابة والتابعین وأئمّة الحدیث ونحن بذلک معتصمون. وبما کان یقول به أبو عبد اللّه أحمد بن محمد بن حنبل ـ نضر اللّه وجهه، ورفع درجته وأجزل مثوبته ـ قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون، لأنّه الإمام الفاضل والرئیس الکامل، الذی أبان اللّه به الحقّ، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعین، وزیغ _____

۱ . السنّة : ۴۴ـ۵۰. (۱۷۱)

الزائغین وشک الشاکّین، فرحمة اللّه علیه من إمام مقدم، وجلیل معظم، وکبیر مفخم، وعلی جمیع أئمّة المسلمین. وجملة قولنا: ۱. أنا نقرّ باللّه، وملائکته، وکتبه، ورسله، وما جاء من عند اللّه، وما رواه الثقات عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ لا نرد من ذلک شیئاً. ۲. وأنّ اللّه عزّوجلّ إله واحد لاإله إلاّ هو، فرد صمد لم یتخذ صاحبة ولا ولداً. ۳. وأنّ محمّداً عبده ورسوله، أرسله بالهدی ودین الحقّ. ۴. وأنّ الجنّة والنار حقّ. ۵. وأنّ الساعة آتیة لاـ ریب فیها، وأنّ اللّه یبعث من فی القبور. ۶. وأنّ اللّه استوی علی عرشه کما قال:(الرَّحمنُ عَلی العرشِ اسْتَوی).(۱) ۷.وأنّ له وجهاً بلاـ کیف کما قال: (وَیَبْقی وَجْهُ رَبِّکَ ذُو الجَلالِ وَالإِکْرام) .(۲) ۸. وأنّ له یدین بلا کیف کما قال: (خَلَقْتُ بیدی) (۳)، وکما قال:(بَلْ یَداهُ مَبْسُوطتان) .(۴) ۹. وأنّ له عیناً بلاـ کیف کما قال: (تَجْری بِأَعْیُننا) .(۵) ۱۰. وأنّ من زعم أنّ أسماء اللّه غیره کان ضالاً. _____

۱ . طه:۵.

۲ . الرحمن:۲۷.

۳ . ص:۷۵.

۴ . المائدة:۶۴.

۵ . القمر:۱۴. (۱۷۲)

۱۱. وأنّ للّه علماً کما قال:(أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) (۱)، وکما قال:(وَماتَحْمِلِ مِنْ أُنْثی وَلاتَضَعُ إِلاّبِعِلْمِهِ).(۲) ۱۲. ونثبت للّه السمع والبصر ولا ننفی ذلک، کما نفته المعتزلة والجهمیة والخوارج. ۱۳. وثبت أنّ للّه قوّة کما قال:(أَوَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذی خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوّة) .(۳) ۱۴. ونقول: إنّ کلام اللّه غیر مخلوق، وإنّه لم یخلق شیئاً إلاّ وقد قال له: کن فیکون،کما قال: (إِنّماقَوْلُنا لِشَیء إذا أَرَدناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ) .(۴) ۱۵. وإنّه لا یکون فی الأرض شیء من خیر وشر إلاّما شاء اللّه، وإنّ الأشیاء تکون بمشیئة اللّه عزّوجلّ. وإنّ أحداً لا یستطیع أن یفعل شیئاً قبل أن یفعله اللّه. ۱۶. ولا نستغنی عن اللّه، ولا نقدر علی الخروج من علم اللّه عزّوجلّ. ۱۷. وإنّه لا خالق إلاّ اللّه، وإنّ أعمال العبد مخلوقة للّه مقدورة، کما قال: (وَاللّهُ خَلَقَکُمْ وَما تَعْمَلُون) .(۵) وإنّ العباد لاـ یقدرون أن یخلقوا شیئاً وهم یخلقون، کما قال: (هَلْ مِنْ خالِقٍ غَیرُ اللّهِ) (۶)، وکما قال:(لا یَخْلُقُونَ شَیْئاً وهُمْ یُخْلَقُون) (۷) وکما _____

۱ . النساء:۱۶۶.

۲ . فاطر:۱۱.

۳ . فصلت:۱۵.

۴ . النحل:۴۰.

۵ . الصافات:۹۶.

۶ . فاطر:۳.

۷ . النحل:۲۰. (۱۷۳)

قال: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُق) (۱)، وكما قال: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيء أم هُمُ الخالِقُونَ)(۲) وهذا فی كتاب اللّه كثير. ۱۸. وإنّ اللّه وفق المؤمنين لطاعته، ولطف بهم، ونظر إليهم، وأصلحهم وهداهم، وأضل الكافرين ولم يهدهم، ولم يلطف بهم بالإيمان، كما زعم أهل الزيغ والطغيان، ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين. ولو هداهم لكانوا مهتدين، كما قال تبارك و تعالى:(مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ المُهْتَدِی وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِکَ هُمُ الخاسِرُون) .(۳) وإنّ اللّه يقدر أن يصلح الكافرين، ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين، ولكنّه أراد أن يكونوا كافرين كما علم، وإنّه خذلهم وطبع على قلوبهم. ۱۹. وإنّ الخير والشر بقضاء اللّه وقدره. وإنّا نؤمن بقضاء اللّه وقدره، خيره وشرّه، حلوه ومرّه، ونعلم أنّ ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا، وأنّ ما أصابنا لم يكن ليخطئنا وأنّ العباد لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً إلاّ ما شاء اللّه كما قال عزّوجلّ:(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسی نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلّاما شاءَ اللّه) (۴) وإنّا نلجأ فی أُمورنا إلى اللّه، ونثبت الحاجة والفقر فی كلّ وقت إليه. ۲۰. ونقول: إنّ القرآن كلام اللّه غير مخلوق، وإنّ من قال بخلق القرآن فهو كافر. ۲۱. وندين بأنّ اللّه تعالى يُرى فی الآخرة بالأبصار كما يُرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . ونقول: إنّ الكافرين محجوبون عنه إذا رآه المؤمنون فی الجنة، كما قال _____

۱ . النحل:۱۷.

۲ . الطور:۳۵.

۳ . الأعراف:۱۷۸.

۴ . الأعراف:۱۸۸. (۱۷۴)

اللّه عزّ وجلّ:(كَلّاإِنّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمئِذ لَمَحْجُوبُون) (۱) وإنّ موسى ـ عليه السَّلام ـ سأل اللّه عزّوجلّ الرؤية فی الدنيا، وإنّ اللّه تعالى تجلّى للجبل، فجعله دكّاً، فاعلم بذلك موسى أنّه لا يراه فی الدنيا. ۲۲. وندين بأن لا نكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنى والسرقة وشرب الخمر، كما دانت بذلك الخوارج وزعمت أنّهم كافرون. ونقول: إنّ من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنى والسرقة وما أشبههما مستحلاً لها غير معتقد لتحريمها كان كافراً. ۲۳. ونقول: إنّ الإسلام أوسع من الإيمان، وليس كلّ إسلام إيماناً. ۲۴. وندين بأنّ اللّه تعالى يقلّب القلوب «وأنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن»(۲)، وأنّه سبحانه«يضع السماوات على أصبع والأرضين على أصبع»(۳) كما جاءت الرواية عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ من غير تكييف. ۲۵. وندين بأن لا ننزل أحداً من أهل التوحيد والمتمسكين بالإيمان جنة _____

۱ . المطففين:۱۵.

۲ . رواه مسلم رقم (۲۶۵۴) فی القدر: باب تصريف اللّه تعالى القلوب كيف شاء. وأحمد۲/۱۶۸و ۱۷۳ من حديث عبد اللّه عمرو. وابن ماجه برقم (۳۸۳۴) فی الدعاء: باب دعاء رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ والترمذی رقم (۲۱۴۱) فی القدر: باب ما جاء أنّ القلوب بين أصبعی الرحمن من حديث أنس بن مالك وأحمد:۶/۳۰۲ و ۳۱۵ والترمذی رقم (۳۵۱۷) فی الدعوات باب رقم ۸۹ من حديث أُمّ سلمة وأحمد:۶/۲۵۱ من حديث عائشة ۳۰۲، ۳۱۵.

۳ . أخرجه البخاری:۱۳/۳۳۵، ۳۳۶و ۳۶۹ و ۳۹۷ فی التوحيد:باب قوله تعالى: (لما خلقت بيدی) وباب قوله تعالى: (إنّ اللّه يمسك السموات والأرض) وباب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء. و۸/۴۲۳ وفی التفسير: باب قوله تعالى: (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) و مسلم رقم (۲۷۸۶)(۲۱) فی المنافقين: باب صفة القيامةوالجنة والنار والترمذی رقم (۳۲۳۶) و (۳۲۳۸) فی التفسير: باب و من سورة الزمر كلّهم من حديث عبد اللّه بن مسعود رضی اللّه عنه. (۱۷۵)

ولا ناراً إلّا من شهد له رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بالجنة، ونرجو الجنة للمذنبين ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين. ونقول: إنّ اللّه عزّوجلّ يخرج قوماً من النار بعد أن امتحشوا بشفاعة محمّد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ تصديقاً لما جاءت به الروايات عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ.(۱) ۲۶. ونؤمن بعذاب القبر وبالحوض، وأنّ الميزان حقّ، والصراط حقّ، والبعث بعد الموت حقّ، وأنّ اللّه عزّ وجلّ يوقف العباد فى الموقف ويحاسب المؤمنين. ۲۷. وأنّ الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ونسلم الروايات الصحيحة فى ذلك عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ التى رواها الثقاة عدل عن عدل حتى تنتهى الرواية إلى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ. ۲۸. وندين بحب السلف، الذين اختارهم اللّه عزّوجلّ لصحبة نبيّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، ونثنى عليهم بما أثنى اللّه به عليهم، ونتولاهم أجمعين. ۲۹. ونقول: إنّ الإمام الفاضل بعد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أبو بكر الصديق رضوان اللّه عليه، وإنّ اللّه أعزّ به الدين وأظهره على المرتدين، وقدمه المسلمون للإمامة، كما قدمه رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ للصلاة، وسمّوه بأجمعهم خليفة رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ. ثمّ عمر بن الخطاب ، ثمّ عثمان بن عفان ، وإنّ الذين قتلوه، قتلوه ظلماً وعدواناً، ثمّ على بن أبى طالب رضى اللّه عنه، _____

۱ . خروجهم من النار بعد أن امتحشوا وحديث الشفاعة، رواه البخارى:۱۳/۳۹۵ـ ۳۹۷ فى التوحيد: باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. و ۱۳/۳۳۲ باب قوله تعالى (لما خلقت بيدى) . و۱۳/۳۹۸ باب قوله تعالى: (وكلّم اللّه موسى تكليماً) و ۸/۱۲۲ فى تفسير سورة البقرة: باب (علّم آدم الأسماء كلّها) ومسلم رقم (۱۹۳) من حديث أنس بن مالك والبخارى۶/۲۶۴ و ۲۶۵ ومسلم (۱۹۴) فى الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها من حديث أبى هريرة والبخارى:۱۱/۳۶۷ و۳۷۱ من حديث جابر. (۱۷۶)

فهؤلاء الأئمّة بعد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وخلافتهم خلافة النبوة. ونشهد بالجنة للعشرة الذين شهد لهم رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بها، ونتولّى سائر أصحاب النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ و نكف عمّا شجر بينهم، وندين اللّه بأنّ الأئمّة الأربعة خلفاء راشدون مهديون فضلاء لا يوازيهم فى الفضل غيرهم. ۳۰. ونصدق بجميع الروايات التى يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، وأنّ الربّ عزّ وجلّ يقول: «هل من سائل، هل من مستغفر»(۱) وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافاً لما قاله أهل الزيغ والتضليل. ۳۱. ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربّنا تبارك وتعالى وسنّة نبيّنا ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، وإجماع المسلمين، وما كان فى معناه، ولا نبتدع فى دين اللّه بدعة لم يأذن اللّه بها، ولا نقول على اللّه مالا نعلم. ۳۲. ونقول: إنّ اللّه عزّوجلّ يجىء يوم القيامة كما قال: (وَجاءَ ربّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صَفّاً) (۲)، وإنّ اللّه عزّ وجلّ يقرب من عباده كيف شاء، كما قال: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِليهِ مِنْ حَبْلِ الْوَريد) (۳) وكما قال: (ثُمَّ دَنا فَتَدَلّى* فَكانَ قابَ قَوسين أَوْ أَدنى) .(۴) ۳۳. ومن ديننا أن نصلى الجمعة والأعياد وسائر الصلوات والجماعات _____

۱ . رواه مسلم(۷۵۸) (۱۷۰) (۱۷۲) فى صلاة المسافرين:باب الترغيب والدعاء والذكر فى آخر الليل. وللحديث صيغ أُخرى رواها البخارى فى التهجد: باب الدعاء والصلاة من آخر الليل وفى الدعوات: باب الدعاء نصف الليل وفى التوحيد: باب قوله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام اللّه) ومسلم (۷۵۸) (۱۶۸) (۱۶۹) وأبو داود رقم (۴۷۳۳) فى السنّة. والترمذى رقم (۳۴۹۳) فى الدعوات وأحمد۲/۲۵۸و ۲۶۷ و ۲۸۲و ۴۱۹ و ۴۸۷و ۵۰۴و ۵۲۱ من حديث أبى هريرة.

۲ . الفجر:۲۲.

۳ . ق:۱۶.

۴ . النجم: ۸ـ۹. (۱۷۷)

خلف كلّ برّ وفاجر، كما روى عن عبد اللّه بن عمر أنّه كان يصلّى خلف الحجّاج. ۳۴. وأنّ المسح على الخفين سنّة فى الحضر والسفر خلافاً لقول من أنكر ذلك. ۳۵. ونرى الدعاء لأئمّة المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم، وتضليل من رأى الخروج عليهم، إذا ظهر منهم ترك الاستقامة، وندين بإنكار الخروج عليهم بالسيف، وترك القتال فى الفتنة. ۳۶. ونقرّ بخروج الدجّال، كما جاءت به

الرواية عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ.(۱) ۳۷. ونؤمن بعذاب القبر ومنكر ونكير ومسألتهما المدفونين فى قبورهم. ۳۸. ونصدّق بحديث المعراج.(۲) ۳۹. ونصحّح كثيراً من الرؤيا فى المنام ونقرّ أنّ لذلك تفسيراً. ۴۰. ونرى الصدقة عن موتى المسلمين، والدعاء لهم ونؤمن بأنّ اللّه ينفعهم بذلك. _____

۱ . صحيح البخارى:۱۳/۸۷ فى الفتن: باب ذكر الدجال وفى الأنبياء:باب ما ذكر عن بنى إسرائيل، و۱۳/۸۹ـ ۹۱، وفى فضائل المدينة: باب لا يدخل الدجال المدينة. ومسلم (۲۹۳۳) فى الفتن: باب ذكر الدجال وصفته ومن معه ولغاية(۲۹۴۷)، و الترمذى(۲۲۳۵) لغاية(۲۲۴۶) فى الفتن، وأبو داود(۴۳۱۵) فى الملاحم ولغاية(۴۳۲۸) وأحمد فى «المسند»:۱/۴، ۷ ;۲/۳۳، ۳۷، ۶۷، ۱۰۴، ۱۰۸، ۱۲۴، ۱۳۱، ۲۳۷، ۳۴۹، ۴۲۹، ۴۵۷، ۵۳۰ ;۳/۴۲ ;۵/۳۲، ۳۸، ۴۳، ۴۷. وابن ماجة من (۴۰۷۱) ولغاية (۴۹۸۸) فى الفتن باب فتنة الدجال.

۲ . رواه البخارى:۱۳/۳۹۹ـ ۴۰۶ فى التوحيد: باب ما جاء فى قوله عزّ وجلّ:(وكلّم اللّه موسى تكليماً) وفى الأنبياء: باب صفة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، ومسلم رقم (۱۶۲) فى الإيمان: باب الإسراء برسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ إلى السماوات، والنسائى:۱/۲۲۱ فى الصلاة: باب فرض الصلاة، والترمذى رقم (۳۱۳۰) فى التفسير: باب و من سورة بنى إسرائيل. (۱۷۸)

۴۱. ونصدّق بأنّ فى الدنيا سحراً وسحرة، وأنّ السحر كائن موجود فى الدنيا. ۴۲. ونَدين بالصلاة على من مات من أهل القبلة برّهم وفاجرهم وتوارثهم. ۴۳. ونقرّ أنّ الجنة والنّار مخلوقتان. ۴۴. وأنّ من مات أو قتل فبأجله مات أو قتل. ۴۵. وأنّ الأرزاق من قبل اللّه عزّوجلّ يرزقها عباده حلالاً وحراماً. ۴۶. وأنّ الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويتخبطه خلافاً لقول المعتزلة والجهمية، كما قال اللّه عزّوجلّ:(الّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاّ كَما يَقُومُ الَّذى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَس) (۱)، وكما قال: (مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الخَنّاس* الَّذى يُوَسْوِسُ فى صُدُورِ النّاس* مِنَ الجِنَّةِ وَالنّاس) .(۲) ۴۷. ونقول: إنّ الصالحين يجوز أن يخصّهم اللّه عزّوجلّ ب آيات يظهرها عليهم. ۴۸. وقولنا فى أطفال المشركين: إنّ اللّه يؤجّج لهم فى الآخرة ناراً، ثمّ يقول لهم اقتحموها، كما جاءت بذلك الروايات.(۳)

---

۱ . البقرة:۲۷۵.

۲ . الناس:۴ـ۶. ۳ . اختلف العلماء قديماً وحديثاً فى أولاد المشركين على أقوال، منها القول الذى ذكره المصنّف رحمه اللّه أنّهم يمتحنون فى الآخرة بأن ترفع لهم نار، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، و من أبى عذّب. رواه البزاز من حديث أنس بن مالك وأبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنهما، ورواه الطبرانى من حديث معاذ بن جبل رضى اللّه عنه.

قال الحافظ فى «الفتح»:۳/۱۹۵ وقد صحّت مسألة الامتحان فى حقّ المجنون و من مات فى الفترة من طرق صحيحة. ومن الأقوال أنّهم فى الجنة. قال النووى: وهو المذهب الصحيح الذى صار إليه المحقّقون لقوله تعالى: (وَماكُنّا معذّبين حتّى نبعث رَسولاً). وانظر «الفتح»:۳/۱۹۵ـ ۱۹۶. (۱۷۹)

۴۹. ونَدين اللّه عزّوجلّ بأنّه يعلم ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون، وما كان وما يكون، وما لا يكون إن لو كان كيف كان يكون. ۵۰. وبطاعة الأئمّة ونصيحة المسلمين. ۵۱. ونرى مفارقة كلّ داعية إلى بدعة ومجانبة أهل الأهواء، وسنحتج لما ذكرناه من قولنا وما بقى منه ممّا لم نذكره باباً باباً وشيئاً شيئاً، إن شاء اللّه تعالى. ***

وما طرح من الأُصول فى كتاب «الإبانة» هو الذى جاء به فى كتاب «مقالات الإسلاميين» عند البحث عن قول أصحاب الحديث وأهل السنّة ولو كان بينهما اختلاف فإنّما هو فى العرض لا فى الأصل والجوهر. ويقول بعد عرضها «فهذه جملة ما يأمرون به، ويستعملونه، ويرونه وبكلّ ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب».(۱) لقد شهد التاريخ الإسلامى صراعاً عنيفاً بين الحنابلة والأشاعرة، وستوافيك صورة من ذلك فى آخر هذا الجزء. ولكن الحقّ أنّه لو كانت عقيدة الأشاعرة هى ما جاء فى مقدمة رسالة «الإبانة» أو ما جاء فى كتا ب«مقالات الإسلاميين» لما كان بين الفريقين أى اختلاف أبداً، وهذا ممّا يقضى منه العجب. ولأجل ذلك ـ ربما ـ تخيّل بعضهم(۲) أنّ الرسالة المطبوعة موضوعة على لسان الأشعرى. ۳. أُصول عقيدة أهل الحديث عند الملطى

ثمّ تتابع بعده تبيين عقيدة أهل السنّة، فكتب أبو الحسين محمد بن أحمد _____

١ . مقالات الإسلاميين: ٣٢٠ـ ٣٢٥.

٢ . كالشيخ محمد زاهد الكوثرى فى بعض تعاليقه على الكتب. (١٨٠)

ابن عبد الرحمن الملطى الشافعى (المتوفّى عام ٣٧٧هـ) كتابه المعروف «التنبيه والرد» وذكر عقيدة أهل السنّة تحت أُصول نذكرها: والذى ثبت عن محمد بن عكاشة أنّ أُصول السنّة ممّا اجتمع عليه الفقهاء والعلماء منهم: على بن عاصم، وسفيان بن عيينة، وسفيان بن يوسف الفريابى، وشعيب، ومحمّد بن عمر الواقدى، وشابة بن ثوار، والفضل بن دكين الكوفى، وعبد العزيز بن أبان الكوفى، وعبد اللّه بن داود، ويعلى بن قبيصة، وسعيد بن عثمان، وأزهر، وأبو عبد الرحمن المقرى، وزهير بن نعيم، والنضر بن شميل، وأحمد ابن خالد الدمشقى، والوليد بن مسلم القرشى، والرواد بن الجراح العسقلانى، ويحيى بن يحيى، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدى، وأبو معاوية الضرير كلّهم يقولون: رأينا أصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ كانوا يقولون: ١. الرضا بقضاء اللّه و التسليم لأمر اللّه والصبر على حكم اللّه. ٢. الأخذ بما أمر اللّه، والنهى عمّا نهى اللّه عنه. ٣. الإخلاص بالعمل للّه. ۴. الإيمان بالقدر، خيره وشره من اللّه. ۵. ترك المراء والجدال والخصومات فى الدين. ۶. المسح على الخفين. ٧. الجهاد مع أهل القبلة. ٨. الصلاة على من مات من أهل القبلة سنّة. ٩. الإيمان يزيد وينقص قول وعمل. ١٠. القرآن كلام اللّه. ١١. الصبر تحت لواء السلطان على ما كان منهم، من عدل أو جور، (١٨١)

ولا يخرج على الأُمراء بالسيف وإن جاروا. ١٢. لا ينزل أحد من أهل التوحيد جنّة ولا ناراً. ١٣. لا يكفر أحد من أهل التوحيد بذنب، وإن عملوا الكبائر. ١۴. الكف عن أصحاب محمد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . ١۵. أفضل الناس بعد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أبو بكر، ثمّ عمر، ثمّ عثمان، ثمّ على.(١) وهذا النصّ يجمع السنّة التى يدين بها أهل الحديث وقد اقتدى بهم الأشعرى فى أكثرها، وقد تقدم الأُصول التى نسبها الأشعرى إلى أهل السنّة. وهذه الأُصول التى جاء بها محمّد بن عكاشة ملفقة من أُصول اتّفق على صحتها أهل القبلة وأُصول مختلف فيها، وأُصول مزورة ومختلقة ومكذوبة على الإسلام أساساً. غير أنّنا نبحث عن بعض الأُصول التى زعمها أهل الحديث أُصولاً صحيحة وهى عندنا مفتعلة على الإسلام ومختلقة، ونختار منها المواضيع التالية: ١. إطاعة السلطان الجائر والصبر تحت لوائه. ٢. عدالة الصحابة جميعاً. ٣. الإيمان بالقدر خيره وشره. ۴. الإيمان بخلافة الخلفاء. _____

١ . التنبيه والرد لأبى الحسين الملطى: ص ١۴ـ ١۵ وممّا يجب التعليق عليه: أنّ محمد بن عكاشة مرمى بالكذب ووضع الحديث، فقد قال الرازى فى كتاب «الجرح والتعديل»: محمد بن عكاشة الكرمانى، روى عبد الرزاق: حدّثنا عبد الرحمن قال: سئل أبو زرعة عنه؟ فقال: قد رأيته وكتبت عنه وكان كذاباً، قدم علينا مع محمد بن رافع النيسابورى وكان رفيقه، فأوّل ما أملى حديث كذب على اللّه عزّوجلّ وعلى رسوله. (لاحظ الجرح والتعديل للحافظ أبى حاتم الرازى:٨/۵٢ ط الهند). (١٨٢)

وممّا يعجب القارئ فى مثل هذه الكلمة قوله: «إنّ هؤلاء كلهم يقولون: رأينا أصحاب رسول اللّه كانوا يقولون»، مع أنّه ليس بين هؤلاء العلماء تابعى واحد حتى تصح منهم رؤية أصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، وهذا من أغرب الغرائب!!

الموضوعات الهامّة فى عقائد أهل الحديث

إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة

إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة

إطاعة الحاكم العادل من صميم الدين، قال سبحانه: (أَطيعُوا اللّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولى الأَمْرِ مِنْكُمْ) .(١) وليس المراد منه إطاعة مطلق ولاة الأمر، بل المراد خصوص العدول منهم بقرينة النهى عن إطاعة المسرفين والغافلين عن ذكر اللّه سبحانه والمكذبين والآثمين

وغیرهم. قال سبحانه: (ولا تُطِع مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واتّبَعَ هَواهُ وكانَ أمْرُهُ فُرُطاً) .(۲) وقال سبحانه: (یا أیّها النّبیُّ اتّقِ اللّهَ ولا تُطِعِ الكافرینَ والمُنافِقِین) .(۳) وقال سبحانه: (فَلا تُطِعِ المُكَذِّبین) .(۴) وقال تعالی: (ولا تُطِعْ كُلَّ حَلاّف مَهِین) .(۵) _____

۱ . النساء:۵۹.

۲ . الكهف:۲۸.

۳ . الأحزاب:۱.

۴ . القلم:۸.

۵ . القلم:۱۰. (۱۸۵)

وقال سبحانه:(فَاصبِرْ لِحُكْمِ رَبّكَ وَلا تُطِعِ مِنْهُمْ آثماً أوْ كَفُوراً) .(۱) وقال تعالی: (وَلاتُطِیعُوا أَمْرَ المُسرِفین) .(۲) إلی غیر ذلک من الآیات الناهیة عن طاعة الطغاة العصاة. فبقرینة هذه الآیات الناهیة یصحّ أن یقال: إنّ المراد من الأمر بإطاعة أُولی الأمر، هو إطاعة العدول منهم. وقد تضافرت الروایات علی وجوب إطاعة السلطان العادل المعربة عن عدم وجوب إطاعة السلطان الجائر أوحرمتها. قال رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ :«السلطان العادل المتواضع، ظل اللّه ورمحه فی الأرض ویرفع له عمل سبعین صدّیقاً».(۳) وقال ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ : «ما من أحد أفضل منزلة من إمام، إن قال صدق، وإن حكم عدل، وإن استرحم رحم».(۴) وقال ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ : «أحبّ الناس إلی اللّه یوم القیامة وأدناهم مجلساً، إمام عادل ;وأبغض الناس إلی اللّه وأبعدهم منه، إمام جائر».(۵) وقال ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ : «السلطان ظلّ اللّه فی الأرض، یأوی إلیه الضعیف وبه ینصر المظلوم، ومن أكرم سلطان اللّه فی الدنیا أكرمه اللّه یوم القیامة».(۶) وقال ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ : «ثلاثة من كنّ فیه من الأئمّة صلح أن یكون إماماً اضطلع بأمانته: إذا عدل فی حكمه، ولم یحتجب دون رعیته، وأقام كتاب اللّه تعالی فی القریب والبعید»(۷)... إلی غیر ذلک من الروایات

---

۱ . الإنسان:۲۴.

۲ . الشعراء:۱۵۱.

۳ . كنز العمال:۶/۶، الحدیث ۱۴۵۸۹.

۴ . المصدر السابق:الحدیث ۱۴۵۹۳، ۱۴۶۰۴، ۱۴۵۷۲.

۵ . المصدر السابق:الحدیث ۱۴۵۹۳، ۱۴۶۰۴، ۱۴۵۷۲.

۶ . المصدر السابق:الحدیث ۱۴۵۹۳، ۱۴۶۰۴، ۱۴۵۷۲.

۷ . المصدر السابق:۵، الحدیث ۱۴۳۱۵. (۱۸۶)

التی یقف علیها المتتبع فی الجوامع الحدیثیة. هذا من طریق أهل السنّة وأمّا من طریق الشیعة فحدّث عنه ولا حرج. روی عمر بن حنظلة عن الصادق ـ علیه السَّلام ـ فی لزوم طاعة الحاكم العادل:«من روی حدیثنا، ونظر فی حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا فلیرضوا به حكماً، فإنّی جعلته علیكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم یقبل منه، فإنّما استخف بحكم اللّه وعلینا ردّ، والرادّ علینا، الرادّ علی اللّه وهو علی حدّ الشرك باللّه».(۱) ونكتفی ـ هنا ـ بقول الإمام الحسین بن علی ـ علیهما السَّلام ـ فی كتابه إلی أهل الكوفة حیث قال ـ علیه السَّلام ـ : «فلعمری ما الإمام إلاّ الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدین الحقّ، الحابس نفسه علی ذات اللّه».(۲) إذاً فوجوب إطاعة السلطان العادل ممّا لا شكّ فیه، ولا یحتاج إلی إسهاب الكلام فیه، ولكن الحنابلة ذهبوا إلی غیر ذلک، وإلیک البیان. إطاعة السلطان الجائر

فلقد اتّفقت كلمة الحنابلة ومن لفّ لفّهم علی وجوب إطاعة السلطان الجائر وإلیک نصوصهم: قال أحمد بن حنبل فی إحدی رسائله: السمع والطاعة للأئمّة وأمیر المؤمنین البر والفاجر، ومن ولی الخلافة فأجمع الناس ورضوا به، ومن غلبهم بالسیف وسمّی أمیر

المؤمنين، والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة، البر والفاجر، وإقامة الحدود إلى الأئمّة وليس لأحد أن يطعن عليهم وينازعهم، ودفع الصدقات إليهم جائز، من دفعها إليهم أجزأت عنهم، براً كان أو _____

١ . الوسائل: الجزء١٨، الباب ١١ من أبواب صفات القاضى، الحديث ١.

٢ . بحار الأنوار:١٥/١١٦ ;تاريخالطبرى:٤/٢٦٢، أحداث سنة ٦٠. (١٨٧)

فاجراً، وصلاة الجمعة خلفه وخلف كلّ من ولى، جائزة إقامته، ومن أعادها فهو مبتدع تارك للآثار مخالف للسنّة. ومن خرج على إمام من أئمّة المسلمين وكان الناس قد اجتمعوا عليه وأقرّوا له بالخلافة بأى وجه من الوجوه، أكان بالرضا أو بالغلبة فقد شق الخارج عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول اللّه، فإن مات الخارج عليه، مات ميتة جاهلية.(١) هذا الرأى المنقول عن إمام الحنابلة لا يمكن إنكار صحّة نسبته إليه، ولأجل ذلك قال الأُستاذ أبو زهرة: ولأحمد رأى يتلاقى فيه مع سائر الفقهاء، وهو جواز إمامة من تغلّب ورضيه الناس وأقام الحكم الصالح بينهم، بل إنّه يرى أكثر من ذلك، إنّ من تغلّب وإن كان فاجراً تجب إطاعته حتّى لا تكون الفتن.(٢) والعبارة التى نقلناها عن إمام الحنابلة تكاد تعرب عن وجوب إطاعة الجائر ولو أمر بمعصية الخالق وهو أمر عجيب منه جدّاً مع أنّ أكثر الأشاعرة الذين يحرّمون الخروج عليه، لا يوجبون طاعته فى هذا الحال كما يوافيك نصوصهم، ولغرابة رأى ابن حنبل هذا، ذيّله أبو زهرة بقوله: ولكنّه ينظر فى هذه القضية إلى مصلحة المسلمين وأنّه لا بدّ من نظام مستقرّ ثابت، وأنّ الخروج على هذا النظام يحل قوة الأُمّة ويفك عراها، ولأنّه رأى من أخبار الخوارج وفتنتهم ما جعله يقرر أنّ النظام الثابت أولى وأنّ الخروج عليه يرتكب فيه من المظالم أضعاف ما يرتكبه الحاكم الظالم. ثمّ إنّه ينظر فى القضية نظرة اتباع فإنّ التابعين الذين عاشوا فى العصر الأموى إلى أكثر من ثلثى زمانه قد رأوا مظالم كثيرة، ومع ذلك نهوا عن الخروج ولم يسيروا مع الخارجين، وكانوا ينصحون الخلفاء والولاة إن وجدوا آذاناً تسمع، وقلوباً تفقه، وفى كلّ حال لا يخرجون ولا يؤيدون خارجه.(٣) _____

١ . تاريخ المذاهب الإسلامية لأبى زهرة:٢/٣٢٢.

٢ . المصدر السابق:ص ٣٢١ ;ولاحظ كتاب السنّة لابن حنبل : ٤٦.

٣ . تاريخ المذاهب الإسلامية:٢/٣٢٢. (١٨٨)

وهذا التوجيه من الأُستاذ غريب جدّاً. أمّا أوّلاً: فلأنّ الخروج على النظام الظالم إذا كان موجباً لحلّ قوّة الأُمّة وفك عراها، يكون الصبر تشويقاً لتماديه فى الظلم وإكثار الضغط على الأُمّة وبالنتيجة: تحويل الدين وتحريفه عمّا هو عليه من الحقّ... فأى فائدة تكمن فى حفظ قوّة أُمة، انحرفت عن صراطها وتبدّلت سننها وتغيّرت أُصولها، فإنّ الظالم لا يرى لظلمه حدّاً ولتعدّيه ضوابط، فلو رأى أنّ الإسلام بواقعه يضاد آراءه الشخصية وميوله الخبيثة، عمد إلى تغييره وتحويره فليس يقتصر ظلم الظالم على التعدّى على النفوس والأموال، بل الراكب على أعناق الناس يغير كلّ شىء كيفما يريد، وحيثما يرى أنّه لصالح شخصه، والتاريخ شاهدنا الأصدق على ذلك. وأمّا ثانياً: فإنّ الأُستاذ أبا زهرة نسب إلى التابعين الذين عاشوا فى العصر الأموى إلى أكثر من ثلثى زمانه بأنّهم رأوا مظالم كثيرة ومع ذلك نهوا عن الخروج ولم يسيروا مع الخارجين... ولكنّه غفل عن قضية الحرة الدامية حيث كان الخارجون فيها على الحكومة الغاشمة هم الصحابة والتابعين.... وهذا المسعودى صاحب «مروج الذهب» ينقل إلينا لمحة عمّا جرى هناك ويقول: ولمّا انتهى الجيش من المدينة إلى الموضع المعروف بالحرة وعليهم «مسرف» خرج إلى حربه أهلها، عليهم عبد اللّه بن مطيع العدوى وعبد اللّه بن حنظلة الغسيل الأنصارى، وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من بنى هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم من سائر (١٨٩)

الناس، فقد قتل من آل أبى طالب اثنان: عبد اللّه بن جعفر بن أبى طالب، وجعفر بن محمد بن على بن أبى طالب ;ومن بنى هاشم من غير آل أبى طالب: الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب، وحمزة بن عبد اللّه بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب والعباس ابن عتبة ابن أبى لهب بن عبد المطلب، وبضع وتسعون رجلاً من سائر قريش ومثلهم من الأنصار وأربعة آلاف من سائر الناس ممّن أدركه الإحصاء دون من لم يعرف.(١) هل نسى أبو زهرة(أو لعلّه تناسى) قضية دير الجماجم حيث قام ابن الأشعث التابعى فى

وجه الحجّاج السفّاك بالموضع المعروف بدير الجماجم فكان بينهم نيف وثمانون وقعة تفانى فيها خلق وذلك فى سنّة اثنتين وثمانين.(۲) وعلى كلّ تقدير فقد اقتفى أثر أحمد بن حنبل جماعة من متكلّمى الأشاعرة وغيرهم وادّعوا بأنّ هذه عقيدة إسلامية كان الصحابة والتابعون يدينون بها وأنّه يجب الصبر على الطغاة الظلمة إذا تصدروا منصة الحكم، نعم غاية ما يقولونه هو: إنّه لا تجب إطاعتهم إذا أمروا بالحرام والفساد جاعلين قولهم هذا منعطفهم الوحيد عن قول ابن حنبل وبقية أهل الحديث، وإليك نبذة من أقوال القوم: ۱. قال الإمام الشيخ أبو جعفر الطحاوى الحنفى(المتوفّى ۳۲۱هـ) فى رسالته المسمّاة بـ«بيان السنّةوالجماعة» المشهور بـ«العقيدة الطحاوية»: ونرى الصلاة خلف كلّ برّ وفاجر من أهل القبلة ولا نرى السيف على أحد من أُمّة محمّد إلاّ على من وجب عليه السيف(أى سفك الدم بالنصّ القاطع كالقاتل والزانى المحصن والمرتد) ولا نرى الخروج على أئمّتنا ولا ولاة أمرنا وإن جاروا، ولا ندعو على أحد منهم ولاننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعات اللّه عزّوجلّ فريضة علينا مالم يأمروا بمعصية.(۳) ۲. قال الإمام الأشعرى من جملة ما عليه أهل الحديث و السنّة: ويرون العيد والجمعة والجماعة خلف كلّ إمام برّ وفاجر... إلى أن قال: ويرون الدعاء لأئمّة المسلمين بالصلاح، وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف، وأن لا يقاتلوا فى الفتن.(۴) _____

۱ . مروج الذهب:۳/۶۹ـ ۷۰.

۲ . نفس المصدر السابق:۳/۱۳۲.

۳ . شرح العقيدة الطحاوية : ۱۱۰و ۱۱۱.

۴ . مقالات الإسلاميين: ۳۲۳. (۱۹۰)

۳. وقال الإمام أبو اليسر محمد بن عبد الكريم البزدوى: الإمام إذاجار أو فسق لا ينعزل عند أصحاب أبى حنيفة بأجمعهم وهو المذهب المرضى... ثمّ قال: وجه قول عامة أهل السنّة والجماعة إجماع الأُمّة، فإنّهم رأوا الفسّاق أئمّة، فإنّ أكثر الصحابة كانوا يرون بنى أُمية وهم بنو مروان أئمّة حتى كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلفهم ويرون قضاياهم نافذة، وكذا الصحابة والتابعون، وكذا من بعدهم يرون خلافة بنى عباس وأكثرهم فسّاق، ولأنّ القول بانعزال الأئمّة بالفسق، إيقاع الفساد فى العالم، وإثبات المنازعات وقتل الأنفس، فإنّه إذا انعزل يجب على الناس تقليد غيره، وفيه فساد كثير ثمّ قال: إذا فسق الإمام يجب الدعاء له بالتوبة ولا يجوز الخروج عليه، وهذا مروى عن أبى حنيفة، لأنّ الخروج إثارة الفتن والفساد فى العالم.(۱) ۴. وقال الإمام أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى (المتوفّى عام ۴۰۳هـ) فى التمهيد: إن قال قائل: ما الذى يوجب خلع الإمام عندكم؟ قيل له: يوجب ذلك أُمور: منها: كفر بعد إيمان، ومنها: تركه الصلاة والدعاء إلى ذلك، ومنها: عند كثير من الناس فسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الأبشار وتناول النفوس المحرمةوتضييع الحقوق وتعطيل الحدود،وقال الجمهور من أهل الإثبات وأصحاب الحديث: لا ينخلع بهذه الأُمور ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته فى شىء ممّا يدعو إليه من معاصى اللّه، إذ احتجوا فى ذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وعن الصحابة فى وجوب طاعة الأئمّة وإن جاروا واستأثروا بالأموال وأنّه قال ـ عليه السّلام ـ : واسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع، ولو لعبد حبشى، وصلوا وراء كلّ بر وفاجر. وروى أنّه قال: وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك وأطيعوهم ما أقاموا الصلاة.(۲) ۵. وقال الشيخ نجم الدين أبوحفص عمر بن محمد النسفى(المتوفّى عام ۵۳۷هـ) فى العقائد النسفية:ولا ينعزل الإمام بالفسق والجور... ويجوز _____

۱ . أُصول الدين: ۱۹۰ـ ۱۹۲ .

۲ . التمهيد : ۱۸۶. (۱۹۱)

الصلاة خلف كلّ برّ وفاجر. وعلّله الشارح التفتازانى بقوله: لأنّه قد ظهر الفسق واشتهر الجور من الأئمّة والأُمراء بعد الخلفاء الراشدين، والسلف كانوا ينقادون لهم، ويقيمون الجمع والأعياد بإذنهم، ولا يرون الخروج عليهم.(۱) ما استدلّوا به من روايات لإطاعة الجائر

وقد أيّدت تلك العقائد بروايات ربما يتصور القارئ انّ لها نصيباً من الحقّ أو حظاً من الصدق لكن الحقّ أنّ أكثرها مفتعلة على لسان

رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قد أفرغها فی قالب الحديث جمع من وعاظ السلاطين ومرتزقتهم تحفّظاً على عروشهم وحفظاً لمناصبهم، وإليك بعض تلك الروايات التی رواها مسلم فی صحيحه: ۱. روی مسلم، عن حذيفة بن اليمان، قلت: يا رسول اللّه... إلى أن قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: يكون بعدی أئمّة لا يهتدون بهدای ولا يستنون بسنّتی، وسيقوم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فی جثمان إنس، قال: قلت: كيف أصنع يا رسول اللّه إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع. ۲. وروی عن أبی هريرة، عن النبی ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أنّه قال: من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة الجاهلية... إلى أن قال: ومن خرج على أُمّتی يضرب برها وفاجرها،ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفی لذی عهد عهده فليس منّی ولست منه. ۳. روی عن ابن عباس أنّه قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنّه من فارق الجماعة شبراً فمات، فميتته جاهلية. ۴. روی عنه أيضاً، عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: من

---

۱ . شرح العقائد النسفية : ۱۸۵و ۱۸۶. (۱۹۲)

رأى من أميره شيئاً فليصبر، فإنّه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلّامات ميتة جاهلية. ۵. روی عن عبد اللّه بن عمر، أنّه جاء إلى عبد اللّه بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية فقال: أخرجوا لأبی عبد الرحمن وسادة فقال: إنّی لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدّثك حديثاً سمعت رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ يقوله: من خلع يداً من طاعة لقی اللّه يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس فی عنقه بيعة مات ميتة جاهلية. وقد فسر ابن عمر قول رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بلزوم بيعة يزيد وإطاعته حتى فی مسألة الحرة. ۶. روی عن أُمّ سلمة، أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «ستكون أُمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برىء و من أنكر سلم ولكن من رضی وتابع». قالوا يا رسول اللّه: ألا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلّوا». ۷. روی عن عوف بن مالك فی حديث: قيل يا رسول اللّه أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعته.(۱) وقد أورد ابن الأثير الجزری قسماً من هذه الأحاديث فی «جامع الأُصول».(۲) ۸. روی البيهقی فی سننه عن أبی هريرة قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: سيكون بعدی خلفاء يعملون بما يعلمون،ويفعلون بما يؤمرون وسيكون بعدهم خلفاء يعملون بما لا يعلمون ويفعلون مالا يؤمرون، فمن أنكر عليهم برئ ومن أمسك يده سلم ولكن من رضی وتابع.(۳)

---

۱ . صحيح مسلم: ۲۰/۶ـ ۲۴، باب الأمر بلزوم الجماعة، وباب حكم من فارق أمر المسلمين.

۲ . لاحظ جامع الأُصول:۴، الكتاب الرابع فی الخلافة والأمارة، الفصل الخامس ص ۴۵۱ الخ.

۳ . السنن الكبرى: ۸/۱۵۸. (۱۹۳)

۹.وروی ابن عبد ربه، عن عبد اللّه بن عمر: إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان الإمام جائراً فعليه الوزر وعليك الصبر.(۱) ۱۰. وهذه الأحاديث تهدف إلى قول أحمد بن حنبل فقد عرفت ما فی إحدى رسائله وهذا نصّه: السمع والطاعة للأئمّة وأمير المؤمنين البر والفاجر ومن ولی الخلافة فاجتمع عليه الناس ورضوا به ومن غلبهم بالسيف وسمّی أمير المؤمنين، والغزو ماض مع الأُمراء إلى يوم القيامة.(۲)

عرض أحاديث إطاعة الجائر على القرآن وقبل كلّ شیء يجب علينا أن نعرض تلك الروايات على كتاب اللّه سبحانه فإنّه المحك الأوّل لتشخيص الحديث الصحيح من السقيم. قال سبحانه حاكياً عن العصاة والكفّار:(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِی النّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنا اللّهَ وَأَطَعنا الرَّسُولا* و قالُوا رَبَّنا إِنّا أَطَعْنا سَادَتَنا وَكُبَرَاءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا* رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَينِ مِنَ العَذابِ وَالعَنْهُمْ لَعْناً كَبيراً).(۳) فهذا القسم من الآيات يندّد بقول من يرى وجوب طاعة السلطان الظالم التی توجب ضلالة المطيع له عن السبيل السوی، وثمة آيات تندّد بعمل من يصبر على عمل الطاغية من دون أن يأمره بالمعروف أو ينهاه عن المنكر، وترى نفس السكوت والصبر على طغيان الطاغية

جرماً وإثماً موجباً للهلاك، وهذه الآيات هى الواردة حول قوم بنى إسرائيل الذين كانوا يعيشون قرب ساحل من سواحل البحر فتقسّمهم إلى أصناف ثلاثة: الأوّل: الجماعة المعتدية العادية التى رفضت حكم اللّه سبحانه حيث حرم عليهم صيد البحر يوم السبت قال سبحانه: (إِذْ يعدون فى السّبت إِذ _____

۱ . العقد الفريد:۱/۸.

۲ . تاريخ المذاهب الإسلامية:۲/۳۲۲.

۳ . الأحزاب:۶۶ـ ۶۸. (۱۹۴) تَأْتيهِمْ حيتانُهُمْ يَوْم سَبْتِهِمْ شُرّعاً وَيَومَ لا يَسْبِتُون لا تَأْتيهِمْ...).(۱)

الثانى: الجماعة الساكتة التى أهمّتهم أنفسهم لا يرتكبون ماحرم اللّه وفى الوقت نفسه لا ينهون الجماعة العادية عن عدوانها، بل كانوا يعترضون على الجماعة الثالثة التى كانت تقوم بواجبها الدينى من إرشاد الجاهل والقيام فى وجه العاصى والطاغى، بقولهم: (لِمَ تَعِظُونَ قَوماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أو مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً) .(۲) الثالث: الجماعة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر معتبرين ذلك وظيفة دينية عريقةونصيحة لازمة للإخوان وقد حكى اللّه سبحانه عن لسانهم فى محكم كتابه العزيز حيث قال: (مَعْذِرةً إِلى ربِّكُمْ ولَعَلَّهُمْ يَتَّقُون) .(۳) نرى أنّ اللّه سبحانه أباد الطائفتين الأوّليين وأنجى الثالثة. قال سبحانه: (فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخذْنا الّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذاب بَئيس بِما كانُوا يَفْسُقُون) .(۴) فالآية الأخيرة صريحة فى حصر النجاة فى الناهين عن السوء فقط وهلاك العادين والساكتين عن عدوانهم، فلو كان السكوت والصبر على عدوان العادين أمراً جائزاً لماذا عمّ العذاب كلتا الطائفتين؟ أو ما كان فى وسع هؤلاء أن يعتذروا للقائمين بالأمر بالمعروف، بأنّ فى القيام والخروج وحتى فى النصيحة بالقول، تضعيفاً لقوة الأُمّة وفكّاً لعراها؟ فلو دلّت الآية الأُولى على حرمة طاعة الظالم فى الحرام، ودلّت الآية الثانية على حرمة السكوت فى مقابل طغيان العادين، فهناك آية ثالثة تدلّ على حرمة الركون إلى الظالم يقول سبحانه: (وَلا تَركَنُوا إِلى الَّذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّار).(۵)

---

۱ . الأعراف:۱۶۳.

۲ . الأعراف:۱۶۴.

۳ . الأعراف:۱۶۴.

۴ . الأعراف:۱۶۵.

۵ . هود:۱۱۳. (۱۹۵)

أو ليس تأييد الحاكم الجائر والدعاء له فى الجمعة والجماعات وإقامة الصلاة بأمره، وإدارة كلّ شأن خوّل منه إليه، يعد ركوناً إلى الظالم؟! فما هو جواب هؤلاء المرتزقة فى ما يسمّى بالدول الإسلامية الذين يعترفون بجور حكامهم وانحرافهم عن الصراط السوى، ومع ذلك يدعون لهم عقب خطب الجمعات بطول العمر ودوام السلامة ويديرون الشؤون الدينية حسب الخطط التى يرسمها ويصوّرها لهم أُولئك الحكام، الذين يعدهم هؤلاء المرتزقة محاور ومراكز،ويعدّون أنفسهم أقماراً تدور فى أفلاكها، اللّهمّ إلّا أن يعتذر هؤلاء بعدم التمكّن ممّا يجب عليهم من الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر على مراتبها المختلفة، ولكنّه عذر لا يقبل فى كثير من الأحيان، وعلى ذلك الأساس فما قيمة تلك الروايات المعارضة لنصوص الكتاب وصريح الذكر الحكيم؟! أحاديث معارضة لأحاديث طاعة الجائر

إنّ هناك روايات تنفى صحّة الروايات السابقة وتجعلها فى مدحرة البطلان وقد نقلها أصحاب الصحاح والسنن أيضاً وعند المعارضة يؤخذ من السنّة الشريفة ما يوافق كتاب اللّه الحكيم. وإليك نزراً من تلك الروايات: قال رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ : «اسمعوا: سيكون بعدى أمراء، فمن دخل عليهم فصدّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس منّى ولست منه، وليس بوارد على الحوض».(۱) هذا بعض ما لدى السنّة من الروايات، و أمّا ما لدى الشيعة فنأتى ببعضها: ۱. عن رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ

أنّه قال: «ألا ومن علق سوطاً بين يدى سلطان، جعل اللّه ذلك السوط يوم القيامة ثعباناً من النار طوله سبعون ذراعاً يسلّطه اللّه عليه فى نار جهنم وبئس المصير». ــــــــــــــــــ

١ . جامع الأُصول:۴/۷۵ نقلاً عن الترمذى والنسائى. (۱۹۶)

٢. وعنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أنّه قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين أعوان الظلمة، ومن لاق لهم دواة أو ربط لهم كيساً، أو مد لهم مدة قلم، فاحشروهم معهم». ٣. وعنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أنّه قال: «من خفّ لسلطان جائر فى حاجة كان قرينه فى النار». ۴. وقال ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «ما اقترب عبد من سلطان جائر إلّاتباعد من اللّه». ۵. وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ عليهما السَّلام ـ أنّه قال: «من أحبّ بقاء الظالمين، فقد أحبّ أن يعصى اللّه». ۶. و عنه ـ عليه السَّلام ـ أنّه قال: «من سوّد اسمه فى ديوان الجبّارين حشرهاللّه يومالقيامة حيراناً». ٧. وعنه ـ عليه السَّلام ـ أنّه قال: «من مشى إلى ظالم ليعينه وهو يعلم أنّه ظالم، فقد خرج عن الإسلام». ٨. وعن الإمام الصادق جعفر بن محمد ـ عليهما السَّلام ـ أنّه قال: «ما أحبّ أنّى عقدت لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء وأنّ لى ما بين لابتيها، لا، ولا مدة بقلم، إنّ أعوان الظلمة يوم القيامة فى سرادق من نار حتى يفرغ اللّه من الحساب».(١) وغيرها من عشرات الأحاديث والروايات الواردة من النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وأهل بيته المعصومين ـ عليهم السَّلام ـ الناهية عن السكوت على الحاكم الجائر، والحاثّة على زجره ودفعه، والإنكار عليه بكلّ الوسائل الممكنة، فهذه الأحاديث تدلّ على أنّ ما مرّ من الروايات الحاثة على السكوت عن الحاكم الظالم، والانصياع لحكمه والتسليم لظلمه، والرضا بجوره، جميعها ــــــــــــــــــ

١ . راجع لمعرفة هذه الأحاديث وسائل الشيعة:١٢، الباب ۴۲ من أبواب ما يكتسب به، الأحاديث ۶، ١٠، ١١، ١٢، ١۴، ١۵و الباب ۴۴ الحديث ۵و ۶. (۱۹۷)

ممّا لفّقه رواة السوء والجور بإيعاز من السلطات الحاكمة فى تلك العصور المظلمة، فنسبوه إلى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وهو ـ روحى فداه ـ منها براء لمعارضتها الصريحة لمبادئ الكتاب والسنّة الصحيحة. ولو لم يكن فى المقام إلّا قول على ـ عليه السَّلام ـ فى خطبته: «... وما أخذ اللّه على العلماء أن لا يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم... » (١) لكفى فى وهن تلك الروايات المفتعلة على لسان النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . ***

وفى ختام الكلام نلفت نظر القارئ الكريم إلى ما قاله الإمام أبو الشهداء الحسين بن على ـ عليهما السَّلام ـ لأهل الكوفة حيث خطب أصحابه وأصحاب الحرّ(قائد جيش عبيد اللّه بن زياد آنذاك) فحمد اللّه وأثنى عليه ثمّ قال: «أيّها الناس إنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرم اللّه، ناكثاً لعهد اللّه، مخالفاً لسنّة رسول اللّه، يعمل فى عباد اللّه بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا ـ قول، كان حقّاً على اللّه أن يدخله مدخله، ألا ـ وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفىء، وأحلّوا حرام اللّه وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيّر».(٢) وهذه النصوص الرائعة المؤيّدة بالكتاب والسنّة وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين قاموا فى وجه الطغاة من بنى أُمّية وبنى العباس، تشهد بأنّ ما نسب إلى الصحابة والتابعين من الاستسلام والسكوت على ظلم الظالمين لكون ذلك من عقيدتهم الإسلامية ما هو إلّا بعض مفتعلات أصحاب العروش وقد وضعها وعّاظهم ومرتزقتهم، وإلّافالطيّبون من الصحابة والتابعين بريئون من هذه النسبة.

---

١ . نهج البلاغة: الخطبة ٣.

٢ . تاريخ الطبرى: ۴/۳۰۴، حوادث سنة ۶١. (۱۹۸) صراع بين العقيدة والوجدان

نرى أنّ بعض الشباب المسلم فى البلاد الإسلامية، قد انخرطوا فى الأحزاب السياسية، ورفضوا الدين من أساسه، ولعلّ بعض السبب هو أنّهم وجدوا فى أنفسهم صراعاً بين العقيدة والوجدان. فمن جانب، توحى إليهم فطرتهم وعقيدتهم الإنسانية السليمة، أنّه تجب مكافحة الظالمين، والخروج عليهم، ونصرة المظلومين وانتزاع حقوقهم من أيدى الظالمين ;ومن جانب آخر يسمعون من علماء الدين أو

المتزيين بلباسهم، أنّه لا يجوز الخروج على السلطان، بل تجب طاعته وإن أمر بالظلم والعدوان. فحينئذ يقع الشاب فی حيرة من أمره بين اتّباع الفطرة والعقل السليم، واتّباع كلام هؤلاء العلماء الذين ينطقون باسم الدين خصوصاً إذا كان المتكلّم رجلاً يكيل له المجتمع الاحترام والإكبار، ويعرفه التاريخ بالخطيب الزاهد، كالحسن البصری فإنّه عندما سئل عن مقاتلة الحجاج ـ ذلك السيف المشهر على الأُمّة والإسلام ـ فأجاب: أری أن لا تقاتلوه، فإنّه إن يكن عقوبة من اللّه، فما أنتم برادّيها، وإن يكن بلاءً فاصبروا حتی يحكم اللّه وهو خير الحاكمين.فخرج السائلون من عنده وهم يقولون مستنكرين ما سمعوا منه: أنطيع هذا العلج. ثمّ خرجوا مع ابن الأشعث إلی قتال الحجاج.(۱) فإذا سمع الشاب الثوری هذه الكلمة من عميد الدين وخطيبه ـ كما يقال ـ عاد يصف جميع رجال الدين بما وصف به الحسن البصری، وبالتالی يخرج من الدين ويتركه، ويصف الدين سناداً للظالم وملجأ له. وفی الختام نوجه نظر الأعلام من السنّة إلی خطورة الموقف فی هذه الأيّام، وأنّ أعداءالإسلام لبالمرصاد يصطادون الشباب بسهام الدعاية الكاذبة، ويعرّفون الإسلام بأنّه سند الظالمين وركن الجائرين بحجة أنّه ينهی عن الخروج علی السلطان الجائر. _____

۱ . الطبقات الكبری لابن سعد:۷/۱۶۴. (۱۹۹)

والمسلم غير العارف بالدين وما أُلصق به، لا يميّز بين الحقيقة الناصعة وبين ما أُلبس عليها من ثوب ردیء قاتم. وليس هذا أوّل ولا آخر مورد يجد الشاب الثوری صراعاً فی نفسه بين العقلية الإنسانية والدعاية الكاذبة عن الإسلام، فيختار وحی الفطرة ويصبح ثائراً علی القوی الطاغية، ويظن أنّه ترك الإسلام بظن أنّ المتروك هو الدين الحقيقی الذی أنزله اللّه تعالی علی النبی محمّد ـ صلّی الله عليه وآله وسلّم ـ، و هذه الجريمة متوجهة بالدرجة الأُولی إلی هذا النمط من العلماء. فواجب علماء الدين أن يرجعوا إلی المصادر الإسلامية الصحيحة فی تشخيص ما هو من صميم الدين عمّا أُلصق به، ولا يقتنعوا بما كتب باسم الدين عن السلف الصالح، وليس كلّ ما نسب إلی السلف الصالح، أو قالوا به من صميم الدين، كما أنّه ليس كلّ سلف صالحاً، بل هم بين صالح وطالح، وسعيد وشقی، وعالم وجاهل، وليس كلّ سلف أفضل وأتقی وأعلم من كلّ خلف، فليذكروا المثل السائر: «كم ترك الأوّل للآخر»، فليدرسوا الأُصول المسلّمة من رأس، نعم لا أنكر أنّ هناك أُناساً واقفين علی الحقيقة ولكنّهم يكتمونها، لأنّ مصالحهم الشخصية لا تقتضی إظهارها، وقد نزل فيهم قوله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ البَيِّناتِ وَ الهُدَی مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنّاهُ لِلنّاسِ فِی الكِتابِ أُولئكَ يَلْعَنُهُمُ اللّهُ ويَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُون) (۱)، كما أنّ بينهم شخصيات لامعة جاهروا بالحقيقة وأصحروا بها واشتروا رضا الرب بأثمان غالية وتضحيات ثمينة. فهذا إمام الحرمين يقول: إن الإمام إذاجار وظهر ظلمه وغشمه ولم يرعو لزاجر عن سوء صنيعه، فلأهل الحل والعقد، التواطؤ علی ردعه، ولو بشهر السلاح ونصب الحروب.(۲) فی الختام نعطف نظر القارئ الكريم إلی قوله سبحانه عندما يأمر

---

۱ . البقرة:۱۵۹.

۲ . شرح المقاصد:۲/۲۷۲. (۲۰۰)

المؤمنات بالبيعة مع النبی ويقول:(ولا يَعْصينَكَ فِی مَعْرُوف) (۱) فيقيد إطاعة النبی وحرمة مخالفته بما إذا أمر بالمعروف، ومن المعلوم أنّ النبی الأكرم معصوم لا يأمر بالمنكر أبداً وإنّما هو لتعليم غيره، فهل يجوز لمسلم أن يقول بوجوب طاعة السلطان الجائر إذا أمر بالجور والمنكر؟! *** (وَقالُوا رَبَّنا إِنّا أَطَعْنا سادَتنا وَكُبراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا* رَبّنا آتِهِمْ ضِعْفَينِ مِنَ الْعَذابِ والعَنْهُمْ لَعْناً كَبيراً) .(۲)

---

۱ . الممتحنة:۱۲.

۲ . الأحزاب: ۶۷ ـ ۶۸. (۲۰۱)

عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان

عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان

عدالة الصحابة كلّهم بلا استثناء، ونزاهتهم من كلّ سوء هى أحد الأُصول التى يتديّن بها أهل الحديث، وقد راجت تلك العقيدة بينهم حتى اتخذها الإمام الأشعرى أحد الأُصول التى يبتنى عليها مذهب أهل السنّة جميعاً(۱)، ونحن نعرض هذه العقيدة على الكتاب أوّلاً، وعلى السنّة النبوية الصحيحة ثانياً، وعلى التاريخ ثالثاً حتى يتجلّى الحقّ بأجلى مظاهره إن شاء اللّه تعالى، ولكن قبل أن ندخل فى صلب المسألة نقدّم تعريف الصحابى فنقول:

من هو الصحابى؟ إنّ هناك تعاريف مختلفة للصحابى نأتى ببعضها على وجه الإجمال: ۱. قال سعيد بن المسيب: «الصحابى، ولا نعدّه إلاّ من أقام مع رسولاللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين». ۲. قال الواقدى: رأينا أهل العلم يقولون: كلّ من رأى رسول اللّه وقد أدرك فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا ممّن صحب رسول اللّه، ولو

---

۱ . مقالات الإسلاميين:۱/۳۲۳ يقول: «ويعرفون حقّ السلف الذين اختارهم اللّه سبحانه بصحبة نبيّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ويأخذون بفضائلهم ويمسكون عمّا شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم ;»لاحظ أيضاً كتاب «السنّة»: ۴۹. (۲۰۲)

ساعة من نهار ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدّمهم فى الإسلام. ۳. قال أحمد بن حنبل: أصحاب رسول اللّه كلّ من صحبه شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه. ۴. قال البخارى: من صحب رسول اللّه أو رآه من المسلمين فهو أصحابه. ۵. وقال القاضى أبو بكر محمد بن الطيب: لا خلاف بين أهل اللغة فى أنّ الصحابى مشتق من الصحبة، قليلاً كان أو كثيراً، ثمّ قال: ومع هذا فقد تقرر للأُمّة عرف فإنّهم لا يستعملون هذه التسمية إلاّ فيمن كثرت صحبته و لا يجيزون ذلك إلاّ فيمن كثرت صحبته لا على من لقيه ساعة أو مشى معه خطى، أو سمع منه حديثاً فوجب ذلك أن لا يجرى هذا الاسم على من هذه حاله، ومع هذا فإنّ خبر الثقة الأمين عنه مقبول و معمول به وإن لم تطل صحبته ولا سمع عنه إلاّ حديثاً واحداً». ۶. وقال صاحب الغوالى: لا يطلق اسم الصحبة إلاّ على من صحبه ثمّ يكفى فى الاسم من حيث الوضع، الصحبة ولو ساعة ولكن العرف يخصصه بمن كثرت صحبته. قال الجزرى بعد ذكر هذه النقول، قلت: وأصحاب رسول اللّه على ما شرطوه كثيرون فإنّ رسول اللّه شهد حنيناً ومعه اثنا عشر ألف سوى الأتباع والنساء، وجاء إليه«هوازن» مسلمين فاستنقذوا حريمهم وأولادهم، وترك مكة مملوءة ناساً وكذلك المدينة أيضاً، وكلّ من اجتاز به من قبائل العرب كانوا مسلمين فهؤلاء كلّهم لهم صحبة، وقد شهد معه تبوك من الخلق الكثير ما لا يحصيهم ديوان، وكذلك حجة الوداع، وكلّهم له صحبة.(۱) ولا يخفى أنّ التوسع فى مفهوم الصحابى على الوجه الذى عرفته فى كلماتهم ممّا لا تساعد عليه اللغة والعرف العام، فإنّ صحابة الرجل عبارة عن

---

۱ . أُسد الغابة:۱/۱۱ـ۱۲، طبع مصر. (۲۰۳)

جماعة تكون لهم خلطةومعاشرة معه مدّة مديدة، فلا تصدق على من ليس له حظ إلاّالرؤية عن بعيد أو سماع الكلام أو المكالمة أو المحادثة فترة يسيرة أو الإقامة معه زمناً قليلاً. وأظن أنّ فى هذا التبسيط والتوسع غاية سياسية، لما سيوافيك أنّ النبى قد تنبّأ بارتداد ثلة من أصحابه بعد رحلته فأرادوا بهذاالتبسيط، صرف هذه النصوص إلى الأعراب وأهل البوادى، الذين لم يكن لهم حظ من الصحبة إلاّلقاء قصير وسيأتى أنّ هذه النصوص راجعة إلى الملتفين حوله الذين كانوا مع النبى ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً إلى حدّ كان النبى يعرفهم بأعيانهم وأشخاصهم وأسمائهم، فكيف يصحّ صرفها إلى أهل البوادى والصحارى من الأعراب، فتربّص حتى تأتيك النصوص. وعلى كلّ تقدير فلسنا فى هذا البحث بصدد تعريف الصحابة وتحقيق الحقّ بين هذه التعاريف غير أنّا نركز الكلام على أنّ أهل السنّة يقولون بعدالة هذا الجم الغفير المدعوين باسم الصحابة، وإليك كلماتهم: عدالة جميعالصحابة

قال ابن عبد البر: نثبت عدالة جميعهم.(۱) وقال ابن الأثير: إنّ السنن التى عليها مدار تفصيل الأحكام ومعرفة الحلال الحرام إلى غير ذلك من أُمور الدين، إنّما تثبت بعد معرفة رجال أسانيدها ورواتها. وأوّلهم والمقدّم عليهم أصحاب رسول اللّه، فإذاجهلهم الإنسان

کـان بغیرهم أشـدّجهلاً وأعظم إنکـاراً، فینبغی أن یعرفوا بأنسـابهم وأحوالهم، هم وغیرهم من الرواة حتی یصـحّ العمـل بما رواه الثقاة منهم وتقوم به الحجّة، فإنّ المجهول لا تصـحّ روایته ولا ینبغی العمل بما رواه. والصـحابة یشارکون سائر الرواة فی جمیع ذلک إلّافی الجرح والتعـدیل، فـإنّهم کلّهـم عـدول لاـ یتطرق إلیهـم الجرح، لأـنّ اللّه عزّوجـلّ ورسـوله زکیـاهم وعـدلاهم، وذلـک مشـهور

---

۱ . الاستیعاب فی أسماء الأصحاب:۱/۲ فی هامش «الإصابة». (۲۰۴)

لا نحتاج لذکره.(۱) وقال الحافظ ابن حجر فی الفصل الثالث من الإصابة: اتّفق أهل السنّة علی أنّ الجمیع عدول ولم یخالف فی ذلک إلّا شذوذ من المبتدعة. وقد ذکر الخطیب فی الکفایة فصلاً نفیساً فی ذلک فقال: عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعدیل اللّه لهم وإخباره عن طهارتهم واختیاره لهم، ثمّ نقل عدّة آیات حاول بها إثبات عدالتهم وطهارتهم جمیعاً إلی أن قال: روی الخطیب بسنده إلی أبی زرعة الرازی قال: إذا رأیت الرجل ینتقص أحداً من أصحاب رسو لاللّه فاعلم أنّه زندیق، وذلک أنّ الرسول حقّ، والقرآن حقّ، وما جاء به حقّ، وإنّما أدّی إلینا ذلک کلّه الصحابة، وهؤلاء یریدون أن یجرحوا شهودنا لیبطلوا الکتاب والسنّة، والجرح بهم أولی وهم زنادقة.(۲) هذه کلمات القوم وکم لها من نظائر نترکها طلباً للاختصار. تقییم نظریة عدالة جمیعالصحابة

تقییم هذه النظریة یتم بتبیین أُمور: ۱. إنّ البحث عن عدالة الصحابی أو جرحه لیس لغایة إبطال الکتاب والسنّة ولا لإبطال شهود المسلمین، لما سیوافیک من أنّ الکتاب شهد علی فضل عدّة منهم، وزیغ آخرین وهکذا السنّة، إنّما الغایة فی هذا البحث هی الغایة فی البحث عن عدالة التابعین ومن تلاهم من رواة القرون المختلفة، فالغایة فی الجمیع هی التعرّف علی الصالحین والطالحین، حتی یتسنّی لنا أخذ الدین عن الصلحاء والتجنب عن أخذه عن غیرهم، فلو قام الرجل بهذا العمل وتحمل العبء الثقیل، لما کان علیه لوم فلو قال أبو زرعة ـ مکان قوله الآنف ـ هذا القول: «إذا رأیت الرجل یتفحّص عن أحد من أصحاب الرسول لغایة العلم بصدقه أو کذبه، أو خیره أو شره، حتی یأخذ دینه عن

---

۱ . أُسد الغابة:۲/۳.

۲ . الإصابة:۱/۱۷. (۲۰۵)

الخیرة الصادقین، ویحترز عن الآخرین، فاعلم أنّه من جملة المحقّقین فی الدین والمتحرین للحقیقة»، لکان أحسن وأولی بل هو الحسن والمتعیّن. ومن غیر الصحیح أن یتهم العالم أحداً، یرید التثبت فی أُمور الدین، والتحقیق فی مطالب الشریعة، بالزندقة وأنّه یرید جرح شهود المسلمین لإبطال الکتاب والسنّة، وما شهود المسلمین إلّاالآلاف المؤلّفة من أصحابه ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ فلا یضر بالکتاب والسنّة جرح لفیف منهم وتعدیل قسم منهم، ولیس الدین القیم قائماً بهذا الصنف من المجروحین. ما هکذا تورد یا سعد الإبل!!. ۲. إنّ هذه النظریة تکوّنت ونشأت من العاطفة الدینیة التی حملها المسلمون تجاه الرسول الأکرم ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ وجرّتهم إلی تبنّی تلک الفکرة وقد قیل: من عشق شیئاً، عشق لوازمه وآثاره. إنّ صحبة الصحابة لم تکن بأکثر ولا أقوی من صحبة امرأة نوح وامرأة لوط فما أغنتهما عن اللّه شیئاً، قال سبحانه: (ضَرَبَ اللّهُ مَثلاً لِّلّذینَ کَفَرُوا امرأَةَ نُوح وَامرأَةَ لُوط کانَتا تَحْتَ عَبْدَیْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَیْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ یُغْنِیا عَنْهُما مِنَ اللّهِ شَیئاً وَقیلَ ادخُلا النّار مَعَ الدّاخلین) .(۱) إنّ التشرّف بصحبة النبی لم یکن أکثر امتیازاً وتأثیراً من التشرّف بالزواج من النبی، وقد قال سبحانه فی شأن أزواجه: (یا نِساءَ النَّبیِّ مَنْ یَأْتِ مِنْکُنَّ بِفاحِشَة مُبَیِّنَة یُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَیْنِ وَکانَ ذلِکَ عَلی اللّهِ یَسیراً) .(۲) ۳. إنّ أساتذة العلوم التربویة کشفوا عن قانون مجرب، وهو أنّ الإنسان الواقع فی إطار التربیة، إنّما یتأثر بعواملها إذا لم تکتمل شخصیته الروحیة والفکریة، لأنّ النفوذ فی النفوس المکتملة الشخصیة، والتأثیر علیها والثورة علی أفکارها وروحیاتها، یکون صعباً جدّاً (ولاـ أقول أمراً محالاً) بخلاف ما إذا کان الواقع فی إطارها صبیاً یافعاً أو شاباً فی عنفوان شبابه، إذ عندئذ یکون قلبه

---

۱ . التحریم:۱۰.

۲ . الأحزاب:۳۰. (۲۰۶)

وروحه كالأرض الخالية تنبت ما ألقى فيها، وعلى هذا الأساس لا يصحّ لنا أن نقول: إنّ الصحبة والمجالسة وسماع بعض الآيات والأحاديث، أوجدت ثورة عارمة فى صحابة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وأزالت شخصياتهم المكونة طيلة سنين فى العصر الجاهلى، وكونت منهم شخصيات عالية تعد مثلاً للفضل والفضيلة. مع أنّهم كانوا متفاوتين فى السن ومقدار الصحبة، مختلفين فى الاستعداد والتأثر، وحسبك أنّ بعضهم أسلم وهو صبى لم يبلغ الحلم، وبعضهم أسلم وهو فى أوّليات شبابه، كما أسلم بعضهم فى الأربعينات والخمسينات من أعمارهم، إلى أن أسلم بعضهم وهو شيخ طاعن فى السن يناهز الثمانين والتسعين. فكما أنّهم كانوا مختلفين فى السن عند الانقياد للإسلام، كذلك كانوا مختلفين أيضاً فى مقدار الصحبة فبعضهم صحب النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ من بدء البعثة إلى لحظة الرحلة، وبعضهم أسلم بعد البعثة وقبل الهجرة، وكثير منهم أسلموا بعد الهجرة وربما أدركوا من الصحبة سنة أو شهراً أو أيّاماً أو ساعة، فهل يصحّ أن نقول: إنّ صحبة ما، قلعت ما فى نفوسهم جميعاً من جذور غير صالحة وملكات رديةوكونت منهم شخصيات ممتازة أعلى وأجل من أن يقعوا فى إطار التعديل والجرح؟! إنّ تأثير الصحبة عند من يعتقد بعدالة الصحابة كلّهم أشبه شىء بمادة كيمياوية تستعمل فى تحليل عنصر كالنحاس إلى عنصر آخر كالذهب، فكأنّ الصحبة قلبت كلّ مصاحب إلى إنسان مثالى يتحلّى بالعدالة، وهذا ممّا يردّه المنطق والبرهان، وذلك لأنّ الرسول الأعظم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لم يقم بتربية الناس وتعليمهم عن طريق الإعجاز(فَلَو شاء لَهَداكم أَجْمَعين) (۱) بل قام بإرشاد الناس ودعوتهم إلى الحقّ وصبهم فى بوتقات الكمال مستعيناً بالأساليب الطبيعية والإمكانيات الموجودة كتلاوة القرآن الكريم، والنصيحة بكلماته النافذة، وسلوكه القويم وبعث رسله ودعاة دينه إلى الأقطار ونحو _____

۱ . الأنعام:۱۴۹. (۲۰۷)

ذلك، والدعوة القائمة على هذا الأساس يختلف أثرها فى النفوس حسب اختلاف استعدادها وقابلياتها، فلا يصحّ لنا أن نرمى الجميع بسهم واحد. إلى هنا خرجنا بهذه النتيجة وهى: أنّ الأُصول التربوية تقضى بأنّ بعض الصحابة يمكن أن يصل فى قوّة الإيمان و رسوخ العقيدة إلى درجات عالية، كما يمكن أن يصل بعضهم فى الكمال والفضيلة إلى درجات متوسطة، ومن الممكن أن لا يتأثر بعضهم بالصحبة وسائر العوامل المؤثرة إلاّ شيئاً طفيفاً لا يجعله فى صفوف العدول وزمرة الصالحين. هذا هو مقتضى التحليل حسب الأُصول النفسية والتربوية غير أنّ البحث لا يكتمل، ولا يصحّ القضاء البات إلاّ بالرجوع إلى القرآن الكريم حتى نقف على نظره فيهم كما تجب علينا النظرة العابرة إلى كلمات الرسول فى حقّهم، وملاحظة سلوكهم وحياتهم فى زمنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وبعده.

الصحابة فى الذكر الحكيم

نرى أنّ الذكر الحكيم يصنف صحابة النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ويمدحهم فى ضمن أصناف نأتى ببعضها: ۱. السابقون الأوّلون

يصف الذكر الحكيم السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بأنّ اللّه رضى عنهم وهم رضوا عنه، قال عزّمن قائل:(وَالسّابِقُونَ الأَوّلُونَ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأَنْصارِ وَالّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسان رَضَىَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنّات تَجْرى تَحْتَها الأَنْهارُ خالِدينَ فِيها أَبداً ذلِكَ الفَوزُ العَظيم)(۱). _____

۱ . التوبة:۱۰۰.

(۲۰۸) ۲. المبايعون تحت الشجرة

يصف سبحانه جماعة من الصحابة الذين بايعوه تحت الشجرة بنزول السكينة عليهم، ويقول فى محكم كتابه: (لَقَدَ رَضِىَ اللّه عَنِ الْمُؤْمِنينَ إِذْيُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتحاً قَريباً) .(۱) ۳. المهاجرون

وهؤلاء هم الذين يصفهم تعالى ذكره بقوله: (لِلْفُقَراءِ المُهاجِرينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَموالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَرِضْواناً

وَيَنْصُرُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ) .(۲) ۴. أصحاب الفتح

هؤلاء هم الذين وصفهم اللّه سبحانه وتعالى فى آخر سورة الفتح بقوله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّآءُ عَلى الكُفّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللّهِ وَرِضْواناً سيماهُمْ فى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُود ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوراةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ كَزَرْع أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَ آزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرّاع لِيَغيظَ بِهِمُ الكُفّارَ وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجراً عَظيماً) .(۳) الأصناف الأُخر للصحابة

فالناظر المخلص المتجرّد عن كلّ رأى مسبق، يجد فى نفسه تكريماً لهؤلاء الصحابة غير أنّ القضاء البات فى عامة الصحابة يستوجب النظر إلى كلّ الآيات _____

۱ . الفتح:۱۸.

۲ . الحشر:۸.

۳ . الفتح:۲۹. (۲۰۹)

القرآنية الواردة فى حقّهم فعندئذ يتبيّن لنا أنّ هناك أصنافاً أُخرى من الصحابة غير ما سبق ذكرها، تمنعنا من أن نضرب الكلّ بسهم واحد، ونصف الكلّ بالرضا وبالرضوان. وهذا الصنف من الآيات يدلّ بوضوح على وجود مجموعات من الصحابة تضاد الأصناف السابقة فى الخلقيات والملكات والسلوك والعمل، وإليك لفيفاً منهم: ۱. المنافقون المعروفون

المنافقون المعروفون بالنفاق الذين نزلت فى حقّهم سورة المنافقين، قال سبحانه: (إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللّهِ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافقينَ لَكاذِبُونَ...).(۱) فهذه الآيات تعرب بوضوح عن وجود كتلة قوية من المنافقين بين الصحابة آنذاك وكان لهم شأن فنزلت سورة قرآنية كاملة فى حقّهم. ۲. المنافقون المختفون

تدلّ بعض الآيات على أنّه كانت بين الأعراب القاطنين خارج المدينة ومن نفس أهل المدينة، جماعة مردوا على النفاق وكان النبى الأعظم لا يعرف بعضهم، ومن تلك الآيات قوله سبحانه: (وَمِمَّنْ حَولَكُمْ مِنَ الأَعرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلى النّفاق(۲) لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) .(۳) لقد أعطى القرآن الكريم عناية خاصة بعصبة المنافقين وأعرب عن نواياهم وندد بهم فى السور التالية: البقرة، آل عمران، المائدة، التوبة، العنكبوت، الأحزاب، محمّد، الفتح، الحديد، المجادلة، الحشر، والمنافقين. _____

۱ . المنافقون:۱.

۲ . مردوا على النفاق: تمرّنوا عليه وتمارسوا عليه.

۳ . التوبة: ۱۰۱. (۲۱۰)

وهذا إن دلّ على شىء فإنّما يدلّ على أنّ المنافقين كانوا جماعة هائلة فى المجتمع الإسلامى، بين معروف عرف بسمة النفاق ووصمة الكذب، وغير معروف بذلك، ولكن مقنّع بقناع التظاهر بالإيمان والحب للنبى، فلو كان المنافقون جماعة قليلة غير مؤثرة لما رأيت هذه العناية البالغة فى القرآن الكريم، وهناك ثلة من المحقّقين كتبوا حول النفاق والمنافقين رسائل وكتابات، وقد قام بعضهم بإحصاء ما يرجع إليهم، فبلغ مقداراً يقرب من عشر القرآن الكريم (۱)، وهذا إن دلّ على شىء فإنّما يدلّ على كثرة أصحاب النفاق وتأثيرهم يوم ذاك فى المجتمع الإسلامى، وعلى ذلك لا يصحّ لنا الحكم بعدالة كلّ من صحب النبى مع غض النظر عن تلك العصابة المجرمة، المتظاهرة بالنفاق أو المختفية فى أصحاب النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . ۳. مرضى القلوب

وهذه المجموعة من الصحابة لم يكونوا من زمرة المنافقين بل كانوا يلونهم فى الروحيات والملكات مع ضعف فى الإيمان والثقة باللّه ورسوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال سبحانه فى حقّهم: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً) .(۲) فأنّى لنا أن نصف مرضى القلوب الذين ينسبون خلف الوعد إلى اللّه سبحانه وإلى رسوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بالتقوى والعدالة؟ ۴. السمّاعون

تلك المجموعة كانت قلوبهم كالريشة فى مهب الريح تتمايل تارة إلى هؤلاء وأخرى إلى أولئك بسبب ضعف إيمانهم، وقد حذّر البارى عزّوجلّ المسلمين منهم حيث قال عزّمن قائل، واصفاً إيّاهم بـ«السمّاعون» لأهل _____

۱ . النفاق والمنافقون: تأليف الأُستاذ إبراهيم على سالم المصرى.

۲ . الأحزاب:۱۲. (۲۱۱)

الفتنة: (إِنَّمَا يَستأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ وَارتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ* ولو أَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلكِنْ كَرِهَ اللّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبطهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القاعِدِينَ* لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاّخَبالاً ولأَوضَعوْا خِلاَلَكُمْ يَبغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَليمٌ بِالظّالِمِينَ) (۱) وذيل الآية دليل على كون السمّاعين من الظالمين لا من العدول. ۵. خالطو العمل الصالح بغيره

وهؤلاء هم الذين يقومون بالصلاح والفلاح تارة، والفساد والعيث مرّة أُخرى، فلأجل ذلك خلطوا عملاً صالحاً بعمل سيِّء قال سبحانه: (وَآخَرونَ اعْتَرفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً) .(۲) ۶. المشرفون على الارتداد

إنّ بعض الآيات تدلّ على أنّ مجموعة من الصحابة كانت قد أشرفت على الارتداد يوم دارت عليهم الدوائر، وكانت الحرب بينهم و بين قريش طاحنة فأحسّوا بضعفهم وقد أشرفوا على الارتداد، عرّفهم الحقّ سبحانه بقوله: (وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتهُمْ أَنْفُسهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شىء قُلْ إِنِ الأَمْرَ كُلَّهُ للّهِ يخفونَ فى أَنفُسِهِمْ ما لا يبدُونَ لكَ يَقُولُونَ لَو كانَ لَنا مِنَ الأَمْرِ شَىءٌ ما قُتِلْنَا هَاهُنا).(۳) ۷. الفاسق

إنّ القرآن الكريم يحث المؤمنين وفى مقدّمتهم الصحابة الحضور، على التحرز من خبر الفاسق حتّى يتبيّن، فمن هذا الفاسق الذى أمر القرآن بالتحرّز منه؟ اقرأ أنت ما نزل حول الآية من شأن النزول واحكم بما هو الحقّ. _____

۱ . التوبة: ۴۵ـ ۴۷.

۲ . التوبة:۱۰۲.

۳ . آل عمران:۱۵۴. (۲۱۲)

قال سبحانه: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبأ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصيبُوا قَوماً بِجَهالة فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ) .(۱) فإنّ من المجمع عليه بين أهل العلم أنّه نزل فى حقّ الوليد بن عقبة بن أبى معيط، وذكره المفسرون فى تفسير الآية فلا نحتاج إلى ذكر المصادر. كما نزل فى حقّه قوله تعالى: (أَفَمَنْ كانَ مَؤمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوونَ) (۲)، نقل الطبرى فى تفسيره بإسناده أنّه كان بين الوليد وعلى كلام، فقال الوليد: أنا أبسط منك لساناً وأحد منك سناناً وأرد منك للكتيبة. فقال على: «اسكت فإنّك فاسق» فأنزل اللّه فيهما: (أَفَمَنْ كانَ مَؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُون).(۳) وقد نظم الحديث حسان بن ثابت(شاعر عصر الرسالة) وقال: أنزل اللّه والكتاب عزيز * فى على و فى الوليد قرآناً فتبوّأ الوليد إذ ذاك فسقاً * وعلى مبوّأ إيماناً ليس من كان مؤمناً عرف * اللّه كمن كان فاسقاً خواناً سوف يدعى الوليد بعد قليل * وعلى إلى الحساب عياناً فعلى يجزى بذاك جناناً * ووليد يجزى بذاك هواناً(۴) أفهل يمكن لباحث حر، التصديق بما ذكره ابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر، وفى مقدمتهم أبو زرعة الرازى الذى هاجم المتفحّصين المحقّقين فى أحوال الصحابة واتّهمهم بالزندقة. _____

۱ . الحجرات:۶.

۲ . السجدة:۱۸.

۳ . تفسير الطبرى:۲۱/۶۲، و تفسير ابن كثير:۳/۴۵۲.

۴ . «تذكرة الخواص» سبط ابن الجوزى: ۱۱۵ «;كفاية» الكنجى: ۵۵ «;مطالب السؤول» لابن طلحة : ۲۰ «;شرح النهج» ، الطبعة القديمة: ۲/۱۰۳ «;جمهرة الخطب» لأحمد زكى:۲/۲۳. لاحظ «الغدير»: ۲/۴۲. (۲۱۳) ۸. المسلمون غير المؤمنين

إنّ القرآن يعد جماعة من الأعراب الذين رأوا النبى وشاهدوه وتكلّموا معه، مسلمين غير مؤمنين وأنّهم بعد لم يدخل الإيمان فى قلوبهم قال سبحانه: (قالَتِ الأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوآ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدخُلِ الإِيمَانُ فى قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلتكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيئاً إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).(۱) أفهل يصحّ عدّ عصابة غير مؤمنين من العدول الأتقياء؟! ۹. المؤلّفة قلوبهم

اتّفق الفقهاء على أنّ المؤلّفة قلوبهم ممّن تصرّف عليهم الصدقات قال سبحانه: (إِنَّما الصَدقات لِلْفُقَراءِ وَالمَساكينَ وَالعامِلينَ عَلَيهَا وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالغارِمينَ وَفى سَبيلِ اللّهِ وَابنِ السَّبيلِ فَريضَةً مِنَ اللّهِ وَاللّهُ عَليمٌ حَكيم) .(۲) والمراد من (المؤلّفةِ قُلُوبُهمْ): الذين كانوا فى صدر الإسلام ممّن يظهرون الإسلام ، يتألّفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم ، وهناك أقوال أُخر فيهم متقاربة والكلّ يهدف إلى الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلّا بالعطاء.(۳) ۱۰. المولّون أمام الكفّار

إنّ التولى عن الجهاد والفرار منه، من الكبائر الموبقة التى نددبها سبحانه بقوله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُولُّوهُمُ الأَدبَارَ* وَمَنْ يُولِّهِمْ يَومئذ دُبُرَهُ إِلّامُتَحَرِّفاً لِّقِتَال أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئة فَقَدْ بَ آءَ بِغَضب مِنَ اللّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِير) .(۴)

---

۱ . الحجرات:۱۴.

۲ . التوبة:۶۰.

۳ . تفسير القرطبى:۸/۱۸۷. لاحظ: المغنى لابن قدامة:۲/۵۵۶.

۴ . الأنفال:۱۵ـ ۱۶. (۲۱۴)

إنّ التحذير من التولى والفرار من الزحف، والحث على الصمود أمام العدو، لم يصدر من مصدر الوحى إلّا بعد فرار مجموعة كبيرة من صحابة النبى فى غزوة «أُحد» و «حنين». أمّا الأوّل: فيكفيك قول ابن هشام فى تفسير الآيات النازلة فى أُحد: قال: ثمّ أنّبهم على الفرار عن نبيهم وهم يدعون، لا يعطفون عليه لدعائه إيّاهم فقال: (إِذْ تُصْعِدُونَ ولا تَلْوُونَ عَلَى أَحَد والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخراكُمْ) .(۱) وأمّا الثانى: فقد قال ابن هشام فيه أيضاً فلمّا انهزم الناس ورأى من كان مع رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من جفاة أهل مكة، الهزيمة تكلّم رجال منهم بما فى أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر، وصرخ جبلة ابن حنبل: ألا بطل السحر اليوم...(۲) أفبعد هذا يصحّ أن يعد جميع الصحابة بحجة أنّهم رأوا نور النبوة، عدولاً أتقياء؟! قال القرطبى فى تفسيره: قد فر الناس يوم «أحد» وعفا اللّه عنهم، و قال اللّه فيهم يوم حنين:(ثمّ ولّيتم مُدبرين) ثمّ ذكر فرار عدّة من أصحاب النبى من بعض السرايا.(۳) هذا الإمام الواقدى يرسم لنا تولّى الصحابة منهزمين ويقول: فقالت أُمّ الحارث: فمر بى عمر بن الخطاب فقلت له: يا عمر ما هذا؟ فقال عمر: أمر اللّه. وجعلت أمّ الحارث تقول: يا رسول اللّه من جاوز بعيرى فأقتله.(۴) _____

۱ . آل عمران:۱۵۳.

۲ . سيره ابن هشام:۳/۱۱۴، و ۴/۴۴۴، ولاحظ التفاسير.

۳ . تفسير القرطبى:۷/۳۸۳.

۴ . مغازى الواقدى:۳/۹۰۴. إنّ تعليل الفرار من الزحف بقضاء اللّه يشبه تعليل عبّادَالأوثان شركهم به كما فى قوله سبحانه حاكياً عن المشركين: (لو شاء اللّه ما أشركنا ولا آباؤنا) (الأنعام:۱۴۸) وتلزم من ذلك تبرئة العصاة والكفّار، لأنّ أعمالهم كلّها بقضاء منه. (۲۱۵)

هذه هى الأصناف العشرة من صحابة النبى ممّن لا يمكن توصيفهم بالعدالة والتقوى، أتينا بها فى هذه العجالة مضافاً إلى الأصناف المضادة لها، ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى الآيات الواردة فى أوائل سورة البقرة وسورة النساء وغيرها من الآيات القرآنية فترى فيها أنّ الإيمان بعدالة الصحابة مطلقاً خطأ فى القول،وزلة فى الرأى، يضاد نصوص الذكر الحكيم ولم تكن الصحابة إلّا كسائر الناس فيهم صالح تقى، بلغ القمة فى التقى والنزاهة، وفيهم طالح شقى، سقط إلى هوة الشقاءوالدناءة. ولكن الذى يميّز الصحابة عن غيرهم

أنّهم رأوا نور النبوة وتشرّفوا بصحبة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وشاهدوا معجزاته فی حلبة المباراة بأَمّ أعینهم، ولأجل ذلک تحمّلوا مسؤولیة کبیرة أمام اللّه وأمام الأجیال المعاصرة لهم واللاحقة بهم، فإنّهم لیسوا کسائر الناس، فزیغهم ومیلهم عن الحقّ أشدّ لا یعادل زیغ أکثر الناس وانحرافهم، وقد قال سبحانه فی حقّ أزواج النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: (یا نِساءَ النَّبیِّ لَسْتُنَّ کَأَحَد مِنَ النِّساء...) (۱) فلو انحرف هؤلاء فقد انحرفوا فی حال شهدوا النور، ولمسوا الحقیقة، وشتان الفرق بینهم و بین غیرهم. الصحابة فی السنة النبویة

إذا راجعنا الصحاح والمسانید نجد أنّ أصحابها أفردوا باباً بشأن فضائل الصحابة، إلّا أنّهم لم یفردوا باباً فی مثالبهم بل أقحموا ما یرجع إلی هذه الناحیة فی أبواب أُخر، ستراً لمثالبهم، وقد ذکرها البخاری فی الجزء التاسع من صحیحه فی باب الفتن، وأدرجها ابن الأثیر فی جامعه فی أبواب القیامة عند البحث عن الحوض، والوضع الطبیعی لجمع الأحادیث وترتیبها، کان یقتضی عقد باب مستقل للمثالب فی جنب الفضائل حتی یطلع القارئ علی قضاء السنّة حول صحابة النبی الأکرم. ــــــــــــــــــــــ

۱ . الأحزاب:۳۲. (۲۱۶)

روی أبو حازم عن سهل بن سعد قال: قال النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: إنّی فرطکم علی الحوض من ورد شرب، ومن شرب لم یظمأ أبداً ولیردن علی أقوام أعرفهم ویعرفونی ثمّ یحال بینی و بینهم ... قال أبو حازم: فسمع النعمان بن أبی عیاش وأناأحدّثهم بهذا الحدیث فقال: هکذا سمعت سهلاً یقول؟ فقلت: نعم قال: وأنا أشهد علی أبی سعید الخدری لسمعته یزید فیقول: إنّهم منّی فیقال: إنّک لا تدری ما أحدثوا بعدک فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدی». أخرجه البخاری ومسلم.(۱) وظاهر الحدیث أنّ المراد بقرینة «بدّل بعدی» أصحابه الذی عاصروه وصحبوه وکانوا معه مدّة ثمّ مضوا. روی البخاری ومسلم أنّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: «یرد علی یوم القیامة رهط من أصحابی ـ أو قال من أُمّتی ـ فیحلؤون عن الحوض فأقول یا ربّ أصحابی فیقول: إنّه لا علم لک بما أحدثوا بعدک، إنّهم ارتدوا علی أدبارهم القهقری».(۲) ثمّ قال: وللبخاری: أنّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: «بینما أنا قائم علی الحوض إذا زمرة حتی إذا عرفتهم خرج رجل بینی و بینهم فقال: هلم! فقلت: أین؟ فقال: إلی النار واللّه، فقلت: ما شأنهم؟ قال: إنّهم ارتدّوا علی أدبارهم القهقری ;ثمّ إذا زمرة أُخری، حتی إذا عرفتهم خرج رجل بینی و بینهم فقال لهم: هلم، فقلت: إلی أین؟ قال: إلی النار واللّه، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنّهم ارتدوا علی أدبارهم فلا أراه یخلص منهم إلّامثل همل النعم».(۳) وظاهر الحدیث«حتی إذا عرفتهم» وقوله«ارتدّوا علی أدبارهم ــــــــــــــــــــــ

۱ . جامع الأُصول لابن الأثیر:۱۱/۱۲۰، کتاب الحوض فی ورود الناس علیه، رقم الحدیث ۷۹۷۲. و«الفرط»: المتقدّم قومه إلی الماء، ویستوی فیه الواحد والجمع، یقال رجل فرط وقوم فرط.

۲ . جامع الأُصول ۱۱/۱۲۰، رقم الحدیث ۷۹۷۳.

۳ . جامع الأُصول:۱۱/۱۲۱، و «همل النعم» کنایة عن أنّ الناجی عدد قلیل، وقد اکتفینا من الکثیر بالقلیل، ومن أراد الوقوف علی ما لم نذکره فلیرجع إلی «جامع الأُصول». (۲۱۷)

القهقری» أنّ الذین أدرکوا عصره وکانوا معه، هم الذین یرتدّون بعده. الصحابة والتاریخ المتواتر

کیف یمکن عدّالصحابة جمیعاً عدولاً والتاریخ بین أیدینا نری أنّ بعضهم ظهر علیه الفسق فی حیاة النبی وبعده، کولید بن عقبة. أمّا الأوّل فقد عرفت نزول الآیة فی حقّه ;وأمّا الثانی فروی أصحاب السیر والتاریخ أنّ الولید بن عقبة أیّام ولایته بالکوفة شرب الخمر وقام لیصلی بالناس صلاة الفجر فصلّی أربع رکعات، وکان یقول فی رکوعه وسجوده: اشربی واسقنی، ثمّ قاء فی المحراب ثمّ سلم، و قال: هل أزیدکم... إلی آخر ما ذکروه.(۱) وبعضهم ظهرت علیه سمة الارتداد عندما بدت علائم الهزیمة عند المسلمین فقال: لا تنتهی هزیمتهم دون البحر(۲)، و قال الآخر: ألا بطل السحر.(۳) وهذا رسول اللّه یخاطب ذی الخویصرة عندما قال للنبی فی تقسیم غنائم «حنین»: اعدل، بقوله:«ویحک إن لم یکن العدل عندی فعند من یکون؟! ثمّ قال: فإنّه یکون له شیعة یتعمّقون فی الدین حتی یخرجوا

منه كما يخرج السهم من الرميّة».(۴) وهذا أبو سفيان يضرب برجله قبر حمزة ـ عليه السَّلام ـ ويقول: ذق عقق إنّ الملك الذى كنّا نتنازع عليه أصبح اليوم بيد صبياننا.(۵) _____

۱ . الكامل لابن الأثير:۲/۵۲; أُسد الغابة:۵/۹۱ وغيرهما. وقد أقام الإمام أمير المؤمنين على ـ عليه السَّلام ـ عليه الحد فى خلافة عثمان بإصرار من الناس وإلحاح منهم لئلاّ تتعطل الحدود.

۲ . سيرة ابن هشام:۴/۴۴۳ والقائل أبو سفيان.

۳ . سيرة ابن هشام:۴/۴۴۴ والقائل كلدة بن الحنبل فقال له صفوان: اسكت فض اللّه فاك.

۴ . سيرة ابن هشام:۴/۴۹۶.

۵ . قاموس الرجال:۱۰/۸۹ نقلاً عن الشرح الحديدى. (۲۱۸)

وهذا أبو سفيان عندما بويع عثمان، دخل إليه بنو أبيه حتى امتلأت بهم الدار ثمّ أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا ـ قال: يا بنى أُميّة تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذى يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا ـ جنة ولا نار ولا بعث ولا قيامة.(۱) أفهل بعد هذه الكلمات الكاشفة عن الردة الخبيثة يصحّ لمسلم أن يعد هؤلاء وأمثالهم من صنف العدول وطبقة الصالحين ويعد جرحهم إبطالاً للكتاب والسنّة و تضعيفاً لشهود المسلمين؟! آراء الصحابة بعضهم حول البعض

إنّ النظرة العابرة لتاريخ الصحابة تقتضى بأنّ بعضهم كان يتهم الآخر بالنفاق والكذب، كما أنّ بعضهم كان يقاتل بعضاً، ويقود جيشاً لمحاربته، فقتل بين ذلك جماعة كثيرة، أفهل يمكن تبرير أعمالهم من الشاتم والمشتوم، والقاتل والمقتول وعدّهم عدولاً ومثلاً للفضل والفضيلة؟! وإليك نزراً يسيراً من تاريخهم ممّا حفظته يد النقل غفلة عن المبادئ العامة لأصحاب الحديث: ۱. روى البخارى مشاجرة سعد بن معاذ مع سعد بن عبادة ـ سيد الخزرج ـ فى قضية الإفك قال: قام رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فاستعذر يومئذ من عبد اللّه بن أبى وهو على المنبر فقال: يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى، واللّه ما علمت على أهلى إلاّ خيراً ولقد ذكروا رجلاً ـ ما علمت عليه إلاّ ـ خيراً وما كان يدخل على أهلى إلاّ معى». فقام سعد بن معاذ، أخو بنى عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول اللّه أعذرك فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا أمرك. فقام رجل من الخزرج: وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر اللّه لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل. فقام أسيد بن حضير _____

۱ . الشرح الحديدى:۹/۵۳ نقلاً عن كتاب السقيفة للجوهرى. (۲۱۹)

وهو ابن عمّ سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر اللّه لنقتلنّه فإنّك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيّان: الأوس والخزرج، حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول اللّه قائم على المنبر، فلم يزل رسول اللّه يخفضهم حتى سكتوا وسكت.(۱) اقرأ فاقض، فإنّ هؤلاء يتّهم بعضهم بعضاً بالكذب والنفاق، ونحن نعتبرهم عدولاً صلحاء، والإنسان على نفسه بصيرة. ۲. إنّ الحروب الدائرة بين الصحابة أنفسهم والثورة التى أقامها أصحاب النبى ومن اتّبعهم على عثمان بن عفان حتى جرّت إلى قتله، أفضل دليل على أنّه لا ـ يصحّ تعريف الصحابة وتوصيفهم بالعدالة والتقوى، إذ كيف يصحّ أن يكون القاتل والمقتول كلاهما على الحقّ والعدالة؟! وهذا هو طلحة وهذا الزبير قد جهّزا جيشاً جراراً لحرب الإمام على ـ عليه السَّلام ـ وأعانتهما أمّ المؤمنين فقتلت جماعة كثيرة بين ذلك، فهل يمكن تعديل كلّ هذه الجماعة حتّى الباغين على الإمام المفترض الطاعة بالنصّ أوّلاً، وببيعة المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ثانياً؟! وهذا معاوية بن أبى سفيان يعدّ من الصحابة وقد صنع بالإسلام والمسلمين ما قد صنع ممّا هو مشهور فى التاريخ، و من ذلك أنّه حارب الإمام عليّاً عليه الصلاة والسلام فى حرب صفين، وكان على مع كلّ من بقى من البدريين وهم قريب من مائة شخص، فهل من حارب هؤلاء الصحابة جميعاً بما فيهم سيد الصحابة على ـ عليه السَّلام ـ يعدّ من أهل الفضل والصلاح والعدالة؟! فاقض ما أنت قاض. لقد نقل صاحب المنار: أنّه قال أحد علماء الألمان فى «الآستانة» لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة: إنّه ينبغى لنا أن نقيم تمثالاً من

الذهب لمعاوية ابن أبى سفيان فى ميدان كذا من عاصمتنا «برلين». قيل له: لماذا؟! قال: _____

۱ . صحيح البخارى:۵/۱۱۸ـ ۱۱۹ فى تفسير سورة النور. (۲۲۰)

لأنّه هو الذى حول نظام الحكم الإسلامى عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب (الملك لمن غلب)ولولا ذلك لعمّ الإسلام العالم كلّه، ولكنّا نحن الألمان وسائر شعوب أوروبا عرباً مسلمين.(۱) هذا خال المؤمنين و من يترحّم عليه خطباء الجمعة والجماعة، فكيف حال غيره؟! أضف إليه ما له من الموبقات والمهلكات ممّا لا يمكن لأحد إنكاره. والاعتذار منه فى تبرير أعماله القاسية باجتهاده فى ما ناء به وباء بإثمه من حروب دامية وإزهاق نفوس بريئة تعد بالآلاف المؤلّفة، ليس إلاّ ضلالة وخداعاً للعقل، فإنّه اجتهاد على خلاف ما يريده اللّه وضدّ رسوله، وإلاّ يصحّ أن يعد جميع المناوئين للإسلام مجتهدين فى صدر الإسلام ومؤخّره. هذا مجمل القول فى هذا الأصل الذى اتّخذه أصحاب الحديث أصلاً من أُصول الإسلام ثمّ أدخله الأشعرى فى الأُصول التى يتبنّاها أكثر أهل السنّة والجماعة.

التعذير التافه أو أسطورة الاجتهاد

وما أتفه قول من يريد تبرير عمل هؤلاء بالاجتهاد، وأنّهم كانوا مجتهدين فى أعمالهم وأفعالهم، أفهل يصحّ تبرير عمل القتل والفتك والخروج على الإمام المفترض طاعته، بالاجتهاد؟! ولو صحّ هذا الاجتهاد (ولن يصحّ أبداً) لصحّ عن كلّ من خالف الحقّ وحالف الباطل من اليهود و النصارى وغيرهم من الطغام اللئام. أى قيمة للاجتهاد فى قبال النص وصريح السنّة النبوية وإجماع الأُمّة؟! أى قيمة للاجتهاد الذى أباح دماء المسلمين ودمّر كيانهم وشقّ عصاهم وفكّ عرى وحدتهم، أى، وأى، وأى؟! إنّ القائلين بعدالة الصحابة يتمسّكون بما يروون عن النبى أنّه قال: «أصحابى كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم».(۲) غير أنّ متن الحديث يكذب صدوره عن

---

۱ . تفسير المنار:۱۱/۲۶۹ فى تفسير سورة يونس.

۲ . جامع الأُصول:۹/ ۴۱۰ رقم الحديث ۶۳۵۹ ، كتاب الفضائل. (۲۲۱)

النبى إذ ليس كلّ نجم هادياً للإنسان فى البر والبحر، بل هناك نجوم خاصة موجبة للاهتداء، ولأجل ذلك قال سبحانه: (وَعَلامات وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُون).(۱) ولم يقل : وبالنجوم هم يهتدون، ولو كان كلّ نجم هادياً للضال لكان الأنسب الإتيان بصيغة الجمع. ولو افترضنا صحّة الاهتداء بكلّ نجم فى السماء، أفهل يمكن أن يكون كلّ صحابى نجماً لامعاً فى سماء الحياة، هادياً للأُمّة؟! هذا قدامة بن مظعون صحابى بدرى يعد من السابقين الأوّلين ومن المهاجرين هجرتين، روى أنّه شرب الخمر وأقام عليه عمر الحد.(۲) كما أنّ المشهور أنّ عبد الرحمن الأصغر بن عمر بن الخطاب قد شرب الخمر.(۳) وقد ارتد طليحة بن خويلد عن الإسلام وادّعى النبوة، ومثله مسيلمة والعنسى الكذّابان وأمرهما أشهر من أن يذكر. إنّ بعض الصحابة خضب وجه الأرض بالدماء، فاقرأ تاريخ بسر بن أرطأة حتى إنّه قتل طفلين لعبيد اللّه بن عباس!! وكم وكم بين الصحابة لدة هؤلاء من رجال العيث والفساد قد حفل التاريخ بضبط مساوئهم، أفبعد هذه البينات يصح لأى ابن أُنثى أن يتقوّل بعدالة الصحابة مطلقاً ويتّخذها مذهباً و يرمى المخالف له، بما هو برىء منه؟! الموقف الصحيح من الصحابة

والنظرية القويمة المستقيمة هى نظرية الشيعة المنعكسة فى الدعاء المروى عن الإمام الطاهر على بن الحسين ـ عليهما السَّلام ـ ترى أن يدعو اللّه سبحانه فى حقّ أصحاب محمّد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لا لكلّهم، بل للّذين أحسنوا _____

۱ . النحل:۱۶.

۲ . أُسد الغابة:۴/۱۹۹ وسائر كتب التراجم.

۳ . أُسد الغابة:۳/۳۱۲. (۲۲۲)

الصحبة، والذين أبلوا البلاء الحسن فى نصره، والذين عاضدوه وأسرعوا إلى وفادته وإليك تلك الكلمة المباركة من الصحيفة السجادية: «اللّهمّ وأصحاب محمّد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ خاصة الذين أحسنوا الصحبة، والذين أبلوا البلاء الحسن فى

نصره، وکانفوه وأسرعوا إلی وفادته، وسابقوا إلی دعوته، واستجابوا له حیث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد فی إظهار کلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء فی تثبیت نبوته وانتصروا به، و من کانوا منطوین علی محبته، یرجون تجارة لن تبور فی مودته، والذین هجرتهم العشائر إذ تعلّقوا بعروته، وانتفت منهم القرابات، إذ سکنوا فی ظل قرابته، فلا تنس لهم اللّهمّ ما ترکوا لک وفیک، وأرضهم من رضوانک و بما حاشوا الخلق علیک، وکانوا مع رسولک دعاة لک إلیک، واشکرهم علی هجرهم فیک دیار قومهم، وخروجهم من سعة المعاش إلی ضیقه، ومن کثرت فی إعزاز دینک من مظلومهم، اللّهمّ وأوصل إلی التابعین لهم بإحسان الذین یقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا...».(۱) خاتمة المطاف

إنّ لأبی المعالی الجوینی کلاماً حول الصحابة دعا فیه إلی أنّ الواجب، الکف والإمساک عن الصحابة وعمّا شجر بینهم، نقله الشارح الحدیدی فی شرحه علی نهج البلاغة کما نقل نقد بعض الزیدیة له الذی سمعه من أستاذه النقیب أبی جعفر یحیی بن محمد العلوی البصری فی سنة إحدی عشرة وستمائة ببغداد وعنده جماعة و ما نقله عن أُستاذه رسالة مبسوطة فی الموضوع فیها نکات بدیعة لا یسعنا إیرادها فی المقام، ولذلک نقتبس بعضها وقد نقل فیها قضایا تعرب عن جریان السیرة علی النقد والرد والمشاجرة، وإلیک بعضها: ۱. هذه عائشة أُمّ المؤمنین خرجت بقمیص رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ فقالت للناس: هذا قمیص رسول اللّه لم یبل، وعثمان قد أبلی

۱ . الصحیفة السجادیة: الدعاء الرابع مع شرحه، فی ظلال الصحیفة السجادیة ص ۵۵ـ ۵۹. (۲۲۳)

سنته، ثمّ تقول: اقتلوا نعثلاً قتل اللّه نعثلاً، ثمّ لم ترض بذلک حتی قالت: أشهد أنّ عثمان جیفة علی الصراط غداً. ۲. هذا المغیرة بن شعبة وهو من الصحابة، ادّعی علیه الزنا وشهد علیه قوم بذلک، فلم ینکر ذلک عمر، ولا قال: هذا محال وباطل بحجّة أنّ هذا صحابی من صحابة رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ لا ـ یجوز علیه الزنا، کما أنّ عمر لم ینکر علی الشهود ولم یقل لهم: ویحکم هلا تغافلتم عنه لما رأیتموه یفعل ذلک، فإنّ اللّه تعالی قد أوجب الإمساک عن مساوئ أصحاب رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وأوجب الستر علیهم، وهلاّ ترکتموه لرسول اللّه فی قوله:«دعوا لی أصحابی» بل ما رأینا عمر إلاّ قد انتصب لسماع الدعوی وإقامة الشهادة، وأقبل یقول للمغیرة: یا مغیرة ذهب ربعک، یا مغیرة ذهب نصفک، یا مغیرة ذهب ثلاثة أرباعک، حتی اضطرب الرابع فجلد الثلاثة. و هلاّ قال المغیرة لعمر: کیف تسمع فیَّ قول هؤلاء ولیسوا من الصحابة وأنا من الصحابة ورسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قد قال: أصحابی کالنجوم بأیّهم اقتدیتم اهتدیتم! ما رأیناه قال ذلک، بل استسلم لحکم اللّه تعالی. ۳. وهاهنا، من هو أمثل من المغیرة وأفضل، کقدامة بن مظعون، لمّا شرب الخمر فی أیّام عمر، فأقام علیه الحدّ، وهو رجل من علیة الصحابة، ومن أهل بدر المشهود لهم بالجنة ;فلم یرد عمر الشهادة ولا درأ عنه الحدّ بحجّة أنّه بدری، ولا قال قد نهی رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ عن ذکر مساوئ الصحابة، وقد ضرب عمر أیضاً ابنه حداً فمات، و کان ممّن عاصر رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ و لم تمنعه معاصرته له من إقامة الحدّ علیه. ۴. کیف یصحّ أن یقول رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : أصحابی کالنجوم بأیّهم اقتدیتم اهتدیتم؟! لأنّ هذا یوجب أن یکون أهل الشام فی صفین علی هدی، وأن یکون أهل العراق أیضاً علی هدی، وأن یکون قاتل عمار بن یاسر مهتدیاً، وقد صحّ الخبر الصحیح أنّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ (۲۲۴)

قال له: «تقتلک الفئة الباغیة». وقال اللّه سبحانه:(فَقاتِلُوا الَّتی تَبْغِی حَتّی تَفِیء إِلی أَمْرِ اللّه)(۱) فدلّ علی أنّها ما دامت موصوفة بالمقام علی البغی فهی مفارقة لأمر اللّه، ومن یفارق أمر اللّه لا یکون مهتدیاً. وکان یجب أن یکون بسر بن أبی أرطأة الذی ذبح ولدی عبید اللّه بن عباس الصغیرین، مهتدیاً، لأنّ بسراً من الصحابة أیضاً وکان یجب أن یکون عمرو بن العاص ومعاویة اللّذان کانا یلعنان علیاً وولدیه أ دبار الصلاة، مهتدیین، وقد کان فی الصحابة من یزنی، ومن یشرب الخمر، کأبی محجن الثقفی، ومن ارتد عن الإسلام، کطلیحة بن خویلد، فیجب أن یکون کلّ من اقتدی بهؤلاء فی أفعالهم مهتدیاً. ۵. إنّ هذا الحدیث «أصحابی کالنجوم» من موضوعات متعصبة الأمویة، فإنّ لهم من ینصرهم بلسانه وبوضعه الأحادیث إذا عجز عن نصرهم بالسیف، وکذا القول فی الحدیث الآخر وهو

قوله: «خير القرون القرن الذى أنا فيه» وممّا يدلّ على بطلانه أنّ القرن الذى جاء بعده بخمسين سنة، هو شرّ قرون الدنيا، وهو أحد القرون التى ذكرها فى النصّ وكان ذلك القرن هو القرن الذى قتل فيه الحسين، وأوقع بالمدينة، وحوصرت مكة، ونقضت الكعبة، وشربت خلفاؤه والقائمون مقامه المنتصبون فى منصب النبوة، الخمور وارتكبوا الفجور، كما جرى ليزيد بن معاوية ولزيد بن عاتكة وللوليد بن يزيد، و أُريقت الدماء الحرام، وقتل المسلمون وسبى الحريم، واستعبد أبناء المهاجرين والأنصار ونقش على أيديهم كما ينقش على أيدى الروم، وذلك فى خلافة عبد الملك، وإمرة الحجاج، وإذا تأمّلت كتب التواريخ وجدت الخمسين الثانية، شراً كلّها،لا خير فيها ولا فى رؤسائها وأُمرائها، والناس برؤسائهم وأُمرائهم. والقرن خمسون سنة فكيف يصحّ هذا الخبر؟ ۶. فأمّا ما ورد فى القرآن من قوله تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللّهُ عَنِ الْمُؤْمِنين)(۲)، وقوله: (محمّدٌ رسولُ اللّهِ والّذِينَ مَعهُ...) (۳) وقول

۱ . الحجرات:۹.

۲ . الفتح:۱۸.

۳ . الفتح:۲۹. (۲۲۵)

النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «إنّ اللّه اطّلع على أهل بدر» إن كان الخبر صحيحاً، فكلّه مشروط بسلامة العاقبة، ولا يجوز أن يخبر الحكيم مكلفاً غير معصوم، بأنّه لا عقاب فيه فليفعل ما شاء. ۷. من الذى يجترئ على القول بأنّ أصحاب محمّد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لا تجوز البراءة من أحد منهم وإن أساء وعصى بعد قول اللّه تعالى للذى شرفوا برؤيته: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرين) .(۱) وبعد قوله: (قُلْ إِنّى أَخافُ إِنْ عَصَيتُ رَبّى عَذاب يَوم عَظيم) .(۲) وبعد قوله:(فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوى فَيُضِلّكَ عَنْ سَبيلِ اللّه إِنَّ الَّذينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبيلِ اللّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ بما نَسُوا يَومَ الحِساب).(۳) إلّا من لا فهم له ولا نظر معه ولا تمييز عنده. ۸. والعجب من الحشوية وأصحاب الحديث إذ يجادلون فى معاصى الأنبياء ويثبتون أنّهم عصوا اللّه تعالى، وينكرون على من ينكر ذلك ويطعنون فيه، ويقولون: قدرى، معتزلى،وربما قالوا: ملحد مخالف لنصّ الكتاب، وقد رأينا منهم الواحد والمائة والألف يجادل فى هذا الباب، فتارة يقولون: إنّ يوسف قعد من امرأة العزيز مقعد الرجل من المرأة، وتارة يقولون: إنّ داود قتل أوريا لينكح امرأته، وتارة يقولون: إنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ كان كافراً ضالاً ـ قبل النبوة وربما ذكروا زينب بنت جحش وقصة الفداء يوم بدر، فأمّا قدحهم فى آدم ـ عليه السَّلام ـ وإثباتهم معصيته ومناظرتهم من ينكر ذلك، فهو رأيهم وديدنهم، فإذا تكلّم واحد فى عمرو بن العاص ومعاوية، وأمثالهما ونسبهم إلى المعصية وفعل القبيح احمرّت وجوههم، وطالت أعناقهم وتخازرت أعينهم، وقالوا: مبتدع رافضى، يسب الصحابة ويشتم السلف، فإن قالوا: إنّما اتبعنا فى ذكر معاصى الأنبياء نصوص الكتاب. قيل لهم: فاتّبعوا فى البراءة من جميع العصاة نصوص الكتاب، فإنّه تعالى قال: (لا تَجِد

۱ . الزمر:۶۵.

۲ . الأنعام:۱۵.

۳ . ص: ۲۶. (۲۲۶) قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوم الآخِرِ يُوادُّونَ مَن حادَّ اللّهَ وَرَسُولَه).(۱)

و قال:(فَإِنْ بَغَتْ إِحداهُما عَلَى الأُخرى فَقاتِلُوا الَّتى تَبغِى حَتّى تفىَ إلى أَمْرِ اللّه). (۲) وقال: (أَطيعُوا اللّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولى الأَمْرِ مِنْكُمْ) (۳).(۴) قتل الخليفة

قد تصافق أهل السير والتاريخ أنّ عثمان بن عفان قد حوصر ثمّ هوجم وقتل فى عاصمة الإسلام، قد قتله الصحابةوالتابعون لهم بإحسان، حتّى منعوا عن تجهيزه وتغسيله ودفنه والصلاة عليه، وهذا إمام المؤرّخين يتلو علينا كيفية الإجهاز عليه والهجوم على داره بعد محاصرته قرابة أربعين يوماً: يقول الطبرى: دخل محمّد بن أبى بكر على عثمان فأخذ بلحيته... ثمّ دخل الناس، فمنهم من يجأه بنعل سيفه، وآخر يلكزه، وجاءه رجل بمشاقص معه فوجأه فى ترقوته، ودخل آخرون فلمّا رأوه مغشياً عليه جرّوا برجله، وجاء التجيبى مخترطاً سيفه ليضعه فى بطنه فوقته نائلة فقطع يدها، واتكأ بالسيف عليه فى صدره، وقتل عثمان رضى اللّه عنه قبل غروب الشمس.

وفى نصّ آخر يقول: طعن محمد بن أبى بكر جنبيه بمشقص فى يده، وضرب كنانة بن بشر مقدم رأسه بعمود، وضربه سودان بن حمران المرادى بعد ما خرّ لجبينه، و وثب عمرو بن الحمق فجلس على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات إلى آخر ما ذكره.(۵) وقد وقعت الواقعة بمرأى ومسمع من معظم الصحابة وليس لأحد أن يتفوّه أنّهم لم يكونوا عالمين بها، فإنّها ما كانت مباغتة ولا غيلة حتى يكونوا فى غفلة _____

۱ . المجادلة:۲۲.

۲ . الحجرات:۹.

۳ . النساء:۵۹.

۴ . الشرح الحديدى:۱۲/۲۰ـ۳۳، والرسالة مبسوطة مفصّلة أخذنا المهم منها.

۵ . تاريخ الطبرى:۳/۴۲۳. (۲۲۷)

عنها، وقد استمر الحوار أكثر من شهرين والحصر حوالى أربعين يوماً، كلّ ذلك يعرب عن أنّهم كانوا راضين بهاتيك الأحدوثة، لو لم نقل إنّهم كانوا بين مباشر لها، إلى خاذل للمودى به، إلى مؤلّب عليه، إلى راض بما فعلوا، إلى محبذ لتلك الأحوال كما هو واضح لمن قرأ تاريخ الدار وقتل الخليفة، متجرداً عن أهواء وميول أمويه. فعندئذ يدور الأمر بين أمرين، بأيّهما أخذنا يبطل الأصل المزعوم من عدالة الصحابة أجمع. فإن كان الخليفة قائماً على جادة الحقّ غير مائل عن الطريقة المثلى، فالمجهزون على قتله والناصرون لهم فسّاق إن لم نقل إنّهم مراق عن الدين لخروجهم على الإمام المفترضة طاعته. وإن كان مائلاً عن الحقّ، منحرفاً عن الطريقة، مستحقاً للقتل فما معنى القول بعدالة الصحابة كلّهم من إمامهم إلى مأمومهم. وأمّا تبرير عمل المجهزين عليه، المهاجمين على داره بأنّهم كانوا عدولاً خاطئين فى اجتهادهم، فهو خداع وضلال لا يصار إليه، ولا يركن إليه أى ذى مسكة من العقل إذ أى قيمة لاجتهادهم تجاه نصوص الكتاب؟ قال عزّ من قائل:(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْس أَوْ فَساد فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَميعاً).(۱) كلمة قيمة للإمام أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ

وهناك كلمة قيمة للإمام أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ تمثل نظريته فى حقّ الصحابة رواها نصر بن مزاحم المنقرى(المتوفّى عام ۲۱۲هـ) فى حديث عمر بن سعد: دخل عبد اللّه بن عمر، وسعد بن أبى وقاص، والمغيرة بن شعبة مع _____

۱ . المائدة:۳۲. (۲۲۸)

أُناس معهم وكانوا قد تخلّفوا عن على. فدخلوا عليه فسألوه أن يعطيهم عطاءهم ـ و قد كانوا تخلّفوا عن على حين خرج إلى صفين والجمل ـ فقال لهم على: «ما خلّفكم عنّى؟» قالوا: قتل عثمان ولا ندرى أحل دمه أم لا؟ وقد كان أحدث أحداثاً ثمّ استتبتموه فتاب، ثمّ دخلتم فى قتله حين قتل، فلسنا ندرى أصبتم أم أخطأتم؟ مع أنّا عارفون بفضلك يا أميرالمؤمنين وسابقتك وهجرتك». فقال على: «ألستم تعلمون أنّ اللّه عزّ وجلّ قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر» فقال: (وَإِنْ طائِفتان مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلى الأُخْرى فَقاتِلُوا الّتى تَبْغِى حَتّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللّه)(۱)؟ قال سعد: يا على أعطنى سيفاً يعرف الكافر من المؤمن، أخاف أن أقتل مؤمناً فأدخل النار؟ فقال لهم على:« ألستم تعلمون أنّ عثمان كان إماماً بايعتموه على السمع والطاعة فعلام خذلتموه إن كان محسناً، وكيف لم تقاتلوه إذ كان مسيئاً. فإن كان عثمان أصاب بما صنع فقد ظلمتم، إذ لم تنصروا إمامكم ;وإن كان مسيئاً فقد ظلمتم، إذ لم تعينوا من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وقد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم اللّه به، فإنّه قال: (فَقاتِلُوا الّتى تَبْغى حَتّى تَفِىء إِلى أَمْرِ اللّه) » فردّهم ولم يعطهم شيئاً. وكان على ـ عليه السَّلام ـ إذا صلّىالغداة والمغرب وفرغ من الصلاة يقول: «اللّهمّ العن معاوية وعمراً وأبا موسى وحبيب بن مسلمة والضحاك بن قيس والوليد بن عقبة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد»، فبلغ ذلك معاوية، فكان إذا قنت لعن علياً وابن عباس وقيس بن سعد والحسن والحسين.(۲) وفى كلامه هذا دليل قاطع على أنّ هؤلاء الجائين إلى على لأخذ عطائهم، خونة ظلمة لا يمكن الحكم بعدالتهم، لأنّهم إمّا ظلموا إمامهم العادل، إذ لم ينصروه

وإمّا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولم يعينوا الإمام القائم بالعدل. _____

۱ . الحجرات:۹.

۲ . وقعة صفين: ۵۵۱ـ ۵۵۲. (۲۲۹)

أضف إلى ذلك أنّ الملاعنة من الطرفين أقوى شاهد على فساد إحدى الطائفتين وليس الحقّ خافياً على مبتغيه، كما أنّ الصبح لا يخفى على ذى عينين. وهناك كلام للشيخ التفتازانى فى شرح مقاصده أخذته العصبية فى الدعوة إلى ترك الكلام فى حقّ البغاة والجائرين، ومع ذلك كلّه فقد أصحر بالحقيقة فقال: ما وقع بين الصحابة من المحاربات والمشاجرات على الوجه المسطور فى كتب التواريخ والمذكور على ألسنة الثقات يدلّ بظاهره على أنّ بعضهم قد حاد عن طريق الحقّ، وبلغ حدّ الظلم والفسق، وكان الباعث له الحقد والعناد والحسد واللداد وطلب الملك والرئاسة والميل إلى اللذات والشهوات، إذ ليس كلّ صحابى معصوماً، ولا كلّ من لقى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بالخير موسوماً، إلّا أنّ العلماء لحسن ظنّهم بأصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، ذكروا لها محامل وتأويلات بها تليق، وذهبوا إلى أنّهم محفوظون عمّا يوجب التضليل و التفسيق صوناً لعقائد المسلمين عن الزيغ والضلالة فى حقّ كبار الصحابة سيما المهاجرين منهم، والأنصار، والمبشّرين بالثواب فى دار القرار. وأمّا ما جرى بعدهم من الظلم على أهل بيت النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فمن الظهور بحيث لا مجال للإخفاء، ومن الشناعة بحيث لا اشتباه على الآراء، إذ تكاد تشهد به الجماد والعجماء، ويبكى له من فى الأرض والسماء، وتنهد منه الجبال وتنشق الصخور، ويبقى سوء عمله على كرّ الشهور، ومر الدهور فلعنة اللّه على من باشر أو رضى أو سعى ولعذاب الآخرة أشدّوأبقى. فإن قيل: فمن علماء المذاهب من لم يجوز اللعن على يزيد مع علمهم بأنّه يستحقّ ما يربو على ذلك ويزيد؟ قلنا: تحامياً عن أن يرتقى إلى الأعلى فالأعلى كما هو شعار الروافض على ما يروى فى أدعيتهم ويجرى فى أنديتهم، فرأى المعتنون بأمر الدين، إلجام العوام بالكلية طريقاً إلى الاقتصاد فى الاعتقاد، بحيث لا تزل الأقدام على السواء ولاـ تضل الأفهام بالأهواء وإلّافمن يخفى عليه الجواز والاستحقاق وكيف لا يقع عليهما الاتفاق، وهذا هو السرّ فيما نقل عن السلف من المبالغة فى مجانبة أهل الضلال وسدّطريق لا يؤمن (۲۳۰)

أن يجر إلى الغواية فى الم آل مع علمهم بحقيقة الحال، وجلية المقال، وقد انكشف لنا ذلك حين اضطربت الأحوال واشرأبت الأهوال، وحيث لاـ متسع ولاـ مجال والمشتكى إلى عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.(۱) إنّ بعض المنصفين من المصريين المعاصرين قد اعترف بالحقّوأراد الجمع بين رأيى السنةوالشيعة فى حقّ الصحابة فقال: إنّ منهج أهل السنة فى تعديل الصحابة أو ترك الكلام فى حقّهم، منهج أخلاقى ;وإنّ طريقة الشيعة فى نقد الصحابة وتقسيمهم إلى عادل وجائر منهج علمى، فكلّ من المنهجين مكمّل للآخر. وهذا هو ما أعربنا عنه فى صدر البحث وقلنا: «عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان» أى بين الأخلاق والموضوعية، وإليك نصّ كلامه: «يرى أهل السنة: أنّ الصحابة كلّهم عدول، وأنّهم جميعاً مشتركون فى العدالة وإن اختلفوا فى درجتها. وأنّ من كفّر صحابياً فهو كافر، و من فسّقه فهو فاسق. وإن طعن فى صحابى فكأنّما طعن على رسول اللّه. وأنّ من طعن على حضرة الرسول ـ عليه السَّلام ـ فهو زنديق بل كافر. ويرى جهابذة أهل السنّة أيضاً أنّه لا يجوز الخوض فيما جرى بين على ـ رضى اللّه عنه ـ و معاوية من أحداث التاريخ. وأنّ من الصحابة من اجتهد وأصاب وهو «على» و من نحا نحوه. وأنّ منهم من اجتهد وأخطأ مثل معاوية وعائشة رضى اللّه عنها و من نحا نحوهما. وأنّه ينبغى ـ فى نظر أهل السنّة ـ الوقوف والإمساك عند هذا الحكم دون التعرض لذكر المثالب. ونهوا عن سب معاوية باعتباره صحابياً، و شدّدوا النكير على من سب عائشة باعتبارها أُمّ المؤمنين الثانية بعد خديجة وباعتبارها حبّ رسول اللّه. _____

۱ . شرح المقاصد:۲/۳۰۶ـ ۳۰۷. (۲۳۱)

وما زاد على ذلك فينبغى ترك الخوض فيه وإرجاء أمره إلى اللّه سبحانه. وفى ذلك يقول أبو الحسن البصرى وسعيد بن المسيب: تلك أُمور طهّر اللّه منها أيدينا وسيوفنا، فلنطهّر منها ألسنتنا. هذه آراء أهل السنّة فى عدالة الصحابة وفيما ينبغى أن نقف منهم. أمّا

الشيعة فيرون أنّ الصحابة كغيرهم تماماً لا فرق بينهم و بين من جاء بعدهم من المسلمين إلى يوم القيامة. وذلك من حيث خضوعهم لميزان واحد هو ميزان العدالة، الذى توزن به أفعال الصحابة كما توزن أفعال من جاء من بعدهم من الأجيال. وإنّ الصحبة لا تعطى لصاحبها منقبة إلّا إذا كان أهلاً لهذه المنقبة وكان لديه الاستعداد للقيام برسالة صاحب الشريعة ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ . وإنّ منهم المعصومين كالأئمّة الذين نعموا بصحبة الرسول ـ عليه السّلام ـ كعلى وابنيه ـ عليهم السّلام ـ . ومنهم العدول وهم: الذين أحسنوا الصحبة لعلى بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى. ومنهم المجتهد المصيب، ومنهم المجتهد المخطئ. ومنهم الفاسق، ومنهم الزنديق ـ و هو أقبح من الفاسق وأشدّ نكالاً ـ ويدخل فى دائرة الزنديق المنافقون والذين يعبدون اللّه على حرف. كما أنّ منهم الكفّار وهم الذين لم يتوبوا من نفاقهم والذين ارتدّوا بعد الإسلام. ومعنى هذا أنّ الشيعة ـ و هم شطر عظيم من أهل القبلة ـ يضعون جميع المسلمين فى ميزان واحد ولا يفرّقون بين صحابى وتابعى ومتأخر. كما لا يفرقون بين مغرق فى الإسلام وحديث عهد به إلّا باعتبار درجة (۲۳۲)

الأخذ بما جاء به حضرة الرسول صلوات اللّه عليه والأئمّة الاثنا عشر من بعده. وإنّ الصحبة فى ذاتها ليست حصانة يتحصّن بها من درجة الاعتقاد. وعلى هذا الأساس المتين أباحوا لأنفسهم ـ اجتهاداً ـ نقد الصحابة والبحث فى درجة عدالتهم. كما أباحوا لأنفسهم الطعن فى نفر من الصحابة أخلّوا بشروط الصحبة وحادوا عن محبّة آل محمّد ـ عليهم السّلام ـ . كيف لا، و قد قال الرسول الأعظم: «إنّى تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا: كتاب اللّه وعترتى آل بيتى، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلّفونى فيهما». وعلى أساس من هذا الحديث و نحوه يرون أنّ كثيراً من الصحابة خالفوا هذا الحديث باضطهادهم لآل محمد، ولعنهم لبعض أفراد هذه العترة. ومن ثمّ، فكيف يستقيم لهؤلاء المخالفين شرف الصحبة، وكيف يوسمون بسمة العدالة؟! ذلك هو خلاصة رأى الشيعة فى نفى صفة العدالة عن بعض الصحابة وتلك هى الأسباب العلمية الواقعية التى بنوا عليها حججهم. والمتأمّل يرى أنّ الفرق بين هذين الموقفين كالفرق بين المنهج الأخلاقى والمنهج العلمى، وأنّ كلا المنهجين مكمل لصاحبه.(۱) هذا غيض من فيض، وقليل من كثير من تاريخ الصحابة وأحوالهم وهى مشحونة بالصواب والخطأ والهدى والضلال. ضعه أمام عقلك وفكرك فاقض ما أنت قاض ولا تتبع الهوى. (وَإِنْ حَكَمْتَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ إِنَّ _____

۱ . الأُستاذ حفنى داود المصرى: نظرات فى الكتب الخالدة: ۱۱۱. (۲۳۳) اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطين).(۱) (وَلِكُلّ درجاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَما رَبّكَ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُون) .(۲)

*** (وَهُوَ الَّذى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوقَ بعْض دَرَجات لِيَبْلُوَكُمْ فى ما آتاكُمْ إِنَّ رَبّكَ سَريعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيم)(۳). _____

۱ . المائدة:۴۲.

۲ . الأنعام:۱۳۲.

۳ . الأنعام: ۱۶۵.

الإيمان بالقدر خيره و شرّه

الإيمان بالقدر خيره و شرّه

هذا هو الأصل الثالث الذى اتّفقت عليه كلمات أهل الحديث. القدر كما ذكره بعض أئمّة اللغة. حدّ كلّ شىء ومقداره. والقضاء بمعنى الحكم البات، قال سبحانه: (إِنّا كُلّ شَىء خَلَقْناهُ بِقَدَر) (۱) وقال تعالى: (وَقَضى رَبُّكَ أَلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيّاهُ) .(۲) وعلى هذا فالقدر فى الأشياء، هو تحديد وجود الشىء والقضاء هو إبرامه، ويؤيد ذلك ما روى عن بعض أئمّة أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ : القدر هو الهندسة ووضع الحدود فى البقاء والفناء، والقضاء هو الإبرام وإقامة العين.(۳) القول بالقضاء والقدر على نحو الإجمال من العقائد

الإسلامیة التی لا یصحّ لمسلم إنکارها،ولو کان هناک اختلاف فإنّما هو فی تفسیرهما وأنّه هل القضاء والقدر بمعنی التقدیر والحتم علی أفعال الإنسان وخلقها بلا إرادة واختیار منه، وأنّه فی مسرح الحیاة مکتوف الیدین فیما کتب وقدر علیه حتی فیما یتعلّق بالتکالیف (الحلال والحرام) أو أنّه بمعنی علمه السابق، علی وجود الأشیاء وتقدیره وتحدیده والحکم بوجودها علی وجه لا ینافی اختیار العبد وحریته من ــــــــــــــــــ

۱ . القمر:۴۹.

۲ . الإسراء:۲۳.

۳ . الکافی:۱/۱۵۸. (۲۳۵)

الأساس. وإن شئت قلت: ثبوت الأمر الجاری فی العلم الأزلی الإلهی مع إعطاء القدرة علی الفعل والترک وتعریف الخیر والشر، وبیان عاقبة الأوّل ومغبة الأخیر، فهذا العلم السابق لا یستلزم جبراً، وعلمه سبحانه بمقادیر ما یختاره العباد من النجدین وما یأتون به من العمل من خیر أو شر لا ینافی التکلیف، کما لا سببیة له فی اختیار المکلّفین ولا یقبح معه عقلاً، العقاب علی المعصیة ولا یسقط معه الثواب علی الطاعة. أمّا سبق علمه سبحانه علی خصوصیات الفعل وتحقّقه وعدمه، فیکفی فی ذلک قوله سبحانه: (ما أَصابَ مِنْ مُصیبَة فِی الأَرْضِ وَلا فِی أَنْفُسِکُمْ إِلاّ فِی کِتاب مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِکَ عَلی اللّه یَسیر). (۱) وقوله سبحانه: (وَکُلّ شَیء فَعَلُوهُ فِی الزُّبُر* وَکلُّ صَغیروَکَبیر مُسْتَطَر).(۲) وقال عزّ من قائل: (ما قَطَعْتُمْ مِنْ لینَة أَوْ تَرَکْتُمُوها قائِمَةً عَلی أُصولِها فَبِإِذنِ اللّه) .(۳) و أمّا کون القدر والقضاء لا ینافی التکلیف، فیکفی قوله سبحانه:(إِنّا هَدَیْناهُ السَّبیلَ إِمّا شاکِراً وَإِمّا کَفُوراً) (۴) وقوله سبحانه: (وَهَدَیْناهُ النَّجْدَین).(۵) وقوله سبحانه: (وَمَنْ یَشْکرْ فَإِنّما یَشْکُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِیٌّ حَمید).(۶) فاللّه سبحانه خلق الإنسان مزیجاً من العقل والنفس مع خلق عوامل النجاح تجاه النفس الأمّارة بالسوء، فمن عامل بالطاعة بحسن اختیاره، ومن مقترف للمعصیة بسوء الخیرة. وتدلّ علی ذلک الآیات التالیة: (فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَیرات). (۷) (فَمَنِ اهْتَدی فَإِنّما یَهْتَدی لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما یَضِلُّ عَلَیْها). (۸) (مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ــــــــــــــــــ

۱ . الحدید:۲۲.

۲ . القمر:۵۲ـ ۵۳.

۳ . الحشر:۵.

۴ . الإنسان:۳.

۵ . البلد:۱۰.

۶ . لقمان:۱۲.

۷ . فاطر:۳۲.

۸ . یونس:۱۰۸. (۲۳۶) وَمَنْ أَساءَ فَعَلَیْها ثُمَّ إِلی رَبِّکُمْ تُرْجَعُون) .(۱) (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِیَ فَعَلَیْها). (۲) (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِکُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها) .(۳)

إلی غیر ذلک من الآیات التی تنصّ علی حریة الإنسان فی اختیاره خصوصاً فیما یرجع إلی الطاعة والمعصیة. إلی هنا خرجنا بهذه النتیجة: إنّه سبحانه «یعلم ما فی السماء والأرض إنّ ذلک فی کتاب إنّ ذلک علی اللّه یسیر»(۴) و فی ضوء ذلک نعتقد بأنّه سبحانه یعلم أعمارنا وأرزاقنا وما یجری فی حیاتنا من الأحداث، وما نقوم به من الأفعال کما یعلم مواعید وفاتنا والکلّ موجود فی (کتاب مُبین) .(۵) لکن علمه السابق بما یجری فی صحیفة الکون لا یجعل الإنسان مکتوف الید أمام الملابسات التی حوله ولا یصیره کالریشة فی مهب الریح، بل هو فی الکون محکوم من جهة ومختار من جهة أُخری، محکوم بالسنن العامة السائدة علی الکون والحیاة ولا یمکن الخروج عنها، مختار فی ما تتعلق به إرادته وفی موقفه من الملابسات التی حوله. فالنوازل والمصائب والحروب الطاحنة

تنتابه، شاء أم لم يشأ والموت يدمّر حياته وكيانه والسموم القتالة تهلكه والجراثيم الضارية تنحرف بها صحته، ولكنّه غير مسؤول أمام هذه الأُمور الخارجة عن اختياره، ولكنّه أمام نعمه سبحانه والإمكانيات التى حوله أمام خيارين: فله أن يستفيد منها بما يمد حياته فى الدنيا ويسعده فى الآخرة كما أنّ له خلاف ذلك. فلو قلنا: الإنسان مخيَّر لا مسيّر، فإنّما _____

۱ . الجاثية:۱۵.

۲ . الأنعام:۱۰۴.

۳ . الإسراء:۷.

۴ . اقتباس من قوله سبحانه: (ألم تعلم أنّ اللّه يعلم ما فى السماء...) (الحج:۷۰).

۵ . إشارة إلى قوله سبحانه: (وَيَعْلَمُ ما فى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلّا يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فى ظُلُماتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ اِلّا فى كِتاب مُبين) (الأنعام:۵۹). (۲۳۷)

نريد هذا الجانب الثانى، ولو قيل إنّه مسيّر لا- مخيّر، فلابدّ أن يراد منه الجانب الأوّل. ثمّ إنّ فى الذكر الحكيم آيات ودلالات وتصريحات على كون الإنسان مخيراً، وهى على حدّ لا- يمكن جمعها فى مقام واحد. يقول اللّه لِكلِّ بشر على ظهر الأرض:(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ مِنْ قَبل أَنْ يَأْتِىَ يَومٌ لا- مَردَّ لَهُ مِنَ اللّهِ يومَئِذ يَصَّدّعُون* مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُون) (۱) ، فهل ربط الجزاء بالعمل هنا من قبيل المزاح أو الخديعة؟ وعندما يصف ربّنا جزاء الكذبة والمكّذبين ويبيّن عقبى عملهم ويقول: (فَلَنُذيقَنَّ الّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَديداً وَلَنَجزِيَنَّهُمْ أَسوأ الَّذى كانُوا يَعْمَلُونَ* ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءاللّه النّار لَهُمْ فِيها دارُ الخُلْد جَزاءً بِما كانُوا بِ آياتِنا يَجْحَدُون) (۲) هل هذا الربط المتكرر بين العمل والجزاء؟ وهل هذه النقمة المحسوسة على المجرمين تومئ من قرب أو بعد إلى أنّ القوم كانوا أهل خير فلوى زمامهم قدر سابق أو كتاب ماحق؟ ما أقبح هذا الفهم! فى يوم الحساب يحصد الناس ما زرعوا لأنفسهم. والقرآن حريص كلّ الحرص على إعلان هذه الحقيقة وهى أنّك واجد ما قدمت لن تؤخذ أبداً بشىء لم تصنعه، لم تغلب على إرادتك يوماً فيحسب عليك ما لم تشأ. إنّ المغلوب على عقله أو قصده لا يؤاخذ أبداً بل إنّ التكليف يسقط عنه. وتدبر قوله تعالى: (أَلْقيا فى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفّار عَنيد* مَنّاع لِلْخَيْرِ مُعْتَد مُرِيب* الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللّه إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى العَذابِ الشَّدِيد* قالَ قَرِينُهُ رَبّنا ما أَطغيْتُهُ ولكِن كَانَ فِى ضَلال بَعيد) (۳) ربّنا سبحانه و تعالى ينفى الظلم عن نفسه ويقول إنّه ما عذب إلّا من فرط وأساء.(۴) _____

۱ . الروم:۴۳ـ ۴۴.

۲ . فصلت:۲۷ـ ۲۸.

۳ . ق: ۲۴ـ ۲۷.

۴ . السنّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ۱۴۸ـ ۱۴۹، ولكلامه ذيل فراجعه. (۲۳۸)

وعلى ذلك فهنا أمران مسلّمان لا يصح لأحد إنكار واحد منهما: ۱. إنّ للّه سبحانه علماً سابقاً على كلّ شىء، ومنه أعمال العباد ويعبر عنه بالقدر والتقدير. ۲. الإنسان مخيّر فى ما تتعلّق به إرادته ومحكوم فيما هو خارج عن إطار إرادته. وللمسلم الواعى الجمع بينهما على وجه صحيح، وسوف يوافيك بيان هذا الجمع عند البحث عن عقيدة الأشاعرة فى كون الإنسان مسيّراً لا مخيراً.(۱) وعلى ذلك فالاعتقاد بالتقدير والقضاء أمر لا يمكن لمسلم إنكاره كما أنّ حرية الإنسان فى مجال التكليف مثله أيضاً، فإذاً ما هو الذى وقع مثاراً للنقاش؟ فى النصف الثانى من القرن الأوّل بل قبله بقليل أيضاً، انتشر القول بالقدر حتى فرق المسلمين إلى قولين: إلى قدرى وجبرى، ولكن قد عرفت أنّ القدرية مع أنّها فى اللغة بمعنى مثبتة القدر يرادمنه فى المصطلح النافون للقدر. لابدّمن أن نقف ملياً للتأمل فى تشخيص النزاع بين الطرفين. فنقول: إنّ التأمّل فى عقائد بعض العرب فى الجاهلية يوحى بأنّهم كانوا قائلين بالقدر ومثبتين له بشكل يستنتجون منه سلب المسؤولية عن أنفسهم وإلقاءها على عاتق القدر. وهذا التفسير كان رائجاً بينهم وإن لم يعم الجميع، يقول

سبحانه:(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيء كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْم فَتُخرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تخرصُون).(۲)

۱ . لاحظ الجزء الثانى من هذه الموسوعة، وسيوافيك إجماله فى آخر هذا البحث عند القول بأنّ «القدر لا يلازم الجبر».

۲ . الأنعام:۱۴۸. (۲۳۹)

ولعلّ قوله سبحانه: (وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاء أَتَقُولُونَ عَلى اللّهِ ما لا تَعْلَمُون) (۱) يشير إلى أنّهم كانوا يعتذرون بأنّ تقديره سبحانه يلازم الجبر ونفى الاختيار،واللّه سبحانه يرد على تلك المزعمة بهذا القول. فقد بقيت هذه العقيدة الموروثة من العصر الجاهلى فى أذهان بعض الصحابة، فقد روى الواقدى فى مغازيه عن أُمّ الحارث الأنصارية وهى تحدث عن فرار المسلمين يوم حنين قالت: مرّ بى عمر بن الخطاب(منهزماً) فقلت: ما هذا؟ فقال عمر: أمر اللّه.(۲) والعجب أنّ تلك العقيدة بقيت فى أذهان بعض الصحابة حتّى بعد رحلة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، فهذا السيوطى ينقل عن عبد اللّه بن عمر أنّه جاء رجل إلى أبى بكر فقال: أرأيت الزنى بقدر؟ قال:نعم، قال: فإنّ اللّه قدّره على ثمّ يعذّبنى؟! قال: نعم يابن اللخناء، أما واللّه لو كان عندى إنسان أمرته أن يجأ أنفك.(۳) لقد كان السائل فى حيرة من أمر القدر، فسأل الخليفة عن كون الزنى مقدّراً من اللّه أم لا؟ فلمّا أجاب الخليفة بنعم، استغرب من ذلك لأنّ العقل لا يسوغ تقديره سبحانه شيئاً بمعنى سلب الاختيار عن الإنسان فى فعله أو تركه ثمّ تعذيبه عليه، ولذلك قال: فإنّ اللّه قدره على ثمّ يعذبنى؟ فعند ذاك أقرّه الخليفة على ما استغربه وقال: نعم يابن اللخناء.

۱ . الأعراف:۲۸.

۲ . مغازى الواقدى:۳/۹۰۴.

۳ . تاريخ الخلفاء : ۹۵. (۲۴۰) استغلال الأمويين للقدر

لقد اتّخذ الأمويون مسألة القدر أداة تبريرية لأعمالهم السيّئة، وكانوا ينسبون وضعهم الراهن بما فيه من شتى ضروب العيث والفساد إلى القدر، قال أبو هلال العسكرى: إنّ معاوية أوّل من زعم أنّ اللّه يريد أفعال العباد كلّها.(۱) ولأجل ذلك لمّا سألت أُمّ المؤمنين عائشة، معاوية عن سبب تنصيب ولده يزيد خليفة على رقاب المسلمين فأجابها: إن أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم.(۲) وبهذا أيضاً أجاب معاوية عبد اللّه بن عمر عندما استفسر من معاوية عن تنصيبه يزيد بقوله: إنّى أُحذرك أن تشق عصا المسلمين وتسعى فى تفريق ملئهم وأن تسفك دماءهم وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم.(۳) وقد كانت الحكومة الأموية الجائرة متحمّسة على تثبيت هذه الفكرة فى المجتمع الإسلامى، وكانت تواجه المخالف بالشتم والضرب والإبعاد. قال الدكتور أحمد محمود صبحى فى كتابه «نظرية الإمامة»: إنّ معاوية لم يكن يدعم ملكه بالقوة فحسب، ولكن ب آيديولوجية تمس العقيدة فى الصميم، ولقد كان يعلن فى الناس أنّ الخلافة بينه و بين على ـ عليه السَّلام ـ قد احتكما فيها إلى اللّه فقضى اللّه له على على، وكذلك حين أراد أن يطلب البيعة لابنه يزيد من أهل الحجاز أعلن أنّ اختيار يزيد للخلافة كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة فى أمرهم، وهكذا كاد أن يستقر فى أذهان المسلمين، أنّ كلّ ما يأمر به الخليفة ـ حتى و لو كانت طاعة اللّه فى خلافه ـ فهو قضاء من اللّه قد قدّر على العباد.(۴)

۱ . الأوائل:۲/۱۲۵.

۲ . الإمامة والسياسة :۱/۱۶۷.

۳ . الإمامة والسياسة :۱/۱۷۱ .

۴ . نظرية الإمامة: ۳۳۴. (۲۴۱)

وقد سرى هذا الاعتذار إلى غير الأمويين من الذين كانوا فى خدمة خلفائهم وأُمرائهم فهذا عمر بن سعد بن أبى وقاص قاتل الإمام

الشهيد الحسين عليه السَّلام ـ لمّا اعترض عليه عبد اللّه بن مطيع العدوى بقوله: اخترت همذان والرى على قتل ابن عمك فقال عمر: كانت أُمور قضيت من السماء، وقد أعذرت إلى ابن عمى قبل الوقعة فأبى إلّاما أبى.(۱) ويظهر أيضاً ممّا رواه الخطيب عن أبى قتادة عندما ذكر قصة الخوارج فى النهروان لعائشة فقالت عائشة: ما يمنعنى ما بينى وبين على أن أقول الحق سمعت النبى يقول: تفترق أُمّتى على فرقتين، تمرق بينهما فرقة محلقون رؤوسهم، مخفون شواربهم، أزرهم إلى أنصاف سوقهم، يقرأون القرآن لا ـ يتجاوز تراقيهم، يقتلهم أحبهم إلى، وأحبهم إلى اللّه. قال: فقلت: يا أُمّ المؤمنين فأنت تعلمين هذا فلم كان الذى منك؟! قالت: يا قتادة وكان أمر اللّه قدراً مقدوراً، وللقدر أسباب».(۲) وقد كان حماس الأمويين فى هذه المسألة إلى حدّ قد كبح ألسن الخطباء عن الإصحار بالحقيقة، فهذا الحسن البصرى الذى كان من مشاهير الخطباء ووجوه التابعين، وكان يسكت أمام أعمالهم الإجرامية ولكن كان يخالفهم فى القول بالقدر بالمعنى الذى كانت تعتمد عليه السلطة آنذاك. فلمّا خوّفه بعض أصدقائه من السلطان، وعد أن لا يعود. روى ابن سعد فى طبقاته عن أيّوب قال: نازلت الحسن فى القدر غير مرّة حتّى خوفته من السلطان ، فقال: لا أعود بعد اليوم.(۳) كيف وقد جلد محمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية المعروفة فى مخالفته فى القدر. قال ابن حجر فى تهذيب التهذيب: «إنّ محمّد بن إسحاق اتّهم بالقدر، وقال الزبير عن الدراوردى: وجلد ابن إسحاق يعنى فى القدر.(۴) _____

۱ . طبقات ابن سعد: ۵/۱۴۸.

۲ . تاريخ بغداد: ۱/۱۶۰.

۳ . طبقات ابن سعد: ۷/۱۶۷.

۴ . تهذيب التهذيب: ۹/۳۸ـ ۴۶. (۲۴۲) أحاديث مختلقة لا تفارق الجبر

وفى ظل هذا الإصرار على القضاء والقدر بهذا المعنى نسجت أحاديث لا تفارق الجبر قيد شعرة. وإليك أمثلة منها: ۱. روى مسلم فى صحيحه عن زيد بن وهب، عن عبد اللّه قال: حدّثنا رسول اللّه وهو الصادق أنّ أحدكم يجمع خلقه فى بطن أُمّه أربعين يوماً، ثمّ يكون فى ذلك علقة مثل ذلك، ثمّ يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك، ثمّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد، فوالذى لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه و بينها إلّاذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ;وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتّى ما يكون بينه و بينها إلّاذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها.(۱) ۲. وروى عنه أيضاً حذيفة بن أسيد يبلغ به النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول: يا ربّ أشقى أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أى رب أذكر أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثمّ تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص.(۲) ۳. قال:جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال: يا رسول اللّه بيّن لنا ديننا كأنّا خلقنا الآن فيما العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل؟ قال: لا ـ بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له وكل عامل بعمله.(۳) فبناء على الحديث الأوّل لا يقدر الإنسان على إضلال نفسه ولا هدايتها كما _____

۱ . صحيح مسلم: ۸/۴۴ كتاب القدر.

۲ . صحيح مسلم: ۸/۴۵ كتاب القدر.

۳ . جامع الأُصول: ۱/۵۱۶ ;صحيح مسلم: ۸/۴۸. (۲۴۳)

لا يقدر على أن يجعل نفسه من أهل الجنّة أو النار، فكلّما أراد من شىء يكون الكتاب السابق حائلًا بينه و بين إرادته. والحديث الثانى يدلّ على أنّ الإنسان لا يقدر على تغيير مصيره بالأعمال الصالحة والأدعية والصدقات، وأنّ الكتاب الذى سبق، حاكم على الإنسان فلا يزاد ولا ينقص وهو يخالف النصوص الثابتة فى القرآن والسنّة من تغيير المصير والزيادة والنقص على المكتوب، بالأعمال الصالحة أو الطالحة. إنّ تفسير القضاء والقدر بهذا الشكل الذى يجعل الإنسان مكتوف اليدين فى بحر الحياة ممّا ترغب عنه الفطرة السليمة. إنّ

هـذه الأحاديث قـد نسـجت وفق المعتقـدات السائدة للسـلطة آنذاك حتى تبرر أنّ الوضع الاجتماعى آنذاك لا يمكن تغييره أبداً فإنّه شيء قـد فرغ منه. فالفقير يجب أن يبقى هكـذا، والغنى كذلك يبقى غنياً، وهكذا المظلوم والظالم. ترى أنّهم قد رووا عن عبد اللّه بن عمر، عن أبيه قـال: يـا رسول اللّه أرأيت مـا نعمـل فيه أمر مبتـدع ـ أو مبتـدأ ـ أو فيمـا قـد فرغ منه؟ فقـال: «بل فيما قـد فرغ منه، يا ابن الخطاب وكلّ ميسـر ;أمّا من كان من أهل السعادة فإنّه يعمل للسعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاء فإنّه يعمل للشقاء». وفى رواية قال: لما نزلت (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) (۱) سألت رسول اللّه، فقلت: يا نبى اللّه فعلام نعمل، على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: «بل على شـيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر! ولكن كلّ ميسـر لما خلق له».(۲) وهـذا الحديث يعرب عن أنّه قد تم القضاء على الناس فى الأزل وجعلهم صنفين وكل ميسر لما خلق له، لا لما لم يخلق له، فأهل السعادة ميسرون ــــــــــــــــــــ

۱ . هود:۱۰۵.

۲ . جامع الأُصول:۱۰/۵۱۶ـ ۵۱۷، وفيه أخرجه الترمذى. (۲۴۴)

للأعمال الصالحة فقط، وأهل الشقاء ميّسرون للأعمال الطالحة فقط. وهذه المرويات فى الصحاح والمسانيد ـ و قد تقدّم بعضها ـ(۱) لا تفترق عن الجبر وهى تناقض الأُصول المسلّمة العقلية والنقلية وحاشا رسول اللّه وخيرة أصحابه أن ينبسوا بها ببنت شفة وإنّما حيكت على منوال عقيـدة السلطة، وعند ذلك لا تعجب ممّا يقوله أحمد بن حنبل فى رسائله: القدر خيره وشره وقليله وكثيره وظاهره وباطنه وحلوه ومرّه ومحبوبه ومكروهه وحسنه وسيّئه وأوّله وآخره من اللّه. قضاء قضاه، وقدر قدّره، لا يعدو أحد منهم مشيئة اللّه ولا يجاوز قضاءه، بل كلّهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقعون فيما قدر عليهم لأفعالهم وهو عدل منه عزّ ربّنا وجلّ. والزنى والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وأكل المال الحرام والشرك باللّه والمعاصى كلّها بقضاء وقدر.(۲) وقد سرى الجهل إلى أكثر المستشرقين فاستنتجوا من هذه النصوص أنّ الإسـلام مبنى على القول بالجبر وفى ذلك يقول «ايرفنج» ـ من أعلام الكتاب فى الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشـر ـ : القاعدة السادسة من قواعد العقيدة الإسلامية هى الجبرية، وقد أقام محمد جلّ اعتماده على هذه القاعدة لنجاح شؤونه الحربية، وهـذا المـذهب الـذى يقرر أنّ النـاس غير قادرين بإرادتهم الحرة على اجتناب الخطيئة أو النجاة من العقاب، ويعتبره بعض المسـلمين منافياً لعـدل اللّه، فقـد تكونت عـدّة فرق جاهدت وهم لا يعتبرون من أهل السـنّة.(۳) هـذا غيض من فيض ممّـا يمكن أن يـذكر حول القول بالقـدر وسـيوافيك توضـيحه والمضاعفات الناجمـة عنه عنـد البحث عن عقيـدة الأشاعرة. إنّ هنا كلمـة للشـيخ «محمد الغزالى» المعاصر حول القدر والجبر يعرب ــــــــــــــــــــ

۱ . لاحظ ص ۱۵۶ـ ۱۶۱ من هذا الجزء.

۲ . طبقات الحنابلة:۱/۱۵ بتصرّف يسير، وقد تقدّم نصّ الرسالة.

۳ . حياة محمد : ۵۴۹. (۲۴۵)

عن أنّ المحقّقين من أهل السـنّة بـدأوا يدرسون الإسـلام من جديد أو يدرسون الأُصول الموروثة من أبناء الحنابلة وأهل الحديث من رأس وقد رد على القول بالقدر المستلزم للجبر رداً عنيفاً يعرب عن حريته فى الرأى وشـجاعته الأدبية فى تحليل عقائد الإسلام نقتبس منه ما يلى: فمن الناس من يزعم أنّ الحياة روايـة تمثيلية خادعة، وأنّ التكليف أُكذوبة وأنّ الناس مسوقون إلى مصائرهم المعروفة أزلاً طوعـاً أو كرهاً وأنّ المرسـلين لم يبعثوا لقطع أعـذار الجهل بل المرسـلون خدعـة تتم بها فصول الروايـة أو فصول المأساة والغريب أنّ جمهوراً كبيراً من المسـلمين يجنح إلى هذه الفرية بل إنّ عامة المسـلمين يطوون أنفسـهم على ما يشـبه عقيدة الجبر، ولكنّهم حياءً من اللّه يسترون الجبر باختيار خافت موهوم، وقد أسـهمت بعض المرويات فى تكوين هذه الشـبهة وتمكينها وكانت بالتالى سبباً فى إفساد الفكر الإسـلامى وانهيـار الحضـارة والمجتمع. إنّ العلم الإلـهى المحيط بكـلّ شـيء وصّـاف كشّاف يصف ما كان ويكشف ما يكون والكتاب الدالّ عليه يسـجل للواقع وحسب!لا يجعل السـماء أرضاً ولا الجماد حيواناً إنّه صورة تطابق الأصل بلا زيادة ولا نقص ولا أثر لهـا فى سـلب أو إيجـاب. إنّ هـذه الأوهام (التقـدير سالب للاختيار) تكـذيب للقرآن والسـنّة ،فنحن بجهـدنا وكـدحنا ننجو أو نهلك

والقول بأنّ کتاباً سبق علینا بذلک، وأنّه لا حیلة لنا بإزاء ما کتب أزلاً، هذا کلّه تضلیل وإفک لقوله تعالی: (قَدْ جاءَکُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّکُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِیَ فَعَلَیْها) (۱) ، (وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّکُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْیُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْیَکْفُر) .(۲) والواقع أنّ عقیدة الجبر تطویح بالوحی کلّه وتزییف للنشاط الإنسانی من بدء الخلق إلی قیام الساعة بل هی تکذیب للّه والمرسلین قاطبة ومن ثمّ فإنّنا

---

۱ . الأنعام:۱۰۴.

۲ . الکهف:۲۹. (۲۴۶)

نتناول بحذر شدید ما جاء فی حدیث مسلم وغیره: إنّ أحدکم لیعمل بعمل أهل الجنّة حتی ما یکون بینه و بینها إلاّ ذراع فیسبق علیه الکتاب فیعمل بعمل أهل النار فیدخلها، وإنّ أحدکم لیعمل بعمل أهل النار....(۱) ونظیر ذلک ما رواه الترمذی عن عمر بن الخطاب أنّه سئل عن قوله تعالی: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلی أَنفُسِهِمْ أَلستُ بِرَبِّکُمْ قَالُوا بَلَی شَهِدْنا أن تَقُولُوا یومَ القِیامَةِ إنّا کُنّا عِنْ هذا غافِلین) (۲) قال عمر ابن الخطاب: سمعت رسول اللّه یسأل عنها فقال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: «إنّ اللّه خلق آدم ثمّ مسح ظهره بیمینه فاستخرج منه ذریّة فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة یعملون. ثمّ مسح علی ظهره فاستخرج منه ذریّة فقال: هؤلاء خلقت للنار وبعمل أهل النار یعملون فقال رجل: یا رسول اللّه ففیم العمل؟ قال: فقال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: إنّ اللّه إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتی یموت علی عمل من أعمال أهل الجنة فیدخله الجنة، وإذا خلق العبد للنّار استعمله بعمل أهل النار حتی یموت علی عمل من أعمال أهل النار فیدخله اللّه النار».(۳) فإنّ هذا التفسیر المنسوب لعمر یسیر فی اتجاه مضاد للتفسیر البدیهی المفهوم من الآیات البینات. علی أنّه لیس هنا أثر من الجبر الإلهی فی الآیة التی ورد الحدیث فی تفسیرها ولا یفید أنّ اللّه خلق ناساً للنار یساقون إلیها راغمین، وخلق ناساً للجنّة یساقون إلیها محظوظین! وإنّ التعلق بالمرویات المعلولة إساءة بالغة للإسلام. کلّ میل بعقیدة القدر إلی الجبر فهو تخریب متعمد لدین اللّه ودنیا الناس،

---

۱ . قد مرّ نصّ الحدیث فی ص ۲۶۴.

۲ . الأعراف:۱۷۲.

۳ . صحیح الترمذی:۵/۲۶۶، رقم الحدیث ۳۰۷۵. (۲۴۷)

وقد رأیت بعض النقلة والکاتبین یهونون من الإرادة البشریة ومن أثرها فی حاضر المرء ومستقبله، وکأنّهم یقولون للناس: أنتم محکومون بعلم سابق لا فکاک منه ومسوقون إلی مصیر لا دخل لکم فیه، فاجهدوا جهدکم فلن تخرجوا من الخط المرسوم لکم مهما بذلتم! إنّ هذا الکلام الردیء لیس نضح قراءة واعیة لکتاب ربّنا، ولا اقتداء دقیقاً بسنة نبیّنا إنّه تخلیط قد جنینا منه المرا! وکلّ أثر مروی یشغب علی حریة الإرادة البشریة فی صنع المستقبل الأُخروی یجب أن لا نلتفت إلیه فحقائق الدین الثابتة بالعقل والنقل لا یهدها حدیث واهی السند أو معلول المتن، لکنّنا مهما نوّهنا بالإرادة الإنسانیة فلا ننسی أنّنا داخل سفینة یتقاذفها بحر الحیاة بین مد وجزر وصعود وهبوط والسفینة تحکمها الأمواج ولا تحکم الأمواج، ویعنی هذا أن نلزم موقفاً محدداً بإزاء الأوضاع المتغیرة التی تمر بنا هذا الموقف من صنعنا وبه نحاسب. أمّا الأوضاع التی تکتنفنا فلیست من صنعنا ومنها یکون الاختیار الذی یبت فی مصیرنا، إنّ تصویر القدر علی النحو الذی جاءت به بعض المرویات غیر صحیح، وینبغی أن لا ندع کتاب ربّنا لأوهام وشائعات تأباها روح الکتاب ونصوصه. القرآن قاطع فی أنّ أعمال الکافرین هی التی أردتهم (یا أَیُّهَا الَّذینَ کَفَروا لا تَعْتَذِرُوا الْیومَ إِنّما تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُون) (۱) وقاطع فی أنّ أعمال الصالحین هی التی تنجیهم (وَنُودُوا أَنْ تِلْکُمُ الجَنّةُ أُورِثْتُمُوها بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُون) .(۲) فلا احتجاج بقدر ولا مکان لجبر وعلی من یسیئون الفهم أو النقل أن لا یعکّروا صفو الإسلام. جاءت فی القدر أحادیث کثیرة نری أنّها بحاجة إلی دراسة جادة حتی یبرأ المسلمون من الهزائم النفسیة والاجتماعیة التی أصابتهم قدیماً وحدیثاً.(۳) _____

۱ . التحریم:۷.

۲ . الأعراف:۴۳.

۳ . السنّة النبویة بین أهل الفقه وأهل الحدیث: ۱۴۴ ـ ۱۵۷ بتلخیص. (۲۴۸) تکوین القدریة کرد فعل

و لمّا کان القدر والقضاء بالمعنی الذی تروّجه السلطة الأمویة مخالفاً للفطرة والعقل قام رجال أحرار فی وجه هذه العقیدة یرکّزون علی القول بحریة الإنسان فی إطار حیاته فیما یرجع إلی سعادته وشقائه، وفیما عینت للثواب والعقاب، ولکن السلطة اتهمتهم بنفی القضاء والقدر ومخالفة الکتاب والسنة ثمّوضعت السیوف علی رقاب بعضهم، هذا هو معبد الجهنی اتّهموه بالقدر (نفی القدر) ذهب إلی الحسن البصری فقال له: إنّ بنی أُمیّة یسفکون الدماء ویقولون إنّما تجری أعمالنا علی قدر اللّه، فقال: کذب أعداء اللّه.(۱) ومعبد هذا قد اتّهم بالقدریة وأنّه أخذ هذه العقیدة عن رجل نصرانی، ولکنّه اتهام فی غالب الظن قد أُلصق به وهو منه براء وهذا الذهبی یعرّفه بقوله: إنّه صدوق فی نفسه، وإنّه خرج مع ابن الأشعث علی الحجاج حتی قتل صبراً، ووثّقه ابن معین ونقل عن جعفر بن سلیمان أنّه حدثه مالک بن دینار قال لقیت معبداً الجهنی بمکة بعد ابن الأشعث وهوجریح وکان قاتل الحجاج فی المواطن کلّها.(۲) ولا أظن أنّ الرجل الذی ضحی بنفسه فی طریق الجهاد ومکافحة الظالمین ینکر ما هو من أوضح الأُصول وأمتنها، ولو أنکر فإنّما أنکر المعنی الذی استغله النظام آنذاک ویشهد بذلک محاورته الحسن البصری الآنفة. ومثله غیلان الدمشقی فقد اتّهم بنفس ما اتهم به أُستاذه، فهذا الشهرستانی یقول: کان غیلان یقول بالقدر خیره وشره من العبد. وقیل تاب عن القول بالقدر علی ید عمر بن عبد العزیز، فلمّا مات عمر جاهر بمذهبه فطلبه هشام بن عبد الملک وأحضر الأوزاعی لمناظرته، فأفتی بقتله، فصلب علی باب کیسان بدمشق.(۳)

---

۱ . الخطط المقریزیة:۲/۳۵۶.

۲ . میزان الاعتدال:۴/۱۴۱.

۳ . الملل النحل للشهرستانی:۱/۴۷. (۲۴۹)

وقد صارت مکافحة هذا الاتجاه الظاهر عن معبد الجهنی وغیلان الدمشقی ومحاربته سبباً لظهور المفوّضة الذین کانوا یعتقدون بتفویض الأُمور إلی العباد وأنّه لیس للّه سبحانه أی صنع فی أفعالهم، فجعلوا الإنسان خالقاً لأفعاله، مستغنیاً عن اللّه سبحانه فصار کالإله فی مجال الأفعال کما کان القضاء والقدر حاکماً علی کلّ شیء ولا یمکن تغییره بأی صورة أُخری من الصور. فالطرفان یحیدان عن جادة التوحید ویمیلان إلی جانبی الإفراط والتفریط فی الخلق وسیوافیک تفصیل القول فی محله. الاحتجاج بالقدر

إنّ القدر بالمعنی الذی جاء فی الأحادیث النبویة من شأنه أن یجعل الإنسان مسلوب الاختیار، مسیراً فی حیاته غیر مختار فی أفعاله فعند ذلک یصحّ للعبد أن یحتجّ علی المولی فی عصیانه ومخالفته. ومن العجیب انّه جاء فی الصحیحین حدیث عن أبی هریرة عن النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ أنّه قال: «احتجّ آدم وموسی فقال موسی: یا آدم أنت أبوالبشر الذی خلقک اللّه بیده، ونفخ فیک من روحه وأسجد لک ملائکته، فلماذا أخرجتنا ونفسک من الجنة؟» فقال له آدم: أنت موسی الذی کلّمک اللّه تکلیماً وکتب لک التوراة فبکم تجد فیها مکتوباً«وعصی آدم ربّه فغوی» قبل أن أخلق؟ قال: بأربعین سنة قال فحج آدم موسی».(۱) وقد اضطرب القائلون بالقدر ومالوا یمیناً وشمالاً فی تفسیر هذا الحدیث وأمثاله إذ لو صحّ القدر بالمعنی الذی جاء فی الأحادیث النبویة لکان باب العذر للعبد مفتوحاً علی مصراعیه. والعجب من ابن تیمیة حیث فسر الحدیث فی رسالة أسماها _____

۱ . جامع الأُصول:۱۰/۵۲۳ ـ ۵۲۵ ;صحیح البخاری:۴/۱۵۸ و ۶/۹۶و ۸/۱۲۶و ۹/۱۴۸. (۲۵۰)

بـ«الاحتجاج بالقدر» بأنّ موسی لم یلم آدم إلّامن جهة المصیبة التی أصابته وذریته بما فعل لا لأجل أنّ تارک الأمر الإلهی مذنب عاص، ولهذا قال: لماذا أخرجتنا ونفسک من الجنة. ولم یقل: لماذا خالفت الأمر؟ ولماذا عصیت؟ والناس مأمورون عند المصائب التی تصیبهم بأفعال الناس أو بغیر أفعالهم، بالتسلیم للقدر وشهود الربوبیة کما قال اللّه تبارک و تعالی: (ما أَصابَ مِنْ مُصِیبَةٍ إِلّابِإِذْنِ اللّه)

.(۱) ووجه العجب: أنّ ابن تيمية قصر النظر على كلام موسى حيث اعترض على آدم بأنّه لماذا أخرج نفسه وذريته من الجنة، ولم يلتفت إلى جواب آدم، فإنّه صريح فى الاحتجاج بالقدر فى مورد العصيان وأنّ معصيته كانت أمراً مقدراً قبل أن يخلق فلم يكن بد منها حيث قال لموسى: أنت موسى الذى كلمك اللّه تكليماً وكتب لك التوراة فبكم تجد فيها مكتوباً«وعصى آدم ربّه فغوى» قبل أن أخلق، قال: بأربعين سنة قال: فحج آدم موسى.(۲) وعلى ذلك فموسى وإن لم يلم آدم إلّامن جهة المصيبة التى أصابته وذريته بما فعل، لكن لما كانت المصيبة نتيجة المعصية، احتج آدم على موسى بأنّ المعصية لما كانت أمراً مقدراً وهو بالنسبة إليها مسيراً، وكانت المصيبة نتيجة لها، فهو معذور فى المصيبة الّتى عمّته وذريته. فالكلّ من السبب والمسبب كانا خارجين عن قدرته واختياره فلا لوم على المصيبة لعدم صحّة اللوم على المعصية المقدّرة قبل خلقته بأربعين سنة. ثمّ إنّ كثيراً من القائلين بالقدر بالمعنى الذى تفيده ظواهر الأحاديث لمّا رأوا فى صميم عقلهم وأغوار فكرهم أنّه لا يجتمع معالتكليف، صاروا إلى الإجابة بأصل مبهم جداً، وهو أنّه «لا يحتج بالقدر» . و عندئذ يتوجه إليهم السؤال التالى: لو كان القدر بالمعنى الذى تفيده ظواهر الأحاديث أمراً صحيحاً يجب

---

۱ . التغابن:۱۱.

۲ . الاحتجاج بالقدر: ۱۸. (۲۵۱)

الإذعان به و بنتائجه ولوازمه وهو كون الإنسان مجبوراً مسيراً فلا محالة يصحّ الاحتجاج به أيضاً فى مقام الاعتذار. وبالجملة: لا مناص عن اختيار أحد الأمرين: إمّا الإذعان بالقدر ونتائجه ولوازمه ومنها الاحتجاج على المولى سبحانه فى مقام المخالفة، وإمّا رفض ذلك الاعتقاد والقول بكون الإنسان مخيراً مختاراً. فالجمع بين الإذعان بالقدر وعدم الاحتجاج به أشبه بالأخذ بالشجرة وإضاعة الثمرة. ثمّ إنّ ابن تيمية قد التجأ فى حلّ العقدة إلى جواب آخر: وهو أنّ القدر لا يحتج به، قال: «وليس القدر حجّة لابن آدم ولا عذراً بل القدر يؤمن به ولا يحتج به والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين فإنّ القدر إن كان حجّة وعذراً لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه، وهذا أمر ممتنع فى الطبيعة لا- يمكن لأحد أن يفعله، وهو ممتنع طبعاً، محرم شرعاً، ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلاً فى فطرة الخلق وعقولهم، لم تذهب إليه أُمّة من الأُمم، ولا هو مذهب أحدمن العقلاء».(۱) وكان على ابن تيمية أن يتنبّه عندئذ فيجعل عدم احتجاج العقلاء بالقدر دليلاً على بطلان القدر بالمعنى الذى اختاره وتدين به، وإلّافلو صحّ القدر لا يصحّ أن يقال «لا يحتج به». وبالجملة: إمّا أن يؤمن بالقدر ويحتج به، وإمّا أن لا يؤمن به ولا يحتج به. وهناك أمر آخر، وهو: أنّ القائل بالقدر يصرح بوجوب الإيمان بالقدر خيره وشره،وبما أنّ القدر فعل اللّه سبحانه، فتكون النتيجة كون الخير والشر من أفعاله سبحانه وتقديراته حسب ما سبق به علمه واقتضته حكمته. مع أنّ صريح الصحاح من الأحاديث خلافه وأنّ النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: «والشر ليس إليك».(۲) _____

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل:۱/۸۸ـ۹۱.

۲ . سنن النسائى:۲/۱۳۰، كتاب الصلاة، أبواب الافتتاح، باب «نوع آخر من الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة». (۲۵۲)

وعلى ذلك فيجب تفسير الشر بشكل يناسب مقام الرب كالجدب و المرض والفقر والخوف. وإطلاق الشر عليها نوع مجاز وتأويل.

محاولة للجمع بين القدر وصحّة التكليف

إنّ بعض المتحذلقين فى العصر الحاضر لمّا رأى أنّ القدر بالمعنى الذى تفيده ظواهر الروايات لا يجتمع مع الاختيار والحرية ويناقض صحّة التكليف، صار بصدد الجمع بينهما فقال: «إنّ للقدر أربع مراتب: المرتبة الأُولى: العلم: علمه الأزلى الأبدى، فلا يتجدّد له علم بعد جهل ولا يلحقه نسيان بعد علم. المرتبة الثانية: الكتاب: فنؤمن بأنّ اللّه تعالى كتب فى اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة، قال سبحانه: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ ما فِى السَّماءِ وَالأَرضِ إِنَّ ذلِكَ فِى كِتاب انَّ ذلكَ على اللّهِ يَسِير) .(۱) المرتبة الثالثة: المشيئة: فنؤمن بأنّ اللّه تعالى قد شاء كلّ ما فى السماوات والأرض لا يكون شىء إلّابمشيئته، ما شاء اللّه كان و ما لم يشأ لم يكن. المرتبة

الرابعة: الخلق: فنؤمن بأنّ (اللّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْء و هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْء وَكِيل* لَهُ مقالِيدُ السّماواتِ والأرض) (۲) ». وهذه المراتب الأربع شاملة لما يكون من اللّه نفسه ولما يكون من العباد. فكلّ ما يقوم به العباد من أقوال أو أفعال أو تروك، فهى معلومة للّه تعالى مكتوبة عنده واللّه قد شاءها وخلقها. ثمّ يقول: ولكنّنا مع ذلك نؤمن بأنّ اللّه تعالى جعل للعبد اختياراً وقدرة، بهما يكون الفعل، والدليل على أنّ فعل العبد باختياره وقدرته أُمور. ثمّ استدل ب آيات تثبت للعبد إتياناً بمشيئته وإعداداً بإرادته مثل قوله سبحانه: (فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنّى شِئْتُم) (۳) وقوله: (وَلَو _____

۱ . الحج:۷۰.

۲ . الزمر:۶۲ـ ۶۳.

۳ . البقرة:۲۲۳. (۲۵۳) أرادُوا الخُرُوجَ لأَعدّوا لَهُ عُدَّةً)(۱).(۲)

انظر إلى التناقض الذى ارتكبه الكاتب المعاصر وهو بصدد بيان العقيدة الإسلامية، إذ لو كان فعل العبد معلوماً للّه ومكتوباً فى اللوح المحفوظ وقد شاء اللّه فعله وخلقه، فكيف يكون للعبد اختيار وقدرة بهما يوجد الفعل؟ وهل الفعل بعد علمه تعالى وكتابته، ومشيئته وخلقه يكون محتاجاً إلى شيء آخر حتّى يكون لاختيار العبد وقدرته دور فى ذلك المجال؟«هل قرية وراء عبادان»؟؟! فكما أنّه لا يكون للعباد دور فى خلق السماوات والأرض بعد ما تعلّق به علمه سبحانه وكتبه فى لوحه، وشاء وجوده، وخلقه، فهكذا أفعال عباده بعد ما وقعت فى إطار هذه المجالات الأربعة. وبالجملة فعندما تحقّق الخلق من اللّه لا تكون هناك أية حالة انتظارية فى تكوّن الفعل ووجوده. فلا معنى لأن يكون للعبد بعد خلقه سبحانه دور أو تأثير. وأمّا مسألة «الكسب» الذى أضافه إمام الأشاعرة إلى «الخلق» فعده سبحانه خالقاً والعبد كاسباً، فسيوافيك أنّه ليس للكسب مع معقول بعد تمامية الخلقة، فتربص حتى حين. صراع بين الوجدان وظواهر الأحاديث

لا ـ شكّ أنّ كلّ إنسان يجد من صميم ذاته أنّ له قدرة واختياراً ولا يحتاج فى إثباته إلى الاستدلال بالآيات والروايات كما ارتكبه الكاتب وهذا شيء لا يمكن لأحد إنكاره، ولذلك صحّ التكليف وحسن بعث الأنبياء وعليه يدور فلك الحياة فى المجتمع الإنسانى. والقدر بالمعنى الذى تصرح به الأحاديث لا يجتمع مع اختيار العبد وقدرته، فلو صحّ القدر بالمعنى المعروف بين أهل الحديث لم يكن مناص فى _____

۱ . التوبة:۴۶.

۲ . «عقيدة أهل السنّة والجماعة» بقلم محمد صالح العثيمين من منشورات الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة: ص ۲۷ـ ۲۹. (۲۵۴) الصراع عن ارتكاب أحد أمرين: إمّا إنكار القدر و القضاء وهو لا يصحّ أن يصدر من مسلم مؤمن بكتاب اللّه، وإمّا إنكار القدرة والاختيار وهو يخالف الوجدان والفطرة السليمة، وأمّا الجمع بينهما فهو أمر غير ممكن. والحقّ أنّ الاعتقاد بالقدر بالمعنى الوارد فى الروايات السابقة لا ينفك عن الجبر قيد شعرة، وللعبد الاحتجاج على المولى بأنّ الفعل ـ بعد تنزّله من مرتبة العلم إلى مرتبة الكتابة ومنهما إلى درجة المشيئة فدرجة الخلق والإيجاد ـ يكون عندئذ مخلوقاً للّه سبحانه و فعلاً له، وكلّ فاعل مسؤول عن فعل نفسه لا فعل غيره.(وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى) (۱). ولا تكون حينئذ للفعل أية صلة بالعبد إلّا كونه ظرفاً للصدور ومحلاً لإيجاده سبحانه. ولكن الإمامية مع اعترافهم بالمراتب الأربع للقدر لا يرونه ملازماً للجبر، بل يرون للعبد بعدها اختياراً وحرية. ولأجل ذلك يجب تركيز الكلام فى تفسير كون الفعل مورداً لمشيئته وكونه مخلوقاً له سبحانه، وإليك بيان هذين الأمرين: القول بالقدر لا يلازم الجبر

إنّ منشأ توهم الجبر وكون الإنسان مسيّراً لا مخيّراً أحد أمرين: ۱. كون فعله متعلّقاً لمشيئته سبحانه وما شاء اللّه يقع حتماً. ۲. كونه خالقاً لكلّ شيء حتّى أفعال عباده وإلّا بطل التوحيد فى الخالقية. وبالبيان التالى يظهر بطلان التوهم المذكور، وأنّ واحداً من الأصلين لا يقتضى الجبر، إذا فسر على الوجه الصحيح، لا على الوجه الذى يتبنّاه أهل الحديث وحتى الأشاعرة. فنقول: _____

۱ . الأنعام:۱۶۴. (۲۵۵) الأمر الأوّل: تعلّق مشيئته بالأفعال

أمّا کون أفعال العباد متعلّقة لمشیئته سبحانه، فهناک من ینکر ذلک ویقول: إنّ التقدیر یختص بما یجری فی الکون من حوادث کونیة ممّا یتعلّق به تدبیره سبحانه، وأمّا أفعال العباد فلیست متعلّقة بالتقدیر والمشیئة، بل هی خارجة عن إطارهما، والحافز إلی ذاک التخصیص هو التحفّظ علی الاختیار ونفی الجبر، فهذا القول یعترف بالقدر ولکن لا فی أفعال العباد بل فی غیرها. یلاحظ علیه: أنّ الظاهر من الآیات أنّ فعل العباد تتعلّق به مشیئة اللّه، وأنّه لولا مشیئته سبحانه لما تمکن من الفعل. یقول الراغب: لولا أنّ الأُمور کلّها موقوفة علی مشیئة اللّه وأنّ أفعالنا معلّقة بها وموقوفة علیها لما أجمع الناس علی تعلیق الاستثناء به فی جمیع أفعالنا نحو (سَتَجِدُنِی إنْ شَاءَ اللّهُ مِنَ الصّابِرِینَ) ، (سَتَجِدُنِی إنْ شَاءَ اللّهُ صابِراً) ، (یَأْتِیکُمْ بِهِ اللّهُ إن شاء) ، (ادخُلُوا مِصْرَ إن شاءَ اللّهُ) ، (قُلْ لا أملِکُ لِنَفْسِی نَفْعاً ولا ضَرّاً إلّا ما شاءَ اللّهُ)، (وَما یکونُ لَنا أنْ نعودَ فِیها إلّاأن یشاءَ اللّهُ ربُّنا) ، (ولا تَقُولَنَّ لِشَیء إنّی فاعِلٌ ذلِکَ غداً * إلّا أن یشاءَ اللّهُ) .(۱) وهناک آیات أُخر لم یذکرها«الراغب»: ۱. قوله سبحانه: (ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِینَة أو ترَکْتُمُوها قائِمَةً عَلَی أُصُولِها فبإذنِ اللّهِ ولِیُخْزِیَ الفاسِقین) .(۲) فالإذن هنا بمعنی المشیئة وما ذکر من القطع والإبقاء من باب المثال. ۲. قوله سبحانه: (إن هُوَ إلّا ذِکْرٌ لِلعالَمِین* لِمَنْ شاءَ مِنْکُمْ أنْ یَسْتَقِیم* وما تَشاؤُونَ إلّا أنْ یَشاءَ اللّهُ ربُّ العَالَمِینَ) .(۳) ۳. قوله سبحانه: (إنَّ هَذِهِ تَذْکِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخذَ إلی ربّهِ سَبِیلاً*

---

۱ . المفردات:۲۷۱.و الآیات کالتالی: الصافات: ۱۰۲، الکهف:۶۹، هود:۳۳، یوسف:۹۹، الأعراف: ۱۸۸ و ۸۹، والکهف: ۲۳ ـ ۲۴.

۲ . الحشر:۵.

۳ . التکویر:۲۷ـ ۲۹. (۲۵۶) وما تَشاءُونَ إلّا أن یَشاءَ اللّهُ إنّ اللّهَ کانَ علِیماً حکِیماً) .(۱)

۴. قال سبحانه: (کَلاّ بَلْ لا یَخافُونَ الآخِرَةَ* کَلاّ إنّهُ تَذْکِرَةٌ* فَمَنْ شَاءَ ذَکَرَهُ* و ما یَذْکُرُونَ إلّا أنْ یَشاءَ اللّهُ هُوَ أهْلُ التَّقْوی و أهْلُ المَغْفِرَةِ).(۲) وجه الدلالة فی الآیات الثلاث واحدة ومفعول الفعل(وما تشاءون) فی الآیة الأُولی هو الاستقامة. معناه وما تشاءون الاستقامة علی الحقّ إلّا أن یشاء اللّه ذلک، کما أنّ المفعول فی الآیة الثانیة عبارة عن اتّخاذ الطریق والمعنی وما تشاءون اتّخاذ الطریق إلی مرضاة اللّه تعالی إلاّأن یشاء اللّه تعالی ، کما أنّ المفعول للفعل، (وما یذکرون) فی الآیة الثالثة هو القرآن ،أی وما یذکرون القرآن ولا یتذکّرون به إلاّ أن یشاء اللّه. إذا عرفت ذلک ففی الآیات الثلاث الأخیرة احتمالان: الأوّل: المراد أنّکم «لا تشاءون الاستقامة أو اتّخاذ الطریق أو التذکّر بالقرآن إلّا أن یشاء اللّه أن یجبرکم علیه ویلجئکم إلیه، ولکنّه لا یفعل، لأنّه یرید منکم أن تؤمنوا اختیاراً لتستحقوا الثواب، ولا یرید أن یحملکم علیه» واختاره أبو مسلم کما نقله عنه «الطبرسی» وحاصله: وما تشاءون واحداً من هذه الأُمور إلّاأن یشاء اللّه إجبارکم وإلجاءکم إلیه، فحینئذ تشاءون ولا ینفعکم ذلک، والتکلیف زائل، ولم یشأ اللّه هذه المشیئة، بل شاء أن تختاروا الإیمان لتستحقوا الثواب.(۳) وعلی هذا فالآیات خارجة عمّا نحن فیه، أعنی: کون أفعال البشر علی وجه الإطلاق ـ اختیاریة کانت أو جبریة ـ متعلّقة لمشیئته سبحانه. الثانی: إنّ الآیة بصدد بیان أنّ کلّ فعل من أفعال البشر ومنها الاستقامة واتخاذ الطریق والتذکّر لا تتحقّق إلّا بعد تعلق مشیئته سبحانه بصدورها غیر أنّ _____

۱ . الإنسان: ۲۹ـ ۳۰.

۲ . المدثر:۵۳ـ ۵۶.

۳ . مجمع البیان:۵/۳۹ و ۴۱۳ و ۴۴۶. (۲۵۷)

لتعلّق مشیئته شرائط ومعدّات منها کون العبد متجرّداً عن العناد واللجاج متهیئاً لقبول الصلاح والفلاح موقعاً نفسه فی مهب الهدایة الإلهیة، فعند ذلک تتعلّق مشیئته بهدایة العبد، وبما أنّ الکفّار المخاطبین فی الآیة لم یکونوا واجدین لهذا الشرط لم تتعلّق مشیئته باستقامتهم واتّخاذ الطریق والاتّعاظ بالقرآن. ولیس هذا بکلام غریب وإنّه هو المحکّم فی الآیات الراجعة إلی الهدایة فإنّ له سبحانه هدایتین:هدایة عامة تفیض إلی عامة البشر: مؤمنهم وکافرهم وإلیه یشیر قوله سبحانه: (إنّا هَدَیْناهُ السَّبِیلَ إمّا شاکِراً وَإمّا کَفُوراً) (۱) وهناک هدایة خاصة تفیض منه سبحانه إلی من جعل نفسه فی مهب الرحمة واستفاد من الهدایة الأُولی، وإلی ذلک یشیر قوله

سبحانه: (وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) (۲)، والظاهر من مجموع الآيات حول المشيئة هو الاحتمال الثانى دون الأوّل واختاره العلاّمة الطباطبائى فقال فى تفسير سورة الإنسان. الاستثناء من النفى يفيد أنّ مشيئة العبد متوقّفة فى وجودها على مشيئته تعالى فلمشيئته تعالى تأثير فى فعل العبد من طريق تعلّقها بمشيئة العبد وليست متعلّقة بفعل العبد مستقلاً وبلا واسطة حتى تستلزم بطلان تأثير إرادة العبد وكون الفعل جبرياً ولا أنّ العبد مستقل فى إرادة يفعل ما يشاؤه، شاء اللّه أو لم يشأ، فالفعل اختيارى لاستناده إلى اختيار العبد.(۳) هذا كلّه فى الصغرى أى كون أفعال العباد متعلقة لمشيئته سبحانه. إنّما الكلام فى الكبرى وهو أنّ تعلّق المشيئة بفعل العبد لا يستلزم الجبر، وهذه هى النقطة الحسّاسة فى حلّ عقدة الجبر مع القول بكون أفعالنا متعلّقة لمشيئته. بيان ذلك أنّ هناك فرضين: ۱. تعلّقت مشيئته سبحانه بصدور الفعل من العبد إيجاداً واضطراراً. ۲. تعلّقت مشيئته سبحانه بصدوره منه عن إرادة واختيار. _____

۱ . الإنسان:۳.

۲ . الشورى:۱۳.

۳ . الميزان:۲۰/ ۱۴۲. (۲۵۸)

فالقول بالجبر إنّما هو نتيجة الفرض الأوّل دون الثانى. إنّ مشيئته سبحانه تعلّقت بصدور كلّ فعل عن فاعله مع الخصوصية الموجودة فيه، كالصدور عن لا شعور فى النار بالنسبة إلى الحرارة والصدور عن اختيار فى الإنسان بالنسة إلى التكلم والمشى. وعلى ذلك يجب أن تصدر الحرارة من النار عن اضطرار، ويصدر التكلّم أو المشى عن الإنسان باختيار وإرادة. فلو صدر الأوّل عن النار بغير هذا الوضع، أو الثانى من الإنسان بغير هذه الكيفية لزم التخلّف عن مشيئته سبحانه وهو محال، إذ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ومجرّد كون الفعل متعلّقاً لمشيئته وأنّ ما شاء يقع، لا ـ يستلزم القول بالجبر، ولا ـ يصير الإنسان بموجبه مسيّراً إذا كان الفعل صادراً عن الفاعل بالخصوصية المكتنفة به. فالنار فاعل طبيعى تعلقت مشيئته سبحانه بصدور أثرها (أى الحرارة) عنها بلا شعور. والإنسان فاعل مدرك شاعر مريد، تعلّقت مشيئته سبحانه بصدور فعله عنه مع الشعور والإرادة. فلو صدر الفعل فى كلا الموردين لا مع هذه الخصوصيات لزم التخلّف. فتنزيه ساحته عن وصمة التخلّف يتوقّف على القول بأنّ كلّ معلول يصدر عن العلّة. لكن بالخصوصية التى خلقت معها. فقد شاء اللّه سبحانه أن تكون النار فاعلاً موجباً، ويصدر عنها الفعل بالإيجاب، كما شاء أن يكون الإنسان فاعلاً مختاراً ويصدر الفعل عنه لكن بقيد الاختيار والحرية. ولقائل أن يقول: إنّ تعلّق المشيئة المهيمنة من اللّه سبحانه على صدور الفعل من العبد عن اختيار موجب لكون صدور الفعل أمراً قطعياً وعدم المناص إلاّعن إيجاده ومع هذا كيف يكون الفعل اختيارياً فإنّ معناه أنّ له أن يفعل وله أن لا يفعل وهذا لا يجتمع مع كون صدور الفعل قطعياً. والجواب: إنّ قطعية أحد الطرفين لا تنافى كون الفعل اختيارياً، وذلك بوجهين: (۲۵۹)

۱. بالنقض بفعل البارى سبحانه، فإنّ الحسن قطعى الصدور، والقبيح قطعى العدم، ومع ذلك فالفعل اختيارى له واللّه سبحانه يعامل عباده بالعدل والقسط قطعاً ولا مناص عنه ولا يعاملهم ظلماً وجوراً قطعاً وبتاتاً، ومع ذلك ففعله سبحانه المتّسم بالعدل، اختيارى لا اضطرارى. ۲. إنّ تعلّق مشيئته سبحانه بأفعال العباد، يرجع لباً إلى تعلّقها بحريتهم فى الفعل والعمل، وعدم وجود موجب للجوئهم إلى أحد الطرفين حتماً فشاء اللّه سبحانه كونهم أحراراً غير مجبورين، مختارين غير مضطرين حتى يهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حى عن بيّنة. هذا كلّه حول المشيئة. الأمر الثانى: خلق الأفعال

وأمّا كون أفعال العباد مخلوقة للّه سبحانه فهذا أصل يجب الاعتراف به بحكم التوحيد فى الخالقية، وبحكم أنّ(اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْء وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْء وَكِيلٌ) .(۱) إلاّ أنّه يجب تفسير التوحيد فى الخالقية، وليس معناه انحصار الفاعلية والخالقية، أعمّ من المستقل وغير المستقل باللّه سبحانه، بأن يكون هناك فاعل واحد يقوم مقام جميع العلل والفواعل المدركة وغير المدركة، كما هو الظاهر من عبارات القوم فى تفسير التوحيد فى الخالقية،إذ معنى ذلك رفض مسألة العلية والمعلولية بين الأشياء. وهذا ما لا يوافق عليه العقل ولا الذكر الحكيم، بل معناه أنّه ليس فى صفحة الوجود خالق أصيل غير اللّه، ولا فاعل مستقل سواه سبحانه، وأنّ كلّ ما فى الكون من

كواكب وجبال، وبحار وعناصر، ومعادن وسحب، ورعود وبروق، وصواعق ونباتات، وأشجار وإنسان وحيوان وملك وجن، وعلى الجملة كلّ ما يطلق عليه عنوان الفاعل والسبب كلّها علل وأسباب غير مستقلة _____

۱ . الزمر:۶۲. (۲۶۰)

التأثير، وأنّ كلّ ما ينسب إلى تلك الفواعل من الآثار ليس لذوات هذه الأسباب بالاستقلال. وإنّما ينتهى تأثير هذه المؤثرات إلى اللّه سبحانه، فجميع هذه الأسباب والمسببات رغم ارتباط بعضها ببعض مخلوقة للّه، فإليه تنتهى العلية، وإليه تؤول السببية، وهو معطيها للأشياء، كما أنّ له تجريدها عنها إن شاء، فهو مسبب الأسباب وهو معطّلها. وهذا هو نتيجة الجمع بين الآيات الناصة على حصر الخالقية باللّه سبحانه، والآيات المثبتة لها لغيره، كما فى قوله سبحانه حاكياً عن سيدنا المسيح ـ على نبيّنا وآله وـ عليه السَّلام ـ ـ :(أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكونُ طيراً بِإِذْنِ اللّه) (۱)، وقوله سبحانه:(فَتَبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالِقينَ).(۲) فهذا الصنف من الآيات الذى يسند الخلق إلى غيره سبحانه إذا قورن بالآيات الأُخرى المصرحة بانحصار الخالقية باللّه سبحانه، مثل قوله تعالى:(قُل اللّهُ خالِقُ كُلِّ شَىْء وَهُوَ الْواحِدُ القَهّار) (۳) يستنتج أنّ الخالقية المستقلة غير المستندة إلى شىء سوى ذات الخالق منحصرة باللّه سبحانه، وفى الوقت نفسه الخالقية والفاعلية غير المستقلة المفاضة من الواهب سبحانه إلى الأسباب، تعم عباده وجميع الفواعل المدركة وغير المدركة. وعلى ذلك فكلّ فعل صادر عن فاعل طبيعى أو مدرك كما يعد فعله سبحانه كذلك يعدّ فعلاً للعبد، لكن بنسبتين. فاللّه سبحانه فاعل لها بالتسبيب، وغيره فاعل لها بالمباشرة. فليست ذاته سبحانه مبدأً للحرارة بلا واسطة النار، أو للأكل والمشى بلا واسطة _____

۱ . آل عمران:۴۹.

۲ . المؤمنون:۱۴.

۳ . الرعد:۱۶. (۲۶۱)

الإنسان، بل الفاعل الذى تصدر عنه هذه الأُمور هو النار والإنسان، ولكن فاعلية كلّ واحد بقدرته وإفاضة الوجود. وبذلك يتبيّن أنّ أفعال العباد فى حال كونها مخلوقة للّه، مخلوقة للإنسان أيضاً، فالكلّ خالق لا فى عرض واحد، بل فاعلية الثانى فى طول فاعلية الأوّل. والبيتان التاليان يلخّصان هذه النظرية: وكيف فعلنا إلينا فوّضا * وإنّ ذا تفويض ذاتنا اقتضى لكن كما الوجود منسوب لنا * فالفعل فعل اللّه وهو فعلنا وبذلك يتبين أنّ الاعتراف بالمرتبة الثالثة والرابعة من القدر لا يلازم الجبر، بشرط تفسيرهما على النحو الذى تقدّم.(۱) *** ثمّ إنّ هناك رسائل ثلاثاً تعدّ من بدايات علم الكلام فى القرن الأوّل تعرب عن آراء متضاربة فى استلزام القول بالعلم الإلهى السابق، القول بالجبر وعدمه. فالأمويون على الأوّل وفى مقدّمتهم عمر بن عبد العزيز. وغيرهم على الثانى كالحسن البصرى وأصحابه، نذكر نصّ الرسالتين إحداهما لعمر بن عبد العزيز والأُخرى للحسن وهما يغنيان عن الرسالة الثالثة للحسن بن محمد بن الحنفية، كما سنذكره. عرف الأمويون منذ عصر معاوية إلى آخر دولتهم أنّ سلطتهم على الناس لا تبقى إلّا مع إذاعة فكرة الجبر بين الأُمّة. وقد أشرنا إلى نماذج من أقوال معاوية فيما سبق، ونضيف فى المقام ما نقله القاضى عبد الجبار عن الشيخ أبى على الجبائى أنّه قال: إنّ أوّل من قال بالجبر وأظهره معاوية، وإنّه أظهر أنّ ما يأتيه بقضاء اللّه ومن خلقه، ليجعله عذراً فيما يأتيه ويوهم أنّه مصيب فيه وأنّ اللّه جعله إماماً وولاّه الأمر وفشا ذلك فى ملوك بنى أُميّة. وعلى هذا القول قتل هشام بن عبد الملك غيلان رحمه اللّه ، ثمّ نشأ بعدهم _____

۱ . ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا: «مفاهيم القرآن» :۱/۲۹۹ـ ۳۳۴. (۲۶۲)

يوسف السمنى فوضع لهم القول بتكليف مالا يطاق، وأخذ هذا القول عن ضرير(۱) وكان بواسط زنديقاً نبوياً(۲) وقال جهم: إنّه لا فعل للعبد. وتبعه ضرار فى المعنى، وإن أضاف الفعل إلى العبد وجعله كسباً له وفعلاً وإن كان خلقاً للّه عنده.(۳) الرسائل الثلاث

إنّ الأُمّة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن الأوّل ومجموع القرنين التاليين كانت تعيش فى مأزق حرج بالنسبة إلى العقائد

الإسلامیة عامة، والجبر والاختیار خاصة، إذ لم تکن العقیدة الإسلامیة مدوّنة ولا مضبوطة، وتکفینا فی البرهنة علی ذلک الرسائل الثلاث التی تعد من أقدم الوثائق التاریخیة فی مسائل علم الکلام: الرسالة الأُولی: الرسالة المنسوبة إلی الحسن بن محمد بن الحنفیة (المتوفّی حوالی ۱۰۰هـ) حفید الإمام علی بن أبی طالب ـ علیه السَّلام ـ، ویستظهر أنّها کتبت بإیحاء من الخلیفة الأموی عبد الملک بن مروان (المتوفّی۸۶هـ) وأنّ تاریخ تألیفها یرجع إلی سنة ۷۳هجری.(۴) الرسالة الثانیة: ما کتبه الحسن البصری (المتوفّی ۱۱۰هـ) إلی الخلیفة نفسه. والرسالتان تقعان علی جانبی النقیض، فالأولی تمثّل فکرة الجبر لکن بصورة ملائمة، والأُخری تبیّن عقیدة الاختیار والحریة. الرسالة الثالثة: رسالة الخلیفة عمر بن عبد العزیز رداً علی قدری مجهول _____

۱ . کلمة ضریر وصف لا علم.

۲ . کذا فی المصدر ویحتمل أن تکون الکلمة تحریف: «ثنویاً».

۳ . المغنی للقاضی عبد الجبار:۸/۴.

۴ . ترجمه ابن سعد فی الطبقات الکبری و قال: یکنّی أبا محمد، و کان من ظرفاء بنی هاشم وأهل العقل منهم و کان یقدم علی أخیه أبی هاشم فی الفضل والهیئة، توفّی فی خلافة عمر بن عبد العزیز، ولم یکن له عقب.(الطبقات الکبری:۵/۳۲۸). (۲۶۳)

الهویة افترض أنّه ینکر العلم الأزلی، لیستریح من عواقب الجبر، فردّ علیه مثبتاً لعلمه القدیم، وخرج بالجبر الشدید الذی ربما لا یقع موقع القبول حتی لدی بعض الطوائف الجبریة کالأشاعرة. ولأجل إیقاف القارئ علی الحالة الحرجة التی کان المسلمون یعانون منها، ننشر نص رسالة عمر بن عبد العزیز فإنّها تغنی عن الرسالة المنسوبة إلی حفید الإمام، إذ هما تتحدان م آلاً ونهایة، ونردفها بنشر رسالة الحسن البصری التی تقع منها علی جانب النقیض. غیر أنّا نقدم فی المقام الخطبة المرویة عن الإمام علی ـ علیه السَّلام ـ حول القضاء والقدر، ثمّ نردفها بکتاب لابنه الحسن ـ علیه السَّلام ـ إلی الحسن البصری عند ما سأله عن القدر. وإلیک الخطبة:

۱. خطبة الإمام أمیر المؤمنین ـ علیه السَّلام ـ

۱. خطبة الإمام أمیر المؤمنین ـ علیه السَّلام ـ

روی الکلینی عن علی بن محمد، عن سهل بن زیاد مرفوعاً قال: کان أمیر المؤمنین ـ علیه السَّلام ـ جالساً بالکوفة بعد منصرفه من صفین إذ أقبل شیخ فجثا بین یدیه(۱)، ثمّ قال له:یا أمیر المؤمنین أخبرنا عن مسیرنا إلی أهل الشام أبقضاء من اللّه وقدر؟ فقال أمیر المؤمنین ـ علیه السَّلام ـ: «أجل یا شیخ ما علوتم تلعة(۲) ولا هبطتم بطن واد إلّابقضاء من اللّه وقدر. فقال له الشیخ: عند اللّه أحتسب عنائی(۳) یا أمیر المؤمنین؟ فقال له: «مه یا شیخ! فواللّه لقد عظّم اللّه الأجر فی مسیرکم وأنتم سائرون، وفی مقامکم وأنتم مقیمون، وفی منصرفکم وأنتم منصرفون، ولم تکونوا فی شیء من حالاتکم مکرهین ولا إلیه مضطرین». فقال له الشیخ: وکیف لم نکن فی شیء من حالاتنا مکرهین ولا إلیه مضطرین، وکان بالقضاء والقدر مسیرنا ومنقلبنا ومنصرفنا؟ فقال له: «وتظن أنّه کان قضاء حتماً وقدراً لازماً؟ إنّه لو کان کذلک لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهی والزجر من اللّه، وسقط معنی الوعد والوعید، فلم تکن لائمة للمذنب، ولا _____

۱ . جثا یجثوا جثواً وجثیاً بضمهما: جلس علی رکبتیه وأقام علی أطراف أصابعه.

۲ . والتلعة ما ارتفع من الأرض.

۳ . أی منه أطلب أجر مشقتی. (۲۶۵)

محمدة للمحسن، ولکان المذنب أولی بالإحسان من المحسن، ولکان المحسن أولی بالعقوبة من المذنب، تلک مقالة إخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمن وحزب الشیطان وقدریة هذه الأُمّة ومجوسها. إنّ اللّه تبارک وتعالی کلّف تخییراً، ونهی تحذیراً، وأعطی علی القلیل کثیراً، ولم یعص مغلوباً، ولم یطع مکرهاً، ولم یملک مفوضاً، ولم یخلق السماوات والأرض وما بینهما باطلاً، ولم یبعث

النبيين مبشرين ومنذرين عبثاً، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار». فأنشأ الشيخ يقول: أنت الإمام الذى نرجو بطاعته * يوم النجاة من الرحمن غفراناً أوضحت من أمرنا ماكان ملتبساً * جزاك ربّك بالإحسان إحساناً (۱) وقال الرضى: ومن كلام له ـ عليه السَّلام ـ للسائل الشامى لما سأله: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من اللّه وقدر؟ بعد كلام طويل هذا مختاره: ويحك! لعلك ظننت قضاء لازماً، وقدراً حاتماً! ولو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. وإنّ اللّه سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يكلّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً،ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً: (ذلِكَ ظَنُّالّذِينَ كفَروا فَوَيلٌ لِلّذينَ كَفَرُوا مِنَ النّار)(۲) .(۳) روى هذا النصّ من الإمام مشايخ الحديث فى القرن الثالث والرابع منهم: ۱. ثقة الإسلام الكلينى (حوالى ۲۵۰ ـ ۳۲۹هـ) فى جامعه «الكافى» ج۱، ص ۱۵۵ بسند مرفوع. ۲. الصدوق (۳۰۶ـ ۳۸۱هـ) فى توحيده ص ۲۷۳، و فى عيون أخبار الرضا ، ج۱، ص ۱۳۸ بأسانيد ثلاثة. _____

۱ . الكافى:۱/۱۵۵ـ ۱۵۶، كتاب التوحيد باب الجبر والقدر.

۲ . ص : ۲۷.

۳ . نهج البلاغة: قسم الحكم الرقم ۷۸. (۲۶۶)

۳. أبو محمد الحسن بن على الحسينى بن شعبة الحرّانى الذى يروى عن أبى على محمد بن الهمام الإسكافى الذى (توفّى عام ۳۳۶هـ) فالرجل من أعلام أواسط القرن الرابع. ۴. الشيخ المفيد(۳۳۶ـ ۴۱۳هـ) فى كتابه «العيون والمحاسن» ص ۴۰. ۵. محمد الرضى جامع نهج البلاغة (۳۵۹ ـ ۴۰۶هـ). ۶. محمد بن على الكراجكى (المتوفّى ۴۴۹هـ) فى كتابه «كنز الفوائد» ص ۱۶۹. وهؤلاء أساتذة الحديث عند الشيعة لا ـ يمتون للاعتزال ولا للمعتزلة بصلة، بل يصارعونهم فى كثير من المسائل والمبادئ، ولبعضهم ردود على المعتزلة فى بعض المجالات، كما ستوافيك أسماؤها فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة عند البحث عن عقائد المعتزلة، وبعد هذا لا يصحّ تقوّل بعض المتحذلقين كالدكتور على سامى النشار حيث رأى أنّ هذا النصّ موضوع على لسان على ـ عليه السَّلام ـ ببراعة نادرة يرى فيه محاكاة ممتازة بأسلوب على ـ عليه السَّلام ـ بحجة أنّه ورد فيه جميع المصطلحات المعتزلية.(۱) يلاحظ عليه: أنّ الكاتب لم يتحمّل جهد التتبع حتى يقف على مصادر الحديث فى كتب الشيعة فى القرن الثالث والرابع فألقى الكلام على عواهنه فحكم بوضع النصّ، وقد عرفت وجوده فى كتب الشيعة الذين كانوا هم والمعتزلة متصارعين وأمّا ما تمسّك به من وجود مصطلحات المعتزلة فى الكلام فهو ناشئ عن عدم إلمام الرجل بتاريخ تكوّن المعتزلة فإنّهم أخذوا أكثر مبادئهم من خطب الإمام على ـ عليه السَّلام ـ فى التوحيد والعدل، مضافاً إلى أنّ «عطاء بن واصل» مؤسس المنهج تتلمذ على يد «أبى هاشم» ولد «محمد بن الحنفية»، وهو أخذ عقائده عن أبيه وهو عن على ـ عليه السَّلام ـ ، و هذا شيء قطعى فى التاريخ، ولا ينكره إلّا المتعصّب وهو _____

۱ . نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام:۱/۴۱۲. (۲۶۷)

ممّا تعترف به أئمّة الاعتزال، كما سيوافيك نصوصهم فى الجزء الثالث إن شاءاللّه. إنّ مسألة القضاء والقدر و كون الإنسان مخيّراً أو مسيّراً ليست من المسائل التى طرحتها المعتزلة بل من المسائل القديمة التى كانت مطروحة عند جميع الأُمم، و قد عرفت عقيدة المشركين المعاصرين للنبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ كما عرفت بعض الأحاديث المروية عن الخلفاء حول القدر والجبر، فلو كان وجود تلك المصطلحات شاهداً على وضع النص، فليكن ذلك شاهداً على كون أحاديث القدر بأجمعها موضوعة لاشتمالها على مصطلحات لم تكن موجودة فى عصر الرسول الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . والعجب العجاب أنّ الدكتور ينكر النص ولكنّه يصحح روايات أبى هريرة ويقول: وقد أكثر حقاً من روايات الحديث لكثرة ملازمة الرسول.(۱) ولا أظن أنَّ من درس تاريخ حياة أبى هريرة يوافق الدكتور فى هذا الرأى، فإنّه أسلم بعد خيبر وما أدرك من حياة الرسول إلّاسنتين وبضعة أشهر، ومع ذلك فهوأكثر الصحابة حديثاً!! فيفوق عدد أحاديثه أحاديث عائشة وعلى ـ عليه السَّلام ـ مع أنّ علياً ـ عليه السَّلام ـ عاش فى كنف النبى ـ

صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ من لدن ولادته إلى أن لبّى الرسول دعوة ربّه، فمرويات الإمام فى الصحاح والمسانيد حوالى خمسمائة حديثاً و مرويات أبى هريرة تناهز خمسة آلاف حديث!! _____

۱ . المصدر السابق:۱/۲۸۵. (۲۶۸)

۲. كتاب الحسن السبط ـ عليه السَّلام ـ

۲. كتاب الحسن السبط ـ عليه السَّلام ـ إلى الحسن البصرى

كتب الحسن بن أبى الحسن البصرى(۱) إلى أبى محمد الحسن بن على ـ عليهما السَّلام ـ : أما بعد فإنّكم معشر بنى هاشم الفلك الجارية فى اللجج الغامرة والأعلام النيرة الشاهرة أو كسفينة نوح ـ عليه السَّلام ـ التى نزلها المؤمنون ونجا فيها المسلمون، كتبت إليك يابن رسول اللّه عند اختلافنا فى القدر وحيرتنا فى الاستطاعة، فأخبرنا بالذى عليه رأيك ورأى آبائك ـ عليهم السَّلام ـ . فإنّ من علماللّه علمكم وأنتم شهداء على الناس واللّه الشاهد عليكم، ذرّية بعضها من بعض، واللّه سميع عليم. فأجابه الحسن ـ عليه السَّلام ـ : «بسم اللّه الرحمن الرّحيم وصل إلى كتابك، ولولا ما ذكرته من حيرتك وحيرة من مضى قبلك إذاً ما أخبرتك، أمّا بعد: فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره، [و]أنّ اللّه يعلمه فقد كفر، ومن أحال المعاصى على اللّه فقد فجر، إنّ اللّه لم يطع مكرهاً ولم يعص مغلوباً ولم يهمل العباد سدى من المملكة، بل هو المالك لما ملكهم والقادر على ما عليه أقدرهم، بل أمرهم تخييراً، ونهاهم تحذيراً، فإن ائتمروا بالطاعة لم يجدوا عنها صاداً، وإن انتهوا إلى معصية فشاء أن يمن عليهم بأن يحول بينهم وبينها فعل، وإن لم يفعل

---

۱ . هو الحسن بن يسار، مولى زيد بن ثابت، أخو سعيد وعمارة، المعروف بالحسن البصرى، مات سنة ۱۱۰ هـ وله تسع وثمانون سنة. (۲۶۹)

فليس هو الذى حملهم عليها جبراً ولا أُلزموها كرهاً، بل منّ عليهم بأن بصّرهم وعرّفهم وحذّرهم وأمرهم ونهاهم لا جبلاً لهم على ما أمرهم به فيكونوا كالملائكة، ولا جبراً لهم على ما نهاهم عنه وللّه الحجّة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين، والسلام على من اتّبع الهدى».(۱) _____

۱ . تحف العقول: ۲۳۱ ;ورواه المجلسى فى البحار:۱۰/۱۳۶ نقلاً عن كتاب العدد القوية لدفع المخاوف اليومية تأليف الشيخ الفقيه رضى الدين على بن يوسف بن المطهّر الحلّى ;وأيضاً رواه الكراجكى فى كنز الفوائد: ۱۷۰ الطبعة الأُولى، بأدنى اختلاف فى اللفظ. (۲۷۰)

۳. رسالة عمر بن عبد العزيز

۳. رسالة عمر بن عبد العزيز فى الرد على القدرية(۱)

حدثنا أبو حامد بن جبلة، ثنا محمد بن إسحاق السراج، ثنا أبو الأشعث أحمد بن المقدام، ثنا محمد بن بكر البرسانى، ثنا سليم بن نفيع القرشى، عن خلف أبى الفضل القرشى، عن كتاب عمر بن عبد العزيز: ۱. إلى النفر الذين كتبوا إلىّ بما لم يكن لهم بحق فى ردّ كتاب اللّه، وتكذيبهم بأقداره النافذة فى علمه السابق الذى لا حدّ له إلاّ اللّه وليس لشىء مخرج منه، وطعنهم فى دين اللّه و سنّة رسوله القائمة فى أُمّته. ۲. أمّا بعد، فإنّكم كتبتم إلىّ بما كنتم تستترون فيه قبل اليوم فى ردّعلم اللّه والخروج منه إلى ما كان رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ يتخوّفه على أُمّته من التكذيب بالقدر. ۳. وقد علمتم أنَّ أهل السنّة كانوا يقولون: الاعتصام بالسنّة نجاة، وسينقص العلم نقصاً سريعاً، وقول عمر بن الخطاب وهو يعظ الناس: «إنّه لا عذر لأحد عند اللّه بعد البيّنة بضلالة ركبها حسبها هدى،ولا فى هدى تركه _____

۱ . نقلها أبو نعيم الإصبهانی فی کتابه «حلیة الأولیاء» :۵/۳۴۶ـ ۳۵۳ فی ترجمة عمر بن عبد العزیز. ونحن ننقلها عمّا نشره «المعهد الألمانی للأبحاث الشرقیة» تحت عنوان «بدایات علم الکلام» عام النشر۱۹۷۷م. (۲۷۱)

حسبه ضلالة. قد تبیّنت الأُمور وثبتت الحجة وانقطع العذر» فمن رغب عن أنباء النبوة وما جاء به الکتاب تقطعت من یدیه أسباب الهدی ولم یجد له عصمة ینجو بها من الردی. ۴. وإنّکم ذکرتم أنّه بلغکم أنّی أقول: إنّ اللّه قد علم ما العباد عاملون وإلی ما هم صائرون، فأنکرتم ذلک علیّ وقلتم: إنّه لیس یکون ذلک من اللّه فی علم حتی یکون ذلک من الخلق عملاً ـ ۵. فکیف ذاک کما قلتم؟! واللّه یقول:(إِنّا کاشِفُوا العَذابِ قَلیلاً إِنَّکُمْ عائِدُون) (۱) یعنی العائدین فی الکفر وقال: (وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَکاذِبُون) .(۲) ۶. فزعمتم بجهلکم فی قول اللّه: (فَمَنْ شاءَ فَلْیُؤْمِن وَمَنْ شاءَ فَلْیَکْفُر) (۳) أنّ المشیئة فی أی ذلک أحببتم، إلیکم من ضلالة أو هدی. ۷. واللّه یقول: (وَما تَشاءُونَ إِلّاأَنْ یَشاء اللّهُ ربُّ العالمینَ) (۴)، فبمشیئة اللّه لهم شاءوا، لو لم یشأ لم ینالوا بمشیئتهم من طاعته شیئاً، قولاً ولا عملاً، لأنّ اللّه لم یملّک العباد ما بیده و لم یفوّض إلیهم ما یمنعه من رسله. فقد حرصت الرسل علی هدی الناس جمیعاً، فما اهتدی منهم إلّامن هداه اللّه ;ولقد حرص إبلیس علی ضلالتهم جمیعاً، فما ضلّ منهم إلّامن کان فی علم اللّه ضالاً. ۸. وزعمتم بجهلکم أنّ علم اللّه لیس بالذی یضطر العباد إلی ما عملوا من معصیته ولا بالذی یصدّهم عمّا ترکوا من طاعته، ولکنّه بزعمکم کما علم أنّهم سیعملون بمعصیته، کذلک علم أنّهم سیستطیعون ترکها. ۹. فجعلتم علم اللّه لغواً، تقولون: لو شاء العبد لعمل بطاعة اللّه وإن کان فی علم اللّه أنّه غیر عامل بها، ولو شاء ترک معصیته وإن کان فی علم _____

۱ . الدخان:۱۵.

۲ . الأنعام:۲۸.

۳ . الکهف:۲۹.

۴ . التکویر:۲۹. (۲۷۲)

اللّه أنّه غیر تارک لها، فأنتم إذا شئتم أصبتموه وکان علماً، وإذا شئتم رددتموه وکان جهلاً، وإن شئتم أحدثتم من أنفسکم علماً لیس فی علم اللّه، وقطعتم به علم اللّه عنکم، وهذا ما کان ابن عباس یعده للتوحید نقضاً، وکان یقول: «إنّ اللّه لم یجعل فضله ورحمته هملاً بغیر قسم ولا ـ احتظار، ولم یبعث رسله بإبطال ما کان فی سابق علمه» فأنتم تقرّون بالعلم فی أمر وتنقضونه فی آخر، واللّه یقول: (...یَعْلَمُ ما بَیْنَ أَیدیهِمْ وَما خَلفَهُمْ وَلا یُحیطُونَ بِشَیء مِنْ عِلْمِهِ إِلّا بِما شاءَ...) .(۱) فالخلق صائرون إلی علم اللّه ونازلون علیه ولیس بینه شیء هو کائن حجاب یحجبه عنه ولا یحول دونه، إنّه علیم حکیم. ۱۰. وقلتم: لو شاء لم یعذب بعمل. ۱۱. بغیر ما أخبر اللّه فی کتابه عن قوم(وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِکَ هُمْ لَها عامِلُون) (۲) وأنّه سیمتعهم قلیلاً(ثُمَّ یَمَسُّهُمْ مِنّا عَذَابٌ أَلِیمٌ) (۳)، فأخبر أنّهم عاملون قبل أن یعملوا وأخبر أنّه معذّبهم قبل أن یخلقوا. ۱۲. وتقولون أنتم إنّهم لو شاءوا خرجوا من علم اللّه فی عذابهم إلی ما لم یعلم من رحمته لهم. ۱۳.ومن زعم ذلک فقد عادی کتاب اللّه بالرد. ولقد سمّی اللّه رجالاً من الرسل بأسمائهم وأعمالهم فی سابق علمه، فما استطاع آباؤهم لتلک الأسماء تغییراً، وما استطاع إبلیس بما سبق لهم فی علمه من الفضل تبدیلاً، فقال: (وَاذْکُر عِبادَنا إِبْراهیمَ وَإِسْحاقَ وَیَعْقُوبَ أُولِی الأیدِی وَالأَبصار* إِنّا أَخلَصْناهُمْ بِخالِصة ذِکری الدّار) (۴) فاللّه أعزّ فی قدرته وأمنع من أن یملک أحداً إبطال علمه فی شیء من ذلک، فهو المسمّی لهم بوحیه الذی (لا یَأْتیهِ _____

۱ . البقرة:۲۵۵.

۲ . المؤمنون:۶۳.

۳ . هود:۴۸.

۴ . ص: ۴۵ ـ ۴۶. (۲۷۳) الباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیهِ وَلا مِنْ خَلْفِه)(۱) أو أن یشرک فی خلقه أحداً، أو أن یدخل فی رحمته من قد أخرجه منها، أو أن یخرج منها من قد أدخله فیها. ولقد أعظم باللّه الجهل من زعم أنّ العلم کان بعد الخلق، بل لم یزل اللّه وحده بکلّ شیء

علیماً وعلی کلّ شیء شهیداً قبل أن یخلق شیئاً، وبعد ما خلق لم ینقص علمه فی بدئهم ولم یزد بعد أعمالهم، ولا تغیر بالجوائح التی قطع بها دابر ظلمهم، ولم یملك إبلیس هدی نفسه ولا ضلالة غیره.وقد أردتم بقذف مقالتکم إبطال علم اللّه فی خلقه وإهمال عبادته، وکتاب اللّه قائم بنقض بدعتکم وإفراط قذفکم. ولقد علمتم أنّ اللّه بعث رسوله والناس یومئذ أهل الشرك، فمن أراد اللّه له الهدی لم تحل ضلالته الّتی کان فیها دون إرادة اللّه له، ومن لم یرد اللّه له الهدی ترکه فی الکفر ضالاً فکانت ضلالته أولی به من هداه.

۱۴. فزعمتم أنّ اللّه أثبت فی قلوبکم الطاعة والمعصیة، فعملتم بقدرتکم بطاعته وترکتم بقدرتکم معصیته، وإنّ اللّه خلو من أن یکون یختص أحداً برحمته أو یحجز أحداً عن معصیته. ۱۵. وزعمتم أنّ الشیء الذی یقدر إنّما هو عندکم الیسر والرخاء والنعمة وأخرجتم منه الأعمال. ۱۶. وأنکرتم أن یکون سبق لأحد من اللّه ضلالة أو هدی أو أنّکم الذین هدیتم أنفسکم من دون اللّه، وأنّکم الذین حجزتموها عن المعصیة بغیر قوة من اللّه ولا إذن منه. ۱۷. فمن زعم ذلك فقد غلا فی القول، لأنّه لو کان شیء لم یسبق فی علم اللّه وقدره لکان للّه فی ملکه شریك ینفذ مشیئته فی الخلق من دون اللّه واللّه یقول: (حَبَّبَ إِلَیْکُمُ الإیمانَ وَ زَیَّنَهُ فِی قُلُوبِکُم) (۲) وهم له قبل ذلك کارهون (وَ کَرَّهَ إِلَیْکُمُ الْکُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْیانَ)(۳) وهم له قبل ذلك محبون وما کانوا علی شیء من ذلك لأنفسهم بقادرین. ثمّ أخبرنا بما سبق لمحمّد ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ

۱ . فصلت:۴۲.

۲ . الحجرات:۷.

۳ . الحجرات:۷. (۲۷۴)

من الصلاة علیه والمغفرة له ولأصحابه فقال: (أَشِدّاءُ عَلَی الکُفّارِ رُحماءُ بَیْنَهُمْ) (۱) وقال: (لِیَغْفِرَ لَکَ اللّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَما تَأَخَّرَ) (۲)، فکرماً غفرها اللّه له قبل أن یعملها ثمّ أخبرنا بما هم عاملون قبل أن یعملوا وقال: (تَراهُمْ رُکّعاً سُجّداً یَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللّهِ وَرِضْواناً) (۳). فضلاً سبق لهم من اللّه قبل أن یخلقوا ورضواناً عنهم قبل أن یؤمنوا. ۱۸. وتقولون أنتم إنّهم قد کانوا ملکوا ردّ ماأخبر اللّه عنهم أنّهم عاملون وإنّ إلیهم أن یقیموا علی کفرهم مع قوله، فیکون الذی أرادوا لأنفسهم من الکفر مفعولاً ولا یکون لوحی اللّه فیما اختار تصدیقاً. ۱۹. بل (فللّهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ) (۴) و (هی) فی قوله: ه(لولا کِتابٌ مِنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّکُمْ فِیما أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِیمٌ) (۵)، فسبق لهم العفو من اللّه فیما أخذوا قبل أن یؤذن لهم. ۲۰. وقلتم: لو شاءوا خرجوا من علم اللّه فی عفوه عنهم إلی ما لم یعلم من ترکهم لما أخذوا. ۲۱. فمن زعم ذلك فقد غلاـ و کذب، و لقد ذکر بشراً کثیراً هم یومئذ فی أصلاب الرجال وأرحام النساء فقال:(وَآخرِینَ مِنْهُمْ لمّا یَلْحَقُوا بِهِم) (۶)، (والّذِینَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِم یَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِرْ لَنا وَلإخوانِنَا الّذِین سَبَقُونا بالإیمان)(۷)، فسبقت لهم الرحمة من اللّه قبل أن یخلقوا والدعاء لهم بالمغفرة ممّن لم یسبقهم بالإیمان من قبل أن یدعوا.

۱ . الفتح:۲۹.

۲ . الفتح:۲.

۳ . الفتح:۲۹.

۴ . الأنعام:۱۴۹.

۵ . الأنفال:۶۸.

۶ . الجمعة:۳.

۷ . الحشر:۱۰. (۲۷۵)

۲۲. ولقد علم العالمون باللّه أنّ اللّه لا یشاء أمراً فیحول مشیئته غیره دون بلاغ ما شاء، ولقد شاء لقوم الهدی فلم یضلّهم أحد وشاء إبلیس لقوم الضلالة فاهتدوا. فقال لموسی وأخیه: (اذْهَبا إِلی فِرْعَونَ إِنّهُ طَغی* فَقُولا لَهُ قَولاً لَیِّناً لَعَلَّهُ یَتَذَکّرُ أَوْ یَخْشَی)(۱)، وموسی فی سابق علمه أنّه یکون لفرعون عدواً وحزناً فقال: (ونُرِیَ فِرعونَ وهامانَ وجُنُودَهُما مِنهُم ما کانُوا یَحْذَرُونَ) .(۲) ۲۳. فتقولون أنتم: لو

شاء فرعون کان لموسی ولیاً وناصراً، واللّه یقول:(لِیَکونَ لَهُمْ عَدُواً وحَزَناً) (۳). وقلتم: لو شاء فرعون لامتنع من الغرق واللّه یقول:(إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغرَقُونَ) (۴). فثبت ذلک عنده فی وحیه فی ذکر الأوّلین، کما قال فی سابق علمه لآدم قبل أن یخلقه: (إِنّی جاعِلٌ فِی الأَرْضِ خَلِیفَهً) (۵) فصار إلی ذلک بالمعصیهٔ التی ابتلی بها، وکما کان إبلیس فی سابق علمه أنّه سیکون (مَذْمُوماً مَدْحُوراً) (۶) وصار إلی ذلک بما ابتلی به من السجود لآدم فأبی، فتلقی آدم بالتوبهٔ فرحم و تلقی إبلیس باللعنهٔ فغوی، ثمّ أهبط آدم إلی ما خلق له من الأرض مرحوماً متوباً علیه، وأهبط إبلیس بنظرته مدحوراً مسخوطاً علیه. ۲۴. وقلتم أنتم: إنّ إبلیس وأولیاءه من الجنّ قد کانوا ملکوا ردّ علم اللّه والخروج من قسمه الذی أقسم به إذ قال: (فَالحَقُّ وَالحَقَّ أَقُولُ* لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ ممّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ) (۷)حتّی لا ینفذ له علم إلّا بعد مشیئتهم. _____

۱ . طه:۴۳ـ ۴۴.

۲ . القصص: ۶.

۳ . القصص:۸.

۴ . الدخان:۲۴.

۵ . البقرهٔ:۳۰.

۶ . الإسراء:۱۸.

۷ . ص:۸۴ ـ ۸۵. (۲۷۶)

۲۵. فماذا تریدون بهلکهٔ أنفسکم فی ردّ علم اللّه؟ فإنّ اللّه جلّوعلا لم یشهدکم خلق أنفسکم، وکیف یحیط جهلکم بعلمه؟ وعلم اللّه لیس بمقصر عن شیء هو کائن، ولا یسبق علمه فی شیء فیقدر أحد علی ردّه. ولو کنتم تنتقلون فی کلّ ساعهٔ من شیء إلی شیء هو کائن، لکانت مواقعکم عنده. ولقد علمت الملائکهٔ قبل خلق آدم ما هو کائن من العباد فی الأرض(من الفساد) وسفک الدماء فیها، وما کان لهم فی الغیب من علم، فکان فی علم اللّه الفساد وسفک الدماء، وما قالوه تخرصاً إلّا بتعلیم العلیم الحکیم لهم فظن ذلک منهم، وأنطقهم به. ۲۶. فأنکرتم أنّ اللّه أزاغ قوماً قبل أن یزیغوا وأضلّ قوماً قبل أن یضلّوا. ۲۷. وهذا ممّا لا یشک فیه المؤمنون باللّه: إنّ اللّه قد عرف قبل أن یخلق العباد مؤمنهم من کافرهم وبرهم من فاجرهم. وکیف یستطیع عبد هو عند اللّه مؤمن أن یکون کافراً أو هو عند اللّه کافر أن یکون مؤمناً؟ واللّه یقول: (أَوَ مَنْ کانَ مَیْتاً فأَحْیَیناهُ وجَعَلْنا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّاسِ کَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُماتِ لَیْسَ بِخارِجٍ مِنْها) (۱). فهو فی الضلالهٔ لیس بخارج منها أبداً إلّا بإذن اللّه. ۲۸. ثمّ آخرون «اتّخذوا» من بعد الهدی(عِجْلاً جَسَداً) (۲) فضلّوا به، فعفا عنهم لعلّهم یشکرون،فصاروا (مِنْ قَوْمِ مُوسی أُمّهٌ یَهْدُونَ بِالحَقِّ وبِهِ یَعْدِلُونَ) (۳) وصاروا إلی ما سبق لهم. ثمّ ضلّت ثمود بعد الهدی فلم یعف عنهم ولم یرحموا، فصاروا فی علمه إلی (صَیْحَهً واحِدَهً فَإذا هُمْ خامِدُونَ)(۴)، فنفذوا إلی ما سبق لهم، لأنّ صالحاً رسولهم وأنّ الناقهٔ (فِتْنَهً لَهُمْ) (۵) وأنّه مماتهم کفّاراً، فعقروها. _____

۱ . لأنعام:۱۲۲.

۲ . الأعراف:۱۴۸.

۳ . الأعراف:۱۵۹.

۴ . یس:۲۹.

۵ . القمر:۲۷. (۲۷۷)

۲۹. وکان إبلیس فیما کانت فیه الملائکهٔ من التسبیح والعبادهٔ فابتلی فعصی فلم یرحم، وابتلی آدم فعصی فرحم. وهمّ آدم بالخطیئهٔ فنسی، وهمّ یوسف بالخطیئهٔ فعصم، فأین کانت الاستطاعهٔ عند ذلک؟ هل کانت تغنی شیئاً فیما کان من ذلک حتی لا یکون، أو تغنی فیما لم یکن حتی یکون، فنعرف لکم بذلک حجّهٔ؟ بل اللّه أعزّممّا تصفون وأقدر. ۳۰. وأنکرتم أن یکون سبق لأحد من اللّه

ضلالـة أو هـدى، وإنّما علمه بزعمكم حافظ وإنّ المشـيئة فى الأعمال إليكم، إن شـئتم أحببتم الإيمان فكنتم من أهل الجنة. ثمّ جعلتم بجهلكم حـديث رسول اللّه ـ صـلّى الله عليه وآله وسـلّم ـ الـذى جاء به أهل السـنّة ـ و هو مصـدق للكتاب المنزل ـ أنّه من ذنب مُضاه ذنباًخبيثاً، فى قول النبى ـ صـلّى الله عليه وآله وسـلّم ـ حين سأله عمر: «أرأيت ما نعمل أشـىء قـد فرغ منه أم شـىء تأتنفه؟ فقال ـ عليه السّلام ـ : «بـل شـىء قـد فرغ منه». فطعنتم بالتكـذيب له ، و تعليم من اللّه فى علمه إذ قلتم: إن كنّا لا نسـتطيع الخروج منه فهو الجبر. والجبر عندكم الحيف. ۳۱. فسـمّيتم نفاذ علم اللّه فى الخلق حيفاً. ۳۲. وقـد جاء الخبر أنّ اللّه خلق آدم فنثر ذريّته فى يـده فكتب أهل الجنّـة ومـا هم عـاملون، وكتب أهـل النـار ومـا هم عاملون. وقال سـهل بن حنيف يوم صـفين : أيّها الناس، اتهموا رأيكم على دينكم، فوالذى نفسى بيده، لقد رأيتنا يوم أبى جندل ولو نستطيع رد أمر رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ لرددناه. واللّه ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلاّأسـهلت بنا على أمر نعرفه قبل أمركم هـذا. ۳۳. ثمّ أنتم بجهلكم قـد أظهرتم دعوة حقّ على تأويل باطل تـدعون الناس إلى ردّ علم اللّه فقلتم: الحسنة من اللّه والسيّئة من أنفسنا ;وقال أئمّتكم وهم أهل السنّة:الحسنة من اللّه فى قدر سبق، والسيّئة من أنفسنا فى علم قد سبق. ۳۴. فقلتم: لا يكون ذلك حتّى يكون بدؤها من أنفسنا كما بدء السيّئة من أنفسنا. (۲۷۸)

۳۵. وهـذا رد الكتاب منكم ونقض الـدين، وقـد قال ابن عباس رضـى اللّه عنه حين نجم القول فى القـدر: هذا أوّل شـرك هذه الأُمّة، واللّه، مـا ينتهى بهم سـوء رأيهم حتّى يخرجـوا اللّه من أن يكـون قـدر خيراً كمـا أخرجوه من أن يكون قـدر شـراً. ۳۶. أنتم تزعمون بجهلكم أنّ من كان فى علم اللّه ضالاً فاهتدى، فهو بما ملك ذلك حتّى كان فى هداه ما لم يكن اللّه علمه فيه، وأنّ من شـرح صدره للإسـلام فهو ممّا فوض إليه قبل أن يشرحه اللّه له، وأنّه إن كان مؤمناً فكفر فهو ممّا شاء لنفسه وملك من ذلك لها وكانت مشيئته فى كفره أنفذ من مشيئة اللّه فى إيمانه. ۳۷. بل أشـهد أنّه من عمل حسنة فبغير معونة كانت من نفسه عليها، وأنّ من عمل سيئة فبغير حجّة كانت له فيها وأنّ الفضل بيـد اللّه يؤتيه من يشاء وأنّ اللّه لو أراد أن يهـدى الناس جميعاً لنفـذ أمره فيمن ضلّ حتّى يكون مهتدياً. ۳۸. فقلتم: بمشـيئته شاء لكم تفويض الحسنة إليكم وتفويض السيئة، ألقى عنكم سابق علمه فى أعمالكم وجعل مشيئته تبعاً لمشيئتكم. ۳۹. ويحكم، فواللّه، ما أمضى لبنى إسرائيل مشيئتهم حين أبوا أن يأخذوا ما آتاهم بقوّة حتى نتق(الجَبَلَ فَوْقَهُم كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ) (۱). فهل رأيتموه أمضـى مشـيئة لمن كان قبلكم فى ضـلالته حين أراد هداه حتى صار إلى أن أدخله بالسيف فى الإسلام كرهاً بموقع علمه بذلك فيه؟ أم هـل أمضـى لقوم يونس مشـيئتهم حين أبوا أن يؤمنوا حتى أظلّهم العـذاب ف آمنوا و قبـل منهم، ورد على غيرهم الإيمان فلم يقبل منهم. وقال:(فَلَمّا رأوا بَأْسـنا قالُوا آمَنّا باللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرنا بما كُنّا بِهِ مُشْـرِكين* فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لما رأَوا بَأْسَـنا سُنّةَ اللّهِ الّتى قَدْ خَلَتْ فى عِبادِهِ) (۲) أى علم اللّه الذى قد خلا فى خلقه(وَخَسِرَ هُنالِكَ _____

۱ . الأعراف:۱۷۱.

۲ . غافر:۸۴ـ۸۵. (۲۷۹) الكافِرُون)(۱)وذلـك كـان موقعهم عنـده أن يهلكوا بغير قبول منهم، بل الهـدى والضـلالة والكفر والإيمان والخير والشر بيد اللّه يهدى من يشاء ويذر من يشاء (فى طُغيانهم يَعْمَهُون) (۲). كذلك قال إبراهيم ـ عليه السّلام ـ : (رَبِّ ... واجْنُبْنى وَبَنِىَّ أَنْ نعبُدَ الأَصنامَ) (۳)، قال: (رَبّنا وَاجْعَلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرّيّتِنَا أُمّةً مُسْلِمةً لَكَ)(۴)، أى إنّ الإيمان والإسلام بيدك وإنّ عبادة من عبد الأصنام بيدك، فأنكرتم ذلك وجعلتموه ملكاً بأيديكم دون مشيئة اللّه عزّوجلّ.

۴۰. وقلتم فى القتـل إنّه بغير أجل. ۴۱. وقـد سـمّاه اللّه لكم فى كتابه فقال ليحيى: (وَسَـلامٌ عَلَيهِ يَومَ وُلِدَ ويَومَ يَمُوتُ وَيَومَ يُبْعَثُ حَيّاً) (۵) فلم يمت يحيى إلاّ ـ بالقتـل، وهو موت كمـا مـات من قتـل شـهيداً أو قتـل خطأ كما مات بمرض أو بفجأة، كلّ ذلك موت بأجل استوفاه ورزق استكمله وأثر بلغه ومضجع برز إليه، (وَ ما كانَ لِنَفْس أَنْ تَمُوتَ إِلاّ بِإِذنِ اللّهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً) (۶) ولا تموت نفس ولها فى الـدنيا عمر ساعـة إلاّ بلغته ولا موضع قدم إلاّ وطئته ولا مثقال حبة من رزق إلاّ اسـتكملته ولا مضـجع حيث كان إلاّبرزت إليه، يصدق ذلك قول اللّه عزّوجلّ(قُلْ لِلّـذِينَ كَفَرُوا سَـتُغْلَبُون و تُحْشَـرُون إِلى جَهَنّم) (۷)، فأخبر اللّه بعـذابهم بالقتل فى الـدنيا وفى الآخرة بالنار وهم أحيـاء بمكـة. ۴۲. وتقولـون أنتـم: إنّهـم قـد كـانوا ملكـوا رد علم اللّه فى العـذابين الـذين أخـبر اللّه ورسـوله أنّهمـا نازلاـن بهم.

۱ . غافر:۸۵.

۲ . الأعراف:۱۸۶.

۳ . إبراهيم:۳۵.

۴ . البقرة:۱۲۸.

۵ . مريم:۱۵.

۶ . آل عمران:۱۴۵.

۷ . آل عمران:۱۲. (۲۸۰)

۴۳. فقال: (ثانیَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ لَهُ فِی الدُّنيا خِزْیٌ) (۱) يعنی القتل يوم بدر (ونُذِيقُهُ يَومَ القِيامَةِ عَذابَ الحَرِيقِ) (۲) فانظروا إلی ما أرادكم فيه رأيكم كتاباً سبق فی علمه بشقائكم إن لم يرحمكم. ۴۴. ثمّ قول رسول اللّه ـ صلَّی الله عليه وآله وسلَّم ـ : «بنی الإسلام علی ثلاثة أعمال: الجهاد ماض منذ يوم بعث اللّه رسوله إلی يوم تقوم فيه عصابة من المؤمنين يقاتلون الدجّال لا ينقض ذلك جور جائر ولا عدل عادل، والثانية: أهل التوحيد لا تكفروهم بذنب ولا تشهدوا عليهم بشرك ولا تخرجوهم من الإسلام بعمل، والثالثة: المقادير كلّها خيرها وشرها من قدر اللّه». فنقضتم من الإسلام جهاده، وجرّدتم شهادتكم علی أُمّتكم بالكفر وبرئتم منهم ببدعتكم، وكذبتم بالمقادير كلّها والآجال والأعمال والأرزاق، فما بقيت فی أيديكم خصلة بنی الإسلام عليها إلّانقضتموها وخرجتم منها. *** هذه رسالة عمر بن عبد العزيز إلی بعض القدريين مجهولی الهوية، وقد نسب إليهم إنكار علمه الأزلی فی أفعال العباد، ومصائرهم، ونحن نتبرّأ ممّن ينكر علمه الوسيع المحيط بكلّ شیء، ونؤمن بما قاله سبحانه: (وَلا رَطْبٍ وَلا يابس إِلّا فی كِتاب مُبِين). (۳)

وقوله سبحانه: (ما أَصابَ مِنْ مُصيبَة فِی الأَرْضِ وَلا فِی أَنفُسِكُمْ إِلّا فِی كتاب من قَبلِ أَنْ نَبرَأَها إِنَّ ذلكَ عَلی اللّهِ يَسير) .(۴) ولكن نتبرّأ من كلّ من جعل علمه السابق ذريعة إلی نسبة الجبر إلی اللّه سبحانه، ونؤمن بأنّ علمه السابق المحيط لا يكون مصدراً لكون العباد مجبورين فی مصائرهم وأنّهم يعملون ويفعلون، ويختارون بمشيئتهم التی منحها اللّه لهم فی حياتهم، ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيا من حیّ عن بيّنة. _____

۱ . الحج:۹.

۲ . الحج:۹.

۳ . الأنعام:۵۹.

۴ . الحديد:۲۲. (۲۸۱)

فمنكر علمه السابق المحيط بكلّ شیء ضالّ مضلّ، ومن استنتج منه الجبر مثله فی الضلالة والغواية، عصمنا اللّه جميعاً من الزلّة، والعثرة فی العلم والعمل. ولأجل أن يقف القارئ الكريم علی أنّه كان فی تلك العصور الحرجة رجال من أهل السنّة يذهبون إلی غير ما ذهب إليه أصحاب السلطة الأمويون ننشر رسالة الحسن البصری فی ذلك المجال، وهی رسالة قيمة.(۱) _____

۱ . الهدف هو نشر هذه الرسالة لما فيها من فائدة، ولا صلة له بتقييم الحسن البصری فی كلّ ما يقول أو ما يروی عنه أو ينسب إليه، فإنّ لبيان ذلك مجالاً آخر. (۲۸۲)

۴. رسالة الحسن البصری فی الدفاع

۴. رسالة الحسن البصری فی الدفاع عن نظرية الاختيار

قال القاضى عبد الجبار:المشهور أنّ عبد الملك بن مروان كاتبه بأنّه قد بلغنا عنك من وصف القدر ما لم يبلغنا عن أحد من الصحابة، فاكتب بقولك إلينا فى هذا الكتاب، فكتب إليه: بسم اللّه الرّحمن الرّحيم سلام عليك أمّا بعد: فإنّ الأمير أصبح فى قليل من كثير مضوا، والقليل من أهل الخير مغفول عنهم، و قديماً قد أدركنا السلف الذين قاموا بأمر اللّه، واستنّوا بسنّة رسوله، فلم يبطلوا حقاً، ولا ألحقوا بالرب تعالى إلاّ ما ألحق بنفسه،ولا يحتجون إلاّ بما احتج اللّه تعالى به على خلقه بقوله الحقّ:(وَماخَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ لِيعبُدُونِ) (۱). ولم يخلقهم لأمر ثمّ حال بينهم و بينه، لأنّه تعالى ليس بظلام للعبيد ولم يكن فى السلف من ينكر ذلك ولا يجادل فيه، لأنّهم كانوا على أمر واحد متسق.(۲) وإنّما أحدثنا الكلام فيه، حيث أحدث الناس النكرة له، فلمّا أحدث المحدثون فى دينهم ما أحدثوه، أحدث المتمسّكون بكتابه ما يبطلون به المحدثات، ويحذرون به من المهلكات. _____

۱ . الذاريات:۵۶.

۲ . فى مخطوطة أيا صوفيا:متفقين. (۲۸۳)

وذكر: إنّ الذى أوقعهم فيه تشتت الأهواء، وترك كتاب اللّه تعالى، ألم تر إلى قوله: (قُلْ هاتُوا بُرهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقِين) (۱). فافهم أيّها الأمير ما أقوله، فإنّ ما نهى اللّه عنه فليس منه، لأنّه لا يرضى ما يسخط، وهو من العباد، فإنّه تعالى يقول: (ولا يَرضى لِعبادِهِ الكُفرَ وَإنْ تشكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) .(۲) فلو كان الكفر من قضائه وقدره، لرضى به ممّن عمله، وقال تعالى: (وَقَضى ربُّكَ أَلاّ تَعْبُدُوا إلاّ إيّاهُ) (۳)؟! وقال: (وَالّذى قدَّرَ فَهَدى) (۴) ولم يقل والذى قدّر فأضل، لقد أحكم اللّه آياته وسنّة نبيّه ـ عليه السّلام ـ فقال: (قُلْ إنْ ضَلَلتُ فَإنّما أَضِلُّ عَلى نَفسِى وَإنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِى إلَىَّ رَبِّى)(۵). وقال: (الّذى أَعطى كُلَّ شَىْء خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى) (۶). ولم يقل ثمّ أضل، وقال: (إنّ عَلَيْنا لَلْهُدى) (۷)، ولم يقل إنّ علينا للضلال ولا يجوز أن ينهى العباد عن شىء فى العلانية، ويقدره عليهم فى السر، ربّنا أكرم من ذلك وأرحم ولو كان الأمر كما يقول الجاهلون ما كان تعالى يقول: (اعْمَلُوا ما شِئْتُم)(۸). ولقال: اعملوا ما قدرت عليكم، وقال: (لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أنْ يَتقدَّمَ أو يَتأَخَّرَ) (۹). لأنّه جعل فيهم من القوّة ذلك لينظر كيف يعملون، ولو كان الأمر كما قاله المخطئون، لما كان إليهم أن يتقدّموا ولا يتأخّروا،ولا كان لمتقدم حمد فيما عمل، ولا على متأخّر لوم، ولقال: جزاء بما عمل بهم، ولم يقل جزاء بما عملوا وبما كسبوا، وقال تعالى: (وَنَفْس وَما سَوّاها* فَأَلْهَمَها فُجُورَها _____

۱ . النمل: ۶۴.

۲ . الزمر:۷.

۳ . الإسراء:۲۳.

۴ . الأعلى: ۳.

۵ . سبأ:۵۰.

۶ . طه:۵۰.

۷ . الليل:۱۲.

۸ . فصلت: ۴۰ .

۹ . المدثر:۳۷. (۲۸۴) وَتَقواها) .(۱) أى بيّن لها ما تأتى و ما تذر ثمّ قال: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها* وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها).(۲) فلو كان هو الذى دسّاها ما كان ليخيب نفسه، تعالى عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً، وقوله تعالى: (رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعفاً فِى النّار).(۳)

فلو كان اللّه هو الذى قدّم لهم الشر، ما قال ذلك، وقال تعالى: (رَبّنا إنّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا)(۴). فالكبراء أضلّوهم دون اللّه تعالى، بل قال تعالى: (إنّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إمّا شاكِراً وَإمّا كَفُوراً)(۵) (وَمَنْ شَكَرَ فَإنّما يَشْكُرُلِنَفْسِهِ) (۶). وقال: (وَأَضلَّ فِرعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدَى).(۷) وقال تعالى: (وما أَضَلَّنا إلاّ المُجْرِمُون) (۸). (وأَضَلَّهُمُ السّامِرِى) (۹). (إنَّ الشيطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ)(۱۰). (فَزَيَّنَ لَهُمُ

الشّيطانُ أعْمَالَهُم).(۱۱) و قال: (وَ أمّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحبُّوا العَمى عَلى الهُدى)(۱۲)فكان بدو الهدى من اللّه واستحبابهم العمى بأهوائهم وظلم آدم نفسه، ولم يظلمه ربّه فقال:(رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا)(۱۳). وقال موسى :(هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيطانِ إنّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِين)(۱۴) . فغواه أهل الجهل وقالوا: (فَإنَّ _____

۱ . الشمس:۷ و ۸.

۲ . الشمس:۹و ۱۰.

۳ . ص:۶۱.

۴ . الأحزاب:۶۷.

۵ . الإنسان:۳.

۶ . لنمل:۴۰.

۷ . طه:۷۹.

۸ . الشعراء:۹۹.

۹ . طه:۸۵.

۱۰ . الإسراء:۵۳.

۱۱ . النحل:۶۳.

۱۲ . فصلت:۱۷.

۱۳ . الأعراف:۲۳.

۱۴ . القصص:۱۵. (۲۸۵) اللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ويَهْدِى مَنْ يَشاءُ)(۱) ولِمَ لم ينظروا إلى ما قبل الآيـة وما بعـدها، ليبيّن لهم أنّه تعالى لا يضـلّ إلاّ بتقـدّم الكفر والفسق، كقوله تعالى: (ويُضِلُّ اللّهُ الظّالِمِينَ)(۲). وقـوله: (فَلَمّـا زَاغُوا أزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ) (۳). (ومـا يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفاسِقِين) (۴).

وبين الحسن فى كلامه الوعيـد، فقال: إنّه تعالى قال: (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَـةُ العَذَابِ أَفأنتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النّارِ)(۵). وقال :(كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الّذِيَن فَسَقُوا) .(۶) وقال تعالى: (أُدْخُلُوا فِى السّلْمِ كَافَّةً) (۷). فكيف يدعوهم إلى ذلك وقد حال بينهم وبينه؟ وقال: (وَما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إلاّ لِيُطاعَ بِإذْنِ اللّهِ)(۸). فكيف يجوز ذلـك و قـد منع خلقه من طاعته؟ قال: والقوم ينازعون فى المشيئة وإنّما شاء اللّه الخير بمشيئته قال: (يُرِيـدُ اللّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسرَ) (۹). وقـال فى ولـد الزنى إنّه من خلق اللّه، وإنّما الزانى وضع نطفته فى غير حقّهـا، فتعـدّى أمر اللّه، واللّه يخلق من ذلـك مـا يشـاء وكـذلك صـاحب البـذر إذا وضـعه فى غير حقّه.(۱۰) وقال فى الرسالة: إنّ اللّه تعالى أعدل وأرحم من أن يعمى عبداً، ثمّ يقول له: أبصر وإلاّ عذبتك، وإذا خلق اللّه الشقى شقياً، ولم يجعل له سبيلاً إلى السـعادة فكيف يعـذبه؟! وقد قال اللّه تعالى لآدم وحواء: (فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ)(۱۱). فغلبهما الشيطان على هواه ثمّ قال: (يا بَنِى _____

۱ . فاطر:۸.

۲ . إبراهيم:۲۷.

۳ . الصف:۵.

۴ . البقرة: ۲۶ .

۵ . الزمر:۱۹.

۶ . يونس:۳۳.

۷ . البقرة:۲۰۸.

۸ . النساء:۶۴.

۹ . البقرة:۱۸۵.

۱۰ . کذا فی النسخة والظاهر: حقله.

۱۱ . الأعراف:۱۹. (۲۸۶) آدَمَ لا یَفْتِنَنَّکُمُ الشَّیطانُ کَما أَخرجَ أَبَوَیْکُمْ مِنَ الجِنَّةِ) .(۱) ولیس للشیطان علیهم سلطان إلّا لیعلم من یؤمن بالآخرة ممّن هو منها فی شک. وبعث اللّه الرسول نوراً ورحمة فقال: (اسْتَجِیبُوا للّهِ وللرّسُولِ) (۲) وقال: (اسْتَجِیبُوا لرَبِّکُم) (۳) وقال: (أَجِیبُوا داعِیَ اللّهِ) (۴) و(وَأَنَّ هذا صِراطِی مُسْتَقِیماً فاتَّبِعُوه)(۵) وقال: (وَما کُنّا مُعذِّبِینَ حَتّی نَبْعَثَ رَسُولاً) (۶) فکیف یفعل ذلک ثمّ یعمیهم عن القبول. وقال تعالی: (إِنَّ اللّهَ یَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسانِ) (۷) وینهی عمّا أمر به الشیطان قال فی الشیطان : (یَدْعُوا حِزْبَهُ لِیَکُونُوا مِنْ أَصحابِ السَّعِیرِ) (۸) فمن أجاب الشیطان کان من حزبه، فلو کان کما قال الجاهلون لکان إبلیس أصوب من الأنبیاء ـ علیهم السَّلام ـ إذ دعاؤه إلی إرادة اللّه تعالی وقضائه، ودعت الأنبیاء إلی خلاف ذلک، وإلی ما علموا أنّ اللّه قد حال بینهم و بینه.

وقال القوم فیمن أسخط اللّه: إنّ اللّه جبلهم علی إسخاطه، وکیف یسخط أن عملوا بقضائه علیهم وإرادته، واللّه یقول: (ذلِکَ بِما قَدَّمَتْ یَداکَ) (۹) وهؤلاء الجهّال یقولون: إنّ اللّه قدّمه وما أضلّهم سواه: (لِیُرْدُوهُمْ ولِیَلْبِسُوا عَلَیْهِمْ دِینَهُمْ ولو شاءَ اللّهُ ما فَعَلُوهُ)(۱۰) فلو کان الأمر کما زعموا، لکان الدعاء والأمر لا تأثیر له، لأنّ الأمر مفروغ منه، لکن التأویل علی غیر ما قالوه وقد قال تعالی: (ذلِکَ یَوْم مَجْمُوعٌ لَهُ النّاسُ وذلِکَ _____

۱ . الأعراف:۲۷.

۲ . الأنفال:۲۴.

۳ . الشوری:۴۷.

۴ . الأحقاف:۳۱.

۵ . الأنعام:۱۵۳.

۶ . الإسراء:۱۵.

۷ . النحل:۹۰.

۸ . فاطر:۶.

۹ . الحج:۱۰.

۱۰ . الأنعام:۱۳۷. (۲۸۷) یَومٌ مَشْهُود) (۱)، والسعید ذلک الیوم هو المتمسّک بأمر اللّه والشقی هو المضیع.

وقال فی الرسالة: واعلم أیّها الأمیر، أنّ المخالفین لکتاب اللّه تعالی وعدله یحیلون فی أمر دینهم بزعمهم علی القضاء والقدر ثمّ لا یرضون فی أمر دنیاهم إلّا بالاجتهاد والتعب والطلب والأخذ بالحزم فیه. وذلک لثقل الحقّ علیهم، ولا یعولون فی أمر دنیاهم وفی سائر تصرفهم علی القضاء والقدر، فلو قیل لأحدهم: لا تستوثق فی أُمورک، ولا تقفل حانوتک احترازاً لمالک و اتّکل علی القضاء والقدر، لم یقبل ذلک، ثمّ یعوّلون علیه فی الذی قال: وما یحتجون به أنّ اللّه تعالی قبض قبضة فقال: «هذا فی الجنّة و لا أُبالی. وقبض أُخری و قال: هذا فی النار ولا أُبالی». فإنّهم یرون ربّهم یصنع ذلک، کالمقارع بینهم المجازف، فتعالی اللّه عمّا یصفونه. فإن کان الحدیث حقّاً، فقد علم اللّه تعالی أهل الجنّة وأهل النار، قبل القبضتین وقبل أن خلقهم، فإنّما قبض اللّه أهل الجنة الذین فی علمه أنّهم یصیرون إلیها، و إنّما مرادهم أن یقرروا فی نفوس الذین یقبلون ما رووه، أن تکون أعمال الناس هباءً منثوراً، من حیث قد فرغ من الأمر، وکیف یصح ذلک مع قوله: (تَکادُ السَّماواتُ یَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ و تَنْشَقّ الأرضُ وتَخِرُّالجِبَالُ هَدّاً* أن دَعَوْا للرّحمنِ وَلَداً)(۲) وهو الذی حملهم علیه. وما معنی قوله: (فَما لَهُمْ لا یُؤْمِنُون) (۳) وقد منعهم؟ وکیف یقول: (ما کانَ لأَهلِ المَدینةِ ومَن حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعرابِ أَنْ

يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللّهِ) (۴) بـل كان يجب أن يقول: ما كان لأهل المدينـة أن يعملوا بما قضـيت عليهم(۵)، ولمـا قال: (فَلَولا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسادِ فِی _____

۱ . هود:۱۰۳.

۲ . مريم:۹۰ـ۹۱.

۳ . الانشقاق:۲۰.

۴ . التوبة:۱۲۰.

۵ . كذا فی النسخة والظاهر: إلاّ بما قضيت عليهم. (۲۸۸) الأرْضِ) (۱). وهو الذی حال بينهم و بين الطاعة.

وإذا كـان الأـمر مفروغـاً منه، فكيف يقول: (لَيْسَ عَلَىالأـعْمَى حَرَجٌ ولاـ عَلَى الأـعْرَجِ حَرَجٌ ولاـ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ) (۲) وكيف ابتلى العبـاد فعـاقبهم على فعلهم؟ وكيف يقول:(إِنّا هَـدَيْناهُ السَّبيلَ إِمّا شاكِراً وَإِمّا كَفُوراً) (۳) وكيف يقول: (قَـدَّرَ فَهَدَى) (۴) ولم يقل قدّر فأضـل، وكيف يصـحّ أنّه خلقهم للرّحمـة والعبـادة بقوله: (فِطْرَةَ اللّهِ الّتی فَطَرَالنّـاسَ عَلَيْهـا)(۵) وقـوله : (فَطَرَكُـمْ أَوّلَ مَرَّةٍ) (۶) وقوله: (إِلاّمَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ) (۷) فإذا خلقهم لذلك، فكيف يصحّ أن لا يجعل لهم سبيلاً، ويقرهم على السعادة والشقاء على ما يذكرون. وكيف يبتلی إبليس بالسجود لآدم، فإذا عصى يقول له(فَاهْبِطْ مِنها) (۸) ويجعله شيطاناً رجيماً؟ وكيف يقول:(فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها) (۹) وكيف يحـذر آدم عـداوته. إن كان الأمر مفروغاً منه على ما تقولون؟ وقال فی الرسالـة: واعلم أيّها الأمير ما أقول: إنّ اللّه تعالى لم يخف عليه بقضائه شـیء، ولم يزدد علماً بالتجربـة، بل هو عالم بما هو كائن وما لم يكن، ولـذلك قال: (ولَوْ بَسَـطَاللّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا)(۱۰)، (ولَوْلا أَنْ يَكُونَ النّاسُ أُمّةً واحِدَةً)(۱۱) فعلم سبحانه أنّه خلق خلقاً من ملائكة وجن وإنس، وأنّه يبتليهم قبل أن يخلقهم، وعلم ما يفعلون كما قدّر أقواتهم، وقدّر ثواب أهل _____

۱ . هود:۱۱۶.

۲ . النور:۶۱.

۳ . الإنسان:۳.

۴ . الأعلى:۳.

۵ . الروم:۳۰.

۶ . الإسراء:۵۱.

۷ . هود:۱۱۹.

۸ . الأعراف:۱۳.

۹ . الأعراف:۱۳.

۱۰ . الشورى:۲۷.

۱۱ . الزخرف:۳۳. (۲۸۹)

الجنّـة وعقـاب أهـل النار قبل ذلك، ولو شاء إدخال العصاة النار لفعل، لكنّه سـهل سبيلهم لتكون الحجـة البالغـة له على خلقه، والعلم ليس بـدافع إلى معاصـيه، لأـنّ العلم غير العمل، (فَتَبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالِقِين) .(۱) وقال: فی قولهم فی الضـلال والهدى، وقوله: (وَلو شـاءَ ربُّكَ لآـمَنَ مَنْ فِی الأرضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً) (۲)، (وَلَو شـاءَ اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُـدَى) (۳)، لأنّ المراد بـذلك إظهار قـدرته على ما يريده كما قال: (إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السّمَاءِ) (۴)، (ولو نشاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ)(۵)، (ولَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ)(۶)، (ولَوْ شِـئْنَا لَبَعَثْنَا فِی كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً)(۷)، و قـال: (فَلَعَلَـكَّ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا) (۸)، حتّى بلغ من قوله أن قال:(فَإِنِ اسْـتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِیَ نَفَقاً فِی الأَرضِ أَو سُـلَّماً فِی السَّماءِ)(۹) ، فإنّما يـدلّ بذلك رسوله على قدرته، فكذلك

غير الـذى شـاء منهم،ولـذلك قـال فى حجتهم يـوم القيامـة ردّاً عليهم لقـولهم: (لَوْ أَنَّ اللّهَ هَـدانِى لَكُنتُ مِنَ المُتَّقِينَ)(۱۰) ورد ذلك بقوله: (بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِى فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ).(۱۱) وقال تعالى بعد ما حكى عنهم قولهم: (لو شاءَ الرّحمَنُ ما عَبَدْنَاهُمْ ما لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْم إنْ هُمْ إلاّ ـ يَخْرُصُونَ).(۱۲) وقال تعالى بعـد ما حكى عنهم قولهم: (سَيَقُولُ الّـذِينَ أشْـرَكُوا لَوْ شَاءَ اللّهُ ما أشْـرَكْنَا ولاَ آباؤُنا ولا حَرَّمنا مِنْ _____

۱ . المؤمنون:۱۴.

۲ . يونس:۹۹.

۳ . الأنعام:۳۵.

۴ . سبأ:۹.

۵ . يس:۶۷.

۶ . يس: ۶۶ .

۷ . الفرقان:۵۱.

۸ . الكهف:۶.

۹ . الأنعام:۳۵.

۱۰ . الزمر:۵۷.

۱۱ . الزمر:۵۹.

۱۲ . الزخرف:۲۰. (۲۹۰) شَيْء) (۱) مكـذباً لهم:(كَذلِكَ كَذَّبَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّى ذاقُوا بَأْسَـنا) (۲)، فنعوذ بـاللّه ممن ألحق باللّه الكـذب. وجعلوا القضاء والقـدر معـذرة، وكيف يصحّ ذلك مع قوله: (وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظّالمين) (۳)؟! وكيف يصحّ أن يقول: (وَما أَصابَكَ مِنْ سَـيِّئَة فَمِنْ نَفْسَكَ)(۴)؟! أى العقوبـة التى أصابتـك هى من قبل نفسك بعملك. ولو شاء تعالى أن يأخـذهم بالعقوبـة من دون معصـية لقـدر على ذلـك، لكنّه رؤوف رحيم. ولـذلك أرسل موسـى إلى فرعون و قـد قال: (ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إله غَيْرِى)(۵) فقـال: (فَقُولا لَهُ قَولاً لَيِّنَاً)(۶) وقـال: (اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إنّهُ طَغَى) (۷) (فَقُـلْ هَلْ لَكَ إلى أنْ تَزكّى) (۸) وقال:(وَلَقَدْ أَخذنا آلَ فِرْعَـونَ بِـالسِّنينَ وَنَقْص مِـنَ الثَّمراتِ لَعلَّهُمْ يَـذَّكَّرون) (۹) فيتوبون، فلمّـا لجّوا فى كفرهم بعـد ذلـك الأـمر والترغيب إلى طـاعته، أخذهم بما فعلوا.

قـال: ثمّ انظر أيّها الأمير، كيف صـنيعه لمن أطاع فقال: (إلاّقَوْمَ يُونُسَ لمّا آمَنُوا كَشَـفْنا عَنْهُمْ عَـذابَ الخِزْيِ فِى الحَياةِ الـدُّنيا ومَتَّعْناهُمْ إلى حِين)(۱۰) ، (ولَوْ أنَّ أهْلَ القُرى آمَنُوا وَاتَّقوا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ)(۱۱) ، (ولو أنّهُمْ أقامُوا التوراةَ والإنجيل)(۱۲) ، و قال موسى: (ادْخُلُوا الأـرضَ المُقَدَّسَـةَ الّتِى كَتَبَ اللّهُ لَكُـمْ ولاـ تَرْتَـدُّوا عَلَى أدْبـارِكُمْ فَتَنْقَلِبُـوا خاسِـرِينَ)(۱۳) ، وقـال: (فَلَمّـا عَتَوْا عَنمّـا نُهُوا عَنْهُ قُلْنا

۱ . الأنعام:۱۴۸.

۲ . الأنعام:۱۴۸.

۳ . الزخرف:۷۶.

۴ . النساء: ۷۹.

۵ . القصص: ۳۸ .

۶ . طه:۴۴.

۷ . طه:۲۴.

۸ . النازعات:۱۸.

۹ . الأعراف:۱۳۰.

۱۰ . يونس:۹۸.

۱۱ . الأعراف:۹۶.

۱۲ . المائدة: ۶۶.

۱۳ . المائدة:۲۱. (۲۹۱) لَهُمْ كُونُوا قِرَدةً خاسِئِينَ)(۱) ، فهذا صنيعه بأهل طاعته، وما قدّمناه صنيعه بأهل معاصيه عاجلًا، فإذا هم اتّبعوا أهواءهم، عاقبهم بما يستحقون.

وقال فى الرسالة: ولا يصحّ الجبر إلّا بمعونة اللّه، ولذلك قال لمحمّد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: (وَلولا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيهِمْ شَيئاً قَليلًا) (۲) ، وقال يوسف ـ عليه السَّلام ـ: (وإلّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) (۳) فقد بيّن وأمر ونهى، وجعل للعبد السبيل على عبادته، وأعانه بكلّ وجه ولو كان عمل العبد يقع قسراً لم يصحّ ذلك. هذا نصّ الرسالة نقلناها برمتها عن «فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة» للقاضى عبد الجبار ص ۲۱۶ـ ۲۲۳. قال المعلّق على كتاب القاضى: رسالة الحسن إلى عبد الملك بن مروان مطبوعة فى مجلة«دار الإسلام» طبعها رويتر عدد ۲۱ سنة ۱۹۳۳ م ـ وأضاف ـ منها نسخة من مكتبة أيا صوفيا استنبول برقم ۳۹۹۸. وهذه الرسالة تعترف بعلمه السابق ولكن تنكر كونه موجباً للجبر بمحكم آياته. ومن لطيف كلامه فى الرسالة قوله: «والعلم ليس بدافع إلى معاصيه، لأنّ العلم غير العمل». كلام مؤلّف كتاب المعتزلة

إنّ عامة المسلمين فى صدر الإسلام كانوا يؤمنون بالقدر خيره وشره من اللّه تعالى وأنّ الإنسان فى هذه الدنيا مسيّر لا مخيّر وأنّ القلم قد جفّ على علم اللّه، وقد قال أحد رجاز ذلك الزمان معبراً عن تلك العقيدة: _____

۱ . الأعراف:۱۶۶.

۲ . الإسراء:۷۴.

۳ . يوسف:۳۳. (۲۹۲)

يا أيّها المضمر همّاً لاتهم * إنّك إن تقدر لك الحمى تحم ولو علوت شاهقاً من العلم * كيف توقيك وقد جف القلم(۱)

يلاحظ عليه: أنّ نسبة كون الإنسان مسيّراً لا مخيّراً إلى عامّة المسلمين خطأ جداً، وإنّما هى عقيدة تسربت إلى المسلمين من بلاط الأمويين، وهم أخذوه من الأحبار والرهبان، وإلّا فالطبقة المثلى من المسلمين كانوا يعتقدون بالاختيار فى مقابل التسيير. و هذه خطب على ـ عليه السَّلام ـ وأبناء بيته الرفيع جاهرة بالاختيار ونفى كون التقدير سالباً للحرية، وهذا هو الحسن البصرى يسأل «الحسن بن على» عن مكانة القدر فى التشريع الإسلامى، وهو ـ عليه السَّلام ـ يجيب بما عرفته.(۲) كيف وإنّ التكليف والوعد والوعيد يقوم على أساس الحرية ولا يجتمع مع الجبر كما أنّ إرسال الرسل لا يتم إلّا بالقول بأنّ الإنسان مخيّر فى اتّباع الرسول ومخالفته مضافاً إلى أنّ تعذيب الإنسان المسيّر ظلم قبيح منفىّ عنه سبحانه عقلًا ونقلًا. وهذه الوجوه كافية فى إثبات أنّ الرأى العام للمسلمين ـ لولا الضغط من البلاط الأموى ـ هو الاختيار. وما تقدم من رسالة عادل بنى أُمية! لأصدق شاهد على أنّ مذهب الجبر أذيع من قبل الحكام الأمويين.

---

۱ . كتاب المعتزلة: ۹۱ نقلًا عن تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: ۲۵.

۲ . لاحظ ص:۲۹۲.

هل الإيمان بخلافة الخلفاء من صميم الدين؟

هل الإيمان بخلافة الخلفاء من صميم الدين؟

إذا كان الخلاف فى الإمامة أعظم خلاف بين الأمّة حسب نظر الشهرستانى إذ قال: «ما سلّ سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة فى كلّ زمان». فيجب على دعاة الوحدة الذين يبذلون سعيهم لتوحيد الصفوف معالجة هذه المسألة من وجهة علمية وفى جو هادئ. فإن حل هذه المسألة ونظائرها يوجب تقارب الخطى، بل يوحّد الصفوف. فإنّ الوحدة بشكلها السلبى الذى يدعو إلى تناسى الماضى، والتغافل عنه من أساسه، وإسدال الستار على كلّ ما فيه من مفارقات، على ما يتبنّاه بعض دعاتها، لا تؤثر ولا تحقّق أُمنيّتهم، وإنّما تحقّق تلك الأمنية لو أثبتت بصورة علمية أنّ جملة كبيرة من صور الخلاف لا تستند على أساس، وإنّما هى وليدة دعايات خلقتها بعض الظروف وغذّاها قسم من السلطات فى عهود خاصة، ولأجل ذلك نطرح هذه المسألة على طاولة البحث حتى تتقارب الأفكار المتباعدة فإنّ الصراع العلمى والجدال بالحقّ، مهما كان بصورة علمية، يكون من أفضل عوامل التقريب ورفع التباعد، فنقول: من راجع الكتب الكلامية لأصحاب الحديث، وبعدهم الأشاعرة وجد أنّهم يعدّون الإيمان بخلافة الخلفاء الأربع وحتى تفاضلهم حسب زمن إمامتهم من صميم الإيمان، ولابدّ أن نأتى ببعض النصوص للقدامى منهم: (۲۹۴)

۱. قال إمام الحنابلة (المتوفّى عام ۲۴۱هـ) فى كتاب السنّة: خير هذه الأُمّة بعد نبيّنا ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أبو بكر، وخيرهم بعد أبى بكر، عمر ;وخيرهم بعد عمر، عثمان ;وخيرهم بعد عثمان، على، رضوان اللّه عليهم خلفاء راشدون مهديّون.(۱) ۲. وقال أبو جعفر الطحاوى الحنفى فى العقيدة الطحاوية المسمّاة بـ«بيان السنة والجماعة»: ونثبت الخلافة بعد النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لأبى بكر الصديق تفضيلاً وتقديماً على جميع الأُمّة ثمّ لعمر بن الخطاب ثمّ لعثمان بن عفان ثمّ لعلى بن أبى طالب عليه السَّلام ـ.(۲) ۳. وقال أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى(المتوفّى عام ۳۲۴هـ) عند بيان عقيدة أهل الحديث وأهل السنّة: ويقرّون بأنّهم الخلفاء الراشدون المهديون أفضل الناس كلّهم بعد النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ.(۳) وقال أيضاً بعد ما استعرض خلافة الأئمّة الأربعة قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ:«الخلافة فى أُمّتى ثلاثون سنة، ثمّ ملك بعد ذلك».(۴) ۴. وقال عبد القاهر البغدادى فى بيان الأُصول التى اجتمع عليها أهل السنّة: وقالوا بإمامة أبى بكر الصديق بعد النبى خلاف من أثبتها لعلى وحده من

---

۱ . كتاب «السنّة» المطبوع ضمن رسائل بإشراف حامد محمد الفقى، وهذا الكتاب ألّفه لبيان مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنّة ووصف من خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طغى فيها، أو عاب قائلها بأنّه مخالف مبتدع وخارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنّة وسبيل الحقّ.

۲ . «شرح العقيدة الطحاوية» للشيخ عبد الغنى الميدانى الحنفى الدمشقى: ۴۷۱ـ ۴۷۸.و قد توفّى الطحاوى عام ۳۲۱هـ

۳ . مقالات الإسلاميين: ۳۲۳.

۴ . «الإبانة عن أُصول الديانة» الباب السادس عشر: ص ۱۹۰ وما ذكره من الحديث رواه أحمد فى مسنده: ۵/۲۲۰ ولاحظ العقائد النسفية: ۱۷۷، ولمع الأدلة للإمام الأشعرى: ۱۱۴. (۲۹۵)

الرافضة، وخلاف قول الراوندية الذين أثبتوا إمامة العباس وحده.(۱) أقول: هذه هى عقيدة هؤلاء الأعلام وغيرهم ممّن كتب فى موضوع الإمامة عن أهل السنّة، ولرفع الستار عن وجه الحقيقة، نبحث فى نواح خاصة لها صلة وثيقة بالموضوع وهذه النواحى عبارة عن: ۱. هل الإمامة والخلافة من أُصول الدين أو من فروعه؟ ۲. هل هناك نصّ فى القرآن أو السنّة فى مسألة الإمامة أو لا؟ ۳. مبدأ ظهور هذه العقيدة؟ ۴. هل هناك نصّ على أفضلية بعضهم على بعض وفق تسلسل زمانهم؟ فإذا تبيّن الحال فى هذه المواضع يتبيّن الحال فى المسألة التى بيّناها آنفاً. أ. هل الإمامة من الأُصول أو من الفروع؟

الشيعة الإمامية على بكرة أبيهم اتّفقوا على كون الإمامة أصلاً من أُصول الدين، و قد برهنوا على ذلك فى كتبهم،ولأجل ذلك يعد الاعتقاد بإمامة الأئمّة من لوازم الإيمان الصحيح عندهم، وأمّا أهل السنّة فقد صرّحوا فى كتبهم الكلامية أنّها ليست من الأُصول، وإليك بعض نصوصهم: ۱. قال الغزالى (المتوفّى عام ۵۰۵هـ): اعلم أنّ النظر فى الإمامة أيضاً ليس من المهمات، وليس أيضاً من فن المعقولات بل من الفقهيات، ثمّ إنّها مثار للتعصّبات، والمعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض فيها، وإن أصاب فكيف إذا

أخطأ؟! ولكن إذ جرى الرسم باختتام المعتقدات بها، أردنا أن نسلك المنهج المعتاد، فإنّ فطام القلوب عن المنهج المخالف للمألوف، شديد النفار. ولكنّا نوجز القول فيه.(۲) _____

۱ . الفرق بين الفرق: ۳۵۰.

۲ . الاقتصاد فی الاعتقاد: ۲۳۴،وفی العبارة صعوبة والظاهر زيادة كلمة «المخالف» وصحيحها «المنهج المألوف». (۲۹۶)

۲. قال الآمدی (۵۵۱ ـ ۶۳۱هـ): واعلم أنّ الكلام فی الإمامة ليس من أُصول الديانات ولا من الأُمور اللابديات بحيث لا يسع المكلّف الإعراض عنها، والجهل بها بل لعمری، إنّ المعرض عنها لأرجی حالاً من الواغل فيها، فإنّها قلّما تنفك عن التعصب والأهواء وإثارة الفتن والشحناء، والرجم بالغيب فی حقّ الأئمّة والسلف بالإزراء، وهذا مع كون الخائض فيها سالكاً سبيل التحقيق، فكيف إذا كان خارجاً عن سواء الطريق. لكن لما جرت العادة بذكرها فی أواخر كتب المتكلّمين والإبانة عن تحقيقها فی عامة مصنّفات الأُصوليّين لم نر من الصواب خرق العادة بترك ذكرها فی هذا الكتاب.(۱) ۳. قال السيّد الشريف (المتوفّی ۸۱۶هـ) فی شرح المواقف: المرصد الرابع فی الإمامة ومباحثها وليست من أُصول الديانات والعقائد خلافاً للشيعة بل هی عندنا من الفروع المتعلّقة بأفعال المكلّفين إذ نصب الإمامة عندنا واجب علی الأُمّة سمعاً، وإنّما ذكرناها فی علم الكلام تأسّياً بمن قبلنا، إذ قد جرت العادة من المتكلّمين بذكرها فی أواخر كتبهم.(۲) ۴. قال الرازی: اتّفقت الأُمّة، إلاّ شذاذاً منهم، علی وجوب الإمامة والقائلون بوجوبها، منهم من أوجبها عقلاً، ومنهم من أوجبها سمعاً، أمّا الموجبون عقلاً، فمنهم من أوجبها علی اللّه تعالی، ومنهم من أوجبها علی الخلق.(۳) وعلی كلّ تقدير فقد اعتبر أهل السنّة هذا الوجوب حكماً شرعياً فرعياً كسائر الأحكام الفرعية الواردة فی الكتاب والسنّة والكتب الفقهية، وإذا تبيّن هذا المطلب فلنبحث عن الموضوع الثانی. ب. هل هناك نصّ علی الإمامة أم لا؟

اتّفقت الشيعة الإمامية علی أنّ المذاهب الحقّ فی باب الإمامة هو القول _____

۱ . غاية المرام فی علم الكلام: ۳۶۳ .

۲ . شرح المواقف:۸/۳۴۴.

۳ . المحصل للرازی: ۴۰۶، ط ايران. (۲۹۷)

بالتنصيص وأنّ النبی الأكرم ـ صلّی الله عليه وآله وسلّم ـ نصّ فی أيام حياته علی الخليفة من بعده، وذلك فی موارد ضبطها التاريخ أشهرها قوله ـ صلّی الله عليه وآله وسلّم ـ فی يوم الغدير، أی الثامن عشر من ذی الحجة الحرام فی عام حجّة الوداع فی منصرفه من مكة عند بلوغه غدير خم رافعاً يد علی ـ عليه السّلام ـ فی محتشد كبير، وهو يقول: «ألست أولی بكم من أنفسكم»؟ قال الناس: نعم، فقال: «من كنت مولاه فهذا علیٌّ مولاه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه». وقد قامت ثلّة كبيرة من علماء الفريقين بضبط طرق هذا الحديث وأسناده، فألّفوا فی ذلك مختصرات ومفصّلات، أجمعها وأعمّها كتاب الغدير لآية اللّه الحجّة الأمينی ـ رضوان اللّه عليه ـ هذا ما عند الشيعة، وأمّا عند السنّة، فالرأی السائد هو عدم التنصيص علی أحد والزعم بأنّ رسول اللّه ـ صلّی الله عليه وآله وسلّم ـ مات ولم يستخلف. فهذا هو إمام الحرمين يقول: وما نص النبی ـ صلّی الله عليه وآله وسلّم ـ علی إمامة أحد بعده وتوليته، إذ لو نص علی ذلك لظهر وانتشر كما اشتهرت تولية رسول اللّه ـ صلّی الله عليه وآله وسلّم ـ وسائر ولاته، وكما اشتهر كلّ أمر خطير.(۱) وقال الأشعری: وممّا يبطل قول من قال بالنصّ علی أبی بكر: أنّ أبا بكر قال لعمر:«ابسط يدك أُبايعك» يوم السقيفة، فلو كان رسولاللّه ـ صلّی الله عليه وآله وسلّم ـ نصّ علی إمامته لم يجز أن يقول أبسط يدك أُبايعك».(۲) وقد عقد ابن كثير الحنبلی فی كتابه «البداية والنهاية» باباً مستقلاً فی أنّ رسول اللّه لم يستخلف وتبعه السيوطی فی «تاريخ الخلفاء».(۳) والمسألة ـ أی عدم وجود النصّ علی المتقمّصين بالخلافة بعد النبی ـ من _____

۱ . لمع الأدلة: ۱۱۴.

۲ . اللمع: ۱۳۶.

۳ . لاحظ البداية:۵/۲۵۰ ;تاريخ الخلفاء: ۷، ط مصر. (۲۹۸)

الوضوح بمكان بحيث لا تحتاج إلى إقامة الدليل عليها، كيف و هذه قصة السقيفة لم نر أحداً فيها من الذين رشّحوا أنفسهم للخلافة، كسعد بن عبادة من الأنصار، وأبى بكر من المهاجرين، استدلّ على صحّة خلافته بنصّ النبى عليه. فهذا هو سعد بن عبادة يقول بعد أن حمد اللّه وأثنى عليه: يا معشر الأنصار لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إنّ محمّداً لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلّا رجال قليل... إلى أن قال: حتّى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة، وخصّكم بالنعمة، فرزقكم اللّه الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه... إلى أن قال: وتوفّاه اللّه وهو عنكم راض وبكم قرير عين، استبدّوا بهذا الأمر دون الناس. هذا منطق مرشّح الأنصار لا ترى فيه تلميحاً إلى وجود النصّ عليه وليس يقصر عنه منطق أبى بكر فى هذا الموقف حين قال: فهم ـ أى المهاجرين ـ أوّل من عبد اللّه فى الأرض، و آمن باللّه وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم فى ذلك إلّا ظالم... إلى أن قال: من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلّامدل بباطل أو متجانف لإثم، أو متورط فى هلكة.(۱) فهذان المنطقان من سعد بن عبادة وأبى بكر يعربان عن عدم وجود النصّ على واحد منهما، وأمّاالخليفتان الآخران فحدث عنهما ولا حرج، فقد رقى عمر بن الخطاب منصّة الخلافة بأمر من أبى بكر عندما دعا عثمان بن عفان فى حال مرضه فقال له: اكتب: بسم اللّه الرّحمن الرحيم... هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين: أمّا بعد، ثمّ أُغمى عليه، فكتب عثمان: قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم يكن خيراً منه، ثمّ أفاق وقال: اقرأ علىَّ، فقرأ عليه _____

۱ . تاريخ الطبرى:۲/۴۵۶، حوادث السنّة ۱۱. (۲۹۹)

فكبّر أبو بكر... إلى أن قال لعثمان: جزاك اللّه خيراً عن الإسلام وأهله، وأمّره أبو بكر من هذا الموضع.(۱) وأمّا عثمان فقد انتخب عن طريق الشورى التى عيّن أعضاءها عمر بن الخطاب عندما طعنه أبو لؤلؤة ـ غلام المغيرة بن شعبة ـ و كان أعضاء الشورى ستة أشخاص وهم: على بن أبى طالب، وسعد بن أبى وقاص، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبد اللّه، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام.(۲) وقد ذكر التاريخ كيفية استلام عثمان للخلافة، فهذا هو التاريخ المسلّم به، يعرب بوضوح عن عدم وجود نصّ على واحد من الخلفاء الثلاث جميعاً، وإلاّ ـ لم يحتج إلى تعيين أوّل الخلفاء لثانيهم وإلى تعيين الشورى وانتخاب الخليفة عن طريقها. وقد قام المحدّثون القدامى منهم والمتأخّرون، بجمع ما ورد من الأحاديث حول الخلافة والإمارة، منهم الإمام أبو السعادات الجزرى فى كتابه «جامع الأُصول من أحاديث الرسول» فقد جمعها فى الجزء الرابع من هذا الكتاب، ومنهم العلّامة علاء الدين على المتقى الهندى(المتوفّى ۹۷۵هـ) فقد جمعها فى كتابه «كنز العمال» الجزء الخامس، ولا يوجد فيه نصّ صريح على واحد من الخلفاء الثلاث. نعم فى المقام روايات تشير إلى أنّ الخلافة من حقّ قريش، و هى أحاديث مشهورة موجودة فى الكتاب الآنف ذكره. إذا وقفت على هذين الأمرين، تقف على أنّ ما ادّعيناه من عدم كون الاعتقاد بخلافة الخلفاء من صميم الدين نتيجة ذينك الأمرين، وذلك لأنّه إذا كان أصل الإمامة والخلافة من الفروع لا من الأُصول، من جانب، وثبت حسب نصوص القوم أنّ النبى لم ينص على خلافة واحد منهم من جانب آخر، غاية ما فى الباب أنّ الأُمّة فى صدر الإسلام قاموا بواجبهم الشرعى أو العقلى حيث كان _____

۱ . الإمامة والسياسة: ۱۸ وص ۲۵، ط مصر ;الشرح الحديدى:۱/۱۶۵.

۲ . تاريخ الطبرى:۳/۲۹۳. (۳۰۰)

نصب الإمام واجباً بأحد الوجهين، فإنّ أقصى ما يمكن أن يقال: إنّ خلافة هؤلاء كانت أمراً صحيحاً غير مخالف للأُصول والقواعد، ولكن يجب أن يعلم أنّه ليس كلّ قضية صحيحة جزءاً من الدين ;وعلى فرض كونها من الدين، فليس كلّ ما هو من الدين يجب أن يعد من العقائد ;وعلى فرض كونها من العقائد، فليس كلّ ما هو يعد من العقائد مائزاً بين الإيمان والكفر أو بين السنّة والبدعة. وهذه مراحل ثلاث يجب أن يركز عليها النظر فنقول: إنّ غاية جهد الباحث حسب أُصول أهل السنّة هى إثبات كون خلافتهم أمراً صحيحاً،

لأنّ نصب الإمام واجب على الأمّة عقلاً أو شرعاً، فلأجل ذلك قاموا بواجبهم فنصبوا هذا وذاك للإمامة، ونتيجة ذلك أنّ عملهم كان أمراً مشروعاً ولكن ليس كلّ أمر مشروع يعد جزءاً من الدين. فلو قام القاضى بفصل الخصومة بين المترافعين فى ضوء الكتاب والسنّة فحكم بأنّ هذا المال لزيد دون عمرو وكان قضاؤه صحيحاً لا يعد خصوص هذا القضاء (لا أصل القضاء بالصورة الكلية) من الدين، إذ ليس كلّ أمر صحيح جزءاً من الدين، ولا يصحّ أن يقال إنّه يجب أن نعتقد أنّ هذا المال لزيد دون عمرو، ولو تنزّلنا عن ذلك وقلنا إنّه من الدين، ولكن ليس كلّ ما هو من الدين يعد من العقائد فكون الماء طاهراً ومطهّراً حكم شرعى، ولكن ليس من العقائد، فأىّ فرق بينه و بين خلافة الخلفاء مع اشتراك الجميع فى كونه حكماً فرعياً لا أصلاً من الأُصول. ولو تنزّلنا مرّة ثانية وقلنا إنّه من العقائد، ولكن ليس كلّ ما يجب الاعتقاد به مائزاً بين الإيمان والكفر، أو بين السنّة والبدعة، إذ للمسائل العقائدية درجات ومراتب، فالشهادة بتوحيده سبحانه ونبوة نبيّه وإحياء الناس يوم الدين، تعد مائزاً بين الكفر والإيمان، وليس كذلك الاعتقاد بعذاب القبر، أو سؤال منكر ونكير، أو كون مرتكب الكبيرة مؤمناً. و على هذا الأساس يجب على إخواننا أهل السنّة تجديد النظر فى هذا الأصل الذى ذهبوا إليه، وهو جعلهم الاعتقاد بخلافة الخلفاء المشار إليهم، آية السنّة، ومخالفته آية البدعة. (۳۰۱)

ولو توفّى الرجل عن أولاد صغار بلا وصى ولا تعيين قيّم لصغاره فعلى الحاكم الإسلامى تعيين القيّم عليهم لئلاّ تضيع أموالهم، وعندئذ يسأل فهل الاعتقاد بالأصل الكلى من صميم الدين؟ وأنّه يجب على المسلم أن يعتقد بأنّ من مات عن أولاد صغار يجب على الحاكم نصب من يلى أُمورهم؟ وعلى فرض كونه بصورته الكلية من صميمه، فهل الاعتقاد بأنّ زيداً ولى الصغار عند نصب الحاكم له، من صميم الدين، أو أنّ المطلوب فى الفروع هو العمل عند الابتلاء. وأمّا الاعتقاد التفصيلى بالكبريات والصغريات فغير لازم؟ ج. مبدأ ظهور هذه العقيدة

لم يكن فى عصور الخلفاء الثلاث أى أثر من هذه العقيدة ولم يكن يخطر ببال أحد من المهاجرين والأنصار أنّه يجب الاعتقاد بخلافة هذا أو ذاك أو ذلك، وأنّ من لم يكن معتقداً بخلافتهم يخرج عن صفوف المؤمنين ويلتحق بالمبدعين. وإنّما أوجدت تلك الفكرة يد السياسة بهدف الإزراء بعلى ـ عليه السَّلام ـ، وتصحيح خروج معاوية عليه لأخذ ثأر الخليفة، ولعلّ عمرو بن العاص هو أوّل من بذر تلك الفكرة. ويدلّ على ذلك ما ذكره المسعودى فى كتابه: قال: اجتمع عمرو بن العاص مع أبى موسى الأشعرى فى دومة الجندل، فجرى بينهما مناظرات و قد أحضر «عمرو» غلامه لكتابة ما يتفقان عليه، فقال عمرو بن العاص ـ بعد الشهادة بتوحيده سبحانه نبوة نبيّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: ونشهد أنّ أبا بكر خليفة رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ عمل بكتاب اللّه وسنّة رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ حتّى قبضه اللّه إليه، وقد أدّى الحقّ الذى عليه. قال أبو موسى: اكتب ثمّ قال فى عمر مثل ذلك، فقال أبو موسى: اكتب، ثمّ قال عمرو: واكتب: وأنّ عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ورضاً منهم، وأنّه كان مؤمناً. فقال أبو موسى الأشعرى: ليس هذا ممّا قعدنا له. قال عمرو: واللّه لابدّمن أن يكون مؤمناً أو كافراً. فقال أبو موسى: كان مؤمناً. (۳۰۲)

قال عمرو: فمره يكتب . قال أبو موسى: اكتب. قال عمرو: فظالماً قتل عثمان أو مظلوماً؟ قال أبو موسى: بل قتل مظلوماً. قال عمرو: أو ليس قد جعل اللّه لولى المظلوم سلطاناً يطلب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم. قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية؟ قال أبو موسى: لا ـ قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى: بلى. قال عمرو للكاتب: اكتب، وأمره أبو موسى فكتب. قال عمرو: فإنّا نقيم البيّنة على أنّ عليّاً قتل عثمان....(۱) وهذا النصّ من حجّة التاريخ وغيره يعرب عن أنّ الاعتقاد بخلافة الخلفاء إنّما برز للوجود فى جو مشحون بالعداء والبغضاء والمنافسة والمغالبة، حتى جعل ذلك الداهية الماكر، الاعتقاد بخلافة الشيخين وسيلة لانتزاع الإقرار بخلافة الثالث من الخلفاء، ولم يكن الانتزاع مقصوداً بالذات، بل كان أخذه ذريعة لانتزاع الاعترافات الأُخرى من أنّه قتل مظلوماً وأنّه ليس له ولى يطلب بدمه أولى من معاوية وأنّ عليّاً هو القاتل... إلى آخره. ثمّ إنّ الأجواء السياسية المخالفة لأمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ أخذت تروّج تلك العقيدة من أجل الإطاحة به ـ عليه السَّلام ـ وإثبات صحّة

قيام معاوية وصحّة أعماله وقيامه ونصبه فصار ذلك المستمسك السياسى بمرور الزمان، عقيدة دينية، سقته الأوضاع السياسية الأموية والعباسية، إلى أن ذكرت فى الكتب والمؤلفات وعدّت من صميم الدين. وقد استفحلت أهمية الإيمان بخلافة الخلفاء ولا سيما الثالث منهم فى عهد معاوية عندما كتب إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممّن روى شيئاً من فضل أبى تراب وأهل بيته. فقامت الخطباء فى كلّ كورة وعلى كلّ منبر يلعنون علياً و يبرأون منه ويقعون فيه وفى أهل بيته، وكان أشدّ الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من فيها من شيعة على ـ عليه السَّلام ـ، فاستعمل معاوية عليهم زياد بن سمية وضم إليها البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم

---

۱ . مروج الذهب:۲/۳۹۶ـ ۳۹۷. (۳۰۳)

عارف، لأنّه كان منهم أيّام على ـ عليه السَّلام ـ فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدى والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم. وكتب معاوية إلى عماله فى جميع الآفاق ألاّ يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله و مناقبه، فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا إلى بكلّ ما يروى كلّ رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك، حتّى أكثروا فى فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه فى العرب منهم و الموالى، فكثر ذلك فى كلّ مصر، وتنافسوا فى المنازل والدنيا، فليس يجىء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروى فى عثمان فضيلة أو منقبة إلاّكتب اسمه وقربه وشفعه، فلبثوا بذلك حيناً. ثمّ كتب إلى عماله أنّ الحديث فى عثمان قد كثر وفشا فى كلّ مصر وفى كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابى هذا فادعوا الناس إلى الرواية فى فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين فى أبى تراب إلاّوتأتونى بمناقض له فى الصحابة، فإنّ هذا أحب إلىّ وأقرّ لعينى، وأدحض لحجّة أبى تراب وشيعته، وأشدّ إليهم من مناقب عثمان وفضله. فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة فى مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس فى رواية ما يجرى هذا المجرى حتّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، و أُلقى إلى معلّمى الكتاتيب فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتّى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء اللّه.(۱) كلّ ذلك يثبت أنّ الإيمان بخلافتهم ولا سيما الثالث منهم، كان وليد _____

۱ . الشرح الحديدى:۱۱/۴۴ـ ۴۵ نقله عن كتاب الأحداث لأبى الحسن على بن محمد بن أبى سيف المدائنى. (۳۰۴)

سياسات غاشمة انطلقت من البيت الأموى وأشياعه ضد البيت العلوى وأتباعه. وبذلك يسهل تصديق ما ذكره الكاتب الكبير محمود أبو رية فى كتابه القيم «أضواء على السنة المحمدية»: إنّ الأهواء الشخصية والأغراض المذهبية كان لها أثر بعيد فى وضع الحديث على رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لكى يؤيد كلّ فريق رأيه، ويحقّق م آربه بحقّ وبغير حقّ وبصدق وبغير صدق.(۱) وفى الختام للقارئ الكريم أن يسأل : مَن جعل الاعتقاد بخلافة الخلفاء الأربع من صميم الدين دون سواهم؟! وأن يسأل عن وجه التفاضل والتمييز بينهم و بين سائر الخلفاء الذين تسلّموا دفة الخلافة عن طريق الوراثة، أو تنصيص سابق منهم على اللاحق، أو ببيعة عدّة من الشاميين وغيرهم. وهذا عمر بن عبد العزيز قد تسلّم دفّة الحكم بأحد هذه الطرق مع أنّهم لا يجعلون الإيمان بخلافته من صميم الإيمان، مع أنّه من قريش وقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ:« لا يزال هذا الأمر فى قريش، ما بقى منهم اثنان». وقال ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «قريش ولاة الناس فى الخير والشر إلى يوم القيامة».(۲) اللّهمّ إلاّأن يعتذروا عن هذا التخصيص بأنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «الخلافة فى أُمّتى ثلاثون سنة، ثمّ ملك بعد ذلك».(۳) لكن فى سنده سعيد بن جمهان، قال أبو حاتم الرازى: شيخ يكتب حديثه ولا يحتج به.(۴) ثمّ إنّ هنا نكتتين نبّه عليهما العلاّمة الروحانى فى كتابه «بحوث مع أهل السنّة والسلفية»: (ص ۲۴ـ ۲۵) نأتى بهما معاً: _____

۱ . أضواء على السنّة المحمدية.

۲ . جامع الأصول:۴/۴۳۷ـ ۴۳۸.

۳ . المصدر السابق.

۴ . الجرح والتعدیل:۴/۱۰. (۳۰۵)

۱. الحقّ الـذی یراه المتتبع فی التاریـخ هو أنّ عقیـدة خلافة الخلفاء الثلاث وقداسـتهم البالغة، قد أُقحمت فی عقائد أهل السـنّة إقحاماً، وإنّما کان ذلک رد فعل ومحاکاة لعقیـدة الشـیعة فی علی ـ علیه السَّلام ـ وأولاده الطاهرین، ولـذا صـیغت هـذه العقیـدة أوّلاً عند أهل السـنّة فی قالب الرد والمعارضة لعقیدة الشـیعة فقط، ثمّ ألحقوا علیّاً ـ علیه السَّلام ـ بهم فی عصر متأخر. وبتفصیل أکثر نقول: إن جعل خلافة الشیخین من العقائد، لم یکن فی القرن الأوّل. وغایة ما کان یقال فیهما هو أنّ خلافتهما کانت صحیحة. هذا فضلاً عن عقیدتهم فی خلافة عثمان وعلی، بل إنّ عثمان لم یکن بذلک المرضـی عند الناس. ثمّ إنّ المرجئة کانت تشک فی عدالة عثمان وعلی، بل فی إیمانهما.(۱) ونحلـة الإرجاء کانت شائعـة فی عامـة الناس آنـذاک قبل غلبـة أهل الحـدیث، بل لقـد کان لهم القدح المعلّی حتی بعد وجود أهـل الحـدیث والسـنّة فی کثیر من البلاـد. حتی قال الأمیر نشوان الحمیری: ولیس کورة من کور الإسـلام إلّا والمرجئـة غالبون علیها إلّا القلیل.(۲) ۲. تقرر الأـمر فی نحلـة أهـل الحـدیث علی قبول خلافـة علی ـ علیه السَّلام ـ بعـد ما کانوا فی الغالب من العثمانیة ینکرون خلافـة علی، و یظهر أنّ قبول خلافـة علی ـ علیه السَّلام ـ کان علی ید الإمام أحمد بن حنبل، فقد ذکر ابن أبی یعلی بالإسـناد عن ودیزة الحمصـی قال: دخلت علی أبی عبد اللّه أحمد بن حنبل حین أظهر التربیع بعلی ـ رضی اللّه عنه ـ فقلت له: یا أبا عبد اللّه إنّ هـذا لطعن علی طلحـة والزبیر، فقال: بئس ما قلت وما نحن وحرب القوم وذکرها، فقلت: أصـلحک اللّه إنّما ذکرناها حین ربعت بعلی وأوجبت له الخلافة وما یجب للأئمّة قبله، فقال لی: وما یمنعنی من ذلک، قال: قلت: حدیث ابن _____

۱ . طبقات النساء:۶/۱۵۴.

۲ . الحور العین: ۲۰۳. (۳۰۶)

عمر(۱)، فقال لی: عمر خیر من ابنه فقد رضـی علیاً للخلافة علی المسلمین وأدخله فی الشوری، وعلی بن أبی طالب رضی اللّه عنه قد سمّی نفسه أمیر المؤمنین ;فأقول أنا لیس للمؤمنین بأمیر، فانصـرفت عنه.(۲) وهـذا یعرب عن أنّ مسألـة التربیع کانت مسألة ثقیلة علی هـذا المحـدّث، وقد کان غیر الکوفیین علی هذا المذاق. وممّا یؤید عدم کون خلافة الخلفاء من صـمیم الدین: أنّ أحمد بن حنبل فی رسالته المؤلّفـة حول مـذاهب أهل السـنّة لم یـذکرها فی عـداد العقائـد الإسـلامیة، بل بعـدما أکمل بیان العقائـد قال: ومن السـنّة ذکر محاسن أصـحاب رسول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلّم ـ والکف عمّا شـجر بینهم، فمن سبّ أصـحاب رسول اللّه أو واحداً منهم فهو مبتـدع رافضـی، حبهم سـنّة، والـدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسـیلة، والأخذ ب آثارهم فضـیلة، وخیر هذه الأُمّة ـ بعد نبیها ـ أبو بکر، وخیرهم بعـد أبی بکر عمر، وخیرهم بعـد عمر عثمان، وخیرهم بعـد عثمان علی، رضوان اللّه علیهم خلفاء راشـدون مهدیون.(۳) وأمّا البحث عن الدلیل الدالّ علی أفضلیة بعضهم علی بعض وفق تسلسل زمانهم، فسیوافیک الکلام فیه فی الجزء السادس. *** (ثُمَّ أَورَثْنَا الْکِتابَ الَّذِینَ اصْطَفَیْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَیْراتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیر) (۴).

*** _____

۱ . الحدیث المنسوب إلی ابن عمر هو «کنّا نعد ورسول اللّه حیّ وأصحابه متوافرون: أبو بکر ثمّ عمر ثمّ عثمان ثمّ نسکت».

۲ . طبقات الحنابلة:۱/۳۹۳.

۳ . کتاب السنّة: ۴۹.

۴ . فاطر: ۳۲. (۳۰۷)

خاتمة المطاف

خاتمة المطاف

فيها أُمور: الأوّل: المذهب الحنبلى فى مجال العقائد والفقه

إنّ للمذهب السنّى على الإطلاق دعامتين: ۱. المذهب الفقهى

لم يكن لأهل السنّة والجماعة فى القرون الأُولى إلى القرن السابع مذهب فقهى خاص يقتفون أثره، بل كانت لهم مذاهب فقهية مختلفة متشتّتة غير أنّ يد السياسة حصرت المذاهب الفقهية فى الأربعة المعروفة وهى: الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى وألغت سائر المذاهب ولم تعترف بها. قال المقريزى: استمرت ولاية القضاة الأربعة من سنة ۶۶۵ حتى لم يبق فى مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب الإسلام غير هذه الأربعة، وعودى من تمذهب بغيرها وأنكر عليه، ولم يول قاض، ولا قبلت شهادة أحد ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب، وأفتى فقهاؤهم فى هذه الأمصار فى طول هذه المدّة، بوجوب اتّباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها، والعمل على هذا إلى اليوم.(۱) _____

۱ . الخطط المقريزية:۲/۳۳۳و ۳۳۴ و ۳۴۴. (۳۰۸)

وهذه الكلمة الأخيرة، أعنى قوله: وتحريم ما عداها تكشف عن رزية فادحة ألمت بالإسلام حيث إنّ المسلمين قد عاشوا قرابة سبعة قرون، ومات فيها على دين الإسلام ما لا يحصى عددهم إلّاخالقهم ولم يسمع أحد فى القرنين الأوّلين اسم هذه المذاهب. ثمّ فى ما بعدهما كان المسلمون بالنسبة إلى الأحكام الشرعية فى غاية من السعة والحرية، وكان العامى يقلّد من اعتمد من المجتهدين، وكان المجتهدون يستنبطون الأحكام من الكتاب والسنّة على موازينهم المقررة عندهم فى العمل بالكتاب والسنّة ولم يعلم وجه لهذا الحصر وأنّه ليس لأحد من المقلّدين أو الفقيه المجتهد أن يخرج عن حدّتقليد الأئمّة الأربعة، فبأى دليل شرعى صار اتّباع المذاهب الأربعة واجباً مخيراً والرجوع إلى غيرها حراماً باتاً مع أنّا نعلم أنّ هذه المذاهب نشرت فى ما نشرت من المناطق بالقهر والغلبة من الحكومات الإسلامية، فالحكومة التى كان يروقها الفقه الحنفى كانت تباشر نشره وتكبت غيره وتسد الطريق أمامه، والحكومة التى كان يروقها غير الحنفى تعمل مثل عمل الحكومة الأُولى، وقد أشعلت السياسات الخادعة نيران العداء بين أتباع المذاهب الأربعة طول القرون(۱)، وعاد وعاظ السلاطين ينحتون لكلّ إمام من الأئمّة الأربعة فضائل ومناقب صدرت عن النبى قبل ميلادهم وإمامتهم.(۲) هذا حال الدعامة الأُولى ولا نطيل البحث فيها، والذى يجب أن يستنتج ممّا ذكرناه هو أنّ من يحلم بخلود الدين وبقاء قوانينه ويرغب فى غضاضة الدين وطراوته وصيانته عن الاندراس وغناء المسلمين عن موائد الأجانب، يجب عليه _____

۱ . لاحظ تاريخ حصر الاجتهاد لشيخنا العلّامة الطهرانى: ۱۴۰ والحوادث الجامعة لابن الفوطى: ص۲۱۶ فى حوادث سنة ۶۴۵ واقرأ فيها ملحمة النزاع بين اتّباع الأئمّة الأربعة، ولا تنس ما أنشده على بن الجرجانى عن بعضهم:

مثل الشافعى فى العلماء * مثل البدر فى نجوم السماء

قل لمن قاسه بنعمان جهلاً * أيقاس الضياء بالظلماء تاريخ بغداد:۲/۶۹.

۲ . لاحظ تاريخ بغداد:۱/۴۱ «مناقب أبى حنيفة» و ج۲/۶۹«مناقب الشافعى»و قد نقل أحاديث فى مناقبهما ولم يكن من الإمامين أثر إلّا فى عالم الذر. (۳۰۹)

السعى فى فتح باب الاجتهاد، سواء أُوافق رأى الأئمّة الأربعة أم خالفها.(۱) ۲. المذهب العقائدى

ونعنى به الأُصول التى يعتنقها أهل السنّة فى هذا الجيل والأجيال المتقدّمة إلى زمن الإمام أحمد حول المبدأ والمعاد وأسمائه سبحانه وصفاته وما يرجع إلى الإنسان فى عاجله وآجله. ولا شكّ أنّ هذه الأُصول قد دونت و رتبت فى الكتب الكلامية للحنابلة بصورة بسيطة، وفى كتب الأشاعرة بصورة علمية مبرهنة، وقد قدّمنا إليك عصارات مدوّنة من عقائدهم. والذى نركز عليه هو أنّ هذه الأُصول على اختلاف فى عددها وإن صارت عقيدة لأهل السنّة فى هذه الأجيال ولكنّها أُصول اجتمعوا عليها منذ تصدّر أحمد ابن حنبل منصة الإمامة فى العقائد والمعارف واستخرجها من السنّة ودوّنها فى رسائله، وذكر أنّها عقائد أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنّة

المتمسكين بعروتها، المعروفين بها،المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبى إلى يومنا هذا من علماء الحجاز و الشام وغيرهم. ولكن الحقيقة غير ذلك بل كان المسلمون، أعنى: بهم أصحاب الحديث، السنّة قبل تصدّر أحمد لمنصة الإمامة فى مجال العقائد على فرق وشيع ولم تكن هذه الأُصول برمتها مقبولة عندهم، وإنّما الإمام أحمد وحدهم على تلك الأُصول وقضى على سائر المذاهب الدارجة بين أهل الحديث أنفسهم، فنسبة هذه الأُصول إلى إمام الحنابلة أقرب إلى الحقيقة من نسبتها إلى الصحابة والتابعين وتابعى التابعين. والغافل عن تاريخ حياة الإمام وتأثيره فى نفوس المسلمين وما كسب بعد الإفراج من العطف والحنان يتخيل أنّ هذه الأُصول مذهب أهل السنّة مع أنّه لم يكن لهذه الأُصول بهذا النحو، أثر قبله، بل كان المحدّثون _____

۱ . لاحظ مفاهيم القرآن:۳/۲۹۰ـ ۳۰۵ تجد فيها بغيتك. (۳۱۰)

مختلفين فى كثير من هذه الأُصول. فصار الإجماع والاتّفاق من جانب الإمام سبباً لتناسى ما كانوا عليه من العقائد. إنّ الإمام أحمد لمّا ظهر منه الصمود والثبات فى طريق العقيدة (عدم خلق القرآن وقدمه) وتحمّل المحنة(۱) إلى أن أُفرج عنه فى أيّام المتوكّل و قرّبه الخليفة إلى بلاطه، صار ذلك سبباً لشهرته وإمامته فى مجال العقائد، وقد جعلت المحنة من ذلك الرجل الصمود، بطلاً سامياً تهوى إليه الأفئدة، وتخضع له الأعناق، أضف إليه أنّه جنّد بلاط الخليفة جهوده لترويج أفكاره و آرائه، فعند ذلك صار أحمد إمام السنّة وناصرها، فصارت السنة ما قاله أحمد، والبدعة ما هجره أحمد، وكأنّهم نسوا أو تناسوا ما كان عليه أسلافهم من الفرق المختلفة. وعلى ضوء هذا فليس المذهب الحنبلى العقائدى، مذهباً لعامة أهل الحديث و أهل السنّة وإنّما هو مذهب الإمام أحمد، وقد أخذت هذه الأُصول بالانتشار والشيوع عندما انقلب الوضع أيّام المتوكل وبعده لصالحه، ولولا أنّ المحنة استبطلت الرجل وخلقت منه رجلاً مثالياً شجاعاً فى طريق العقيدة، لكان المذهب السنّى فى الناحية العقائدية غير مجمع على هذه الأُصول التى يتخيل أنّها أُصول اتّفق عليها أصحاب النبى والتابعون لهم بإحسان إلى زمن إمامة أحمد. وإن كنت فى ريب ممّا ذكرنا ـ أى اختلاف آراء أهل الحديث وتشتت مذاهبهم فى مجال العقائد ـ فاستمع لما يقوله السيوطى ويذكره فى هذا المجال ونحن نأتى بملخّص ما ذكره ذلك المحدّث الخبير وهو يكشف عن وجود المسالك المختلفة والأهواء المتضادة عند أهل الحديث، وأنّهم لم يكونوا قط على وتيرة واحدة حسبما وحدهم إمام الحنابلة فهم كانوا بين: مرجئى يرى أنّ العمل ليس جزءاً من الإيمان وأنّه لا تضر معه معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة، ونقدم إليك بعض أسمائهم من الذين عاشوا قبل إمامة أحمد أو عاصروه، نظراء: _____

۱ . سيوافيك تفصيل ذلك فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة عند البحث عن عقائد المعتزلة. (۳۱۱)

۱. إبراهيم بن طهمان، ۲. أيّوب بن عائذ الطائى، ۳. ذر بن عبد اللّه المرهبى، ۴. شبابة بن سوار، ۵. عبد الحميد بن عبد الرحمن، ۶. أبو يحيى الحمانى، ۷. عبد المجيد بن عبد العزيز، ۸. ابن أبى راود، ۹. عثمان بن غياث البصرى، ۱۰. عمر بن ذر، ۱۱. عمر بن مرة، ۱۲. محمد بن حازم، ۱۳. أبو معاوية الضرير، ۱۴. ورقاء بن عمر اليشكرى، ۱۵. يحيى بن صالح الوحاظى، ۱۶. يونس بن بكير. إلى ناصبى لعلى وأهل بيته الطاهرين ـ عليهم السَّلام ـ ، نظراء: ۱. إسحاق بن سويد العدوى، ۲. بهز بن أسد، ۳. حريز بن عثمان، ۴. حصين بن نمير الواسطى، ۵. خالد بن سلمة الفأفاء، ۶. عبد اللّه بن سالم الأشعرى، ۷. قيس بن أبى حازم. إلى متشيع يحب علياً وأولاده ويرى الولاء فريضة نزل بها الكتاب ويرى الفضيلة لعلى فى الإمامة والخلافة، نظراء: ۱. إسماعيل بن أبان، ۲. إسماعيل بن زكريا الخلقانى، ۳. جرير بن عبد الحميد، ۴. أبان بن تغلب الكوفى، ۵. خالد بن محمد القطوانى، ۶. سعيد بن فيروز، ۷. أبو البخترى، ۸. سعيد بن أشوع، ۹. سعيد بن عفير، ۱۰. عباد بن العوام، ۱۱. عباد بن يعقوب، ۱۲. عبد اللّه بن عيسى، ۱۳. ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى، ۱۴. عبد الرزاق بن همام، ۱۵. عبد الملك بن أعين، ۱۶. عبيد اللّه بن موسى العبسى، ۱۷. عدى بن ثابت الأنصارى، ۱۸. على بن الجعد، ۱۹. على بن هاشم بن البريد، ۲۰. الفضل بن دكين، ۲۱. فضيل بن مرزوق الكوفى، ۲۲. فطر بن خليفة، ۲۳. محمد بن جحادة الكوفى، ۲۴. محمد بن فضيل بن غزوان، ۲۵. مالك بن إسماعيل أبو غسان، ۲۶. يحيى بن الخراز. إلى قدرى ينسب محاسن العباد ومساويهم ومعاصيهم إلى أنفسهم ولا يسند فعلهم إلى اللّه سبحانه، نظراء: ۱. ثور بن زيد المدنى، ۲. ثور بن يزيد الحمصى، ۳. حسان بن عطية (۳۱۲)

المحاربی، ۴. الحسن بن ذکوان، ۵. داود بن الحصین، ۶. زکریا بن إسحاق، ۷. سالم بن عجلان، ۸. سلام بن مسکین، ۹. سیف بن سلمان المکی، ۱۰. شبل بن عباد، ۱۱. شریک بن أبی نمر، ۱۲. صالح بن کیسان، ۱۳. عبد اللّه بن عمرو ، ۱۴. أبو معمر عبد اللّه بن أبی لبید، ۱۵. عبد اللّه بن أبی نجیح، ۱۶. عبد الأعلی ابن عبد الأعلی، ۱۷. عبد الرحمن بن إسحاق المدنی، ۱۸. عبد الوارث بن سعید الثوری، ۱۹. عطاء بن أبی میمونة، ۲۰. العلاء بن الحارث، ۲۱. عمرو بن زائدة، ۲۲. عمران بن مسلم القصیر، ۲۳. عمیر بن هانی، ۲۴. عوف الأعرابی، ۲۵. کهمس بن المنهال، ۲۶. محمد بن سواء البصری، ۲۷. هارون بن موسی الأعور النحوی، ۲۸. هشام الدستوائی، ۲۹. وهب بن منبه، ۳۰. یحیی بن حمزة الحضرمی. إلی جهمی ینفی کلّ صفة للّه سبحانه ویعتقد بخلق القرآن وحدوثه، نظیر: بشر بن السری. إلی خارجی ینکر علی أمیر المؤمنین مسألة التحکیم ویتبرأ منه و من عثمان و من طلحة والزبیر وأُمّ المؤمنین عائشة ومعاویة وغیرهم، نظراء: ۱. عکرمة مولی ابن عباس، ۲. الولید بن کثیر. إلی واقفی لا یقول فی التحکیم أو فی القرآن بشیء من الحدوث والقدم وإنّه مخلوق أو غیر مخلوق، نظیر: علی بن هشام. إلی متقاعد یری لزوم الخروج علی أئمّة الجور ولا یباشره بنفسه، نظیر:عمران ابن حطّان.(۱) إلی غیر ذلک من ذوی الأهواء والآراء الذین قضی علیهم الدهر وعلی آرائهم ومذاهبهم بعد ما وصل أحمد بن حنبل إلی قمة الإمامة فی العقائد. فصار أهل الحدیث مجتمعین تحت الأُصول التی استخرجها أحمد وجعل الکلّ کتلة واحدة، بعد ما کانوا علی سبل شتی. _____

۱ . تدریب الراوی للسیوطی:۱/۳۲۸. (۳۱۳)

هذه ملحمة أهل الحدیث وقصة مذهبهم الفقهی والعقائدی، والأسف أنّ المفکّرین من أهل السنّة یتخیّلون أنّ هذه الأُصول التی یدینون بها باسم عقیدة السلف الإسلامیة قبل التحاق الأشعری به و باسم عقیدة الإمام الأشعری بعد التحاقه هی نفس الأُصول التی کان علیها المسلمون الأُول إلی زمن الإمام أحمد وزمن الملتحق بهم الشیخ الأشعری. وهذا التاریخ الواضح یفرض علی المفکّرین المتعطّشین لمعرفة الحقّ دراسة هذه الأُصول من رأس حتی لا یعبأوا بما جاء فی هذه الکتب ممّا علیه ماترکة «عقیدة السلف» أو «عقیدة الصحابة والتابعین» أو تابعی التابعین. والذی یوضح ذلک هو أنّ کلّ واحد من هذه الأُصول ردّ لمذهب نجم فی القرون الأُولی، فلأجل التبرّی منه صار خلافه شعاراً لمذهب أهل السنّة. إمامة أحمد فی الفقه

لا شکّ أنّ الفقه المنسوب إلی أحمد هو أحد المذاهب الفقهیة المعروفة وتقتفیه جماعة کثیرة فی الحجاز ونجد والشامات، ولکن هذا الفقه المدوّن لا یمت إلی الفقه إلّا بصلة ضعیفة، وذلک لأنّ الإمام لم یکن إمام الفقه والاجتهاد بل کان إمام الحدیث، فکان یعد أکبر محدث فی عصره، وأعظم حافظ للسنّة، وأمّا الاجتهاد بالمعنی المصطلح الذی کان یتمتع به سائر الأئمّة الأربعة، فلم یکن متوفراً فیه إلّا ببعض مراتبه الضئیلة التی لا یصحّ عدّه معها أحد الأئمّة الفقهاء، فإنّ للاجتهاد مؤهّلات وشرائط محررة فی محلها، أعظمها وجود ملکة قدسیة یقتدر معها الإنسان علی استخراج الفروع عن الأُصول، وأمّا الإفتاء بالحکم فی ضوء النصّ الصریح الوارد فیه فلیس إلّا مرتبة ضعیفة من الاجتهاد، والاجتهاد المطلق یستدعی ذهناً وقّاداً، مشقّقاً للفروع، ومستخرجاً إیّاها من الأُصول، إلی غیر ذلک ممّا یقوم به أئمّة الفقه، والمعروف من الإمام أحمد غیر ذلک، فإنّ اجتهاده کان أشبه باجتهاد الأخباریین والمحدّثین الذین یفتون بنصّ الحدیث ویتوقفون فی غیر مورده. وأمّا المذهب الفقهی الحنبلی الدارج بین الحنابلة فقد جمع أُصوله تلمیذ (۳۱۴)

الإمام«الخلّال» من هنا وهناک، ومن الفتاوی المتشتتة الموجودة بین أیدی الناس حتی جعله مذهباً للإمام أحمد، وجاء من جاء بعده فاستثمرها واستغلها حتّی صار مذهباً من المذاهب. کلام للذهبی

قال: وقد دوّن عنه کبار تلامذته مسائل وافرة فی عدّة مجلدات. ثمّ ذکر أسامی عدّة من تلامیذه الذین جمعوا مسائل الإمام وفتاواه، وقال: جمع أبو بکر الخلال سائر ما عند هؤلاء من أقوال أحمد وفتاویه وکلامه فی العلل والرجال والسند والفروع حتی حصل عنده من ذلک ما لا یوصف کثرة ورحل إلی النواحی فی تحصیله وکتب عن نحو من مائة نفس من أصحاب الإمام، ثمّ کتب کثیراً من ذلک عن أصحاب أصحابه،وبعضه عن رجل، عن آخر، عن آخر، عن الإمام، ثمّ أخذ فی ترتیب ذلک وتهذیبه و تبویبه، وعمل کتاب العلم

وكتاب العلل وكتاب السنة، كلّ واحد من الثلاثة فى ثلاثة مجلدات.(۱) فلو صحّ ما ذكره الذهبى فهو يعرب عن أنّ الإمام أحمد لم يكن رجلًا متربعاً على منصة دراسة الفقه وأُصوله وقائماً بتربية الفقيه، وأقصى ما كان يتمتع به هو الإجابة عن الأسئلة التى كانت ترد عليه من العراق وخارجه فى ضوء النصوص الموجودة عنده، فتفرقت الأجوبة طبق الأسئلة فى البلاد وجمعها «الخلال»فى كتاب خاص. هذا ما ذكره الذهبى ولكنّ الظاهر عن غير واحد ممّن ترجم الإمام أنّه كان يتحفّظ عن الفتيا ويتزهّد عنه، ولعلّه يرى مقام الإفتاء أرفع وأعلى من نفسه. روى الخطيب فى تاريخه بالإسناد قال: كنت عند أحمد بن حنبل فسأله رجل عن الحلال والحرام، فقال له أحمد: سل عافاك اللّه غيرنا. قال الرجل: إنّما نريد جوابك يا أبا عبد اللّه. قال: سل عافاك اللّه غيرنا، سل الفقهاء، سل أبا

---

۱ . سير أعلام النبلاء:۱۱/۳۳۰. (۳۱۵)

ثور.(۱) وهذا يعرب عن أنّ ديدن الإمام فى حياته هو التحفّظ والتجنّب عن الإفتاء إلاّ إذا قامت الضرورة أو كان هناك نصوص واضحة فى الموضوع. وهذا لا يجتمع مع ما نسب إليه الذهبى من أنّ «الخلال» كتب عنه الكتب التى ذكرها. وهناك تحقيق بارع للشيخ أبى زهرة فى كتابه حول حياة ابن حنبل نذكر خلاصة ما جاء فيه: إنّ أحمد لم يصنّف كتاباً فى الفقه يعد أصلًا يؤخذ منه مذهبه ويعد مرجعه ولم يكتب إلاّ الحديث، وقد ذكر العلماء أنّ له بعض كتابات فى موضوعات فقهية، منها: المناسك الكبير، والمناسك الصغير، ورسالة صغيرة فى الصلاة كتبها إلى إمام صلّى هو وراءه فأساء فى صلاته، وهذه الكتابات هى أبواب قد توافر فيها الأثر، وليس فيها رأى أو قياس أو استنباط فقهى بل اتّباع لعمل، وفهم لنصوص. ورسالته فى الصلاة والمناسك الكبير والصغير هى كتب حديث، وكتبه التى كتبها كلّها فى الحديث فى الجملة، وهى المسند والتاريخ والناسخ والمنسوخ والمقدّم والمؤخّر فى كتاب اللّه وفضائل الصحابة والمناسك الكبير والصغير والزهد، وله رسائل يبيّن مذهبه فى القرآن والرد على الجهمية والردّ على الزنادقة. وإذا كان أحمد لم يدوّن فى الفقه كتاباً ولم تنشر آراؤه ولم يملها على تلامذته كما كان يفعل أبو حنيفة، فإنّ الاعتماد فى نقل فقهه إنّما هو على عمل تلاميذه فقط، وهنا نجد أنّ الغبار يثار حول ذلك النقل من نواح متعددة. إنّ المروى عن ذلك الإمام الأثرى ـ الذى كان يتحفّظ فى الفتيا فيقيد نفسه بالأثر ، ويتوقف حيث لا أثر ولا نصّ شاملًا عاماً، ولا يلجأ إلى الرأى إلاّ حين الضرورة القصوى التى تلجئه إلى الإفتاء ـ كثير جدّاً، والأقوال المروية عنه متضاربة، وذلك لا يتّفق مع ما عرف عنه من عدم الفتوى إلاّ فيما يقع من المسائل ولا يفرض الفروض ولا يشقّق الفروع ولا يطرد العلل، ولقد كان يكثر من قول:لا أدرى، فهذه الكثرة لا تتفق مع المعروف منه من الإقلال فى الفتيا والمعروف عنه من قول :لا أدرى، ومع المشهور عنه من أنّه لا يفتى بالرأى إلاّ للضرورة القصوى.

---

۱ . تاريخ بغداد:۲/۶۶. (۳۱۶)

إنّ الفقه المنقول من أحمد قد تضاربت أقواله فيه تضارباً يصعب على العقل أن يقبل نسبة كلّ هذه الأقوال إليه. وافتتح أى كتاب من كتب الحنابلة واعمد إلى باب من أبوابه تجده لا يخلو من عدّة مسائل اختلفت فيها الرواية بين لا ونعم ـ أى بين النفى المجرّد والإثبات المجرّد ـ هذه نواح قد أثارت غباراً حول الفقه الحنبلى وإذا أضيف إليها أنّ كثيراً من القدامى لم يعدّوا «أحمد» من الفقهاء، فابن جرير الطبرى لم يعدّه منهم، و «ابن قتيبة» الذى كان قريباً من عصره جدّاً لم يذكره فى عصابة الفقهاء بل عدّه فى جماعة المحدثين، ولو كانت تلك المجموعة الفقهية من أحمد ما ساغ لأُولئك أن يحذفوا أحمد عن سجل الفقهاء.(۱) الثانى : شكوى تاريخية للأشاعرة ضد الحنابلة

لم يزل النزاع قائماً على قدم وساق بين الحشوية والحنابلة من أهل الحديث من جهة و متكلّمى الأشاعرة من جهة أُخرى ـ مع أنّ إمام الأشاعرة كان قد أعلن اقتفاء أثر إمام الحنابلة ـ و نار الجدال مستعرة بين الفريقين،عبر العصور المختلفة، وذلك أنّ الطائفة الأُولى كانت متمسكة بروايات التشبيه والتجسيم، ومثبتة للّه سبحانه ما لا تصحّ نسبته إليه،وكانت الطائفة الثانية تتبرأ من هذه الأُمور، ولقد بلغ

السیل الزبی فی عصر أبی نصر عبد الرحیم بن أبی القاسم عبد الکریم القشیری رئیس الأشاعرة فی وقته، فقام فطاحل الأشاعرة فی عصره، تعضیداً ومساندة لشیخهم برفع الشکوی إلی الوزیر نظام الملک ممّا تبثه الحنابلة من سموم التشبیه و التجسیم، و تمت الرسالة بتوقیع کثیر من علمائهم التی تبیّن جوهر العقیدة الحنبلیة فی ذلک العصر. أمّا الوالد فهو أبو القاسم القشیری النیشابوری، وهو من أعاظم الأشاعرة فی عصره (ولد عام ۳۷۶هـ) من العرب الذین وردوا خراسان وسکنوا النواحی، _____

۱ . ابن حنبل، حیاته وعصره :۱۶۸ـ ۱۷۱. (۳۱۷)

کان یعرف الأُصول علی مذهب الأشعری والفقه علی مذهب الشافعی(توفیّ عام ۴۶۵هـ).(۱) وأمّا الولد فهو أبو نصر عبد الرحیم بن أبی القاسم القشیری، ویعرّفه ابن عساکر بأنّه إمام الأئمّة وحبر الأُمّة تخرّج علی إمام الحرمین حتی حصل طریقته فی المذهب، وتوفّی عدیم النظیر فرید الوقت سنة ۵۱۴هـ(۲) یقول ابن عساکر: وهذه الرسالة بخط بعض أصحاب الإمام أبی نصر عبد الرحیم ابن الأُستاذ القشیری فیها خطوط الأئمّة بتصحیح مقاله وموافقته فی اعتقاده علی الوجه الذی هو مذکور فی هذا الکتاب، فأوقفنا علیه شیخنا أبو محمد القاسم وأسمعناه، وأمرنا بکتابته، فاکتبناه علی ما هو علیه، وأثبتناه فی هذه الترجمة اللائقة به، وقد رفع الإمام أبو إسحاق الشیرازی وأصحابه هذا المحضر إلی نظام الملک منتصرین للشیخ أبی نصر بن القشیری، فعاد جواب نظام الملک إلی فخر الدولة وإلی الإمام أبی إسحاق بإنکار ما وقع، والتشدید علی خصوم ابن القشیری، و ذلک سنة ۴۶۹هـ و إلیکالمحضر: شکوی الأشاعرة من المتوسمین بالحنبلیة

بسم اللّه الرحمن الرحیم یشهد من ثبت اسمه ونسبه وصحّ نهجه ومذهبه واختبر دینه وأمانته من الأئمّة الفقهاء والأماثل العلماء وأهل القرآن والمعدلین الأعیان وکتبوا خطوطهم المعروفة بعباراتهم المألوفة، مسارعین إلی أداءالأمانة، وتوخّوا فی ذلک ما تحظره الدیانة مخافة قوله تعالی: (وَمَنْ أَظْلم مِمَّن کَتَم شَهادةً عِنْدَهُ مِنَ اللّه) إنّ جماعة من الحشویة والأوباش الرعاع المتوسمین بالحنبلیة أظهروا ببغداد من البدع الفظیعة والمخازی الشنیعة ما لم یتسمح به ملحد فضلاً عن موحّد، ولا تجوّز به قادح فی أصل الشریعة، ولا معطل; ونسبوا کلّ من ینزّه البارئ تعالی وجلّ عن النقائص والآفات وینفی عنه الحدوث والتشبیهات، _____

۱ . التبیین: ۲۷۱ـ ۲۷۶.

۲ . المصدر السابق: ۳۰۸ـ ۳۱۰. (۳۱۸)

ویقدّسه عن الحلول والزوال، ویعظمه عن التغیّر من حال إلی حال، وعن حلوله فی الحوادث وحدوث الحوادث فیه، إلی الکفر والطغیان ومنافاة أهل الحق والإیمان، وتناهوا فی قذف الأئمّة الماضین، وثلب أهل الحقّ وعصابة الدین، ولعنهم فی الجوامع والمشاهد والمحافل والمساجد والأسواق والطرقات والخلوة، والجماعات. ثمّ غرّهم الطمع والإهمال، ومدّهم فی طغیانهم الغی والضلال إلی الطعن فیمن یعتضد به أئمّة الهدی وهو للشریعة العروة الوثقی، وجعلوا أفعاله الدینیة معاصی دنیة، وترقّوا من ذلک إلی القدح فی الشافعی رحمة اللّه علیه وأصحابه، واتفق عود الشیخ الإمام الأوحد أبی نصر ابن الأُستاذ الإمام زین الإسلام أبی القاسم القشیری رحمة اللّه علیه من مکة حرسها اللّه، فدعا الناس إلی التوحید وقدس البارئ عن الحوادث والتحدید، فاستجاب له أهل التحقیق من الصدور الأفاضل السادة الأماثل، وتمادت الحشویة فی ضلالتها والإصرار علی جهالتها وأبوا إلّا التصریح بأنّ المعبود ذو قدم وأضراس ولهوات وأنامل، وأنّه ینزل بذاته ویتردّد علی حمار فی صورة شاب أمرد بشعر قطط وعلیه تاج یلمع وفی رجلیه نعلان من ذهب، وحفظ ذلک عنهم وعلّلوه ودوّنوه فی کتبهم، وإلی العوام ألقوه، وأنّ هذه الأخبار لا تأویل لها، وأنّها تجری علی ظواهرها، وتعتقد کما ورد لفظها، وأنّه تعالی یتکلّم بصوت کالرّعد و کصهیلالخیل، و ینقمون علی أهلالحق لقولهم إنّااللّه تعالی موصوف بصفات الجلال، منعوت بالعلم والقدرة والسمع والبصر والحیاة والإرادة والکلام، وهذه الصفات قدیمة، وإنّه یتعالی عن قبول الحوادث، ولا یجوز تشبیه ذاته بذات المخلوقین ولا تشبیه کلامه بکلام المخلوقین. ومن المشهور المعلوم: أنّ الأئمّة الفقهاء علی اختلاف مذاهبهم فی الفروع کانوا یصرّحون بهذا الاعتقاد ویدرسونه ظاهراً مکشوفاً لأصحابهم ومن هاجر من البلاد إلیهم ولم یتجاسر أحد علی إنکاره ولا تجوز متجوّز

بالرد عليهم دون القدح والطعن فيهم، وانّ هذه عقيدة أصحاب الشافعی رحمة اللّه عليه يدينون اللّه تعالى بها ويلقونه باعتقادها، و يبرأون إليه من سواها من غير شكّ ولا (۳۱۹)

انحراف عنها، وما لهذه العصابة مستند، ولا للحق مغيث يعتمد إلّا اللّه تعالى، ورأفة المجلس السامی الأجلی العالمی العادلی القوامی النظامی الرضوی أمتعه اللّه بحياة يأمن خطوبها باسمة فلا يعرف قطوبها، فإن لم ينصر ما أظهره ويشيد ما أسّسه وعمره بأمر جزم وعزم حتم يزجر أهل الغواية عن غيهم ويردع ذوی العناد عن بغيهم ويأمر بالمبالغة فی تأديبهم، رجع الدين بعد تبسّمه قطوباً، وعاد الإسلام كما بدأ غريباً، وعيونهم ممتدة إلى الجواب بنيل المأمول والمراد، وقلوبهم متشوّفة إلى النصرة والإمداد، فإن هو لم ينعم النظر فی الحادث الذی طرقهم ويصرف معظم همه العالية إلى الكارث الذی أزعجهم وأقلقهم ويكشف عن الشريعة هذه الغمة ويحسم نزغات الشيطان بين هذه الأُمّة، كان عن هذه الظلامة يوم القيامة مسؤولاً. إذ قد أديت إليه النصائح والأمانات من أهل المعارف والديانات، وبرئوا من عهدة ما سمعوه بما أدّوه إلى سمعه العالی وبلغوه، والحجّة للّه تعالى متوجهة نحوه بما مكّنه فی شرق الأرض وغربها وبسط قدرته فی عجمها وعربها، وجعل إليه القبض والإبرام واصطفاه من جميع الأنام، فما ترد نواهيه وأوامره ولا تعصى مراسمه زواجره، واللّه تعالى بكرمه يوفقه ويسدّده ويؤيد مقاصده ويرشده ويقف فكرته وخواطره على نصرة ملته وتقوية دينه وشريعته بمنّه ورأفته وفضله ورحمته. صورة الخطوط

۱. الأمر على ما ذكر فی هذا المحضر من حال الشيخ الإمام الأوحد أبی نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيری أكثر اللّه فی أئمّة الدين مثله من عقد المجالس وذكر اللّه عزّوجلّ بما يليق به من توحيده وصفاته ونفی التشبيه عنه، وقمع المبتدعة من المجسمة والقدرية وغيرهم، ولم أسمع منه غير مذهب أهل الحقّ من أهل السنّة والجماعة، وبه أدين اللّه عزّوجلّ وإيّاه اعتقد، وهو الذی أدركت أئمّة أصحابنا عليه، واهتدی به خلق كثير من المجسمة وصاروا كلّهم على مذهب أهل الحقّ، ولم يبق من المبتدعة إلّا نفر يسير، فحملهم الحسد والغيظ على سبّه وسبّ الشافعی وأئمّة أصحابه ونصّار مذهبه، وهذا أمر لا يجوز الصبر عليه (۳۲۰)

ويتعيّن على المولى أعز اللّه نصره التنكيل بهذا النفر اليسير الذين تولّوا كبر هذا الأمر وطعنوا فی الشافعی وأصحابه، لأنّ اللّه عزّوجلّ أقدره، وهو الذی برأ فی هذا البلد بإعزاز المذهب بما بنی فيه من المدرسة التی مات كلّ مبتدع من المجسمة والقدرية غيظاً منها وبما يرتفع فيها من الأصوات بالدعاء لأيامه، استجاب اللّه فيه صالح الأدعية، ومتی أهمل نصرهم لم يكن له عذر عند اللّه عزّجلّ. وكتب إبراهيم بن علی الفيروز آبادی. ۲. الأمر على ما ذكر فی هذا المحضر من حال الشيخ الإمام الأوحد أبی نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيری جمّل اللّه الإسلام به وكثّر فی أئمّة الدين مثله من عقد المجالس وذكر اللّه عزّوجلّ بما وصف به نفسه من التنزيه ونفی التشبيه عنه وقمع المبتدعة من المجسمة والقدرية وغيرهم، ولم نسمع منه غير مذهب أهل الحقّ من أهل السنّة والجماعة وبه ندين اللّه عزّوجلّ، وهو الذی كان عليه أئمّة أصحابنا واهتدی به خلق كثير من المجسّمة واليهود والنصارى فصاروا أكثرهم على مذهب أهل الحقّ ولم يبق من المبتدعة إلّا نفر يسير، فحملهم الحسد والغيظ على سبّه وسب الشافعی رضی اللّه عنه و نصّار مذهبه حتى ظهر ذلك بمدينة السلام، وهذا أمر لا يحل الصبر عليه ويتعيّن على من بيده قوام الدين والنظر فی أُمور المسلمين أن ينظر فی هذا ويزيل هذا المنكر، فإنّ من يقدر على إزالته ويتوقف فيه يأثم، ولا نعلم اليوم من جعل اللّه سبحانه أمر عباده إليه إلّا المولى أعزّ اللّه أنصاره، فيتعيّن عليه الإنكار على هذه الطائفة والتنكيل بهم، لأنّ اللّه سبحانه أقدره على ذلك، وهو المسؤول عنه غداً إن توقف فيه وصار قصد المبتدعة أكثره معاداة الفقهاء الذين هم سكان المدرسة الميمونة فإنّهم يموتون غيظاً منهم لما هم عليه من مذاكرة علم الشافعی وإحياء مذهبه. وكتب الحسين ابن محمد الطبری. ۳. الأمر على ما شرح فی صدر هذا المحضر. وكتب عبيد اللّه بن سلامة الكرخی. ۴. الأمر على ما ذكر فی هذا المحضر من حال الشيخ الإمام الأوحد أبی نصر عبد الرحيم بن عبدالكريم القشيری أدام اللّه حراسته من عقد المجالس (۳۲۱)

للوعظ والتذكير فی المدرسة النظامية المعمورة والرباط، وأطنب فی توحيد االلّه عزّوجلّ والثناء عليه بما يستوجبه من صفات الكمال

وتنزيهه عن النقائص و نفى التشبيه عنه واستوفى فى الاعتقاد ما هو معتقد أهل السنّة بأوضح الحجج وأقوى البراهين، فوقع فى النفوس كلامه، ومال إليه الخلق الكثير من العامة، ورجع جماعة كثيرة من اعتقاد التجسيم والتشبيه واعترفت بأنّها الآن بان لها الحقّ، فحسده المبتدعة المجسمة وغيرهم فحملهم ذلك على بسط اللسان فيه غيظاً منه و سبّ الشافعى رحمة اللّه عليه وأئمّة أصحابه ومن ينصرهم، وتظاهروا من ذلك بما لا يمكن الصبر معه، ويتعيّن على من جعل اللّه إليه أمر الرعية أن يتقدّم فى ذلك بما يحسم مادة الفساد، لأنّ سبب ذلك فرط غيظهم من اجتماع شمل العصابة الشافعية فى الاشتغال بالعلم بعمارة المدرسة الميمونة ،وتوفّرهم على الدعاء لأيّام من به عزّهم ولا عذر للتفريط فى ذلك. وكتب محمد بن أحمد الشاشى. ۵. الأمر على ما ذكر فيه. وكتب سعد اللّه بن محمد الخاطب. ۶. الأمر على المشروح فى هذا الصدر من حال الشيخ الإمام الأوحد أبى نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى أكثر اللّه فى أئمّة أهل العلم مثله من عقد المجالس ونشر العلم ووصف اللّه تعالى بما وصف به نفسه من توحيده وصفاته ونفى التشبيه عنه وقمع أهل البدع من المجسمة والقدرية وغيرهم، ولم أسمع منه عدولاً عن مذاهب أهل الحقّ والسنّة والدين القويم والمنهج المستقيم الذى به يدان اللّه تعالى و يعبد ويعتقد، فاهتدى بهديه خلق من المخالفين وصار إلى قوله ومعتقده جمع كثير إلّا من شقى به من الحاسدين، فأخلدوا إلى ذمّه وسبه وسب أئمّة الشافعيين، وقدحوا فى الشافعى وأصحابه، وصرّحوا بالطعن فيهم فى الأسواق وعلى رؤوس الأشهاد، وهذه غمّة و ردّة لا يرجى لكشفها بعد اللّه تعالى إلّا المجلس السامى الأجلى النظامى القوامى العادلى الرضوى، أمتع اللّه الدنيا والدين ببقائه وحرس على الإسلام والمسلمين ظليل ظله ونعمائه، ويفعل اللّه ذلك بقدرته وطوله ومشيئته. وكتب الحسين بن أحمد البغدادى. ۷. حضرت المدرسة النظامية المنصورة المعمورة أدام اللّه سلطان إعزازها والرباط المقدس للصوفية أجاب اللّه صالح أدعيتهم فى المسلمين مجالس هذا (۳۲۲)

الشيخ الأجل الإمام ناصر الدين محيى الإسلام أبى نصر عبد الرحيم بن الأُستاذ الإمام زين الإسلام أبى القاسم القشيرى أحسن اللّه عن الشريعة جزاءه، فلم أسمع منه قط إلّا ما يجب على كلّ مكلّف علمه وتصحيح العقيدة به من علم الأُصول وتنزيه الحقّ سبحانه وتعالى ونفى التشبيه عنه، وإقماع الأباطيل والأضاليل وإظهار الحقّ والصدق، حتى أسلم على يديه ببركة التوحيد والتنزيه من أنواع أهل الذمّة عشرات، ورجع إلى الحقّ وعلم الصدق من المبتدعة مئات، وتبعه خلق غير محصور بحيث لم يستطع أحد ممّن تقدّم أو علماء العصر أن يشقّوا غباره فى مثل ذلك فخامرهم الحسد وعداوة الجهل وحملهم على الطعن فيه عدواناً وبهتاناً، ثمّ تمادى بهم الجهل إلى اللعن الظاهر للإمام الشافعى ـ قدس اللّه روحه ـ وسائر أصحابه عجماً وعرباً. وقائلوا ذلك شرذمة من ناشية أغبياء المجسمة، وطائفة من أرذال الحشوية، استغنوا من الإسلام بالاسم، ومن العلم بالرسم، وتبعهم سوقة لا نسب لهم ولا حسب، وتظاهرت هذه اللعنة منهم فى الأسواق، ولم يستحسن أحد من أصحابه ـ كثرهم اللّه ـ دفع السفاهة بالسفاهة والسيئة بالسيّئة، ويجب على الناظر فى أُمور المسلمين من الذى قد انتشر فى المشارق والمغارب علمه وعدله وأمره ونهيه، الذى لطاعته نبأت صدور الأولياء والأعداء رغبة ورهبة، نصرته، ومدّ ضبعيه والشد على يديه وتقديم كلمته العليا وتدحيض كلمة أعدائه السفلى، فالصبر فى الصدمة الأُولى وهذه الصدمة التى كانت قلوب أصحاب الشافعى كثّرهم اللّه وغرة وغلة شغله بها منذ سنين، فانقشع ذلك وانكشف فى هذه الأيام المؤيدة المنصورة المؤبدة النظامية القوامية العالمية العادلية نصرها اللّه وأعلاها، وقد وقف تمامه على الأمر الماضى المنصور منه فإنّ فى شعبة من شعب عنايته ونصرته وكلمته للدين الذى مد أطراره كفاية وبلاغاً وعلى الغارس تعهد غراسه فضلاً وتعصباً فى كلّ وقت. وكتب عزيزى بن عبد الملك فى التاريخ حامداً للّه ومصلياً على محمّد النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وصحبه وسلم وشرف وكرم.(۱) _____

۱ . تبيين كذب المفترى: ۳۱۰ـ ۳۱۸. (۳۲۳)

وأصحاب الخطوط فى هذا المحضر هم كبار أئمّة المذهب الشافعى ببغداد فى ذلك العهد، فقد ترجمهم محقّق كتاب «تبيين كذب المفترى» فى تعليقته على الكتاب، ثمّ أضاف: ولما طفح كيل فتن الحشوية الذين لا يكادون يفقهون حديثاً ، اضطر أكابر العلماء المعروفون بكمال الهدوء والتؤدة والأناة إلى قمع فتنتهم بالسعى لدى ولى الأمر سعياً حثيثاً، ورفع الإمام أبو إسحاق الشيرازى وأصحابه

هـذا المحضـر إلى نظـام الملـك منتصـرين للشـيخ أبى نصـر ابن القشـيرى، فعاد جواب نظام الملك إلى فخر الدولـة و إلى الإمام أبى إسـحاق بإنكار ما وقع، والتشديد على خصوم ابن القشيرى وذلك سنة تسع وستين وأربعمائة، فسكن الحال ثمّ أخذ الشريف أبو جعفر بن أبى موسى ـ و هو شيخ الحنابلة إذ ذاك ـ و جماعته يتكلّمون فى الشيخ أبى إسحاق ويبلغونه الأذى بألسنتهم، فأمر الخليفة بجمعهم والصـلح بينهم بعـد ما ثارت بينهم فتنة هائلة ذهب فيها نحو من عشـرين قتيلاً، فلمّا وقع الصـلح وسـكن الأمر أخذ الحنابلة يشـيعون أنّ الشـيخ أبا إسـحاق تبرأ من مذهب الأشـعرى، فغضب الشيخ لذلك غضباً لم يصل أحد إلى تسكينه حتى كتب إلى نظام الملك يشكو أهـل الفتن، فعـاد الجواب فى سـنة سـبعين وأربعمائـة إلى الشـيخ باسـتجلاب خاطره وتعظيمه، والأمر بتأديب الـذين أثاروا الفتنـة وبأن يسـجن الشـريف أبو جعفر، فهـدأ الحال وسـكن جأش الشـيخ وانقمعت الحشوية، وتنفّس أهل السـنّة الصـعداء وإلى اللّه عاقبة الأُمور.

الثالث: تطور الدعوة السلفية ومراحلها

قـد تعرّفت فى البحوث السابقـة على أنّه كان لمنع تـدوين الحـديث فى العصور الأُولى الإسـلامية تأثير خاص فى تسـرب عقائد اليهود والنصـارى إلى أوسـاط المسـلمين ولا سـيما أهل الحـديث منهم. ففى ظل ذلك المنع، ظهرت الفرق الباطلـة من المجسّـمة والمشبّهة ودعاة القول بالجهة للّه سـبحانه وجلوسه على العرش ناظراً إلى ما دونه ممّا يتحاشى عنه أهل التنزيه. ولم يكن ظهور تلك العقائد أمراً غير مترقب، بل كان نتيجة حتمية للعوامل السائدة على تلك البيئة، إذ فى الظروف التى يصلب فيها العقل (۳۲۴)

ويعدم، ويعاب فيها التفكير فى العقائد والمعارف، ويكتفى عن التدبر فى الذكر الحكيم، بالبحث عن القراءات السبع أو العشر، ويعرف الاسـتدلال والإمعـان فى الكتـاب العزيز بأنّه تأويل باطل، بل كفر و زندقـة، ويفسـح المجال للمتظاهرين بالإسـلام من الأحبار والرهبان ليقوموا بنشر قصص الأوّلين وأساطير الآخرين ـ ففى تلك الظروف ـ لا تظهر على مسرح العقائد، إلّا عقائد الطوائف المنحرفة، ولا غرو حينئـذ فى أن يصوّر إله العالم بصورة موجود مادى ذى جهات وأبعاض وأيـد وأرجل، له تكلم وضـحك وما يضاهى هـذه النظريات. وقـد جاء بعض الخلف محاولاً تصـحيح هـذه المأثورات، بإضافـة «بلا كيف» عقيب هـذه الصـفات، ولكن المحاولـة فاشـلة جـدّاً، فإنّ مرجعهـا إلى أنّه سـبحانه جسم بلاـ كيف، ولا يختلف التعبيران إلّا فى الصـراحة والكنايـة. ومن العقائـد الغريبـة التى ظهرت فى أواخر القرن الثـانى، كـون كلامـه سـبحانه قـديماً غير مخلوق، وقـد تلقّـاه أهـل الحـديث أمراً مسـلماً، وكـان اللائـق بمنهجهم هو السـكوت، لاعترافهم بعـدم ورود نصّ من رسول اللّه فيها، ولكنّهم اعتنقوا هذه العقيدة اعتناقاً وثيقاً لم ير مثله فى سائر المسائل، حتّى اسـتعدوا فى طريقه لتقـديم التضـحيات الثمينـة، من شتى أنواع الضـرب والحبس والتقيـد، وذلك عنـدما عزم المأمون على ردعهم عن القول بقـدم القرآن، فاسـتتاب أهل الحديث منه، فاسـتجاب بعضـهم دون بعض وممّن أظهر الصمود والثبات على تلك العقيدة إمام الحنابلة أحمد بن حنبل. وقـد ضـرب فى عصـر الخليفـة المعتصم فلم يرتـدع، فصار ذلك سـبباً لاشـتهار الرجل بينهم، وبلوغه قمـة الإمامة فى العقائد والسـنّة، واكتسـابه مكانـة مرموقـة بين النـاس. فصارت السـنّة ما أمضاه الإمام والبدعـة ما هجره، فراجت رسائله وكتبه التى ألّفت باسـم عقيـدة أهل السـنّة، وكانت الرئاسة فى باب العقائد منحصـرة به إلى أن ظهر الإمام الأشـعرى تائباً عن الاعتزال، معلناً التحاقه فى العقائد بالإمـام أحمـد، و عـدّ نفسه مـدافعاً عن عقائـد أهـل السـنّة تـارة بالنصوص والأحاديث، وأُخرى بالاسـتدلال والبرهنـة: فألّف فى بـداية الالتحاق كتاب «الإبانة» وهو تصوير خاص لرسائل إمام مذهبه، كما ألّف فى الفترة الأُخرى كتاب «اللمع» وهو (۳۲۵)

تصوير لمـا يملكه من الفكر الـذى ورثه عن المعتزلـة حينما كان منتهجاً مناهجهم. وبما أنّ الإمام الأشـعرى قـد قضـى شـطراً كبيراً من عمره بين أهل الفكر والتعقّل، فلـذا أخـذ بالتعديل والتهذيب فى عقائد المذهب الأُم ـ أهل الحديث ـ وما قام به من العملية العقلية وإن أغضـبت ثلـة من الحنابلة وأهل الحديث، حتى إنّ كبير الحنابلة (البربهارى) فى ذلك الوقت لم يقبل دفاع الشـيخ الأشـعرى عن عقائد أهـل السـنّة بالبرهنـة والاسـتدلال، ولكن النفوس المسـتعدة المتنورة تأثّرت بمنهـج الإمام الأشـعرى، وزاد الإقبال عليه وتوفر الثناء على فكرته. وعلى ضـوء منهجه ألّف الإمـام البيهقى (۱) صـاحب السـنن الكبرى كتاب «الأسـماء والصـفات» وعالـج فيه كثيراً من روايات التشبيه والتجسيم، كما قام ابن فورك(۲) بتأليف كتاب «مشكل الحديث وبيانه»، كلّ ذلك على الخط الذى رسمه الأشعرى فى تنزيهه

سبحانه. _____

۱ . هو الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن على البيهقى(المتوفّى عام ۴۵۸هـ) وطبع كتاب «الأسماء والصفات» فى مصر بتصحيح الشيخ محمد زاهد الكوثرى. ومن المأسوف عليه أنّ يد الخيانة أسقطت مقدمة الأُستاذ الشيخ سلامة العزامى الشافعى عند إعادة الطبع بالأفست، وما هذا إلّا لأنّ المقدمة كانت على ضد السلفيةوالوهابية.

۲ . هو أبو بكر محمد بن حسن بن فورك(المتوفّى عام ۴۰۶هـ) له ترجمة فى تبيين ابن عساكر:۲۳۲ـ ۲۳۳.

يقول المقريزى فى خططه (ج۲،ص ۳۵۸) فى بيان حقيقة المذهب الأشعرى: إنّه سلك طريقاً بين النفى الذى هو مذهب الاعتزال (نفى الصفات الخبرية كاليد والوجه)، وبين الإثبات الذى هو مذهب أهل التجسيم وناظر على قوله هذا واحتج لمذهبه فمال إليه جماعة وعوّلوا على رأيه، منهم: القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المالكى، و أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مهران الإسفرائينى، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف الشيرازى، والشيخ أبو حامد محمد بن أحمد الغزالى، وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانى،والإمام فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الرازى وغيرهم ممن يطول ذكره ونصروا مذهبه وناظروا عليه وجادلوا فيه واستدلّوا له فى مصنّفات لا تكاد تحصر، فانتشر مذهب أبى الحسن الأشعرى فى العراق من نحو سنة ثمانين وثلاثمائة وانتقل منه إلى الشام، إلى آخر ما ذكره. (۳۲۶) إبعاد أحمد عن الإمامة فى العقائد

قد كان لانتشار مذهب الأشعرى تأثير خاص فى إبعاد الإمام أحمد عن ساحة العقائد، وأُفول إمامته فى الأُصول، وانزوائه فى كثير من البلدان وإقامة الأشعرى مقامه. فصار الفرع الذى اشتق من الأصل المذهب الرسمى لأهل السنّة. وبلغت إمامة الفرع إلى الحدّ الذى كلّما أطلق مذهب أهل السنّة لا يتبادر منه إلّا ذلك المذهب أو ما يشابهه كالماتريدية. يقول المقريزى بعد الإشارة إلى أُصول عقيدة الإمام الأشعرى: هذه جملة من أُصول عقيدته التى عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية، والتى من جهر بخلافها أريق دمه.(۱) نعم، بلغ الإمام الأشعرى قمة الإمامة فى العقائد من دون أن يمس إمامة أحمد فى الفروع ومرجعيته فى الفتيا، كيف وهو أحد المذاهب الأربعة الرسمية بين أهل السنّة إلى الآن فى العواصم الإسلامية، لكن لا فى نطاق واسع بل فى درجة محدودة تتلو إمامة أبى حنيفة والشافعى ومالك. تجديد الدعوة السلفية فى القرن الثامن

لقد اهتم بعض الحنابلة ـ أعنى: أحمد بن تيمية الحرانى الدمشقى (المتوفّى عام ۷۲۸هـ) ـ بإحياء مذهب السلفية على المفهوم الذى كان رائجاً فى عصر الإمام أحمد وقبله وبعده إلى ظهور الأشعرى، فأصرّ على إبقاء أحاديث التشبيه والجهة بحالها من دون توجيه وتصرف، وهاجم التأويلات التى ذكرها بعض الأشاعرة فى كتبهم حول تلك الأحاديث. ولكنّه لم يكتف بمجرّد الإحياء، بل أدخل فى عقائد السلف أُموراً لا ـ ترى منها أثراً فى كتبهم، فعد السفر لزيارة الرسول الأعظم بدعة وشركاً، كما عدّ التبرّك ب آثارهم والتوسّل بهم شيئاً يضاد التوحيد فى العبادة. وقد ضم إلى ذينك الأمرين شيئاً ثالثاً وهو إنكار كثير من الفضائل الواردة فى آل البيت، المروية فى الصحاح و المسانيد حتى فى مسند _____

۱ . الخطط المقريزية:۲/۳۹۰. (۳۲۷)

إمامه أحمد. وبذلك جدد الفكرة السلفية الخاصة المتبلورة فى الفكرة العثمانية التى تعتمد على التنقيص من شأن على وإشاعة بغضه وعناده. وبذلك نقض قواعد ما أرساه إمامه أحمد من مسألة التربيع وجعل علىـ عليه السَّلام ـ رابع الخلفاء الراشدين، وأنّ علياً كان أولى وأحقّ من خصومه. ومن حسن الحظ إنّه لم يتأثر بدعوته إلاّ ـ القليل من تلامذته كابن القيم (المتوفّى عام ۷۵۱هـ) كيف وقد عصفت الرياح المدمرة على هذه البراعم التى أظهرها، حيث قابل منهجه المحقّقون بالطعن والردّ الشديدين، فأفرد بعضهم فى الوقيعة به ت آليف حافلة، وجاء البعض الآخر يزيف آراءه و معتقداته فى طى كتبه، وقام ثالث يترجمه ويعرفه للملأ ببدعه وضلالاته. وكفى فى ذلك ما كتبه بعض معاصريه كالذهبى، فإنّه كتب رسالة مبسوطة إليه ينصحه ويعرفه بأنّه ممّن يرى القذاة فى عين أخيه وينسى الجذع فى عينيه، وأنّه لم تسلم أحاديث الصحيحين من جانبه ثمّ خاطبه بقوله: أما آن لك أن ترعوى؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب؟

أما أنت فی عشر السبعین وقد قرب الرحیل؟.(۱) وهناک کلام للمقریزی یقول بعد الإشارة إلی اشتهار مذهب الأشعری وانتشاره فی أمصار الإسلام: إنّه نسی غیره من المذاهب وجهل حتی لم یبق الیوم مذهب یخالفه. إلّا أن یکون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أبی عبد اللّه أحمد بن محمد ابن حنبل ـ رضی اللّه عنه ـ فإنّهم کانوا علی ما کان علیه السلف لا یرون تأویل ما ورد من الصفات، إلی أن کان بعد السبعمائة من سنی الهجرة، اشتهر بدمشق وأعمالها تقی الدین أبو العباس أحمد بن تیمیة الحرانی، وتصدّی للانتصار لمذهب السلف، وبالغ فی الرد علی مذهب الأشاعرة، وصدع بالنکیرة علیهم وعلی الرافضة وعلی الصوفیة، فافترق الناس فیه فریقان فریق یقتدی به

۱ . تکملة السیف الصقیل: ۱۹۰، ونقل قسماً من هذه الرسالة العزامی فی الفرقان الذی طبع فی مقدّمة الأسماء والصفات للبیهقی ونقله العلاّمة الأمینی فی غدیره:۵/۸۷ ـ ۸۹. (۳۲۸)

ویعول علی أقواله ویعمل برأیه ویری أنّه شیخ الإسلام وأجل حفاظ أهل الملّة الإسلامیة، وفریق یبدعه ویضلّله ویزری علیه بإثباته الصفات وینتقد علیه مسائل منها ما له فیه سلف ومنها ما زعموا أنّه خرق فیه الإجماع ولم یکن له فیه سلف، وکانت له ولهم خطوب کثیرة وحسابه وحسابهم علی اللّه الذی لا یخفی علیه شیء فی الأرض ولا فی السماء وله إلی وقتنا هذا عدة أتباع بالشام وقلیل بمصر.(۱) الدعوة السلفیة فی القرن الثانی عشر

لم یتعظ الرجل من قوة ناصحه المشفق حتی أدرکته المنیة فی سجن دمشق، ولکن کانت بذرة الضلال مدفونة فی الکتب وزوایا المکتبات إلی أن ألقی الشر بجرانه، وجاء الدهر بمحمّد بن عبد الوهاب النجدی فی القرن الثانی عشر(۱۱۱۵ـ ۱۲۰۶هـ) فحذا حذو ابن تیمیة، وأخذ وتیرته واتبع طریقته، فأحیا ما دثره الدهر، ودعا إلی السلفیة من جدید، غیر أنّه اتّخذ ما أضافه ابن تیمیة إلی عقائد السلف ممّا لا یرتبط بمسألة التوحید والشرک، کالسفر إلی زیارة النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ والتبرک ب آثاره، والتوسل به، وبناء القبة علی قبره، قاعدة أساسیة لدعوته، ولم یهتم فی ت آلیفه بمسألة التشبیه وإثبات الجهة والفوق. نعم، لمّا استفحلت دعوة الشیخ محمد بن عبد الوهاب فی نجد وقام أُمراء المنطقة (آل سعود) بترویج منهجه واستغلوه للسیطرة علی الجزیرة العربیة، اهتمت الوهابیة بنشر ما ألّفه السلف حول البدع السابقة الموروثة من الیهود والنصاری ،فصار إثبات الصفات الخبریة کالید والوجه والاستواء بمفهومها اللغوی مذهباً رسمیاً لدعاة الوهابیة، لا یجترئ عالم علی مخالفته فی أوساطهم.(۲)

۱ . الخطط المقریزیة:۲/۳۵۸ـ ۳۵۹.

۲ . وقد ألّف رضا بن نعسان معطی فی مکة المکرمة کتاباً حول الصفات الخبریة سماه «علاقة الإثبات والتفویض بصفات ربّ العالمین» وقدم علیه عبد العزیز بن باز رئیس إدارة البحوث العلمیة والإفتاء والدعوة والإرشاد وأصر فیه علی أنّ عقیدة السلف فی هذه الصفات إبقاؤها علی مفاهیمها اللغویة بلا تغییر وتصرف. وغیر خفی علی النبیه أنّه لا ینتج إلّا التجسیم وإن کان الکاتب والمقرظ لا یعترفان به، ولکنّه لا ینفک عن تلک النتیجة. (۳۲۹)

وبذلک وردت الدعوة السلفیة فی مراحلها التاریخیة المرحلة الثالثة بعد الاندراس و لمّا تمّت معاملة الدول الکبری علی الخلافة العثمانیة المسیطرة علی أکثر ربوع الإسلام ـ یوم ذاک ـ و أُقصیت من ساحة البلاد العربیة، حلّت سیطرة آل سعود المتبنین للعقیدة الوهابیة من لدن میلادها، محلها فی أرض الحجاز عموماً، والحرمین الشریفین خصوصاً. ومن جراء ذلک أخذت الدعوة الوهابیة تنتشر فی الأراضی المقدسة بالطابع السلفی، فصارت السلفیة والوهابیة وجهین لعملة واحدة، وقد استعانت السلطة السعودیة بکلّ ما تملک من قوّة وقدرة إرهابیة، ودراهم ودنانیر ترغیبیة، لنشر المنهج الوهابی، ولکلّ من ذینک الأمرین أهله ومحله. فاستعملت الأوّل فی الأُمیّین والرعاع من الناس، واشترت بالثانی أصحاب القلم وأرباب الجرائد والمجلات وسائر وسائل الإعلام. فصارت السلفیة فی هذه الأماکن رمز الإسلام الأصیل، وآیة الدین الصحیح، المجرّد عن البدع اللصیقة به بعد لحوق النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ بالرفیق الأعلی. وقد استعانت هذه السلطة فی تسریع الحرکة الوهابیة فی هذا الزمان بما ظهر فی المناطق الشرقیة من الجزیرة من الذهب

الأسود، فاستولت على زبرج الدنيا وزينتها وتمادت فی غيّها وساقت كثيراً من الناس إلى معاسيف السبل ومعاميها، حتّى تأثر بتلك الحركة بعض الشبان وغيرهم خارج الجزيرة العربية. إنّ الدعايات الخادعة، أثرت فی تفكير كثير من الناس إلى حدّ تخيل لهم أنّ تجديد مجد الإسلام وبلوغ المسلمين إلى ذروة السنام لا يتم إلّا بإحياء ما كان عليه السلف فی الأُصول والفروع، ويريدون منه عهود الخلافة الراشدة والأمويين والعباسيين، فكأنّ حياتهم فی تلك العصور كانت باقات زهور تفتحت فی تلك القرون، فعم ريحها وريحانها أجواء الأقطار الإسلامية، (۳۳۰)

فلأجل ذلك يتطلّعون إلى تلك العهود تطلع الصائم إلى الهلال، والظامئ إلى الماء. لكن الدعايات الخاطئة عاقتهم عن التعرف على ما فی تلك العصور من النقاش والخلاف بين المسلمين وسفك الدماء وقتل الأولياء وحكومة الإرهاب والإرعاب، إلى غير ذلك من المصائب والطامات الكبرى. ولو درسوا تاريخ السلف ـ منذ فارق النبی الأعظم المسلمين وتسنم الأمويون منصة الخلافة إلى أن انتكث فتلهم، وأجهز عليهم عملهم، وورثهم العباسيون ولم يكونوا فی العمل والسيرة بأحسن حال منهم ـ لوقفوا على أنّ حياة السلف لم تكن حياة مثالية راقية، بل كانت تسودها المجازر الطاحنة الدامية، والجنايات الفظيعة التی ارتكبتها الطغمة الأموية والعباسية فی حقّ الأبرياء الأولياء والعلويين من العترة الطاهرة. فلو صحّ ما فی التواريخ المتواترة، لدلّ قبل كلّ شیء على أنّ السلف لم يكن بأفضل من الخلف، وأنّ الخلف لم يكن بأسوأ من السلف، ففی كلتا الفئتين رجال صالحون مثاليون كما فيهما رجال دجّالون وأُناس طالحون. المفكّرون الإسلاميون المعاصرون والسلفية

ومن المؤسف أنّ السلفية اتخذت لنفسها فی الآونة الأخيرة طابعاً حاداً وسلوكاً فی غاية الجمود و التحجّر، وفی منتهى التقشف والتزمت حتى ذهب من ينحو هذا المنحى إلى تحريم كلّ ما يتصل بالحضارة ومعطياتها المباحة شرعاً، فإذا بهم يحرمون حتى التصوير الفوتوغرافی ويهاجمون الراديو و التلفزيون(۱) عتواً وجهلاً. وقد كان هذا الموقف الجامد المتحجّر، وهذا التزمت والجفاف الذی ما أنزل اللّه به من سلطان، والذی أسند ـ و للأسف ـ إلى الإسلام، وما رافقه من قوة على الآخرين ورميهم بالبدعة، والخروج على الدين بحجة عدم _____

۱ . راجع مجلة الفرقان العدد الخامس من السنّة الأُولى وتصدرها جماعة من السلفيّين المتشدّدين. (۳۳۱)

الانقياد لمواقف السلف، وآرائهم، وراء ابتعاد جماعات كبيرة من الشباب من أبناء المسلمين عن الإسلام السهل الحنيف، وإساءة الظن به وبمؤسساته. وهذا هو ما حدا ببعض الغيارى والمتحررين من المفكّرين الإسلاميين إلى التصدّى لهذا الاتجاه الدخيل على الإسلام البعيد عن روحه النقية السمحة. وممن انبرى لإبطال هذا المذهب وإزالة الغبار عن وجه الحقيقة الأُستاذ محمد سعيد رمضان البوطی فی كتابه «السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامی». حيث عمد أوّلاً إلى تفنيد زعم السلفيين المعاصرين بأنّ على المسلم أن يجمد على ما ورد عن السلف وعلى منهجهم وكأنّه مذهب إسلامی مقدس لا يجوز أن تناله يد الجرح والتعديل، ولا أن يخضع للنقاش والنقد، بل لا يجوز أن يتخطى فی مقام العمل والسلوك. حيث قال: إنّ اتّباع السلف لا يكون بالانحباس فی حرفية الكلمات التی نطقوا بها أو المواقف الجزئية التی اتخذوها، لأنّهم هم أنفسهم لم يفعلوا ذلك.(۱) ثمّ قال: إنّ من الخطأ بمكان أن نعمد إلى كلمة (السلف) فنصوغ منها مصطلحاً جديداً طارئاً على تاريخ الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامی ألا وهو (السلفية) فنجعله عنواناً مميزاً تندرج تحته فئة معينة من المسلمين تتخذ لنفسها من معنى هذا العنوان وحده، مفهوماً معيناً، وتعتمد فيه على فلسفة متميزة بحيث تغدو هذه الفئة بموجب ذلك، جماعة إسلامية جديدة فی قائمة جماعات المسلمين المتكاثرة والمتعارضة بشكل مؤسف فی هذا العصر، تمتاز عن بقية المسلمين بأفكارها وميولها، بل تختلف عنهم حتّى بمزاجها النفسی ومقاييسها الأخلاقيّة كما هو الواقع اليوم فعلاً. بل إنّنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا: إنّ اختراع هذا المصطلح بمضامينه الجديدة التی أشرنا إليها بدعة طارئة فی الدين لم يعرفها السلف الصالح لهذا الأُمّة، ولا الخلف الملتزم بنهجه.(۲) _____

۱ . السلفية مرحلة زمنية: ۱۲.

۲ . المصدر نفسه: ۱۳. (۳۳۲)

ویقول: إنّ السلف أنفسهم لم یکونوا ینظرون إلی ما یصدر عنهم من أقوال أو أعمال أو تصرفات، هذه النظرة القدسیة الجامدة التی تقتضیهم أن یسمِّروها بمسامیر البقاء والخلود، بل ساروا وراء ذلک مع ما تقتضیه علل الأحکام وسنة التطور فی الحیاة، وعوامل التقدم العلمی، ومنطق التجاوز المستمر من الصالح إلی الأصلح کما سایروا الأعراف المتطورة من عصر إلی آخر، أو المتبدلة ما بین بلدة وأُخری ما دام ذلک کلّه منتشراً وراء أسوار النصوص الحاکمة والمهیمنة.(۱) ثمّ أشار إلی نماذج من مواقف السلف التی تطورت مع تطور الأحوال والأوضاع فی شتی مجالات العلم والسلوک. ثمّ قال: إنّ السلف أنفسهم لم یجمدوا عند حرفیة أقوال صدرت منهم، کما لم یتشبّثوا بصور أعمال أو عادات ثبتوا عندها ثمّ لم یتحولوا عنها، بل الذی رأیناه فی هذه النماذج الیسیرة هو نقیض ذلک تماماً، فکیف نقلّدهم فی شیء لم یفعلوه، بل ساروا فی طریق معاکس له...؟(۲) ثمّ ینتهی إلی القول: إنّ کلّ ما ذکرنا هنا تلخیص إجمالی للبرهان علی أنّ السلفیة لا تعنی علی کلّ حال إلاّ مرحلة زمنیة مرت... فإن قصدت بها جماعة إسلامیة ذات منهج معین خاص بها، یتمسّک به من شاء، لیصبح بذلک منتسباً إلیها منضویاً تحت لوائها، فتلک إذن إحدی البدع المستحدثة بعد رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ .(۳) ثمّ لإبطال حجّیة مواقف السلف علی من بعدهم ما لم یستند إلی برهان یشیر إلی نماذج من خلافاتهم واختلافاتهم فی المواقف والآراء(۴) ثمّ یقول: فلو کانت اتجاهات السلف واجتهاداتهم هذه حجّة لذاتها، لا تحتاج هی بدورها إلی برهان أو مستند یدعمها، لأنّها هی برهان نفسها، إذن لوجب أن تکون تلک _____

۱ . نفس المصدر:۱۴ـ ۱۵.

۲ . نفس المصدر: ۱۸.

۳ . نفس المصدر:۲۳.

۴ . نفس المصدر:۲۳. (۳۳۳)

النظرات المتباعدة بل المتناقضة کلّها حقّاً وصواباً، ولوجب المصیر دون أی تردد إلی رأی المصوبة. وعن إمکانیة طروء الخطأ علی مواقف السلف یقول: إنّ اقتداءنا بالسلف لا یجوز أن یکون بواقعهم الذی عاشوه من حیث إنّهم أشخاص من البشر یجوز علیهم کلّ أنواع الخطأ والسهو والنسیان، فإنّهم من هذا الجانب بشر مثلنا لا یمتازون عن سائر المسلمین بشیء.(۱) من هنا یری أنّ علی الأُمّة إذا أرادت أن تصل إلی الحقیقة الإسلامیة فی مجال العقیدة والسلوک أن تتبع منهجاً فی هذا المجال لا أن تکتفی بمجرّد اتباع السلف بشکل مطلق، فیقول فی هذا الصدد: إنّ الإنسان لکی یمارس الإسلام یقیناً وسلوکاً لابدّ أن یجتاز المراحل الثلاث التالیة: أ. التأکّد من صحّة النصوص الواردة والمنقولة عن فم سیدنا محمّد ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قرآناً کانت هذه النصوص أم حدیثاً، بحیث ینتهی إلی یقین بأنّها موصولة النسب إلیه، ولیست متقوّلة علیه. ب. الوقوف بدقة علی ما تتضمنه وتعینه تلک النصوص بحیث یطمئن إلی ما یعنیه ویقصده صاحب تلک النصوص منها. ج. عرض حصیلة تلک المعانی والمقاصد التی وقف علیها وتأکد منها، علی موازین المنطق والعقل (ونعنی بالمنطق هنا قواعد الدرایة والمعرفة عموماً) لتمحیصها ومعرفة موقف العقل منها.(۲) وعندما شرح البند الأوّل والعلّة الموجبة له یشیر إلی ما تعرض له الحدیث النبوی علی ید الوضّاعین والزنادقة، ویشیر إلی أقسام الحدیث من متواتر وصحیح وضعیف، ممّا یجعلنا نتحفظ تجاه النصوص، ولا نقدم علی الأخذ بها _____

۱ . السلفیة مرحلة زمنیة:۵۵ـ۵۶.

۲ . نفس المصدر:۶۳. (۳۳۴)

لمجرّد روایة السلف لها أو روایتها عن السلف، بل نأخذ بها بعد التمحیص والتحقیق حسب المیزان المذکور. فیقول: فمن التزم بمقتضی هذا المیزان فهو متبع کتاب اللّه متقید بسنة رسول اللّه، سواء أکان یعیش فی عصر السلف أو جاء بعدهم، ومن لم یلتزم بمقتضاه فهو متنکب عن کتاب اللّه، تائه عن سنة رسوله علیه الصلاة والسلام وإن کان من الرعیل الأوّل، ولم یکن یفارق مجلس

رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ .(۱) وبعد أن يسهب فى شرح تفاصيل هذا المنهج يقول: ولم نعلم أنّ فى أهل هذه القرون الغابرة كلّها من قد استبدل بهذا المنهج الذى كان ولا يزال فيصل ما بين أهل الهداية والضلال، التمذهب بمذهب يسمّى السلفية بحيث يكون الانتماء إليه هو عنوان الدخول فى ساحة أهل الهداية والرشاد. وعدم الانتماء إليه هو عنوان الجنوح إلى الزيغ والضلالة والابتداع. ولقد أصغينا طويلاً ونقبنا كثيراً فلم نسمع بهذا المذهب فى أىّ عصر من عصور الإسلام الغابرة، ولم يأت من يحدثنا بأنّ المسلمين فى عصر ما قد انقسموا إلى فئة تسمّى نفسها السلفية وتحدد شخصيتها المذهبية هذه ب آراء محددة تنادى بها، وأخلاقية معينة تصطبغ بها، وإلى فئة أُخرى تسمى من وجهة نظر الأُولى بدعية أو ضلالية أو خلفية أو نحو ذلك، كلّ الذى سمعناه وعرفناه أنّ ميزان استقامة المسلمين على الحقّ أو جنوحهم عنه إنّما مردّه إلى اتّباع المنهج المذكور. وهكذا، فقد مرّ التاريخ الإسلامى بقرونه الأربعة عشر دون أن نسمع عن أى من علماء وأئمّة هذه القرون أنّ برهان استقامة المسلمين على الرشد يتمثل فى انتسابهم إلى مذهب يسمّى بالسلفية فإن هم لم ينتموا إليه ويصطبغوا بمميزاته وضوابطه، فأُولئك هم البدعيون الضالّون. _____

۱ . السلفية مرحلة زمنية: ۷۹. (۳۳۵)

إذن فمتى ظهرت هذه المذهبية التى نراها بأُمّ أعيننا اليوم والتى تستثير الخصومات والجدل فى كثير من أصقاع العالم الإسلامى، بل تستثير التنافس والهرج فى كثير من بقاع أوروبا حيث يقبل كثير من الأوروبيين على فهم الإسلام ويبدون رغبة فى الانتساب إليه؟(۱) وبعد أن يشير إلى مبدأ ظهور هذه الكلمة (السلفية) وسبب ذلك، و كيف أنّها استخدمت فى ذلك الوقت للدعوة إلى السير على خطا المسلمين الأُول فى الالتزام بأصل الإسلام فى مواجهة الموجة المادية الغربية التى اجتاحت البلاد الإسلامية فى أوائل القرن العشرين، ولكنّها تحولت فيما بعد إلى لقب، لقب به الوهابيون مذهبهم، وهم يرون أنّهم دون غيرهم من المسلمين على حقّ، وأنّهم دون غيرهم الأُمناء على عقيدة السلف، والمعبرون عن منهجهم فى فهم الإسلام وتطبيقه، وأمّا الآخرون فكفرة ضالّون. يقول بعد كلّ هذا تحت عنوان: «التمذهب بالسلفية بدعة لم يكن من قبل»: إذا عرف المسلم نفسه بأنّه ينتمى إلى ذلك المذهب الذى يسمّى اليوم بالسلفية، فلا ريب أنّه مبتدع... فالسلفى اليوم، كلّ من تمسّك بقائمة من الآراء الاجتهادية المعينة ودافع عنها وسفّه الخارجين عليها ونسبهم إلى الابتداع، سواء منها ما يتعلق بالأُمور الاعتقادية، أو الأحكام الفقهية والسلوكية.(۲) ثمّ أشار الأُستاذ البوطى إلى الآثار الضارة اللاحقة بالأُمّة الإسلامية من جرّاء هذه البدعة، وما يلازمها من عصبية مقيتة ومواقف متصلّبة وعنيفة. وما أوجدت من مشاكل فى الأوساط الإسلامية... وأشار ـ فيما أشار ـ إلى تهجّم السلفيين على جماعة من المسلمين المجاهدين فى سبيل اللّه لا لشىء إلّا لأنّ السلفيين لا يرتضون بعض أعمالهم المباحة شرعاً. _____

۱ . السلفية مرحلة زمنية: ۲۳۰ـ ۲۳۱.

۲ . نفس المصدر: ۲۳۶ـ ۲۳۷. (۳۳۶)

حيث قال: وفى إحدى الأصقاع النائية (۱) حيث تدافع أُمّة من المسلمين الصادقين فى إسلامهم عن وجودها الإسلامى وعن أوطانها وأراضيها المغتصبة، تصوّب إليهم من الجماعات السلفية سهام الاتّهام بالشرك والابتداع، لأنّهم قبوريون توسّليون(۲) ثمّ تتبعها الفتاوى المؤكّدة بحرمة إغاثتهم بأىّ دعم معنوى أو عون مادى، ويقف أحد علماء تلك الأُمّة المنكوبة المجاهدة ينادى فى أصحاب تلك الفتاوى والاتهامات: يا عجباً لإخوة يرموننا بالشرك مع أنّنا نقف بين يدى اللّه كلّ يوم خمس مرات نقول:(إِيّاكَ نعبدُ وإِيّاكَ نَسْتَعين) (۳)... لكن النداء يضيع، ويتبدّد فى الجهات دون أىّ متدبر أو مجيب!!(۴) ثمّ يقول: إنّ استنكار هذه الرعونات الشنيعة لا يكون إلّا ـ بمعالجتها، ولا ـ تكون معالجتها إلّا ـ بسد الباب الذى اقتحمت منه، وإنّما الباب الذى اقتحمت منه هو الإقدام على اقتطاع جماعة من جسم الجماعة الإسلامية الواحدة، واختراع اسم مبتدع لها ثمّ تغذية روحها العصبية وأنانيّتها الجماعية بمقوّمات معينة وأساليب وأخلاقيات متميزة تدافع بها عن كيانها الذاتى، بل تتّخذ من هذا الاسم سلاحاً لمقاومة الآخرين وطعنهم دون هوادة إذا اقتضى الأمر.(۵) ثمّ يشير الأُستاذ إلى استفادة أصحاب الفكر اليسارى من هذه البدعة لصالح المادية الماركسية الجدلية حيث اعتبروا

هذه البدعة دليلاً على صحّة نظريتهم التاريخية فى مجال التناقض والصيرورة، فى غفلة من أصحاب هذه البدعة. ــــــــــــــــــــــ

۱ . والمراد هو إيران المسلمة وذلك عند دفاع أهلها عن وطنهم ومقدّساتهم فى الحرب المفروضة عليهم من جانب الاستكبار العالمى وعملائه.

۲ . نعم هذا هو ما كان يفعله السعوديون الذين يتسترون تحت غطاء السلفية فكانوا يساعدون النظام الإلحادى البعثى العراقى بالمال والسلاح والدعاية مجاهرين بذلك. وحبذا لو أنّ الأُستاذ الشهم كشف عن اسم هذه الفرقة المتجنّية على الإسلام والمسلمين،التى لم تكتف بتكفير المسلمين فى إيران بل كفرت كلّ المسلمين وضلّلتهم.

۳ . الفاتحة:۵.

۴ . السلفية مرحلة زمنية: ۲۴۵.

۵ . المصدر نفسه: ۲۴۶. (۳۳۷) السلفية وتدمير الآثار الإسلامية

لقد قامت «الوهابية» المفروضة على الشعب المسلم فى الجزيرة العربية باسم «السلفية» بتدمير الآثار الإسلامية وقد ركزت جهودها فى هذه الأيّام على محو آثار الإسلام ومعالمه وطمس كلّ أثر دينى حتى المساجد، مع أنّ مؤسس«الوهابية»، أعنى: «محمد بن عبد الوهاب» ، كان يركز جهوده على هدم القبور فقط لا على هدم كلّ أثر دينى للرسول الأعظم وصحابته المنتجبين، لكنّ حلفاءه بدأوا فى هذه الأيام بالقضاء على الآثار الدينية باسم تطوير البلدين: مكة والمدينة فترى كيف طمست حتى فى هذه السنوات الأخيرة(۱۳۹۶ـ ۱۴۰۸هق) عشرات من الآثار الإسلامية ومحيت معالمها تحت غطاء توسعة المسجد النبوى، أو تطوير المدينة وإعمارها، وكأنّ التطوير يتوقف على التدمير ولا يجتمع مع حفظ تلك الآثار فى مكانها، ولا نشكّ نحن وكلّ متحرق على الحقّ والحقيقة أنّها مؤامرة شيطانية على الإسلام وأهله. والعجب أنّ «السعوديين» يقومون بهذا العمل باسم الاقتداء بالسلف مع أنّ السلف فى القرون السابقة فرضوا على أنفسهم رعايتها، فإنّ الحكام ـ الذين تعاقبوا على مسند الحكم فى الحجاز عدا يزيد ـ فرضوا على أنفسهم حفظها ورعايتها غير أنّها فى هذه الأيام، كأنّها أصبحت ملكاً صرفاً لآل سعود، وكأنّها ليست آثاراً إسلامية ولا تخص مليار مسلم فضلاً عن الأجيال اللاحقة، ولو نظر المسلم فى تاريخ الآثار الإسلامية قبل استيلاء «السعوديين» عليها لوجد جميع الآثار تتمتع بأفضل عناية ورعاية من جانب السلف. فما معنى هذه السلفية التى تتبعض فى مفهومها فيؤخذ منها شىء ويترك منها شىء؟! يقولون : «نؤمن ببعض ونكفر ببعض». وفى الوقت الذى تحرص فيه الدول المتحضّرة على إحياء أمجادها وتراثها، وتتعهد بإنشاء كليات ومعاهد ومؤسسات ومتاحف لحفظ الآثار وصيانتها ـ فى هذا الوقت نفسه ـ تعمد السعودية إلى القضاء على أنفس الآثار الإسلامية وأعزها على كلّ مسلم. والعجب العجاب أنّ هؤلاء يدّمرون بيوت بنى هاشم وبيت الإمام (۳۳۸)

الصادق ـ عليه السَّلام ـ ، وقبر والد النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ومشهد ذى النفس الزكية، وبيت أبى أيّوب الأنصارى مضيف النبى، ولكنّهم يعتنون ب آثار اليهود فى المدينة المنوّرة، فترى فيها حصن «كعب بن الأشرف» رأس اليهود الذى اغتاله بعض الصحابة بأمر النبى الأعظم محفوظاً، وقد وضعت أمامه لوحة تحمل مرسوماً ملكياً بحفظه تحت عنوان حفظ الآثار. وليس هذا التخطيط منحصراً بحفظ تراث ذلك اليهودى بل حصون خيبر بجميع شقوقها وفروعها سجلت فى ديوان الآثار التى يجب حفظها عن الاندراس، لأنّها شارة خاصة لأسلاف الحافظين لها«فاعتبروا يا أُولى الأَبصار». فأين المسلمون الغيارى، أعنى: الذين افتقدوا يوماً شعرة من رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وكانوا يحتفظون بها فى مسجد من مساجد الهند فانتابتهم رجّة عظيمة، وثارت ثائرتهم حتى اضطرت الدولة العلمانية الهندية إلى بذل الجهود للعثور على تلك الشعرة، حتّى عثر عليها وأعيدت إلى مكانها. فأين أُولئك الغيارى حتّى يروا بأُم أعينهم أنّ الآثار النبوية تدمّر، الواحد تلو الآخر وفى كلّ شهر ويوم على أيدى السلطات السعودية. ولن تنتهى الجريمة إلى هذا الحدّ، بل ربما تتعدى إلى ما لا سمح اللّه به لهم. ومن الملفت للنظر أنّ المفكّرين من علماء الإسلام عندما قام الوهابيون بهدم قبور أئمّة أهل البيت فى البقيع(۱) أعلنوا للعالم الإسلامى بأنّ الجريمة لن تتوقف عند هذا الحد، بل إنّ هدم البقيع مقدمة لهدم ومحو جميع آثار

الرسالة، وفى ذلك يقول المرجع الدينى الراحل (۲) السيد صدر الدين العاملى: ــــــــــــــــــ

۱ . عام ۱۳۴۴هـ .

۲ . لبى دعوة ربّه عام ۱۳۷۳هـ (۳۳۹)

لعمرى إنّ فاجعة البقيع * يشيب لهولها فود الرضيع وسوف تكون فاتحة الرزايا * إذا لم نصح من هذا الهجوع أما من مسلم للّه يرعى * حقوق نبيّه الهادى الشفيع (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلب يَنْقَلِبُونَ) . الرابع: نصيحة لأعلام الحنابلة وقادتهم

اتّفق المسلمون تبعاً للذكر الحكيم على أنّ الرسالة المحمّدية رسالة عالمية أوّلاً، وخاتمية ثانياً، قال سبحانه: (قُلْ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّى رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَميعاً)(۱)، وقد حملت الأُمّة الإسلامية رسالة إبلاغ الإسلام على عواتقها بعد التحاق النبى الأكرم بالرفيق الأعلى فنشروها فى مشارق الأرض ومغاربها حسبما توفر لديهم من الإمكانيات، وقد وصلت النوبة فى هذا العصر إلى قادة المسلمين وأئمّتهم، فيجب عليهم بث الإسلام وتعاليمه بين الناس ـ شرقيّهم وغربيّهم ـ فى حدود الإمكانيات والوسائل الموجودة فى سبيل بسط الدعوة ونشرها حتّى ينقذوا العالم من مخالب المادية ومن الحروب التى تهدد كيان الإنسانية. وممّا لا شكّ فيه أنّ للتأثير فى النفوس وجذب القلوب، عللاً وأسباباً مختلفة، أهمها كون الداعى مجهزاً بقوة المنطق والاستدلال القاطع الذى تخضع له العقول السليمة، فعند حسن الدعوة وأسلوبها،وقوّة المادة ورصانتها، ترى القلوب تهوى إليها من كلّ صوب وجانب،والناس يدخلون فى دين اللّه أفواجاً، وأمّا إذا كانت الدعوة غير منسجمة مع الفطرة السليمة، فنفور الناس هو النتيجة الحتمية وتكون من قبيل«مايفسده أكثر ممّا يصلحه». وفى ظل هذا العامل سيطرت الدعوة المحمدية ـ آن ظهورها ـ على قلوب العالم واكتسحت العراقيل الموجودة أمامها، وما ذاك إلّا لكون الدعوة حائزة للشرائط موافقة للطباع، وإلى هذا الانسجام يشير قوله سبحانه: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّين حَنيفاً فِطْرَةَ اللّهِ الّتى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبديلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ ــــــــــــــــــ

۱ . الأعراف:۱۵۸. (۳۴۰) الدِّينُ القَيِّمْ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُون) .(۱)

فالدعوة إلى التوحيد ورفض الأصنام، وبسط العدل والقسط بين الناس، والدعوة إلى الاعتدال فى ما يرجع إلى أُمور الدنيا والآخرة، وتأمين سبل الحياة، والحفاظ على الروابط العائلية و... كلّها أُصول إسلامية مطابقة للفطرة الإنسانية. فإذا كان هذا هو الأساس لنشر الإسلام فى العالم وجذب النفوس إليه، فيجب على قادة المسلمين على الإطلاق والحنابلة وأهل الحديث بالخصوص، تجريد الدعوة عن الأُمور التى تعارض الفطرة ومن التى تناطح العقل السليم، ثمّ عرض الإسلام بشكل يتجاوب مع العقول السليمة كما كانت عليه الدعوة المحمدية آن ظهورها وبعدها، وهذه الغاية المتوخاة لا تتحقّق ـ بلا مجاملة ـ إلّابدراسة الأُصول والعقائد التى نسجت على طبق الأحاديث الموجودة فى الصحاح والمسانيد من رأس والعودة إليها من جديد حتى تصفو الدعوة من الأُمور التى يشمئز منها شعور الإنسان الحر صاحب الفطرة السليمة التى بنى عليها دين اللّه فى عامة الشرائع السماوية. هلمّ معى نلاحظ نماذج من الأُصول التى قامت عليها الدعوة الحنبلية المتسمّية فى هذه العصور بالدعوة السلفية، ثمّ نعرضها على محكّ الصحة ومقياسها «الفطرة الإنسانية»، فهل هى تتجاوب معها؟ ونحن لا نطيل الكلام بعرض عامة الأُصول بل نأخذ ـ كما قلنا ـ نماذج ونجعلها على مرأى ومسمع من القارئ. أفهل يمكن دعوة شعوب العالم إلى الإسلام مع القول بأنّ اللّه سبحانه كإنسان له من الأعضاء ما للإنسان عدا اللحية والفرج، وأنّ له عينين ناظرتين وذراعين وصدراً ونفساً ورجلاً وحقواً ونزولاً وصعوداً إلى غير ذلك ممّا ملأ كتب الحنابلة وقليلاً من كتب الأشاعرة؟ وأقصى ما عندهم أنّ له سبحانه هذه ــــــــــــــــــ

۱ . الروم:۳۰. (۳۴۱)

الأعضاء ولكن بلا كيفية، و قد عرفت حال التدرّع به وأنّه ممّا لا يسمن ولا يغنى من جوع. أفيصحّ لنا دعوة أساتذة العلوم الإنسانية والطبيعية من المخترعين والمكتشفين فى عالمنا الراهن إلى الإله الذى استقرّ على عرشه فوق السماوات ينظر منه إلى العالم كلّه الذى هو تحت قدميه، والعرش يئط تحته أطيط الرحل تحت الراكب؟! باللّه عليك إذا كانت رسالتنا فى العالم نشر ما جاء فى قول هذا

الشاعر الحنبلي: للّه وجه لا يحد بصورة * ولربنا عينان ناظرتان وله يدان كما يقول إلهنا * ويمينه جلّت عن الأيمان! فهل يتصور لنا النجاح فى ميدان الدعوة؟! أو يكون التراجع والفشل نتيجة حتمية للدعوة، وإنّنا سوف نقابل بالقول بأنّ المادية والإلحاد أولى وأرجح من الاعتقاد بهذا الإله الذى جلس على سرير كجلوس الملوك ينظر إلى ملكه بعيونه ويفعل بيده ويكتب ببنانه. أو ليس القول بالجبر وسلب الاختيار هى النتيجة الطبيعية للروايات الواردة فى الصحاح والمسانيد حول القضاء والقدر، و قد مضى حديث مسلم: «فوالذى لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه و بينها إلّاذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار...».(۱)؟! أو ليس هذا تطويحاً بالوحى كلّه وتزييفاً للنشاط الإنسانى من بدء الخلق إلى قيام الساعة وتكذيباً للّه والمرسلين قاطبة. قال سبحانه: (قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها) (۲). و قال سبحانه: (وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَفَلْيُؤْمِنْوَمَنْ شاءَفَلْيَكْفُر) .(۳) _____

۱ . راجع ص ۲۶۴ من هذا الجزء.

۲ . الأنعام:۱۰۴.

۳ . الكهف:۲۹. (۳۴۲)

وهناك أحاديث كثيرة تؤيد هذا المعنى وتعرف الإنسان بأنّه مسلوب المشيئة، وأنّه مقهور بكتاب سابق، وأنّ سعيه باطل، لأنّه لا يغير شيئاً ممّا خط عليه فى الأزل مع أنّه سبحانه يقول: (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسان إِلّاما سعى* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوفَ يُرى* ثُمَّ يُجزاهُ الجَزاءَ الأَوفى) .(۱) فهذه أحاديث واهية خلّفت تعاليم باطلة فى أوساط المسلمين يجب تجريد الدعوة الإسلامية منها، فهى تعاكس منطق الفطرة أوّلاً، والعقل السليم ثانياً، ومنطق العقلاء ثالثاً، ومنطق الشرائع عامة رابعاً، فليس لهذه الروايات أن تطيح على المحفوظ من كتاب اللّه وسنّة رسوله، أو تنافح ما اجتمع عليه عقول العالمين، ولو صحت هذه الروايات، لكانت الحياة عملاً مسرحياً، والدعوة الإلهية دعوة خادعة، والناس محكومون بما جف عليه القلم وليس لهم التخطّى عنه قدر أنملة. هذه بعض الأُصول(۲) التى تناقض الفطرة، وهى أكثر ممّا حررناه هنا، فليكن منها شعار الحنابلة وبعدهم الأشاعرة بأنّه: يجوز التكليف بما لا يستطاع ولا يطاق.(۳) يجوز تعذيب أطفال المشركين يوم القيامة.(۴) يعذب الميت ببكاء أهله عليه.(۵) ليس للعقل الحكم بحسن شىء أو قبحه، و عليه : يصحّ له سبحانه إدخال المؤمن الجحيم، والعاصى الجنّة. إنّ الإطاحة بحاكمية العقل فى مجال التحسين والتقبيح إماتة للمنطق وإحياء للخرافات، وفى الوقت نفسه ردّ لصميم الدعوة المحمدية المبنية على التدبّر _____

۱ . النجم:۳۹ـ ۴۱.

۲ . قد تعرفت على مصادر هذه الأُصول فى الفصل الخامس من هذا الجزء: ص ۱۳۸ ـ ۱۷۵.

۳ . اللمع: ۱۱۶.

۴ . اللمع: ۱۱۶.

۵ . صحيح البخارى: كتاب الجنائز، الباب ۵. (۳۴۳)

والتعقّل والاحتكام إلى العقل فى مجال الطاعة والمعصية، يقول سبحانه: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالمُجْرِمِين* ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُون) .(۱) و أُقسم باللّه صادقاً أنَّ الدعوة الإسلامية لا تكون ناجحة فى أقطار الغرب والشرق إذا كانت هذه الأُصول هى اللحمة والسدى لها. إنّ ملحمة الكنائس ومغادرة المثقفين من المسيحيّين عن دينهم هى العبرة لقادة الحنابلة ومن يقتفى أثرهم، ولم يكن للهوّة السحيقة بين أصحاب الكنائس والمثقفين سبب، سوى وجود الخرافات فى تعاليم الكنائس، فلم تزل تدعو إلى التثليث أوّلاً، وإلى التجسيم ثانياً، وصلب المسيح لأجل إنقاذ البشرية ثالثاً، وبيع أوراق المغفرة رابعاً، ونوع خاص من الجبر وسلب الاختيار خامساً، هذا وذاك صار سبباً لانسحاب الشباب والعلماء عن ساحة الكنائس والبيع واختصاص الأماكن المقدّسة بالسذج من الناس الذين لا يعرفون من العلم والحياة سوى شىء طفيف. هذه نصيحتى لقادة الحنابلة، وفى الأخير نضيف إليها كلمة وهى أنّ الحنابلة وأهل الحديث عمدوا إلى احتكار

اسم «أهل السنّة» لأنفسهم ولا يصفون سائر الطوائف الإسلامية به، حتّى إنّ ابن تيمية محيى الدعوة السلفية فى القرن الثامن لا يبيح تسمية الأشاعرة باسم أهل السنّة فضلاً عن المعتزلة والشيعة وغيرهم، ولكن فى هذا الاحتكار بل فى هذه التسمية نكتة لافتة: إنّ توصيف طائفة من المسلمين باسم أهل السنّة من العناوين الطارئة الحديثة التى ظهرت فى آخر القرن الأوّل أو فى أوّليات القرن الثانى، فإنّك لا ترى أثراً من هذا الاسم ولا التوصيف به فى زبر الأوّلين إلاّ فى رسالة عمر بن عبد العزيز فى القدر التى مرت بنصها فى ما سبق(۲)، وقد عرفت أنّ كتابة الحديث وتدوينه والتحدّث به وإفشاءه كان من الأُمور المنكرة، وهذا هو عمر بن الخطاب قال لأبى ذر و عبد اللّه بن مسعود وأبى الدرداء: ما هذا الحديث الذى تفشون عن محمّد؟(۳) وكان يقول أيضاً: جرّدوا القرآن وأقلّوا الرواية عن

---

۱ . القلم:۳۵و ۳۶.

۲ . قد مرّت الرسالة فى ص ۲۹۲ من هذا الجزء.

۳ . كنز العمّال: ۱۰/۲۹۳، الحديث ۲۹۴۷۹. (۳۴۴)

رسول اللّه وامضوا وأنا شريككم.(۱) وقد خلّف هذا المنع فى نفوس المسلمين أثراً خاصاً فعاد التحدّث وكتابة الحديث وتدوينه أمراً منكراً لديهم وتركه أمراً مرغوباً فيه، حتّى إنّه بعد ما أصدر الخليفة عمر بن عبد العزيز الأمر الأكيد بضرورة تدوين الحديث، كانت رواسب الحظر تحول دون القيام بما أمر به الخليفة فلم يكتب شىء من أحاديث النبى إلاّ صحائف غير منظمة ولا مرتبة إلى أن جاء عصر أبى جعفر المنصور فقام المحدثون بتدوينه سنة مائة وثلاثة وأربعين. فإذا كان التحدّث بسنّة الرسول أمراً منكراً فى القرن الأوّل وأوّليات القرن الثانى، فكيف يحتمل أن يعرف أُناس ينكرون نقل الحديث وإفشاءه باسم «أهل السنّة» وعلى ذلك فلا نحتمل وجود هذه التسمية فى تلك العصور، و إنّما حدثت تسمية أهل الحديث وتوصيفهم بأهل السنّة بعدما شاع التحدّث به وقام ثلة جليلة من المسلمين بجبر ما انكسر. فعلى ضوء ذلك، لا يصحّ احتكار هذا اللقب وتسمية طائفة خاصة به، بل كلّ من يحترم حديث رسول اللّه وسنّته ويعمل بها فهو من أهل السنّة فالمسلمون سنّيهم وشيعيّهم، أشعريّهم ومعتزليّهم، من غير استثناء طائفة واحدة كلّهم أهل السنّة، أى مقتفون سنّة رسول اللّه وأثره من قوله وفعله وتقريره. والشيعة أولى بهذا الوصف من غيرهم، فإنّهم لم يزالوا يحترمون سنّة رسول اللّه منذ حياته إلى يومنا هذا، فقد قام الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ بتدوين أحاديثه كما قامت ثلّة جليلة من خيار صحابة الإمام بتدوين الحديث إلى أن وصلت حلقات التأليف من عصر الإمام إلى عصر الأئمّة الاثنى عشر وبعدهم إلى أعصارنا هذه، فدوّنوا سنّة رسول اللّه المروية عن طرق أهل البيت و أئمّتهم وما صحّ لديهم من طرق غيرهم. أفهل يصحّ بعد هذا احتكار الحنابلة لهذا اللقب وعدم السماح بإطلاقه على غيرهم والتقوّل بـ: نحن السنّيون؟! _____

۱ . طبقات ابن سعد:۶/۷ ;والمستدرك:۱/۱۰۲. (۳۴۵) موقف تاريخى لشيخ الأزهر من عقائد الحنابلة

إذا كبر على أعلام الحنابلة ما قدّمت إليهم من النصيحة الخالصة، فعليهم ـ على الأقل ـ الأخذ بما قاله الشيخ «سليم البشرى» شيخ الجامع الأزهر الأسبق، فقد رفع إليه الشيخ «أحمد» شيخ معهد بلصفورة سؤالاً ما هذا حاصله: ما قولكم دام فضلكم فى رجل من أهل العلم هنا تظاهر باعتقاد جهة فوقية للّه سبحانه وتعالى، ويدّعى أنّ ذلك مذهب السلف وتبعه على ذلك البعض القليل من الناس، وجمهور أهل العلم ينكرون عليه، والسبب فى تظاهره بهذا المعتقد ـ كما عرض على هو بنفسه ذلك ـ عثوره على كتاب لبعض علماء الهند نقل فيه صاحبه كلاماً كثيراً عن ابن تيمية فى إثبات الجهة للبارى سبحانه، وليكن معلوماً أنّه يعتقد الفوقية الذاتية له جلّ ذكره، يعنى أنّ ذاته فوق العرش بمعنى ما قابل التحت مع التنزيه، ويخطِّئ أبا البركات الدردير، فى قوله فى خريدته: منزّه عن الحلول والجهة * والاتصال والانفصال و السفة يخطّئه فى موضعين من البيت: قوله: «والجهة» وقوله: «والانفصال»، و يخطِّئ الشيخ «اللقانى» فى قوله: ويستحيل ضد ذى الصفات * فى حقّه كالكون فى الجهات وبالجملة فهو مخطِّئ لكلّ من يقول بنفى الجهة مهما كان قدره ـ إلى أن قال ـ: إنّ قول فضيلتكم لا ـ سيما فى مثل هذا الأمر هو الفصل. فوافاه الجواب بالنحو التالى: إلى حضرت الفاضل العلاّمة

الشيخ أحمد على بدر خادم العلم الشريف ببلصفورة: قد أرسلتم بتاريخ ۲۲محرم سنة ۱۳۲۵ هـ مكتوباً مصحوباً بسؤال عن حكم من يعتقد ثبوت الجهة له تعالى، فحررنا لكم الجواب الآتى وفيه الكفاية (۳۴۶)

لمن اتّبع الحقّ وأنصف، جزاكم اللّه عن المسلمين خيراً: اعلم أيّدك اللّه بتوفيقه وسلك بنا وبك سواء طريقه، أنّ مذهب الفرقة الناجية وما عليه أجمع السنّيون: أنّ اللّه تعالى منزّه عن مشابهة الحوادث، مخالف لها فى جميع سمات الحدوث، ومن ذلك تنزّهه عن الجهة والمكان، كما دلّت على ذلك البراهين القطعية، فإنّ كونه فى جهة يستلزم قدم الجهة أو المكان وهما من العالم، وهو ما سوى اللّه تعالى، و قد قام البرهان القاطع على حدوث كلّ ما سوى اللّه تعالى بإجماع من أثبت الجهة و من نفاها، ولأنّ المتمكن يستحيل وجود ذاته بدون المكان مع أنّ المكان يمكن وجوده بدون المتمكن لجواز الخلاء، فيلزم إمكان الواجب ووجوب الممكن وكلاهما باطل، ولأنّه لو تحيز لكان جوهراً لاستحالة كونه عرضاً، ولو كان جوهراً فإمّا أن ينقسم وإمّا أن لا ينقسم، وكلاهما باطل، فإنّ غير المنقسم هو الجزء الذى لا يتجزأ وهو أحقر الأشياء، تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً. والمنقسم جسم وهو مركّب والتركيب ينافى الوجوب الذاتى، فيكون المركّب ممكناً يحتاج إلى علّة مؤثرة، وقد ثبت بالبرهان أنّه تعالى واجب الوجود لذاته، غنى عن كلّ ما سواه، مفتقر إليه كلّ ما عداه، سبحانه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير.... هذا وقد خذل اللّه أقواماً أغواهم الشيطان وأزلّهم، اتّبعوا أهواءهم وتمسّكوا بما لا يجدى فاعتقدوا ثبوت الجهة، تعالى اللّه عن ذلك علوّاً كبيراً، واتّفقوا على أنّها جهة فوق، إلّا أنّهم افترقوا، فمنهم من اعتقد أنّه جسم مماس للسطح الأعلى من العرش، وبه قال الكرامية واليهود، وهؤلاء لا نزاع فى كفرهم ;ومنهم من أثبت الجهة مع التنزيه، وأنّ كونه فيها ليس ككون الأجسام، وهؤلاء ضلّال فسّاق فى عقيدتهم، وإطلاقهم على اللّه ما لم يأذن به الشارع، ولا مرية أنّ فاسق العقيدة أقبح وأشنع من فاسق الجارحة بكثير سيما من كان داعية أو مقتدى به. وممّن نسب إليه القول بالجهة من المتأخرين، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى الحنبلى الدمشقى من علماء القرن الثامن، فى ضمن أُمور نسبت إليه خالف الإجماع فيها عملاً برأيه، وشنّع عليه معاصروه، بل (۳۴۷)

البعض منهم كفروه، ولقى من الذل والهوان ما لقى، وقد انتدب بعض تلامذته للذب عنه وتبرئته ممّا نسب إليه وساق له عبارات أوضح معناها، وأبان غلط الناس فى فهم مراده، واستشهد بعبارات له أُخرى صريحة فى دفع التهمة عنه، وأنّه لم يخرج عمّا عليه الإجماع، وذلك هو المظنون بالرجل لجلال قدره ورسوخ قدمه. وما تمسك به المخالفون القائلون بالجهة أُمور واهية وهمية، لا تصلح أدلّة عقلية ولا نقلية، قد أبطلها العلماء بما لا مزيد عليه، وما تمسكوا به ظواهر آيات وأحاديث موهمة كقوله تعالى: (الرّحمنُ عَلى الْعَرشِ اسْتَوى)(۱) وقوله: (إِليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَيِّب) (۲) وقوله: (تَعْرُجُ المَلائِكَةُ والرُّوحُ إليهِ)(۳)وقوله:(أأَمِنتُمْ مَنْ فِى السَّماءِ أن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض)(۴) وقوله: (وَهُوَ القاهِرُ فوقَ عِبادِهِ)(۵) وكحديث إنّه تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كلّ ليلة، وفى رواية: فى كلّ ليلة جمعة، فيقول هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ وكقوله للجارية الخرساء: أين اللّه؟ فأشارت إلى السماء، حيث سأل بأين التى للمكان ولم ينكر عليها الإشارة إلى السماء، بل قال إنّها مؤمنة. ومثل هذه يجاب عنها بأنّها ظواهر ظنية لا تعارض الأدلّة القطعية اليقينيّة الدالّة على انتفاء المكان والجهة، فيجب تأويلها وحملها على محامل صحيحة لا تأباها الدلائل والنصوص الشرعية، إمّا تأويلاً إجمالياً بلا تعيين للمراد منها كما هو مذهب السلف، وإمّا تأويلاً تفصيلياً بتعيين محاملها وما يراد منها كما هو رأى الخلف، كقولهم: «إنّ الاستواء بمعنى الاستيلاء» كما فى قول القائل: قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق وصعود الكلم الطيب إليه قبوله إياه ورضاه به، لأنّ الكلم عرض يستحيل صعوده وقوله: «من فى السماء» أى أمره وسلطانه أو ملك من ملائكته موكل بالعذاب، وعروج الملائكة والروح إليه صعودهم إلى مكان يتقرب إليه فيه. وقوله:(فوق عباده) أى بالقدرة والغلبة، فإنّ كلّ من قهر غيره وغلبه فهو فوقه أى عال عليه بالقهر والغلبة، كما يقال: أمر فلان فوق أمر فلان، أى إنّه أقدر منه وأغلب. ونزوله إلى السماء محمول على لطفه ورحمته ــــــــــــــــــــ

۱ . طه:۵.

۲ . فاطر: ۱۰.

۳ . المعارج : ۴.

۴ . الملك: ۱۶.

۵ . الأنعام: ۱۸. (۳۴۸)

وعدم المعاملة بما يستدعيه علو رتبته وعظم شأنه على سبيل التمثيل، وخصّ الليل لأنّه مظنّة الخلوة والخضوع وحضور القلب. وسؤاله للجارية «بأين» استكشاف لما يظن بها اعتقاده من أينية المعبود كما يعتقده الوثنيون، فلمّا أشارت إلى السماء، فهم أنّها أرادت خالق السماء فاستبان أنّها ليس وثنية، وحكم بإيمانها. وقد بسط العلماء فى مطوّلاتهم تأويل كلّ ما ورد من أمثال ذلك، عملاً بالقطعى وحملاً للظنّى عليه، فجزاهم اللّه عن الدين وأهله خير الجزاء. ومن العجيب أن يدع مسلم قول جماعة المسلمين وأئمّتهم ويتمشدق بترّهات المبتدعين وضلالتهم. أما سمع قول اللّه تعالى (و[من] يَتَّبِع غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّه ما تَوَلّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وساءَتْ مَصِيراً)(۱) فليتب إلى اللّه تعالى من تلطخ بشىء من هذه القاذورات ولا يتبع خطوات الشيطان فإنّه يأمر بالفحشاء والمنكر، ولا يحملنه العناد على التمادى والإصرار عليه، فإنّ الرجوع إلى الصواب عين الصواب والتمادى على الباطل يفضى إلى أشدّ العذاب(مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِل فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرشِداً) .(۲) نسأل اللّه تعالى أن يهدينا جميعاً سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلّى اللّه تعالى وسلم على سيّدنا محمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أملاه الفقير إليه سبحانه «سليم البشرى» خادم العلم والسادة المالكية بالأزهر عفا عنه آمين آمين.(۳) هذه هى قصة أهل الحديث والدعوة السلفية بأدوارها المختلفة. _____

۱ . النساء: ۱۱۵.

۲ . الكهف: ۱۷.

۳ . الفرقان للعلاّمة القضاعى المصرى: ۷۲ـ ۷۶، و قد طبع مع كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقى، وتوفى المجيب عام ۱۳۳۵هـ وهو الذى قد جرت بينه و بين السيد شرف الدين مكاتبات طبعت باسم «المراجعات». (۳۴۹) (قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللّهِ عَلى بَصِيرةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى وَسُبْحانَ اللّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكين). (۱) بلغ الكلام إلى هنا فى اليوم الثالث من شعبان المعظّم ميلاد الإمام الطاهر سيد الشهداء ـ عليه السَّلام ـ من شهور عام ۱۴۰۸هـ .ق قم المشرّفة _____

۱ . يوسف: ۱۰۸.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطَتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة)

تحتَ عنايـة سـماحة آيـة الله الحـاجّ السـيّد حسن الإمـامىّ – دامَ عِزّهُ – و مـع مساعَـدَةِ جمـعٍ من خِرّيجى الحـوزات العلميّـة و طلاـب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشـّباب و عموم النـاس إلى التّحَرّى الأـدَقّ للمسائـل الدّينيّـة، تخليف المطـالب النّافعـة – مكـانَ البَلاـتيثِ المبتذلـة أو الرّديئـة – فى المحـاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسـيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّـلام – بباعث نشـر المعارف، خـدمات للمحققين و الطّلاّب، توسـعة ثقافـة القراءة و إغناء أوقات فراغـة هُواةِ برامِـج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشـّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشـرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّـه يُمكِن تسـريعُ إبراز المَرافِق و التسـهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/"بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹